وداع فلسطين

يتحدّث عن:

أعلام عصره

الجزء الأول

دار القلم
دمشق

وداع فلسطين

يتحدث عن:

أعلام عصره

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٦٦ / ٦٥٣٦٥٥

ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

وداع فلسطين

يتحدث عن:

أعلام عصره

الجزء الأول

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

يسعد دار القلم بدمشق أن تقدّم لأبناء العربية هذا السفر النفيس للأستاذ المبدع (وديع فلسطين) الذي تحدّث فيه عن أعلام عصره حديثاً ملؤه الصدق والعفوية والوفاء والنبل.

فالأستاذ وديع يرى بعينيه وعقله وقلبه، ثم يرسل كلّ ذلك بريشة المِفَنّ المبدع الذي يمزج العقل والروح في سبيكة أدبية رائعة.

إن كتاب (وديع فلسطين يتحدّث عن أعلام عصره) يقدّم إضافة حقيقية إلى تاريخ هؤلاء الأعلام وإلى تاريخ نهضتنا الحديثة، وهو سجل شرف لهؤلاء الجنود الذين بذلوا وجاهدوا وبنوا فأعلوا البناء ونعمنا نحن بما قدموا وسعدنا بما أعطوا.

لقد عرفت هذا الرجل الكبير بأَخَرَةٍ من خلال مقالاته، وخاصة تلك المقالات الرائعة التي كان يتحف بها قراءه من خلال جريدة (الحياة) تحت عنوان (حديث مستطرد) فكنت أتابعها بحرص، وأنتظرها بفارغ الصبر، وأقرأ كل مقالة بشغف ومتعة وكنت أتمنى أن لا تنتهي.

عرفت من خلال هذه القراءات العديد من أخلاقه الحميدة وصفاته النبيلة أبرزها الوفاء والصدق والغيرة على العربية ورجالاتها. ثم اتصلت حبالي بحباله عن طريق الأخ العصامي والمؤلف الجاد الأستاذ أحمد العلاونة صاحب التآليف التي أبرزها (ذيل الأعلام).

ولما ذهبت إلى القاهرة عام (٢٠٠١) زرت الأستاذ وديع في بيته العامر وعرضت عليه نشر مقالاته (حديث مستطرد) في كتاب فوعدني أن يدرس الموضوع، ثم في زيارتي الثانية له عام (٢٠٠٢) ذكرت له أمر الكتاب فوافق مشكوراً وأعطاني أصوله المعدة للطبع، وها هو ذا الكتاب نزفّه إلى كل ناطق بالعربية راجين من الله تعالى أن يجدوا فيه العلم النافع والخبر الطريف والأدب الجمّ.

وفي دارته في جدة أقام الأديب الشيخ عبد المقصود خوجة حفل تكريم للأستاذ الأديب شيخ الصحفيين بحق (وديع فلسطين)، وقد سعدت بحضور ذلك

الحفل الذي كان حفل وفاء من رجل كبير لرجل كبير كتب صفحات كثيرة في سير وآداب وأفكار رجالات هذه الأمة ممن عاصرهم.

ولقد سمعت في ذلك الحفل كلمات من بعض من تكلموا منوّهين بالأستاذ الكبير وديع فسعدت بسماعها وإلى القارئ الكريم طرفاً منها.

يقول **الشيخ عبد المقصود خوجة** في كلمته الترحيبية بالمحتفى به:

«لقد امتزج بالصحافة منذ ستين سنةً تقريباً، نحت خلالها الصخر بأظافره، وذاق مرارة الألم وعصارة الفرح، وكافح طويلاً ليكتب اسمه بأحرف من نور في سجل التاريخ المهني ببلاط صاحبة الجلالة (الصحافة)».

وجاء في كلمة الأستاذ الأديب **راضي صدُّوق**:

«الأستاذ وديع فلسطين رجل من ذوي اللون الواحد، لم يتلوّن لا في قلمه، ولا في ضميره، ولا في قيمه، رغم تقلّب الدهر وصروفه.

عرفته رجلاً صادقاً محباً للناس، يلتزم بقيم الحق والفضيلة والجمال، وكان من أكثر الناس حرصاً على الوفاء لأولئك المنسيين المظلومين المغمورين من أدباء الحقّ والحقيقة، ممن تجاهلهم الدارسون والنقاد في بلادنا العربية».

وجاء في كلمة **الدكتور يوسف عز الدين** التي ألقيت نيابة عنه:

«وديع فلسطين ليس من الأدباء الرواد فحسب، ولا من كبار الصحفيين، إنما هو موسوعة واسعة المدى، عميقة الغور، فقد صحب قادة النهضة الحديثة، وزامل ربابنة الفكر وأساطين السياسة والنقد.

إنه من القلّة القليلة الذين لهم صلات واسعة، ومعارف في كل مكان من أرض المعمورة، واسع الأفق والحب والتراسل، يحبّه الكثير، ويعجَبُ به من عرفه وراسله وكتب إليه..

أسلوبه جميل، وبيانه عذب، تنساب فيه همسات الود، وأريج الخُلُق الرضيّ، والعلم الواسع، والتركيز المحبوب في العلوم والمعارف والآداب والصحافة».

إنني بعد هذه السطور أترك القارئ الكريم ليعرف بنفسه هذا الأديب الكبير والإنسان الوديع النبيل من خلال كتابه القيم هذا.

جدة ٥ رمضان ١٤٢٣هـ

٩/ ١٢ /٢٠٠٢م

الناشر

مقدمة

كان صديقي شاعر الأقطار العربية خليل مطران بك (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩) يقول عن نفسه: «إني كثيرٌ بإخواني، وما موسرٌ له رأسُ مالي»، وهو قول ينطبق عليّ، ممّا تشهد عليه هذه الفصول، التي أرسلتها كأحاديث مستطردة عن بعض من أعلام عصري، الذين صافوني الودّ ومنحوني من ثقتهم وتشجيعهم ما حاولتُ أن أثبته إقراراً بفضلهم وإكباراً لصنيعهم وإعظاماً لقدرهم، «وما موسرٌ له رأس مالي».

ولقد جريت في هذه الفصول، التي اخترت أن أسوقها كأحاديث مستطردة، على أن أترك القلم على سجيّته، يسجّل على الطِرس خواطري، ويصوّر مرئياته دون التزام بمذهب معين في كتابة التراجم والسير. وإنّما توخيت بهذا الأسلوب أن أشرّق وأغرّب إذا ما اقتضاني الاستطراد ذلك، ولا حرج عليّ إذا ما ألحّ عليَّ تداعي الخواطر في أن أشرد قليلاً هنا أو هناك، ما دمت أعيش بقلبي وروحي في الجوّ الأدبي والإنساني للأعلام الذين تناولتهم في هذا الكتاب.

ولو اتسع المجال، وساعفت الظروف، لما قصّرت مع كثيرين غيرهم من الذين عرفتهم، وعزّ عليّ أن أتحدث عنهم في هذا الكتاب. ومن قبيل التمثيل ـ لا الحصر ـ أعترف بتقصيري مع أصدقائي أجلّاء منهم الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، الروائي أمين يوسف غراب، والشاعر حسن كامل الصيرفي، والعالم الاقتصادي الدكتور راشد البراوي، والأديب رضوان إبراهيم، والصحفي العراقي رفائيل بطي، والشاعرة روحية القليني، والخطاط سيد إبراهيم، والروائي عادل، كامل والروائي عبد الحميد جودة السحار، والأديب كامل كيلاني، والعلامة العراقي محمود البدوي، والمؤرخ محمود الشرقاوي، والناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتي والشاعر نزار قباني، والأديب يحيى حقي، والقائمة طويلة، وشفيعي في التقصير مع هؤلاء أن البرنامج الذي ترسّمته أصلاً لكتابة هذه الأحاديث

المستطردة قد باغتته تصاريفَ مفاجئة، فرفعتُ القلم وفي النفس آهات من الحسرات.

ولعلّ القارئ يلاحظ أنني حرصت قدر الطاقة على استقصاء تواريخ الميلاد والوفاة لمعظم الشخصيات التي أدرت عليها الكلام، وهي بيانات يتعذّر في كثير من الأحوال التثبّت منها، لأن المشتغلين بالأدب والفكر يموتون في كثير من الأحايين دون أن يشعر بهم المجتمع، أو تأسى على فراقهم دائرة أوسع من نطاق الأسرة. بل إن كثيرين منهم يقتصر حظهم من الذكر والتنويه على «نعي الأسرة» يندرج في بضعة أسطر في صفحة الوفيات في جريدة الصباح.

ولست أزعم بأنني مؤرخ أدبي، أو بأنني أكاديمي محترف، ولا بأنني باحث بيلوغرافي أو أنطولوجي، ولهذا كان قُصاراي أن أرسم صورة شبه حيّة لكل علم من الأعلام الذين عرفتهم من واقع تواصلي الشخصي معهم واحتكاكي بهم، وهي صورة ذاتية تومئ إلى شيء عرفته، وقد تغفل أشياء لم أعرفها ولم يتناه خبرها إليّ.

وليس يخلو الأمر من حديث عن النفس ما دمت أتحدث عن أناس عرفتهم بشخوصهم وذواتهم في مسيرة الحياة، فالكتاب ليس كتاب تاريخ، بل هو ـ في أحسن الفروض ـ كتاب انطباعات ذاتية عن أعلام كان لكل منهم إسهام في الحياة الفكرية المعاصرة.

وفي اعتقادي، دون ادّعاء، أن القارئ سيجد في هذا الكتاب معواناً على استجلاء صورة لعصرٍ كامل من عصور الأدب والفكر، حاولتُ رسمها بمنتهى الأمانة والصدق لكي أقول لهؤلاء الذين محضوني موداتهم، وتكوّن منهم «رأس مالي» الأدبي: شكراً.

القاهرة(*) وديع فلسطين

(*) ٦ شارع الإمام علي ـ مصر الجديدة ـ القاهرة ١١٣٤١ ـ هاتف ٤١٥١٠٥١

إبراهيم عبد القادر المازني

في شهر أغسطس ولد المازني (في ١٩ أغسطس ١٨٩٠) وفي شهر أغسطس لقي وجه ربه (١٠ أغسطس ١٩٤٩) وهذه لقطات سريعة عنه بمناسبة انقضاء نصف قرن على وفاته، بعد حياة حافلة بالأعمال الأدبية شعراً ونثراً، وبالأعمال الصحفية نقداً وتعليقاً، وبالأعمال الإذاعية، وبالمحاضرات العامة.

وقد ارتأيت أن أسجل انطباعاتي عنه من واقع المشافهة والتعارف، وكذلك المتابعة الحثيثة لدوره الأدبي.

كنت وأنا طالب جامعي مفتوناً بكتاب عنوانه Representative Modern Dramas ضم النصوص الكاملة لعشرات من المسرحيات العالمية المنتقاة لمؤلفين من غرب أوربة وشرقها ومن الولايات المتحدة، مع دراسة ضافية لكل مسرحية، وترجمة كاشفة لمؤلفها. فعوّلت بعد تخرجي على ترجمة هذه المسرحيات جميعاً، ولا سيما لأن المكتبة العربية كانت وقتها فقيرة إلى ترجمات لمسرحيات إبسن، وسترندبرج، وشو، وشنتزلر، ووايلد، وماترلنك، وروستان، وجولزويرذي، وهوبتمان، وموم، وأوكيزي، وأونيل، ومن إليهم.

وها هي ذي الحرب العالمية الثانية الناشبة بلياليها المعتمة، وصفارات إنذارها المتواترة قد ألزمتني البقاء في المنزل في الأمسيات، فانفسح أمامي الوقت للاضطلاع بهذا المشروع الطموح. فبدأت بترجمة «مسرحية الأب»[١] للأديب السويدي أوجست سترندبرج، وثنّيت بترجمة مسرحية «دعوى قذف» للأديب الإنجليزي إدوارد وول، وشرعت في ترجمة مسرحية «الطريق المقفر» للأديب النمسوي آرثر شنتزلر.

---

(١) نشرت هذه المسرحية في سلسلة لجنة النشر للجامعيين عدد مايو ١٩٤٥، ولكنَّ السحار ثبط همتي المنصرفة إلى متابعة هذا المشروع بقوله: إن المسرحيات تراد للتمثيل لا للقراءة، فعدلت عن المضيّ في هذا المشروع.

وإذ كنت مشتغلاً بهذه الترجمات دون أي تفكير في احتمالات نشرها، استوقف نظري أن جريدة «الأهرام» - التي كنت أعمل فيها وقتذاك - كانت تنشر على الصفحة الأولى في اليوم الأول من كل شهر إعلاناً عن صدور كتاب جديد لمؤلف غير معروف عن لجنة للشباب اختارت لها اسم «لجنة النشر للجامعيين» وعنوانها هو مكتبة مصر بشارع الفجالة، فهي تنشر في شهر كتاباً لعبد الحميد جودة السحار، وفي آخر لنجيب محفوظ عبد العزيز، وفي ثالث لعلي أحمد باكثير. وفي رابع لعادل كامل، وهي جميعاً أسماء جديدة، يؤلِّف بينها أنهم جامعيون، وأعضاء في هذه اللجنة. فعولت على أن أستكشف بنفسي كنه هذه اللجنة، وتوجهت إلى العنوان المدرج في الإعلان، ومعي مخطوطة مسرحية «الأب»، وهناك استقبلني عبد الحميد جودة السحار الذي قدمني إلى شقيقه الأكبر سعيد جودة السحار صاحب المكتبة، ورحَّب بي كلاهما.

وتسلم عبد الحميد المخطوطة توطئة لفحصها قبل نشرها، وأخبرني أن اللجنة تضم هؤلاء الشبان على اختلاف منابتهم الجامعية، فالسحار من خريجي كلية التجارة، ومحفوظ من خريجي الفلسفة بكلية الآداب، وباكثير من خريجي قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب، وعادل كامل من خريجي كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول، ولم تكن هناك جامعات حكومية عداها. وقال: إن اللجنة ترحب بنشر آثار الأدباء الشباب إن توافر لها عنصر الجودة، ولا تهمها اعتبارات الشهرة، لأن اللجنة عمل شبابي في المقام الأول. كما قال: إن الجو الكئيب الذي خلقته الحرب، وأغلقت به جميع أبواب الترويح عن النفس قد هيأ للجنة فرصة ذهبية لذيوع كتبها التي تساعد الناس على تمضية أوقات الفراغ القاتل في الأماسي الطويلة. ثم أهداني نسخاً من الكتب التي نشرتها اللجنة، وقمت من ناحيتي بالكتابة عنها جميعاً سواء في مجلة «المقتطف» أو في مجلة «الرسالة» أو في جريدة «منبر الشرق» احتفاء مني بهؤلاء المؤلفين الجدد.

وقال لي السحار: إن أعضاء اللجنة يجتمعون في المكتبة عصر كل ثلاثاء، ورحب بأن انضم إلى جمعهم... وواظبت منذ تلك الزيارة على غشيان الاجتماع الأسبوعي للجنة، فعرفت نجيب محفوظ، وباكثير، وعادل كامل، بأشخاصهم، وعرفت كذلك أدباء آخرين كانوا يترددون على اللجنة لنشر آثارهم، وهم ينتمون إلى أجيال مختلفة مثل محمد عبد الحليم عبد الله، ومحمود البدوي، وأمين

يوسف غراب، والشيخ كامل عجلان وكذلك عرفت أدباء كباراً مثل محمود تيمور، وإبراهيم المصري، ووداد سكاكيني، وكامل كيلاني، وسيد ومحمد قطب، وإبراهيم عبد القادر المازني.

قمة شامخة في الأدب:

كان المازني وقتها قد نشر في هذه السلسلة ثلاثة كتب هي «ثلاثة رجال وامرأة» و«ع الماشي» و«إبراهيم الكاتب»، وكان يتابع نشر رواية «إبراهيم الثاني»، ولهذا كان يتردد على اللجنة لمراجعة تجارب كتابه الأخير.

وكنت أعرف للمازني في الأدب قامة شامخة، ولهذا أدهشني أن أراه يكاد ينافس هؤلاء الشباب في نشر كتبه، مع أن دور النشر الأخرى تكاد تكون رهن إشارته، وهي ملاحظة أبديتها له في حذر وتهيب، فكان رده أن اختلاطه بهؤلاء الجامعيين يجدد شبابه، فلئن رفدهم بشهرته السابقة، فقد اكتسب منهم تجارب جديدة، لأن الأدب أخذ وعطاء...

ولم يضن المازني على هؤلاء الشبان بالتشجيع، فكتب معرفاً ببعض آثارهم في جريدة «البلاغ» التي كان يعمل بها.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها المازني بشحمه ولحمه وعن قرب شديد. كنت قبل لقائه أحسبه على بسطة في الجسم، فإذا هو ضئيل البنية، ضاحك المُحَيَّا، وخط الشيبُ شعره الناحل، فإن تكلّم التمعت عيناه، له روح عالية من الفكاهة بل السخرية، فهو يسخرُ حتى من نفسِه، ولا يستنكف من أن يصف نفسه بالصعلكة. كان يظلع[1] في مشيته من آثار حادث قديم. وإذا تكلم فعن حكمة وخبرة وبأسلوب حاسم.

كان يتعامل مع الناس، حتى مع الصغار من أمثالي، باحترام، ويعيش كواحد من أبناء الطبقة المتوسطة مستخدماً وسائل المواصلات الشعبية في تنقلاته، ومقيماً في شقة متواضعة في شارع العباسية، انتقل إليها من بيت كان يجاور المقابر، ولم يكن الطربوش قد اهتز عرشه بعد، فكان يختار من الطرابيش أطولها لعلها تضيف سنتيمترات إلى قامته القصيرة، فإذا رأيته مقبلاً، حسبته

---

(١) الظلع: العرج.

الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي بِسَمْتِه وهندامه، لولا أنَّ ساق الشاعر استقامت بعد كسر. أما ساق المازني فاستعصت على العلاج.

كان واضحاً أنَّ المازني مهموم بأسباب الرزق، وهو في سبيلها يرهق نفسه بالعمل في الصحافة وبالترجمة والتأليف والإذاعة، سواء في مصر أو في البلاد العربية. وهو على عجلة من أمره دائماً، وإذا همَّ بالانصراف من مجلس أكثر من الاعتذارات، لأن وراءه ارتباطات والتزامات.

على أنه كان يوحي لمجالسه بأنه لا ينطوي إلا على نفس صافية وقلب لا يعرف إلا أجمل القيم، وحب للإنصاف حتى وإن كلَّفه ذلك الاعتراف بخطأ صدر منه كاعترافه الصادق بأنه ما قسا على الشاعر عبد الرحمن شكري إلا طلباً للشهرة، ورغبة في التسلق على كتفيه.

المازني متجمِّل بالتواضع:

قابلت المازني عدة مرات في اجتماعات هذه اللجنة، وكان دائماً حفيّاً بي، وكنت أرى فيه النقيضَ تماماً من صديقه الحميم العقاد ـ ولم أكن عرفت العقاد بعدُ ـ لأن العقاد اشتهر بأنه جبار باطش في حين كان المازني متجمِّلاً بالتواضع.

وكانت بالعقاد صفة لصيقة به هي العناد، فلا يرجع عن رأي سبق له إبداؤه، أما المازني فكان أسلسل منه قياداً، ولا حرج لديه من العدول عن رأي تحمَّس له في وقت سابق.

وكان العقاد ينشغل بالسياسة وبمعتركاتها، أما المازني فكان يزورُّ[1] عنها، وإن لم يمنعه ذلك من مصادقة بعض رجال السياسة على الصعيد الإنساني ودون تحزب، ومن معالجة القضايا الوطنية في مقالاته.

وكان يدهشني من المازني أنه يستصغر من شأن نفسه حتى في عناوين كتبه. إذ اختار لكتاب من كتبه عنوان «قبض الريح»، ولآخر عنوان «صندوق الدنيا»، ولثالث عنوان «ع الماشي» ولرابع عنوان «من النافذة» ولخامس عنوان «حصاد الهشيم».

وعندما أغراه العقاد بغشيان صالون الأديبة مي زيادة، ظل طوال الوقت

---

(١) ازوَرّ: مال وانحرف.

يتأفف من حياة الصالونات ونواميسها قائلاً: إنه رجل شعبي يتعامل مع سواد الناس ولا شأن له بالباشوات أو بذوي الألقاب.

ولا بأس من أن أنقل أخبار هذه الزيارة الأولى، ولعلّها الأخيرة، إلى صالون مي كما رواها المازنيُّ نفسه حيث قال: «أعترف أنني دخلت مستحيياً، ووقفت على الباب متردداً متهيباً لقاءها، مستحيياً أن أحشرَ نفسي بين زوارها الذين قيل لي: إنهم من كل طبقة، ومتردداً لأنني لم أعتد هذه المجالس، ولأني أعرف من نفسي شدة النفور من هذه الطبقات، التي تعد نفسها ممتازة أو عالية أو لا أدري ماذا أيضاً. على أني دخلت بسلام، فاستقبلتني هاشة باشة، شاكرة، فتعجبت، ولا أظن أنني نطقت بحرف، وقعدت حيث أومأت. ولا أذكر أنه دار بيني وبينها حديث. وكانت كلما مرت بي تلقي لي كلمة تحية، أو تكتفي بالابتسام، وأنا كالأخرس لا أنبس ببنت شفة! فما أنا من رجال الصالونات، ولست أحسن هذا الضرب من الكلام الذي يجري فيها. وعلى أني لا أعرف لماذا جئنا أو دُعينا.

واتفق في هذه اللحظة أن مرت بي الآنسة مي، فحاولت أن انهض لها، فنهتني عن ذلك، وعرفتني أنه غير لازم، فوجدت لساني وقلت لها معتذراً من جهلي: إني من عامة الشعب ولست من رواد الصالونات، فأرجو أن تتجاوزي عن أغلاطي. فقالت بابتسامة وديعة: لا تقل هذا الكلام».

دعي ذات مرة للمشاركة في مناظرة حول الأدب والعلم، واختار هو أن يدافع عن الأدب، في حين اختار فؤاد صروف أن ينتصر للعلم. ورغب المازني في أن يستوضح مناظره في موضوع ساقه عن العلم حيث قال: «دعني أسأل سؤال الجاهل»، ثم ألقى على مناظره بالسؤال. فرد عليه صروف قائلاً: «بل هذا سؤال عالم حتى وإن ادعى صاحبه الجهل». ثم شرح له ما أراد.

أفليس في هذا ما يدل على أن المازني لم يكن يعرف التشامخ، وأن ادعاءه الجهل كان آية على تواضعه المفرط. وأكاد أقول: إننا لم نعرف عن أحد من كبار مفكرينا أنه ادعى الجهل في أي موقف من المواقف باستثناء المازني.

دعته مرة نقابة الصحفيين لإلقاء محاضرة في مبناها القديم الذي كان في شارع قصر النيل مكان عمارة وهبة الآن، وحرصتُ على شهود هذه المحاضرة،

إذ كنت قد أعجبتُ بالمازني، وكتبتُ كلمة عن روايته «إبراهيم الكاتب» في مجلة «المقتطف» سول لي غروري أن أصف المازني فيها بأنه «صديقي». ولم يكد المازني يلمحني بين الحضور، وهم جمع غفير، حتى حيَّاني، وكنت أحسب أن اللقاءات العارضة معه لم ترسِّخ صورتي في ذهنه.

قلت: إنه كان مهموماً بأسباب الرزق، ولهذا كان يرحِّب بأي عرض يتلقاه من هنا أو هناك. وعندما صدرت مجلة «المختار من ريدرز دايجست» للمرة الأولى باللغة العربية في عام ١٩٤٣، رغب رئيس تحريرها فؤاد صروف ومدير تحريرها محمود محمد شاكر في إسناد مهمة ترجمة الموضوعات إلى أئمة الكتاب، وكان منهم المازني. فاقتنى المازني آلة كاتبة ـ كان العقاد يسميها بالمرقم ـ ودرَّب نفسه على الكتابة عليها، فيضع النص الأفرنجي أمامه، ويرتجل الترجمة وهو يدق على الآلة، وله من بديهته ما يغنيه عن مراجعة المعاجم.

وذات مرة أسند إليه ترجمة موضوع عنوانه My Son, Has the Disablement handicapped him?. واحتار المازني، هل يترجم العنوان «ولدي هل غلَّت العاهة يديه؟» أو يترجم إلى «ولدي، أترى العاهة عاقته؟» واختار العبارة الثانية في وقت لم تكن لفظة «الإعاقة» أو «المعوقين» مألوفة كما هي اليوم.

ولا غرو أن يقول العقاد عن براعة المازني في الترجمة: «ولست أغلو ـ ولا أحجم عن التحدي ـ إذا قلت: إنني لا أعرف فيما عرفت من ترجمات النظم والنثر أديباً واحداً يفوق المازني في الترجمة من لغة إلى لغة، ويملك هذه القدرة شعراً كما يملكها نثراً، ويجيد منها اللفظ كما يجيد منها المعنى والنسق والطلاوة».

وقد قال لي الشاعر عبد الرحمن صدقي معللاً جمال أسلوب المازني: إن المازني يحفظ كثيراً من الشعر العربي القديم، وهو بارع في الاغتراف منه في كتابته، فيلتقط المعاني الشعرية، ويفرط عقدها، ويجعلها جزءاً من أسلوبه.

ولأن المازني كان مهموماً بأسباب الرزق، فقد كان يلبي أي دعوة ترفد حياته المادية. ولهذا رحب بقبول دعوة «عجاج نويهض» عندما رأس القسم العربي للإذاعة الفلسطينية في القدس عام ١٩٤٢، وسافر إلى هناك، حيث أذاع حديثين عنوان أولهما «العرب وموقفهم من الحرب الحاضرة» وعنوان الثاني

«العرب وموقفهم من النازية والفاشستية». وقد نشرا بعد ذلك في كتاب عنوانه «حديث الإذاعة» صدر في نفس العام.

وعندما صدرت جريدة «أخبار اليوم» في عام ١٩٤٤ لتجمع في شخصيتها بين الجريدة اليومية التي تنشر آخر الأخبار الخارجية والمحلية وبين المجلة الأسبوعية التي تنشر تحقيقات واستطلاعات وما إليها، ارتأى صاحباها[١] أن يفردا الصفحة الثانية لنشر التلغرافات الخارجية مترجمة إلى اللغة العربية حتى يجد القارئ المصري فيها نفس الأخبار المندرجة في الصحف الصباحية الأخرى.

ولمّا كانت الجريدة توزع في البلاد العربية في اليوم التالي، فتفقد هذه الصفحة جدتها لوقوف القارئ العربي على هذه الأخبار العالمية في صحفه المحلية الصادرة في اليوم السابق، فقد قرر صاحبا الجريدة تحويل الصفحة الثانية في طبعة البلاد العربية إلى صفحة تعليقات على الأخبار، مع التركيز على مشكلات العالم العربي، واستعانت على أداء هذه المهمة بكتاب منهم الدكتور محمود عزمي، وإبراهيم عبد القادر المازني، فكانت هذه الصفحة تُقرأ في العالم العربي وليس في مصر.

وقد استمر المازني يكتب تعليقاته السياسية في هذه الطبعة العربية إلى آخر عمره. وليت الباحثين في تراث المازني يجمعون هذه المقالات المتناثرة ـ والمجهولة بالنسبة للقارئ المصري ـ حتى تتكامل في ذهنه صورة هذا الكاتب الكبير.

ولم يكن المازني معقداً من السفر إلى الخارج مثل صنوه[٢] العقاد؛ ولكنه لم يسافر مع ذلك إلا عدداً قليلاً من المرات تلبية لدعوات تلقاها للمشاركة في أنشطة ثقافية، وسافر إلى بولونية منتدباً من مجمع اللغة العربية بالقاهرة لتمثيله في العيد الماسي للمجمع البولوني للعلوم والآداب.

وكان المازني حسن الطوية، يفتح بابه أمام الجميع دون حذر، ولم تكن هناك وقتها جحافل من مكاتب الأمن والاستعلامات وجيوش من السكرتيرات

---

(١) مصطفى وعلي أمين.

(٢) صنو الشي: مثله.

للحيلولة دون الوصول إلى كبار الكتاب في الصحف التي يعملون فيها. وقد أغرى ذلك بعض الخبثاء باستغلاله استغلالاً غير كريم.

ويروي فتحي رضوان في كتابه «عصر ورجال» حكاية فتاة أخذت تراسل المازني مبدية إعجابها بأدبه ثم بشخصه، فاستجاب المازنيُّ لهذه المعجبة الولهانة التي لم يعرفها إلا من خلال رسائلها، ومن خلال صورة فاتنة بعثت بها إليه، زاعمة أنها صورتها.

وتتالت الرسائل ذاهبة آيبة بين الطرفين، وهي تنحو منحاً عاطفياً صاعداً، ولما أيقنت المعجبة أن المازني قد وقع في الفخ، عرضت عليه الزواج بشرط أن يطلق زوجته وأم أولاده، وهنا استيقظت في المازني حميته وغيرته، فكتب إليها رسالة أخيرة قال فيها:

لأبق منحوساً سيئ الحظ:

«وأقسم لك أن هذا الحديث (أي حديث الزواج والطلاق) وقد أثَّر في قلبي فأضعفه، وسبب له اضطراباً أرجو أن تكون عاقبته سليمة. مجرد اقتراح التطليق كان وحده كافياً لذلك... وأولادي؟ من يشرف على تربيتهم؟ أولادي؟ ألقي بهم إلى أخي يربيهم وأنا على قيد الحياة أنعم بالحب والسعادة؟ أولادي (ألقّحهم)[1] على الناس، ولا أبالي كيف ينشؤون. ولا كيف يبيتون، ولا ماذا يطعمون، ولا كيف يعاملون؟ أيكون رجلاً جديراً بأي منزلة من منازل الاحترام والكرامة من يطلب منه مثل هذا؟ وأعترف لك أن هذه الأحاديث أزعجتني جداً، ومزقت أعصابي، وأتلفت قلبي، ونبهتني إلى مستقبل أولادي. والحقيقة أنني قصرت إلى الآن في حقهم، ولكن لن أقصر بعد اليوم. سآكل عيشاً وملحاً، وأحمد الله عليهما، وأدخر لهؤلاء الأطفال المساكين، الذين ليس لهم بعد الله سواي. وكم يعيش قلبي في هذه الدنيا؟ لا يطول عمر أمثالي، لأني كالزوبعة، والزوابع قصيرة العمر. لقد صرت بعد هذا الحديث إذا داعبت أطفالي أو نظرت إليهم وهم يلعبون أحس باختناق في حلقي، وبالدمع يكاد ينحدر من عيني فأرده بجهد... أنا لست حيواناً، معذرة، أنا إنسان يحس ويدرك، ويتألم ويستعذب الألم، ما دام يسعد غيره.

---

(١) القحهم: ارميهم.

نفسي لا تهمني، إنما يهمني ألا أكون حيواناً ولا مخادعاً... ولكن هكذا الدنيا... المثقل بالهموم يحط عليه الدهر كل ما يستطيع أن يحط عليه. لا بأس، فقد تعودت أن تحط الأيام على كاهلي ما شاءت. لقد خلقني الله منحوساً سيء الحظ. فلأبق منحوساً سيء الحظ».

واكتشف المازني بعد ذلك أن حكاية المعجبة كانت مقلباً كبيراً دبره بعض الأدباء للإيقاع به، وأنها شخصية وهمية لا وجود لها، وأن رسائلها هي من تلفيقات الكاتبين، وأن ذنبه الحقيقي هو أنه أحسن الظن بالناس، ووثق بهم. ولكن هذه المداعبة السمجة كشفت عن العنصر النبيل المركب في المازني.

كنت في مكتبي بجريدة المقطم يوم ١٠ أغسطس ١٩٤٩ عندما أتاني نبأ وفاة المازني متأثراً بانتشار البولينا في الدم فلم أملك إلا أن أسكب عليه دمعة رثاء يجللها الحزن.

❁ ❁ ❁

إبراهيم المصري

إنْ صنّفتُ إبراهيم المصري بين «مظاليم الأدب» فلا إخالني أخطئ كثيراً؛ لأن هذا هو الشعور الحقيقي الذي تلبَّسه في سنوات عمره الأخيرة، وأوهمه بأنه ضيّع عمره سُدًى، وكأنّ لسان حاله يردّد مع خليل مطران:

أحسنتُ ظنّي، والليالي لَمْ توافِقْ حُسْنَ ظنّي
ورجعتُ من سوقٍ عرضتُ بضاعتي فيها بِغَبْنِ
أفكانَ ذلك ذنبَها؟ أم كان ذنبي؟ لا تَسَلْنِي

كان إبراهيم المصري يعتقد، وهو على حق، بأنه على الرغم من رياداته مجحودٌ من النقّاد، منسيٌّ في مجتمعات الأدب، تشول[1] كفّته عند تصنيف الأدباء إلى مراتب، ولا موضع له في مجلسٍ أعلى ولا حتّى في مجلس أدنى، ولا رشّحته أي جهة لجائزة من جوائز التقدير ترفع من روحه المعنوية.

وزاد من أسباب هذا الشعور عزلته التي فرضها على نفسه في بيته المتواضع في الضاحية (مصر الجديدة) حيث قَلَّ قُصَّادُه، وحاذرته الأضواء المسلطة على المنتشرين في الأرض من الأدباء والمتأدبين!

وأكثر ما كان يُشقيه أن المهمّة التي أسندت إليه في أخريات أيّامه، بعد ما بلغ من النضج الفكري ما بلغه، وبعدما استوعب من ثقافات الدنيا ما استوعب، وبعد ما حسب أنه استوى على أريكةٍ عالية في دنيا الأدب... أن تلك المهمة اقتصرت على الردّ على رسائل القرّاء والقارئات من ذوي القلوب الجريحة أو المعذّبة، فكان يقول لي كلما ألممتُ ببيته - وهو في جيرتي - ورأيته عاكفاً على هذه الرسائل يلتمس المخارج لأصحابها من المآزق العاطفية التي اختبروها: تصوّر يا أخي، لقد انتهى بي الأمر بعد أكثر من نصف قرنٍ في خدمة الأدب،

---

(١) تشول: ترتفع لخفتها.

إلى إزجاء النصائح إلى العشّاق، وتقديم المشورة إلى ضحايا كيوبيد.

فكنت أقول له مازحاً: «لا تنس يا صاحبي بأنك أنت المسؤول عن هذا المآل. ألم تؤلف كتاباً عنوانه «دروس في الحبّ والزواج» وكتاباً آخر عنوانه «مدرسة الحبّ والزواج»؟ فما دمتَ صاحباً لهذه المدرسة وملقناً لتلك الدروس، فَصُلْ وَجُلْ في ميدانٍ أنت فارسه المجليّ، فهذا هو نصيبك من «كعكة الأدب»!.

وكان المصري يقول لي في غمٍّ شديد: لقد أوشك العمر على الانقضاء، ولم أكتب بعدُ أعظم كتاب في حياتي أستحضر الآن كلّ مادّته في ذهني، وهو مزيج من السيرة الذاتية وخلاصة تحصيلي من الثقافات. ولكنّني مكرهٌ على إرجاء هذا العمل لكي أتفرّغ للرّد على الشابة التي هجرها خطيبها، أو المفتون الذي ضاعت منه حبيبته، أو الحائرة بين هذا وذاك وربّما ثالث أيضاً!

منذ ما عرفت إبراهيم المصري في الستينات وسحنته البادية لم تتغيّر إلى آخر عمره. فهو على شيء من القِصَر مع امتلاء قليل، انتشرت التجاعيد في وجهه، وتهدّمت أسنانه، وشاب شعر رأسه الأجعد، وعلت عينيه عويناتٌ غليظة ازدادت تغالطاً مع مرور الزمن، لا تفارقه السيجارة أبداً، ولمّا حذّره الطبيب من عواقب التدخين، صار يقسّم السيجارة نصفين، يدّخن النصف الأوّل، ثم يُتبعه بالنصف الآخر! واضطر في أخريات أيامه إلى الاستعانة بمن يُملي عليه، بعدما ضعف بصره وكلّت يمناه.

كنتُ أعرّج على المصري على فتراتٍ تتباعد وتتقارب حسب ظروف كلينا، وذات يوم هاتفني قائلاً: لقد افتقدتك طويلاً، وفي هذه الأثناء توجهت إلى المستشفى وأجريت جراحة في المعيّ لاستئصال زوائد سرطانية. فهرعت إلى زيارته حيث أخبرني بأن الأطباء طمأنوه إلى اجتثات جذور المرض، وإنْ كان ما زال يبلو آلاماً شديدة يستعين على دفعها بالمسكنّات. وبعد يومين اثنين من هذه الزيارة الأخيرة، قرأت في الصحف نعيه، وتشييع جنازته في نطاق الأسرة، وانطوت بذلك صفحة إبراهيم المصري في الثالث عشر من تشرين الأول/اكتوبر ١٩٧٩.

ولد إبراهيم المصري في مطلع هذا القرن (عام ١٩٠٠) في القاهرة، وهو ينتمي إلى أسرة حداد التي نزحت إلى مصر من دير القمر في لبنان. وظلّ يُعرف

باسمه الأصلي «إبراهيم حداد» طوال مدة دراسته في مدرسة الخرنفش (والخرنفش حي من الأحياء القديمة في مصر). وكانت هذه المدرسة تُعنى بوجهٍ خاص بتدريس اللغة الإفرنسية والحسابات، فيكتفي خريجوها بهذا القدر من التعليم، ولا يجدون مشقّة في الالتحاق بالبنوك والمؤسسات التجارية. وأقول بين عُضادتيْن: إنني عندما عملتُ في إدارة جريدة الأهرام بين عام ١٩٤٢ و١٩٤٥، كانت غالبية الموظفين في جميع أقسام الإدارة من خريجي مدرسة الخرنفش.

وبهذا المؤهل «الخرنفشي» عمل إبراهيم حداد في البنك العقاري المصري فترة موجزة لم تزد على ثلاث سنين، استحال عليه في أثنائها أن يُشبع هوايته في المطالعة النهمة في الآداب الإفرنسية، وفي متابعة الأنشطة الفنية في المسارح، وأن يوفق بين ذلك وبين الانتظام في عمله المصرفي، فكان بحسب المقاييس الوظيفية «موظفاً مهملاً» يستحق الاستغناء عنه.

ويسوقنا هذا الحديث المستطرد إلى «حدّادين» آخرين في الوطن والمهجر، ولكنّهم مبتوتو الصلة بصاحبنا الحدّاد/المصري. فهناك ندرة حدّاد (١٨٨١ ـ ١٩٥٠) وهو شاعر مهجري من حمص، عرف بديوانه «أوراق الخريف». وهناك شقيقه عبد المسيح حدّاد (١٨٩٠ ـ ١٩٦٣) صاحب جريدة «السائح» النيويوركية الذي صدرت له أقاصيص بعنوان «حكايات المهجر» فضلاً عن كتاب «انطباعات مغترب» وهو حصيلة زيارته إلى الوطن في الخمسينات. وهناك نجيب سليمان الحداد (١٨٦٧ ـ ١٨٩٩) وهو من مواليد بيروت وعمل محرراً في جريدة «الأهرام» في الإسكندرية قبل أن تنتقل إلى القاهرة، وله دواوين ومترجمات كثيرة. وهناك الأديب العالم نقولا الحداد ـ واسمه الكامل نقولا إلياس الحداد ـ (١٨٧٢ ـ ١٩٥٤) الذي عُرف بإصداره أول كتاب باللغة العربية عن نظرية أينشتين بعنوان «هندسة الكون بحسب ناموس النسبية» وله كتب علمية واجتماعية وروايات كثيرة، وهناك الطاهر الحداد، (١٨٩٩ ـ ١٩٣٨) وهو أديب ومفكّر وشاعر تونسي سبق زمانه بكثير من آرائه.

أما «المصريون» ـ وهؤلاء بدورهم لا ينتمون إلى إبراهيم المصري بصلة قُربى ـ فمنهم حسين شفيق المصري محرّر مجلة «الاثنين» الذي عُرف بشعره الحلمنتيشي يعارض به معّلقات العرب، وهناك أستاذنا الدكتور حسين مجيب المصري أستاذ الآداب الفارسية والتركية بالجامعات المصرية، أطال الله بقاءه.

وقد استصوب إبراهيم الحداد أن يغيّر اسمه إلى إبراهيم المصري - فتسنّى له بذلك أن ينخرط في الحياة الفنية والصحفية مؤلّفاً للروايات ومترجماً للمسرحيات، وعاملاً في تحرير صحف مثل جريدة «البلاغ» لصاحبها عبد القادر حمزة باشا وفي غيرها.

ولم يلبث أن اتّصل بالفرق التمثيلية والمسرحية بجورج أبيض وروز اليوسف وسواهما وهي فرق كانت تطوف بالبلدان العربية لعرض أعمالها، فكانت تستصحب إبراهيم المصري معها باعتباره مؤلفاً أو مترجماً لمسرحياتها.

وجرّب إبراهيم المصري حظّه في الصحافة، فأصدر مجلة «الأسبوع» بالاشتراك مع إدوار عبده مسعد، كما أصدر مجلة «الأدب الحي» ومجلة «التمثيل» ولكن هذه المجلات كانت مُقتضبة العمر. وعندما توفي صاحب مجلة «الهلال» ومحرّرها جرجي زيدان في عام ١٩١٤، انصرف أكبر ولديْه إميل زيدان إلى تحرير المجلة بنفسه. فلمّا قرّر في عام ١٩٢٤ التوسّع في أنشطة الدار بإصدار مجلة «المصوّر» استعان بمحرّرين من الخارج للإشراف على مجلة «الهلال» دون أن يُشار إليهم بأنهم رؤساء للتحرير، فتولّى سلامة موسى تحرير المجلّة حتى إذا ما اختلف مع إميل زيدان، أسند تحرير المجلة إلى إبراهيم المصري، الذي طبع المجلة بطابعه الخاص، وحرّر بعض أعدادها بمفرده.

وبعد حوالي ثلاث سنين من العمل الشاق، أصيب بانهيار عصبي مدمّر انعكس على كل حياته، فهجر سُكنى المدينة إلى قرية في الضواحي تدعى «عزبة النخل» بعدما تخلّص من كل أمتعته وكتبه وعاش في هذه القرية على العقاقير المنوّمة منقطعاً عن الدنيا تماماً، فلا يخالط الناس، ولا يطالع الكتب أو الصحف، ولا يزور ولا يُزار، ولا يكاد يفيق حتى يعود إلى المنّومات. أربع سنين أو نحوها قضاها إبراهيم المصري في ما يشبه البرزخ بين الحياة والموت، إلى أن استعاد عافيته، وإنْ ظلَّ يتعاطى هذه الأقراص إلى آخر عمره كلّما أحسّ بدوار خشية أن تعاوده حالة الانهيار العصبي والاكتئاب التي كان يفزع منها أشدّ الفزع.

عمل بعد ذلك فترة في «دار الهلال» ثم انتقل إلى «أخبار اليوم» وبقي فيها إلى أن لقي وجه ربّه.

ولئن عالج إبراهيم المصري فنوناً أدبيةً شتّى، فقد كان تخصصه الطاغي هو «الأقصوصة» إذ أصدر مجموعات كثيرة منها «خريف امرأة» و«صراع مع الماضي» و«وثبة الإسلام» و«صراع الروح والجسد» و«الوجوه والقناع» و«قلب عذراء» و«قلوب الناس» و«كأس الحياة» و«نفوس عارية» كما أصدر دراسات أدبية منها «الأدب الحديث» و«أضواء على الأدب والحياة» و«عشرة من الخالدين» و«خالدون في الوطن» و«الفكر والعالم». ولم يكتف بذلك، بل حاول استصفاء آرائه ورؤاه وتنظير فلسفته الخاصة في الحياة، فأصدر كتاباً عنوانه «خبز الأقوياء»، قال في تقديمه:

«إلى كل مَنْ لا يقنع بالمتوسّط الشائع المألوف من الآمال والرغبات، بل يتطلّع في لهفة الجائع إلى حياة خصبة عُليا، أقدّم هذا الخبز المُنتقى، خبز التجربة والألم، خبز الطامحين الباذلين الأقوياء».

والكتاب يمثّل إضمامة من القيم في مناحي الحياة المختلفة: قيم الأخلاق والمال والإرادة والحبّ والثقافة والأدب والفن والوطنية والدين.

وكان إبراهيم المصري يتعزّى كلّما صدر له كتاب جديد بمطالعة أخبار متناثرة في الصحف عن عكوف المستشرق الألماني فلان على ترجمة كتابه، وعن انصراف المستشرق الإيطالي علّان على نقل الكتاب إلى اللغة الإيطالية، وعن تفرّغ المستشرق الإسباني فلان لترجمته. ويبدو أنها أخبار كان «يؤلّفها» بعض أصدقائه ابتغاء رفع روحه المعنوية، لأن شيئاً من هذه المترجمات لم يصدر.

وكُتُبُ إبراهيم المصري صارت عسيرة المنال؛ لأنه اختار نشرها في السلاسل الشعبية التي تكاد تُعامَل معاملة الصحف، فتعرض مع الباعة أسبوعاً أو نحوه تستحيل بعده إلى متروكات في المخازن، حتّى إذا ضاقت المستودعات بهذه المتروكات تمّ التخلص منها باعتبارها «دَشْتاً». ولأن إبراهيم المصري لم يخّلف ورثةً من بعده، إذْ توفيت زوجته ـ وهي فلسطينية إيطالية ـ قبله بفترةٍ قصيرة، وكانت تلزم الفراش معظم الوقت بسبب علّةٍ في القلب، ولم تُنجب، فلم يعد هناك مَنْ يحفل بتراثه، اللّهم إلّا إنْ قُيِّض له «مزوّرون» يُعيدون نشر كتبه وإتاحتها للقراء على الصعيد العربي.

ومن أسفٍ أن يصبح «المزورّون» هم الأصل شبه الوحيد لإحياء تراث إبراهيم المصري وغيره من الذين اندرست آثارهم أو كادت مثل حبيب جاماتي،

وعلي أحمد باكثير، وطاهر الطناحي، وأحمد زكي أبي شادي، وأمير بقطر، وفؤاد صرّوف، وإبراهيم عبد القادر المازني، ومحمد عبد الغني حسن، وصالح جودت، ومحمود البدوي ومَنْ إليهم.

وينتمي إبراهيم المصري في جميع كتاباته إلى المذهب الوجداني الرومانسي، ولا تكاد تخلو أقصوصة من أقاصيصه من موقف عاطفي بين البطل والبطلة. ولهذا تكرّرت في عناوين كتبه عبارات «الحب» و«القلوب». ويسعفنا كتابه «خبز الأقوياء» بفلسفة إبراهيم المصري في الحبّ، حيث يقول:

«يلوح لي أن الأصل في الحبّ شعور دينيّ متأصّل في النفس البشرية، شعور يدفع بالفرد إلى التسامي بشهوته، والتفوّق على فطرته، والاندماج في شخصٍ آخر اندماجاً أساسه الأنانية وإنكار الذات معاً، التملّك والتضحية معاً... فالحب العاطفي الروحي هو الذي يرتفع بالإنسان، وهو لن يموت إلّا إذا مات الشعور الديني في القلب والوجدان...».

وإبراهيم المصري ينتمي زمنياً إلى جيل محمد ومحمود تيمور، وشحاتة وعيسى عبيد، وطاهر لاشين، ويحيى حقّي، ومحمود كامل، وأحمد الصاوي محمد، وهو بالتالي يسبق جيل نجيب محفوظ، ويوسف جوهر، ومحمد عبد الحليم عبدالله، وعبد الحميد جودة السّحار، ويوسف إدريس، وإحسان عبد القدوس، وأمين يوسف غراب، ومحمود البدوي، ويوسف الشاروني، ويوسف السباعي، وهو الجيل الذي سُلِّطت عليه الأنوار أكثر من سواه، فحجب الجيل الذي تقدّمه، واستأثر بالقدْر الأكبر من الالتفات، ربّما لأن فنون التعبير المرئي الوافدة من سينما وتليفزيون أخرجت الفن الروائي من بطون الكتب ـ ولا يطبع من أرْوجها أكثر من بضعة آلاف ـ إلى شاشات العرض الجماهيرية الواسعة التي يقاس جمهورها بالملايين. فلا محمود تيمور، ولا إبراهيم المصري ـ وهما من أبرز أبناء هذا الجيل ـ عرف الطريق إلى الشاشات المرئية، وهو طريق سلكه بعد ذلك كثيرون دون أن يعرّجوا على المطابع باعتبار الكتاب هو الوعاء الأصلي للأثر الأدبي، فما حاجتهم إلى المطابع وهم ينفذون إلى السينما والتليفزيون مباشرة.

ولا بأس أن أذكر في هذا المقام أن جهاز التليفزيون لم يدخل بيت إبراهيم

المصري، ولا عُني هو بمتابعة برامجه حتّى ما ينشر عنها في الصحف، ربّما استخفافاً منه بأسباب التسلية الطاغية على هذه البرامج، بل إن القوامين على البرامج الثقافية التليفزيونية لم يحاولوا إشراك إبراهيم المصري في أيٍّ من برامجهم، فلم يظهر بشخصه على الشاشة أبداً.

وقد عَنَّ لي أن أنقّب عن كتاباتٍ قديمةٍ لإبراهيم المصري لأرى كيف كان ينظر إلى مشكلات الحياة في فترات باكرة من حياته، فعثرت على مقال له عنوانه «وحي الطفولة» نُشر أصلاً في مجلة «المصوّر» ثم أعيد نشره في كتاب «مختارات دار الهلال» الصادر عام ١٩٤٦ وفيه يقول عن الطفولة التي لم يعرفها في حياته لأنه لم يُنجب:

«الطفل هو الحياة لم يمسخها العقلُ ولم تشوّه معالمها فروضُ المجتمع. هو العاطفة المطلقة، والطبيعة الحرة، والوجه البشريّ البريء... إن الحياة بأسرها تتمّثل في وجوه الأطفال، ووجه الطفل لا يلبث أن يعكس معنًى من المعاني أو عاطفةً من العواطف، حتّى ليتبدّى كالحياة نفسها، إذْ سرعان ما تختلط فيه شتّى الألوان والعواطف فيصبح صورةً مصغّرةً للحياة... وليس من شك في أن أنظار الشعراء والأدباء والمصلحين جميعاً تتجّه على الدوام صوب الطفولة. فالشاعر الفذّ ينشد العودة إلى الفطرة، والفطرة هي الطفولة. والأديب الفذّ يلتمس البساطة، والبساطة هي الطفولة. والمصلح الفذّ يبغي الخير والسلام، ولا خير ولا سلام إلّا في قوّةٍ مستمدّةٍ من صفاء الطفولة.

فالطفولة إذن هي البقية الباقية من أمل الإنسان في حياةٍ أفضل وأسمى من هذه الحياة. فإلى الطفولة يجب أن نفزع، ومن روح الطفولة المتزنة بالعقل الحازم الراجح يجب أن نستخلص ثقافتنا وطابع أخلاقنا ومثلنا العليا، وإلّا غدرت بنا رجولتنا، وانقلب العقل علينا وبالاً».

ولئن انضوى نجيب محفوظ في فجر حياته الأدبية تحت لواء «لجنة النشر للجامعيين» التي أنشأها عبد الحميد جودة السحّار في عام ١٩٤٣ وضمّت إلى جانبهما علي أحمد باكثير وعادل كامل وعدداً آخر من شباب الأدباء، فقد انتسب إبراهيم المصري في باكورة عمره إلى جماعة أطلقت على نفسها اسم «المدرسة الحديثة» وكانت تضم عدداً من هواة الأدب مثل محمد رشيد ـ وهو من أصهار آل

تيمور ـ ومحمد تيمور، والدكتور حسين فوزي (الذي يعرف بالسندباد) وأحمد خيري سعيد، وحسن محمود، ومحمود طاهر لاشين، وإبراهيم المصري.

وكانت هذه المدرسة تنشر آثارها الأدبية في جريدة «السفور» لصاحبها عبد الحميد حمدي. ولكنها لم تلبث أن تفرّقت، فصارت تنشر آثارها في مجلات مثل «المفيد» و«المشكاة» و«الرجاء» و«التمثيل».

ويقول يحيى حقي وهو يؤرخ لفجر القصة المصرية، وعنه أستقي هذه المادة: إن أبناء هذه المدرسة الحديثة توزّعوا «ولكن الذي سار في الشوط إلى اليوم رغم فترة انقطاع ضئيلة (يقصد انقطاعه بسبب الانهيار العصبي) هو الأستاذ إبراهيم المصري بانتاجه الغزير، وقد انعكست في قصصه مذاهب أدبية كثيرة، ثم أصبح اليوم يميل أحياناً إلى التشاؤم. وإن كنت لا أزال أؤمن أنه ـ لثقتي في قدرته النامية على التجدّد والتطوّر ـ سيتحوّل إلى أدب نجد فيه أملاً وفهماً وغفراناً... إن إبراهيم المصري يحتاج لفصل مستقلّ، إنه أنموذج فذّ للعمل الدائب المتصّل من أجل أداء رسالته».

ولئن نعى يحيى حقي على مؤرخي الأدب الحديث إهمالهم التطرّق إلى هذه المدرسة «مع أنها هي التي نشرت (يقصد جريدة «السفور») أوائل انتاج هيكل وطه حسين وأحمد ضيف ومنصور فهمي والشيخ مصطفى عبد الرزاق وأخيه علي عبد الرزاق»، فإن الفصل الذي وعد يحيى حقي بكتابته عن إبراهيم المصري بقي غير مسطور.

وهذا الذي نعاه يحيى حقي على مؤرخي الأدب يصدق حتّى اليوم، فلم يصدر عن إبراهيم المصري أي بحثٍ ذي شأن باستثناء كتيب لفوزي سليمان، هو أقرب إلى رؤوس الموضوعات منه إلى الدراسة الشاملة لأدب إبراهيم المصري.

وكنت أحسب أنَّ وفاته تستنفر أقلام الباحثين للكتابة عنه وتوفيته بعض حقّه، ولكنّني راجعت أعداد مجلة «الهلال» التي عمل فيها سنواتٍ مذكورة، وراجعت أعداد مجلة «الثقافة» التي كانت المجلة الأدبية الرسمية الوحيدة في مصر، كما راجعت أعداد مجلة «الأديب» اللبنانية في الفترة المعاصرة لوفاة إبراهيم المصري، فلم أقع على أي أحاديث عنه. ولو كان صديقه الحميم نقولا يوسف (وهو الذي كان واسطة العقد بيني وبين إبراهيم المصري) لم يزل على قيد

الحياة، ولم يسبقه إلى دار الخلود بثلاث سنين (إذ توفي في عام ١٩٧٦)، فلعلّه كان ينصفه أجمل إنصاف، وهو الذي أنصف من قبل أستاذه الشاعر عبد الرحمن شكري بنشر المجموعة الكاملة لدواوينه الثمانية.

إن الفصل الذي وعد يحيى حقي بكتابته عن إبراهيم المصري ما زال ينتظر من يتصدّى لكتابته في دراسة أكاديمية شاملة تحدّد مكان هذا الرائد العظيم في حياتنا الأدبية المعاصرة.

❁ ❁ ❁

الشاعر إبراهيم ناجي

حفلت حياة الشاعر الطبيب إبراهيم ناجي بالمظالم على الرغم من أنه كان ذا روحٍ طفولية بريئة لم تفارقه طوال عمره، وهي مظالم لاحقته حتى بعد وفاته، وأساءت إليه في شعره وتراثه.

فعندما أصدر ديوانه البكر «وراء الغمام» في عام ١٩٣٤ فوجئ بحملةٍ شرسة عليه وعلى ديوانه بل على شاعريّته شنّها طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٤) وعباس محمود العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) فاستشعر ظلماً غليظاً واقعاً عليه، وقرّر هجر الشعر نهائياً، بل هجر مصر والنزوح إلى الخارج بنيّة عدم العودة. ولكن هجرته لم تطل، لأنه تعرّض في لندن لحادث سيّارة كسرت فيه ساقه، فاضطر إلى التعجيل بالعودة بالباخرة. وعند اقترابها من ميناء بور سعيد قال:

خَرَجْتُ مِنَ الدِّيَارِ أجرُّ هَمِّي وَعُدْتُ إلى الدِّيَارِ أَجُرُّ سَاقِي

كان الدكتور ناجي موظفاً في الدولة، مسؤولاً عن الإدارة الطبية في مصلحة سكة الحديد أولاً ثم مديراً للإدارة الطبية في وزارة الأوقاف بعد ذلك. وعندما قامت حركة الجيش في عام ١٩٥٢ أجرت حركة تطهير بين موظفي الدولة، وأعلنت في الصحف القائمة الأولى للذين تم تطهيرهم بفصلهم من وظائفهم، تصدّرتها أسماء أركان الإذاعة محمد فتحي بك، وعلي خليل بك، والشاعر صالح جودت ـ ربّما لتعاملهم مع الملك فاروق ـ وورد في القائمة اسم الدكتور إبراهيم ناجي، مع أنه لم يعمل بالسياسة في حياته ولا كانت له أية ميول حزبية أو مذهبية. ولكن حركة الضباط ـ التي باتت تعرف بعد ذلك باسم «ثورة تموز (يوليو)» ـ كانت في بداياتها تعتمد على الوشايات لافتقار رجالها إلى الخبرة بالمجتمع والناس، فأوقعت ظلماً بكثيرين ـ ولم يسلم كاتب هذه السطور من هذا الظلم. وعندما قرأ الدكتور ناجي اسمه بين موظفي الدولة الذين تم تطهيرهم، زارني في مكتبي، فهالني أن أراه ازداد نحولاً فوق نحوله، وانفجر باكياً وهو

يقول: حاولت أن أعرف سبب فصلي من وظيفتي، فقيل لي إنني «غير مُنتج»! فهل يُطلب من الطبيب أن «ينتج» مرضى ثم يقوم بعلاجهم؟ لقد كان عملي في وزارة الأوقاف ـ وقد زرته هناك مراراً ـ أن أفحص المرضى، وأصف لهم الدواء. فهل شكا موظف (ولم تكن الموظفات قد زحفن على الوزراة) من أنه قصدني فأبيت علاجه؟ لا بدّ أنَّ في الأمر وشاية، ولكن هل تُقطع الأرزاق بسبب وشاية دون التحقّق منها؟ وعندما ودعني الدكتور ناجي منصرفاً من مكتبي أيقنت أنَّه لن يعيش بعد ذلك طويلاً، فقد استولى عليه اكتئاب قاتل، وخرج يجرّ همومه وساقيه وكل جسمه الذي حطّمته هذه الضربة القاضية. ولم يحلّ شهر آذار (مارس) من العام التالي (١٩٥٣) حتى سقط ميتاً في عيادته الخاصة في اليوم الرابع والعشرين منه.

لقد تكاثفت عليه الهموم، وعاودته آلام الصدر، بسبب إصابته السابقة بذات الرئة (السل) فلم يستطع أن يصمد، ولا سيّما بعد أُغلقت أمامه جميع أبواب الشكوى من الظلم الذي نزل بساحته، فانهارت مقاومته، وانهار تماماً.

وكانت جنازة ناجي شديدة التواضع؛ لأن من عادة الناس أن ينفضّوا عن كل «مغضوب عليه»، فلم يمش فيها إلّا حفنة صغيرة من خُلَّص الأصدقاء، وإنْ كنا أفلحنا في إقامة حفل تأبين له في (جمعية الشبان المسلمين).

وكأنما أرادت الدولة أن تردّ لناجي شرفه المُهْدَر، فقررت إصدار ديوانه الكامل، وعهدت إلى شقيقه الضرير محمد ناجي، والشاعر أحمد رامي (١٨٩٢ ـ ١٩٨١) والشاعر صالح جودت (١٩١٢ ـ ١٩٧٦) والدكتور أحمد هيكل (أطال الله بقاءه) في جمع قصائد الشاعر المتناثرة وتحقيقها ودراستها وإصدارها. وعندما صدر «ديوان ناجي» عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي في عام ١٩٦١ تبيّن أنه اشتمل على قصائد للشاعريْن علي محمود طه (١٩٠٢ ـ ١٩٤٩) وكمال نشأت (أطال الله بقاءه)، فكانت فضيحةً مدويّة على الصعيد الأدبي، ولا سيّما عندما قام الشاعر كمال نشأت برفع دعوى أمام القضاء مطالباً بمصادرة الديوان المعيب، فأجابه القضاء إلى طلبه، وحكم بمصادرة الديوان. ولم يقتصر الأمر على كون هذا الديوان معيباً لتسلل قصائد غريبة إلى مَتْنه، بل كان من أبرز عيوبه أنه جاء قاصراً، وغابت عنه قصائد كثيرة على الرغم من أن صالح جودت أكّد بأنه ديوان شامل كامل جامع مانع. ومن هنا انبريتُ للبحث عن الشعر الضائع الذي لم

يلتفت إليه جامعو الديوان، فنشرت في مجلة «الأديب» اللبنانية سلسلةً من الفصول جمعتُ فيها عدداً غير قليل من شعر ناجي المبثوث في الصحف والمجلات القديمة.

ولأن المظالم وسوء الحظ لاحقة بناجي وشعره، فقد تراءى لبعض الناشرين أن يطبعوا المجموعة الكاملة لشعر ناجي، فأسقطوا من طبعتهم جميع الهوامش التي تفسّر موضوعات القصائد، ونشروا الديوان نشراً تجارياً مليئاً بالأغاليط. ففي الديوان مثلاً قصيدة عنوانها «حفلة عرس» نظمها ناجي عند شهوده حفلةً للعرس الأباظي المشهور، أقامها الوزير إبراهيم دسوقي أباظة باشا (والد ثروت أباظة) فظهرت القصيدة في الديوان المجموع تحت عنوان «حفلة عدس»! وشتّان بين العدس البقولي، والعرس بلياليه الملاح! وبقي شعر ناجي صريعَ المظالم إلى أن قام الشاعر حسن توفيق بنشر الأعمال الشعرية الكاملة له نشراً علمياً موثقاً فبدّد شيئاً من المظالم التي طالما عانى منها ناجي وشعره.

وكان ناجي كثير المخالطة لأوساط الفنانين والفنانات، وهو ما حدا بكثيرات منهن إلى الزعم بأنه كان متيّماً بهن، وبأنهن كن «البطلات» في قصيدة «الأطلال» التي ذاعت ذيوعاً واسعاً بعدما غنَّتها أم كلثوم فحققت له أمنيّته، ولكن بعد أن أصبح خبراً من الأخبار. وجاء صالح جودت ـ مؤرخ ناجي ـ فأورد أسماء عدد من الملهمات في حياة ناجي، وكلهن «زوزو»! ورأيت على شاشة التليفزيون ممثلةً من هؤلاء «الزوزوات» تعلن على الملأ بأنها هي وحدها بطلة الأطلال. وقامت ممثلة أخرى من «الزوزوات» بنشر رسائل من ناجي تؤكّد أنها هي الوحيدة التي احتلّت قلبه وخلبت لبّه.

وانتهز عباس خضر (١٩٠٨ ـ ١٩٨٧) فرصة غياب أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨) صاحب مجلة «الرسالة» في ضيعته، وأخذ يتندّر على ناجي وغرامياته، وأطلق عليه اسم «الدكتور عمر بن أبي ربيعة». ولكن ناجي، بما عُرف عنه من حبّ المرح وتقبّل الفكاهة، قابل كل هذه الاتهامات بالتجاهل التام، ولم يردّ عليها، ولا طاوعه ضميره بالإفصاح عن حقيقة مشاعره الخاصة التي استصوب كتمانها. فما ذنب ناجي إذا خرجت فنانة مريضة أو متمارضة من عيادته زاعمةً بأن ناجي لم يجرّب فيها طبّه بل جرّب فيها غَزَلَه؟ وما ذنبه إذا ما جاء «حُواةُ» النقد، وأخذوا يفصّلون كل قصيدة من قصائده على مقاس فنانة بعينها؟.

عندما أصدر ناجي ديوانه الثاني «ليالي القاهرة» في عام ١٩٥٠ صدّره بإهداءٍ نصّه «إلى صديقي ع.م. الذي نَدَّى الزهرَ الذابلَ من خمائل الماضي، وأنبت في روض الحاضر زهوراً ندية مخضلّةً بالأصل والحياة، إليه أقدم ما أوحى به إليّ».

أما قصيدة «الأطلال» التي اقتتلت الفنانات في الزعم بأنها من وحيهن، فقد قدّم لها ناجي بقوله «هذه قصة حب عاثر، التقيا وتحابّا ثم انتهت القصة بأنها هي صارت أطلال جسد، وصار هو أطلال روح. وهذه الملحمة تسجل وقائعها كما حدثت». والربط بين إهداء الديوان ومقدمة «الأطلال» يسوق الباحث إلى الاعتقاد الأكيد بأن «ع.م.» لم يكن في حقيقته صديقاً لناجي - كما زعم - بل كان صديقةً، وأن هذه الصديقة التي عرفها ناجي في صدر شبابه هي وحدها بطلة «الأطلال». يؤكّد هذا ما قالته لي الزميلة الصحافية الشاعرة أماني فريد من أنها دعت الدكتور ناجي لتناول الغداء في بيتها مع مجموعة من الأصدقاء والصديقات. واكتمل الحاضرون إلّا ناجي الذي وصل متأخراً، وكان في حالة نفسية مضطربة. ولما استوضحه الضيوف جلية الأمر، قال إنه دخل إلى محل «جروبي» لشراء علبةٍ من الشكولاته يقدّمها إلى المضيفة، فتقدمت منه سيدة وسألته: ألست الدكتور ناجي؟ فقال: نعم. فسألته. ألا تعرفني؟ فأجابها بالنفي. وعندها ذكرت اسمها، استيقظ كل الماضي الذي ربط ناجي بهذه الجارة القديمة، واعتذر لها عن غفلته، ولم يقل لها إن الشيب الذي غزا شعرها، والعينين اللتين ذبلتا، والأسنان التي تهشمت قد غيرت من ملامحها. وعوضاً عن أن يتناول ناجي غداءه في بيت المضيفة، تناول قلمَاً ومضى يسجل قصيدة «الأطلال»، ومطلعها:

يـا فـؤادي رَحِـمَ الله الـهَـوَى كـانَ صَـرْحـاً مِـنْ خـيـالٍ فَـهَـوَى

وقد استطاع الشاعر حسن توفيق، محقّق «الأعمال الشعرية الكاملة» لناجي الكشف عن حقيقة هذه السيدة واسمها عنايات محمود الطويِّر.

عرفت الشاعر إبراهيم ناجي عندما اعتزم في عام ١٩٤٥ تأسيس «رابطة الأدباء» على أمل أن ينضويَ تحت لوائها أكبر عدد ممكن من أدباء مصر. وتلقيت دعوةً لحضور الاجتماع الأول للرابطة في بيتٍ متداعٍ في حي شبرا

الشعبي، ولبّيتُ الدعوة من قبيل الفضول دون أن أعرف الشاعر ناجي أو أياً من المدعوين. وبعدما حضر نحو عشرين شخصاً، أُعلن عن انتخاب مجلس الإدارة التأسيسي، فاختير ناجي بالإجماع رئيساً، وجرى اختياري وكيلاً للرابطة بالإجماع كذلك، وهو ما أدهشني بسبب عدم وجود أي صلة سابقة بيني وبين أحد من الحاضرين، وتوالى انتخاب ناجي لرياسة الرابطة وانتخابي وكيلاً لها في جميع السنوات التي عاشتها رابطة الأدباء إلى أن انفضّت عام ١٩٥٢. وقد أتاح لي ذلك أن أعرف الدكتور ناجي عن قرب، وأن أكون من جُملة أصفيائه. كنّا نعلن عن اجتماع الرابطة في السابعة مساء، فلا يحضر الدكتور ناجي إلّا بعد التاسعة لارتباطه بواجبه في عيادته مع مرضاه. حتّى إذا رأس الاجتماع تدفق في الحديث نثراً وشعراً مغترفاً من معين مطالعاته الواسعة، أو مستدعياً مطوَّلاته الشعرية التي لا تخونه ذاكرته أبداً في إنشادها، وهو عند الإنشاد يعبّر عن مقاصده الشعرية بنبرات صوته ارتفاعاً وانخفاضاً، وبلفتات عينيه، وبإشارات يديه، وكأنه ممثل بارع على مسرح حيّ، وكان سريع البديهة يردّ على كل سؤال وحي الخاطر رداً مُشبعاً مُسكتاً.

كان شديد التفاؤل بنجاح هذه الرابطة، على الرغم من ضآلة مواردها المالية، وافتقارها إلى مقرّ دائم، وانفضاض الأدباء عن اجتماعاتها، وتجاهل الصحف لأنشطتها، بل لقد تعرّضت الرابطة غير مرّة لحملات جائرة من بعض الأقلام، ولكن هذا كله لم يفتّ في عضد الدكتور ناجي، الذي ثابر على عقد اجتماعاتها الأسبوعية حتّى في أشهر الصيف، وضحّى بعطلته الصيفية في سبيل الحرص على أداء الرسالة التي تطلّع إلى أدائها، فلمّا نزلت برئيس الرابطة نازلة التطهير، واعتقل وكيل الرابطة، لم يكن ثمة مفرّ من حلّها بعدما عاشت ثماني سنين.

ولد إبراهيم ناجي في حي شبرا الشعبي (الذي اختاره مقراً لعيادته بعد ذلك) في ليلة ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٨ والتحق بمدارس الحيّ، وأولع بالقراءة وهو صغير السنّ، وكانت مطالعاته تنصرف إلى القصة والشعر، وكانت له محاولات في نظم الشعر في سنّ باكرة. والتحق بكلية الطب التي تخرّج منها عام ١٩٢٣ ومنذ ذلك التاريخ اتخذ من الطبّ مهنةً، ومن الأدب والشعر هواية. وانضم إلى رابطة أبولو التي أنشأها الدكتور أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥) وكان من فرسانها الشعراء، الذين احتفت بهم مجلة أبولو.

أكبّ على دراسة اللغات، فأجاد الإنكليزية والفرنسية، واستطاع بذلك أن يقرأ كل عيون الأدب الغربي شعراً ونثراً إلى جانب مطالعاته في الطب وعلم النفس، وكان يحتفظ بمكتبته الخاصة في عيادته، فترى كتاباً أدبياً يجاور كتاباً طبياً، أو كتاباً في أي فرع من فروع العلم.

استرعى انتباهي وأنا أزور عيادته كتاب باللغة الإنكليزية عن مصر في أثناء الحرب العالمية الثانية أهداه إياه أحد مرضاه بعدما استهوته ضخامة حجم الكتاب، فبادر ناجي بانتزاعه من مكتبته، وكتب عليه عبارة إهداء لي «تعميماً لفائدة الانتفاع بالكتاب» التي توخاها مريضه من إهدائه إياه ـ حسب تعبيره.

كان ناجي كثير المجاملة والحفاوة بالناس، لا يصدّ عن بابه أحداً، يؤمّه مندوبو المجلات، فيكتب لهذا مقالاً، ولذاك قصيدة ـ ولو على ورق التشخيص الطبي ـ ثم لا يسأل عن مصير المقال أو القصيدة، حتّى لقد امتلأت صحف عصره بآثاره، وهو ما صعّب على جامعي ديوانه مهمتهم. وهو في نثره مالك لأدواته، شأنه في الشعر.

وقد نشر في حياته ديواني «وراء الغمام» و«ليالي القاهرة» ونُشر له بعد وفاته ديوان «الطائر الجريح» بمقدمة لمحمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ ـ ١٩٨٥). وجاءت «الأعمال الشعرية الكاملة» التي نشرها حسن توفيق لتلغي الدواوين الزائفة والملفقة والتجارية التي نشرت لناجي بعد وفاته.

أما في النثر فله «مدينة الأحلام» و«توفيق الحكيم» الذي ألفه بالاشتراك مع إسماعيل أحمد أدهم (١٩١١ ـ ١٩٤٠) و«رسالة الحياة» و«أدركني يا دكتور» و«أزهار الشر» وهو مترجم عن بودلير و«كيف تفهم الناس» و«ليالي فينيسيا» الذي ألفه بالاشتراك مع غيره. كما حرّر مجلة «حكيم البيت». وترجم بعض المسرحيات.

رزق ناجي من زواجه بثلاث بنات، هن «أميرة» ـ وهي والدة الدكتورة سامية محرز أستاذة الأدب بالجامعة الأميركية بالقاهرة ـ وضوحية التي هاجرت إلى الولايات المتحدة، وهي أكثر بناته غيرةً على تراثه، ومحاسن. ولم يرزق بأولاد كما زعم الدكتور طه وادي في كتابه عن ناجي.

صحيح أن المطربة أم كلثوم (١٩٠٤ ـ ١٩٧٥) أجرت شعر ناجي على كل

لسان بغنائها قصيدة «الأطلال» ـ التي عدّل صالح جودت في بعض ألفاظها ـ وقصيدة «مصر» التي مطلعها:

أَجَلْ، إنَّ ذَا يَوْمٌ لِمَنْ يَفْتَدِي مِصْرا فَمِصْرُ هي المِحْرَابُ والجَنَّةُ الكُبْرَى

ولكن شاعرية ناجي كانت عارمة حتى قبل اكتشاف أم كلثوم لها. ولا عليك يا ناجي إذا كانت سفينة أم كلثوم الفضائية لم تهبط على قمرك إلّا بعد لأي.

❁ ❁ ❁

الشاعر إبراهيم ناجي ورابطة الأدباء

صدرت في الأوان الأخيرة أربعةُ كتب عن الشاعر الغنائي المتدفق الشاعرية الدكتور إبراهيم ناجي، أولها لأحمد عبد المعطي حجازي، وهو مختارات من شعر ناجي، مع مقدمة لصاحب الكتاب، وثانيها للدكتور طه وادي، وثالثها للدكتور علي محمد الفقي، ورابعها لحسن توفيق، وقد ضم فيه خمسين قصيدة مجهولة لناجي إلى جانب مقدمة مسهبة عن الشاعر.

والغريب أن هذه الكتب الأربعة تتحدث عن ناجي لا حديث معرفة شخصية، بل حديث عنعنة، أي أنها اقتصرت على السماع وعلى النقل، أما أخبار الشاعر فلم تستقصها منه ـ وهو قريب العهد بنا ـ ولا من معاصريه ومخالطيه، بل روتها نقلاً عن الذين وضعوا مؤلفات سابقة عن ناجي، وهم الدكتورة نعمات أحمد فؤاد، وأحمد المعتصم بالله، ومحمود الشرقاوي، وصالح جودت.

وأقول في غير تجن على أحد: إن الكتب التي تناولت الشاعر ناجي، إما أشارت إشارة سريعة إلى «رابطة الأدباء» التي كان له فيها دور ريادي نحو ثماني سنين، وإما أغفلت الإشارة إليها أغفالاً تاماً.

ولما كنت من الضالعين في رابطة الأدباء منذ إنشائها وإلى أن هجرتها ثم هجرها ناجي بعدي، فقد ارتأيت أن أرسل الحديث عن هذه الرابطة، وأن أتطرق إلى ما أعرف من أخبار ناجي وأموره في هذا الحديث المستطرد.

في عام ١٩٤٥ كنت أحرر جريدة «المقطم» بعدما تركت عملي في جريدة «الأهرام»، وكنت في الوقت عينه أمرن قلمي على الكتابة في طائفة من الصحف والمجلات، منها جريدة «منبر الشرق» التي كان يصدرها المجاهد المغبون الشيخ علي الغاياتي صاحب ديوان «وطنيتي» المشهور، الذي كتب مقدمته المجاهد الوطني محمد فريد بك والشيخ عبد العزيز جاويش، فحكم على مؤلفه وصاحبي

المقدمتين بالحبس، أما الغاياتي فتسلل إلى الأستانة، ومنها إلى جنيف، حيث أصدر «المنبر» ثم نقله إلى مصر بعد سقوط الحكم بالحبس بالتقادم، وأما محمد فريد وجاويش فأنفذت فيهما العقوبة.

وذات صباح من شهر سبتمبر ١٩٤٥ هاتفني الشيخ الغاياتي قائلاً: إن لي في مكتبه بطاقة وردت بالبريد، ورجاني أن أعرج عليه لتسلمها.

وكانت البطاقة مرسلة من رجل لم أسمع باسمه من قبل هو خليل جرجس خليل (وهو اليوم ركن عزيز من أركان البنيان الشعري في مصر قبل هجرته النهائية إلى أمريكة) ونصها:

«يسر رابطة الأدباء بالقاهرة أن تدعوكم إلى اجتماع مجلس الإدارة في الساعة السادسة من مساء يوم الأحد السادس عشر الجاري (سنة ١٩٤٥) بشارع جزيرة بدران رقم ٩».

إذن هناك رابطة للأدباء. ولهذه الرابطة مجلس للإدارة، ولها مقر في حي شبرا. هذه كلها أخبار جديدة علي، وإن كانت أخباراً لا تشبع. فما هي أهداف الرابطة؟ وممن يتألف مجلس إدارتها؟ وما هو نشاطها؟ هذه جميعاً أمور محجبة، ولا تعرف على وجه اليقين إلا بتلبية الدعوة البريدية وإن يكن موجهها مجهولاً لدي.

ولم يكن ثمة ما يدعوني في هذا الزمن الطلق إلى الاسترابة في هذه الدعوة. فالحياة الأدبية في مصر حياة مفتوحة المصاريع والنوافذ جميعاً، والحركة الأدبية ناشطة بفضل الهمة الفردية للأدباء وليس لأجهزة البيروقراط، والمجتمع الأدبي يستضيء بأعلام أمجاد، لكل منهم اسم مدو في مصر وخارجها: خليل مطران بك، عباس محمود العقاد، الدكتور طه حسين باشا، إبراهيم عبد القادر المازني، أحمد حسن الزيات بك، محمد حسين هيكل باشا، الشيخ عبد العزيز البشري، الدكتور منصور فهمي باشا، الدكاترة زكي مبارك، الدكتور أحمد أمين بك، الشيخ مصطفى عبد الرزاق باشا، الشيخ علي عبد الرزاق باشا، محمود تيمور بك، فؤاد صروف، الدكتور فارس نمر باشا، إسماعيل مظهر، نقولا الحداد، الدكتور أمير بقطر، كامل كيلاني، توفيق الحكيم، الدكتور محمد صبري بك السوربوني، الدكتور إبراهيم ناجي بك، علي محمود طه المهندس، الدكتور بشر فارس، علي أدهم، عبد الرحمن صدقي، محمد عبد الله عنان، الدكتور

محمد عوض محمد بك، محمد فريد أبو حديد بك، أحمد الشايب، سلامة موسى، وما شئت من رجال مفاخر لن يجود الدهر بمثلهم في حقبة زمنية مجتمعة واحدة.

وكانت محافل الأدب وندوات الأدباء متصلة الانعقاد، وكان في الصحف باب يومي هو باب «محاضرات اليوم» كنت أصابح به الجريدة لانتقي محاضرة أو اثنتين أحاول الاستماع إليهما في هذه القاعة أو تلك من القاعات الكثيرة المنصوبة للعلم والأدب في القاهرة، ولا بأس أن أقول بين عضادتين وعلى سبيل المفارقة: إنني صرت اليوم أستصبح بقراءة صفحة الوفيات في الجريدة بعدما اختفى منها باب «محاضرات اليوم»!.

ولم يكن ليجول في خاطري، ولو على سبيل حلم من أحلام الليل أو اليقظة، أن أعرف واحداً من هؤلاء الكبار الكبار، أو أن تقوم بيني وبين أيٍّ منهم وشيجة أو مودة، فقد كنت ما زلت في ريّق العمر، أجتهد في اكتشاف الحياة من حولي، فترن في أذني هذه الأسماء المهيبة الضخام المتصلة بالخلد، فأزداد تصاغراً في عيني نفسي، وقد أكرمني الله في ما بعد فعرفت هؤلاء جميعاً مع تفاوت في المعرفة، وهكذا صح لي أن أدعي الخضرمة، وإن كان موضعي الأزلي من هؤلاء الأعلام هو موضع التلميذ الذي لا يغادر فصول التلمذة.

فلما جاءتني دعوة خليل جرجس خليل سألت نفسي: ما الذي أغرى خليلاً على دعوتي إلى اجتماع مجلس إدارة رابطة الأدباء؟ أتراه اغتر بشهرتي البازغة المتواضعة فضخمها واستشحم ذا ورم؟ أم تراه توسّم فيّ استعداداً أدبياً فابتغى أن يذكيه وينميه؟ أم تراه جمع أسماءه من الصحف خبط عشواء، ودعا «كل من هب ودب» فكنت أنا من جملة «الهابين الدابين»؟ ولم يخل الأمر من ومضة غرور، فلعل خليل جرجس خليل من المعجبين بأدبي، فكانت دعوتُه إليّ وليدةَ هذا الإعجاب الأكيد!.

وأيا كان الأمر، فإن موعد الدعوة مناسب. ومكانها ـ على بعده ـ يستعان على بلوغه بمطية الكهرباء (الترام)، ولا بأس من رؤية وجوه لم آلفها من قبل، ولا ضرر من «التفرج» على روابط الأدباء عن كثب، فإن لم يرق لي الحال، فإني متسلل من هذا الجو.

وتوجهت إلى مكان الاجتماع. فإذا هو غرفة متواضعة بل متداعية، فيها مقاعد متهالكة لا يزيد عددها على عشرين رصت على هيئة دائرة، وكان بالباب شاب عليه ملامح «الصعيد الجواني» يستقبل القادمين، ويهش ويبش في وجوههم، وهذا الشاب هو بعينه خليل جرجس خليل. وكان يستفسر من كل قادم عن اسمه، ثم يعين له مقعداً بين الجالسين. أما أنا، فاتّخذت لنفسي مقعداً مجاوراً للباب، تأهباً للخروج عند الاقتضاء.

وبعد التعارف ـ ولم أعرف من الحاضرين إلا الدكتور إبراهيم ناجي باسمه لا بشخصه، وإلا كمال نشأت الذي كان مثلي في بدايات الطريق الأولى، وإلا عيسى متولي وكانت تعليقاته الاجتماعية والأخلاقية تملأ الصحف. أما بقية الحاضرين، فكانوا بالنسبة إلى دنيا أنا جاهلها ـ افتتح خليل الجلسة بكلمة مرتجلة قال فيها: إن فريقاً من الأدباء ارتأوا تأليف رابطة تجمعهم، وإنه وجه الدعوة إلى عشرات منهم فلم يلبها إلا هذا النفر القليل، ثم قام بتقديم الحاضرين واحداً واحداً، وأعلن بدء إجراء انتخابات عضوية مجلس الإدارة، ففاز الدكتور إبراهيم ناجي برياسة الرابطة، وفزت بوكالتها، وفاز الخليل بمنصب السكرتير، وانتخب غيرنا لأمانة الصندوق ولعضوية المجلس. وكان هذا الانتخاب مفاجأة لي، فمن أنا حتى أكون وكيلاً لناجي أو عضواً في مجلس إدارة رابطة للأدباء؟.

إنها ورطة حقيقية، ورطني فيها خليل جرجس خليل. كنت في بادئ الأمر أتوهم أن دوري في رابطة الأدباء هو على أحسن الفروض دور العضو المستمع الذي يملك أن يحضر اجتماعاتها، وأن يتخلف عن حضورها. ولكن صار حتماً علي الآن أن أحمل من أعباء الرابطة ما لم أكن هيأت له نفسي، وصار علي أن أنوب عن الدكتور ناجي في إدارة جلسات الرابطة، لا سيما وهو طبيب ذو عيادة خاصة في حي شبرا الشعبي ومواعيده يقررها مرضاه لا هو. فمتى انصرف آخر مريض من عيادته، لحق باجتماعات الرابطة ولو في الساعة العاشرة مساء بينما هي تجتمع في حدود السابعة. وكان علي أن أشارك في إعداد محاضرات الرابطة الأسبوعية ومناظراتها وحلقات شعرها، فضلاً عن بحث شؤون الرابطة ومشروعاتها وميزانيتها. والحق أن هذه الأمور جميعاً قد هانت بفضل خليل جرجس خليل الذي كان شبه متفرغ للرابطة، بينا كنت أنا مشغولاً بالتزامات الصحافة، وكان من جملة أعمالي تدريس الصحافة في الجامعة الأمريكية.

والدكتور إبراهيم ناجي تراه على البعد فتحسبه إبراهيم عبد القادر المازني، فكلاهما قصير ناحل الجسم، وكلاهما خفيف الشعر، وإن كانت صلعة ناجي أكبر من صنوتها عند المازني، وصوتهما متشابه، وحركاتهما تكاد تتطابق، وحبهما للنكتة مشترك. ولكن المازني كان يظلع في سيره، لكسر قديم في ساقه، كما أن الشيب جلل فوديه، ولا كذلك ناجي.

وكان ناجي يؤم جلسات الرابطة بغير موعد معروف، حتى في الأيام التي كان هو فيها المحاضر الرئيسي. وكان متعدد الاهتمامات، واسع الثقافة، يرتجل النثر والشعر ساعات وساعات، فلا البديهة تخونه، ولا الذاكرة تُعييه.

وقد افتتح ناجي أول برامج الرابطة بمحاضرة موضوعها «معنى الأدب» يوم الأحد ١٤ من أكتوبر ١٩٤٥، وكانت اجتماعاتنا تتم دائماً في مساء الأحد، وما أكثر ما حدثنا ناجي عن علم النفس وتطبيقاته في الحياة وفي الأدب، وعن آداب الغرب وأدبائه، وعن الأدب العربي وقممه الشعرية، وعن الأدب ودوره في الجماعة، وعن العوامل المثرية للأدب.

أما شعره، فكان يستظهره وكأنه يقرأ من كتاب مبسوط أمامه، فإذا انتهى من محاضرته، بدأ ينشد الشعر ويستعين بيمناه وبعينيه وبشفتيه وبكل ملامح وجهه وبصوته في تمثيل هذا الشعر، حتى شعره الراقص كان ينشده راقصاً.

وكثيراً ما كان يقطع حديثه أو شعره ليقول نكتة أو يروي فكاهة خطرت له، وكانت له قدرة عجيبة على الاستئثار بانتباه السامعين، وكأنهم مسمرون بعيونهم وآذانهم وكل اهتماماتهم لمتابعة ما يقول، ثم إنه لم يكن يضيق بأي سؤال، ورده جاهز، وهو دائماً رد العالم الداري الواثق من نفسه ومن علمه تمام الوثوق.

وكانت مشكلة الرابطة الأساسية هي الخصاصة[1]، فلم يكن لها من موارد إلا اشتراكات الأعضاء القليلين - إن انتظموا في أدائها - وهي اشتراكات بدأت بعشرة قروش في الشهر فلما زادت لم تتجاوز الثلاثين، أي قرشاً واحداً في اليوم!

وكان علينا أن نستأجر للرابطة مقراً يقصده روادها، ولكن مشكلة المال

---

(١) الخصاصة: الحاجة والفقر.

كانت تؤودنا[1]. ومن ثَم كتب علينا أن نقبل ضيافات ذوي الأريحية، فاستضافتنا السيدة سنية قراعة في مكتبها، واستضافنا الأستاذ محمد زكي عبد القادر في مكتبه، واستضافنا صاحب مدرسة في حي السيدة زينب، وهكذا ظلت الرابطة تنتقل من مكان إلى مكان: من حي شبرا إلى حي الجيزة، إلى حي السيدة زينب، إلى وسط العاصمة إلى حدائق القبة حتى استقررنا شبه استقرار في نادي موظفي الحكومة في شارع عماد الدين.

وكنا نفقد بسبب هذا التنقل المستمر جمهوراً، كما كنا نكسب جمهوراً جديداً، وكان أغلب رواد الرابطة من الطلاب ومن محبي الأدب.

أما المحاضرون فقد كنا نعتمد في المقام الأول على أعضاء الرابطة في إلقاء المحاضرات أو إنشاد الشعر ـ وإلى إن ماتت الرابطة لم نسمع فيها ولا مرة واحدة شيئاً من الشعر الحر، لأنه لم يكن قد فشا بعد، ولكننا نجحنا غير مرة في دعوة متحدثين من الخارج، فسمعنا محاضرة للدكاترة زكي مبارك، وأخرى للشاعرة جملة العلايلي، وثالثة للأستاذ الشيخ الدكتور أحمد الشرباصي. وهلم جرا.

وكان طبيعياً أن تجري الرابطة انتخاباً لمجلس الإدارة في كل عام، فكان الانتخاب يسفر دائماً عن فوز ناجي للرياسة، وكاتب هذه السطور للوكالة، وخليل جرجس خليل للسكرتارية إلى جانب أعضاء آخرين.

وأذكر من الذين انتخبوا معنا في فترات مختلفة المرحوم مبارك إبراهيم ـ وكان أديباً ومترجماً من الطراز الأول أدباً وخلقاً وإخلاصاً ـ والسيدة سنية قراعة، والسيدة فريدة موافي (وكانت مديرة لأحد معاهد الصم والبكم) والآنسة أماني فريد وغيرهم.

وفي إحدى السنين اقترح ناجي انتخاب زكريا مهران باشا (وهو من رجال الأعمال المثرين) رئيس شرف للرابطة، وأقمنا له حفل تكريم، فكان هذا أول وآخر العهد برئيس الشرف!.

أما المترددون على الرابطة، فاذكر منهم الدكتور محمد صلاح الدين باشا وزير الخارجية الأسبق، ومحمد عبد الغني حسن، والشاعر صالح شرنوبي ـ الذي

---

(١) تؤودنا: تثقل علينا وتشقّ.

مات في شبابه تحت عجلات قطار ـ ومصطفى عبد اللطيف السحرتي، والدكتور كامل السوافيري وكامل كيلاني، والشيخ حسن القاياتي، وكمال نشأت، وعلي الجمبلاطي وغيرهم.

ولئن اعترضت الرابطة في كل عمرها مشكلات مالية، ولئن افتقرت إلى مقر دائم يؤويها، ولئن عجزت عن أن تنتظم في عضويتها عدداً ملتزماً من الأعضاء، فقد كانت اجتماعاتها الأدبية متصلة صيف شتاء، وكان برنامج كل جلسة يضم ثلاثة أو أكثر، وكنا بعد ذلك نأذن للحاضرين بأن يستكملوا بنود البرنامج: فنسمع شعراً وتعليقاً منهم.

وهكذا توافرنا على أداء رسالة الأدب في هذه الرابطة، وكان الدكتور ناجي برغم أعبائه المبهظة كطبيب له وظيفة في الصباح، وله عيادة خاصة في المساء، أكثرنا نشاطاً، فإذا دخل القاعة، فالمنبر له، يحاضر منه أو ينشد شعره ساعات وساعات وبلا تعب.

وذات يوم افتقدنا الدكتور ناجي لغيابه المفاجئ، فقيل إنه مريض، فتوجهت مع مصطفى عبد اللطيف السحرتي لزيارته في بيته في مصر الجديدة. وعرفنا من التلميحات التي قيلت لنا إنه مريض بذات الرئة، ورأيناه في فراشه شديد الهزال، أصفر الوجه، لا يفارقه السعال، في عينيه جحوظ ظاهر، ولكن المحنة الصحية الشديدة تم اجتيازها بحمد الله، وعاد إلينا ناجي وهو أشد مما كان حماسة لمواصلة عمله الأدبي، غير ملتفت إلى المخاطر الصحية التي تهدده، لا سيما وإنه كان كثير السهر، وكان يتردد على المشارب المختلفة في القاهرة إلى قرب الفجر، ثم يعود إلى منزله مجهداً مسلوب القوى.

ولكن داهية أكبر كانت تنتظر «ناجي» وقد تمثلت هذه الداهية في قرار ظالم اتخذ بفصله من وظيفته كمدير للإدارة الطبية لوزارة الأوقاف، متهماً بعدم الانتاج، وورد اسمه في صدر قائمة التطهير التي أعلنت، وكان لهذا القرار وقع نفسي صاعق على الدكتور ناجي الذي كان يعالج الفقراء ويمنحهم من جيبه ثمن الدواء، والذي كان ـ كما أخبرني بذلك نقولا الحداد العالم الشهير ـ متوافقاً مع صيدلية الحداد أسفل عيادته في شبرا على أن تقدم الدواء للفقراء من مرضى الدكتور ناجي وتقيد ثمنه لحساب الدكتور المعالج! فهذا الطبيب العالم الإنسان.

قد وجب تطهيره وفصله من وظيفته دون أن تتاح له فرصة للدفاع عن نفسه، ودون أن يجري أي تحقيق في هذه الفرية الظلوم التي زهَّدت ناجي في الحياة، ولم تلبث أن صرعته صرعة الموت.

فكان طبيعياً والحال هذه أن يهمل ناجي رابطة الأدباء، وكنت من ناحيتي قد تخلفت عن حضور اجتماعاتها بعدما لاحظت قلة إقبال الأدباء عليها وكثرة إقبال الأميين عليها، فإذا بدأ الاجتماع، حضر أديب أو اثنان، ثم حضر عشرات لا نعرف من هم حتى إذا انتهى البرنامج جاءوا يسألوننا: «فيم كان المحاضر يتكلم؟» واستيقنا أن هؤلاء طفيليون ذمامون.

وهكذا انفضت رابطة الأدباء بالهجر، فقد هجرها وكيلُها ثم رئيسها، وماتت دون أن تصدر لها شهادة وفاة في عام ١٩٥٢.

ولما سمع ناجي أن الحكومة الإسبانية قلدتني وساماً رفيعاً، زارني في «المقطم» مهنئاً، وكتب أبياتاً في هذه المناسبة، ثم انفجر باكياً كالطفل، لا على وظيفة ضاعت منه، بل على وصمه بأنه أهل للتطهير، وإيراد اسمه في أول قائمة المطهرين، وظل يجهش بالبكاء وأنا أواسيه إلى أن انصرف.

كنت بعد انصرافه أتوقع قراءة نعيه في الصحف كل يوم، لأن حالته النفسية كانت في الحضيض، وقدرته على المقاومة قليلة بسبب هزاله المفرط، ولم يطل انتظاري، إذ قرأت نعيه في الخامس والعشرين من مارس ١٩٥٣ فبكيته كالطفل، وقلت للمعزين ونحن نتبادل العزاء: «لقد مات ناجي لا اليوم بل في التطهير»!.

هذا ما كان من أمر ناجي ورابطة الأدباء، وقد حاول محمد ناجي، شقيق إبراهيم ناجي أن يبعث الرابطة باسم جديد، فاختار لها اسم «رابطة الأدب الحديث». فتعثرت محاولاته، ولكنها استقامت بعد وفاته عندما آلت رياسة الرابطة إلى مصطفى عبد اللطيف السحرتي، وإلى العلامة الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، وما زالت «رابطة الأدب الحديث» تواصل نشاطها، تتعاورها عوامل المد والجزر.

ويسوقني حديث ناجي إلى الحديث عن آثاره المجهولة، فقد عثرت بين كتبي على كتاب عنوانه «من ليالي فينسيا» نصفه لناجي ونصفه لأديب آخر، وهو كتاب لم يشر إليه أحد من الباحثين في تراث ناجي.

أما شعره الضائع فقراء مجلة «الأديب» يذكرون أنني قد نشرت في أعداد متوالية من المجلة سلسلة من المقالات أثبت فيها ما وقعت عليه من شعره المفقود. ثم جاء صديقنا محمود الشرقاوي فنشر في كتابه عن ناجي بعض قصائده المجهولة، ولو رجع إلى فصولي لعرف أنني سبقته إلى نشرها، وأخيراً جاء حسن توفيق في كتابه «إبراهيم ناجي ـ قصائد مجهولة» فجمع لناجي خمسين قصيدة. واحدة منها سبق لي إدراجها في فصولي، أما بقية القصائد فهي حصيلة اجتهاد المؤلف.

والغريب أن حسن توفيق لم يشر في كتابه بحرف إلى الجهد الذي بذلته في سبيل استقصاء شعر ناجي الضائع، فإذا كان الكاتب لم يقرأ «الأديب»، فكيف فاته أن استأذنا الخَفاجي قد أشار غير مرة في كتبه ومقالاته إلى هذه الفصول، وكيف فاته أن أستاذنا الشاعر حسن كامل الصيرفي قد أشار إليها غير مرة في كتاباته في مجلة «المجلة» وكان له فضل تصويب بعض أخطائها، كما أنه كان ينشر إحصائية بعدد القصائد وعدد أبياتها التي اهتديتُ إليها؟.

وعلى كل حال لا أريد أن انتقص من قدر الجهد الذي بذله حسن توفيق، فالواقع أنه في بحثه عن ناجي وفي جريه وراء شعره الضائع قد صادفه التوفيق، ولكن من الخطأ القول: إن الخمسين قصيدة الورادة في كتابه هي كل شعر ناجي الضائع. فلا بد لأي دارس من أن يضيف إليها ما سبق لي جمعه، ولا بد كذلك من التنقيب عن جديد من شعر ناجي الضائع استكمالاً لديوانه الذي أصابه النحس منذ صدوره[1].

وفي كتاب «شعر ناجي: الموقف والأداة» للدكتور طه وادي أخطاء يتعين تصحيحها، أما أغاليط النحو والصرف الفاحشة المتواترة في كل الكتاب. فلننسبها إلى المطبعة ترفقا بالمؤلف.

فهو يزعم في صفحة ٦٦ أن للدكتور ناجي ابنا اسمه «عماد». والذي نعرفه ويعرفه كل من عاصر ناجي، هو أنه لم يرزق صبياً، وإنما رزقه الله ثلاث بنات، أما عماد هذا فزوج لإحدى بناته.

---

(١) تدارك حسن توفيق ما فاته من أخبار ناجي وشعره عندما نشر «الأعمال الشعرية الكاملة» لناجي وأتبعها بـ«الأعمال النثرية الكاملة» له.

ويقول المؤلف: إن للدكتور ناجي ديواناً عنوانه «معبد الليل»، وهو ديوان لم يسمع به أحد لا في حياة ناجي ولا بعد وفاته، وإن وجد، فهو من «شطارة» الناشرين، ولا يصحّ الاعتداد به في دراسة أدبية.

ناهيك بأن الدكتور عبد العزيز الدسوقي قد نبه الدكتور وادي إلى أن «أحزان الطفل» ـ بفتح الطاء والفاء ـ لا صلة لها بالطفولة البريئة، وإذا كان ناجي قد أكثر من استخدام لفظة «الطفل» في شعره، فإن الاستشهاد في هذا المقام «بأحزان الطفل» هو استشهاد في غير موضعه.

أما الشاعر خليل مطران فقد أصبح على يدي الباحث الدكتور وادي «خليل مطران خليل» على وزن جبران خليل جبران، وكرم ملحم كرم، والزجال عبد الله أحمد عبد الله، والشاعر خليل جرجس خليل!.

ولا بد لي هنا من أن أسجل اعتراضي الشديد على الأسلوب الذي اتبعه صديقنا الراحل صالح جودت في كتابه عن إبراهيم ناجي، فقد أفرط صالح جودت في استقصاء «غراميات» ناجي، ولم يكتف بالإشارة الوامضة إلى هذه الوجدانيات، بل أخذ يفصل قصائده تفصيلاً على الممثلات والراقصات، ذاكراً أسماءهن حيناً.

وحتى لو صحت هذه التخريجات، فاعتقادي الشخصي أننا نظلم الشاعر ظلماً فاحشاً حين نلجأ إلى هذا الأسلوب، فلو رغب ناجي في إيراد الأسماء الحقيقية أو المستعارة لملهماته لفعل ذلك بنفسه كما يفعل في يومنا هذا الشاعر العراقي عبد الخالق فريد، والشاعر الحجازي عبد السلام هاشم حافظ. ولكن ناجي كان يقول الشعر، ولا يسمي بطلة «أطلاله» أو فارسة «ليالي قاهرته». فَلِمَ نورطه في استنتاجات قد تكون صحيحة أو غير صحيحة، والقارئ يصدقها إذا قرأها لصالح جودت الذي كان من ندماء ناجي الملازمين.

وقد كلف المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب صديقنا الشاعر الراحل محمد مصطفى الماحي (المتوفى في ٧ نوفمبر ١٩٧٦) أن يعد دراسة عن الدكتور إبراهيم ناجي، فقام بإنجازها ثم تكرم فاطلعني على مخطوطتها، لا سيما وهو قد رجع إليَّ في كثير من مواضعها، وكانت نصيحتي للماحي أن يطرح اجتهادات صالح جودت حول غراميات ناجي، وأن يعالج شعره الغزلي علاجاً أدبياً مجرداً دون إشارة إلى هذه الممثلة المرموقة أو تلك الراقصة الناشئة، ولكن الماحي لم

ير ما رأيت، ولا أدري ما مصير هذه المخطوطة بعد أن عدا الموت على شاعرنا الماحي الكبير (وهناك شاعر آخر باسم محمود الماحي غنت له أم كلثوم إحدى قصائده، وقد توفي في سن الشباب من سنوات).

ذهبت مرة إلى عيادة الدكتور ناجي لا كمريض بل كصديق، فوجدت قاعات الانتظار والممرات مليئة بخزائن الكتب، وتوهمت أن الكتب وقف على الطب والجراحة والأقرباذين والفارماكوبيا، ولكنني تبينت أن الكتب خليط عجيب من كتب العلوم وكتب علم النفس وكتب الطب وكتب الأدب ودواوين الشعراء وكتب السياسة. وهي بثلاث لغات: العربية والإنكليزية والفرنسية، وأبديت اهتماماً خاصاً بكتاب باللغة الإنكليزية عن «مصر في الحرب العالمية الثانية» لمحرر جريدة «لا بورص أجيبسيين» جان ليجول. فبادر ناجي إلى رفعه من مكانه، ثم كتب عليه عبارة إهداء قائلاً: هذا كتاب إهدانيه واحد من مرضاي بعد أن تم شفاؤه. فهو لك.

وكان كلما رآني حاملاً كتاباً. سألني: ماذا تحت إبطك؟ ثم أخذ الكتاب وتصفحه وقال: «أرني ما تقرأ أقل لك من أنت». فقد كان ناجي قارئاً مستوعباً هاضماً، وكان إذا سئل عن كتاب جديد، أجاب على التو سارداً موجزاً وافياً له.

وإن الاهتمام الذي وجّه إلى جمع شعر ناجي ينبغي أن يسايره اهتمام مماثل بجمع نثره، صحيح أنه كان يرتجل المحاضرات والأحاديث، ولكنه كان يعد شيئاً كثيراً منها في نص مكتوب، ثم لا يبالي إن نشر أو لم ينشر، زرته مرة في مكتبه بوزارة الأوقاف، وقلت له: إن إحدى المجلات اللبنانية وسطتني إليه ليكتب لها مقالاً، فتناول القلم، وكتب المقال على أوراق التشخيص (الروشتات)، ثم قدمه إلي، ولم يسألني بعد ذلك هل نشر المقال أو لم ينشر، بل لقد قال لي مرة ممازحاً ـ ولعله كان جاداً ـ: إن كثيراً من الفصول التي أدبجها تظهر ممهورة بإمضاءات أولاد الحلال!.

اجتررت هذه الذكريات عن الصديق العزيز إبراهيم ناجي بعدما رأيت أن دارسيه الجدد لا يعرفون «ناجي» إلا من العنعنات. بل لقد زعم واحد من الدكاترة أن الشاعر «ناجي» مات مكرماً معززاً من الجماعة، وهو كذب على التاريخ الأدبي، لأن الجماعة هي التي قتلت «ناجي» حين أجرت عليه أحكام التطهير الجائرة، وكل ذنبه ـ كما قال أبو شادي في رثائه ـ: أنه شاعر شعر.

أبو القاسم محمد كرّو: شهادة عاطفية

أخي الأستاذ عز الدين المدني:

«تلقيت بالفرح المجنون دعوتكم» مستعيراً هذه العبارة من الشاعر القروي رشيد سليم الخوري للمساهمة في الكتاب التكريمي الذي تعتزمون إصداره عن شقيق الروح وصفيّ الوجدان وحبيب القلب «أبو القاسم محمد كرّو» اعترافاً بأياديه البارة السخيّة على الأدب والفكر والتراث على الصعيد العربيّ كلّه.

ولا أملك عند الحديث عن أخي على الدهر «أبو القاسم محمد كرّو» إلا أن أكون عاطفياً، بل مفرطاً في العاطفية، لأن بيني وبينه من الأخوات والمودات ووشائج الحبّ ما امتدّ على أكثر من ثلاثين عاماً خلت من كل ما يعكّر صفوها.

وأقرّ بادئ ذي بدء بتقصيري المتطاول ـ بل المخزي ـ في حق «أبو القاسم محمّد كرو» لأنني لم أكتب عنه شيئاً ذا بال إلى هذه اللحظة، على الرغم من أنه غمرني بكل مؤلفاته، وخصّني بكثير من الكتب الصادرة في تونس، وهو تقصير لا يفسّر بحال بأنني أنطوي به على سوء تقدير، وإنّما تعليله الوحيد هو أن مشاغل الرزق تجتاحني، ووسائل النشر تصّدني، فأكتم في صدري مشاعر الحب والتقدير والإجلال التي أكنها لأخي «أبو القاسم محمد كرّو» بكل صفاء نفس وأريحية قلب.

ومن كريم خصاله أنه لم يَفُهْ أبداً بعبارة عتاب، ولا نالني بمساءة، أو عاملني بجحود.

وإذا كنتُ لم أعرف «أبو القاسم محمد كرّو» إلّا من نحو ثلاثين عاماً بعدما ظلّ اسمه يتردّد في كل مسامعي من جمهرة من الأصدقاء داخل مصر وخارجها، فقد كان حرّياً بي أن ألقاه قبل ذلك بسنوات طوال حيث كان من رواد «مكتب المغرب العربي» في القاهرة الذي أقامه المجاهدون المغاربة للذياد عن قضايا استقلالهم، وما أكثر ما غشيتُ هذا المكتب، ونعمتُ بصداقات جميع أعضائه

قبل أن يعودوا إلى بلادهم غِبَّ استقلالها، ليتسلموا أزمّة المقادير فيها.

ولا أدري كيف غفلتُ عن لقاء الأخ كرّو في هذا المكتب الذي يجب أن يسّجل تاريخه بكل فخر في ديارات المغرب جميعاً.

وكان صديقنا وأستاذنا الدكتور أحمد زكي أبو شادي رائد أپولو الذي آثر الهجرة إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٤٦ يقوم بدور الراصد للحياة الأدبية المعاصرة في المشارق والمغارب، وكان يتواصل مع كثيرين من أصدقائه في مصر ـ وكنت من جملتهم ـ وفي أمصار أخرى أيضاً، وكان لا يفتأ يُنبّهنا إلى أعلام الأدب في العالم العربي، ولا سيما من فُطروا منهم على خلق عظيم، ساعياً إلى عقد صداقات بيننا وبينهم.

وكان أبو شادي من كبار المعجبين بكرّو، ومن الحريصين على تعريف الأدباء المصريين والعرب بهذه الشخصية الأدبية الفذة، بعمق أصالتها وسمّو أخلاقياتها، ونقاء صداقاتها، فلما زار أبو القاسم محمد كرو القاهرة قبل ثلاثين عاماً، بادر أخونا رضوان إبراهيم ـ بإيعاز من أبي شادي ـ إلى دعوتنا للاجتماع به، واكتشفنا من الوهلة الأولى أن هذا الرجل الودود عالم أصيل، تكاملت فيه جميع شمائل النبل والشهامة والأريحية وعفة اللسان وصفاء النفس وعذوبة العشرة، فضلاً عن علم غزير، وإحاطة واسعة بالحركات الأدبية في العالم العربي، فاصطفيناه أخّاً أعزّ ما تكون الأخوّة، ورسولاً أميناً ينقل إلينا أخبار الحياة الأدبية في تونس، وينقل عنّا أطراف الحياة الأدبية في مصر، فكان نعم السفير الأدبي الحامل لمشاعل العرفان في مغداه ومراحه في طول العالم العربي وعرضه.

وعندما عُقدت اتفاقية ثقافية بين مصر وتونس، كان أبو القاسم محمد كرّو ضمن الوفد التونسي الذي هبط مصراً للتوقيع عليها، ومع أنني كنت في ذلك الوقت معتزلاً الحياة العامة تماماً، فقد دُعيت ـ بتوجيهٍ منه ـ إلى منزل السفير التونسي (صلاح عبد الله) للمشاركة في فرحة البلدين بعقد هذه الاتفاقية، وهي فرصة شارك فيها عددٌ من المشتغلين بفنون التمثيل والغناء والسينما ولم يتخلّف عنها حتّى المطرب الشعبي المحبوب شوكوكو، ولا أعرف على وجه اليقين الدور الذي اضطلع به أبو القاسم محمد كرّو في إنجاز هذه الاتفاقية، وإن كنت أكاد

أجزم بأنه كان اللولب المحرّك وراءها، فهو يحبّ أن يعمل في الظلّ بحيث لا تعرف يُسراه ما صنعت يُمناه.

وعندما تغالظت من حولي الانكشاريات، وقررت الهجرة إلى حيث أنعم بشيء من راحة البال عاقداً العزم على عدم العودة، وعلى الانصراف نهائياً عن الأدب وموجعاته، فحصتُ آخر بريد تلقّيته قبل سفري، فإذا الواردُ مجلّتان من تونس كتب فيهما أبو القاسم محمد كرّو مقالين كريمين عنّي، ردّا الروح إليَّ. فقلت لنفسي وأنا في هذه الوهدة السحيقة من خيبة الرجاء:

سَأَشْكُرُ عَمْرًا ما تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي ... أياديَ لَمْ تُمْنَنْ، وإنْ هي جَلَّتِ
أخٌ غيرُ محجوبِ الغنى عن شقيقِه ... ولا مُظْهِر الشكوى إذا النَّعْلُ زَلَّتِ
رأى خَلَّتي مِنْ حَيْثُ يَخْفَىٰ مكانُهَا ... فكانَتْ قَذَى عينيْه حتّى تجلَّتِ

ولم يكتف أبو القاسم بذلك، بل حرص على زيارتي في مهجري ـ غير مسخّرٍ ولا مأمور ـ لكي يطمئن على أحوالي، وكذا تكون عظائم النفوس.

وكنت وما زلت أترقب المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، لأن حفله الافتتاحي يهيء لي مناسبةً للقاء هذا الأخ الحميم الصادق الإخاء، فإنْ أخلف موعده، فهو ـ على التأكيد ـ قادمٌ في مناسبة من مناسبات الأنشطة الثقافية التي يشارك فيها على الصعيد العربي كله، ولا تفوتُ مناسبة من هذه المناسبات، إلّا وبيننا مواعيد مضروبة، وعناق يسبق فيه القلبُ الصدرَ، فما عرفت في الوفاء إلّا قلّةً تضاهي وفاء «أبو القاسم محمد كرو» وما شدّتني عواطف أقوى من عواطف الحبّ المتبادلة بيني وبين «أبو القاسم».

وأعرف، عن ثقة، أن «أبو القاسم» كان وراء توجيه دعوات رسمية إلى عددٍ من أدباء مصر لزيارة تونس تعزيزاً للعلاقات بين الأدباء، وعبوراً للفجوة القائمة بسبب الحواجز والتخوم المشيّدة للمباعدة بين الأقطار العربية، وقد نعمتُ وأنا أزور تونس بصحبة «أبو القاسم» الذي أخلى نفسه من جميع تبعاته والتزاماته لكي يتفرّغ لي، وكأنه دليلي السياحي المكلّف برعايتي والسهر على راحتي وإطلاعي على معالم الحضارة والثقافة في تونس التي أعدّها وطناً ثانياً لي.

ولست وحدي المشمول بعطف «أبو القاسم محمد كرّو» لأن قلبه واسع واسع، وأياديه طوال في إيتاء الخير، فعندما توفي شقيقي الفنان المهاجر في

إسبانية، انبعث أبو القاسم بوحي من قلبه الرقيق، فكتب رثاءً جميلاً له نشره في صفحة كاملة من جريدة تونسية، مع أنه لم يعرف هذا الشقيق، ومع أن صحف بلاده تجاهلت وفاته وجحدت فضله، وهكذا ناب هو عن مواطنيه في إيفائه حقّه من التكريم، وأدّى رسالة الإنصاف دون أن يكلّفه أحد، وهو في هذا قد انطلق من سجّيته الخيرة وروحه التي أُشربت كل معاني الوفاء والإخلاص والصدق مع النفس.

ومن هذه الشاكلة عينها موقفه من زميلته في الجامعة الشاعرة العراقية الكبيرة نازك الملائكة، ذلك أن شائعةً ذميمة انطلقت من سنوات بأن هذه الشاعرة قد أخلت مكانها في دنيانا، مع أنها ما برحت تعيش وتطالع الناس بقصائدها العصماء، ولمّا قرأ أبو القاسم هذا الخبر المكذوب في إحدى مجلّاتنا، تشككّ في حقيقته، فكتب مقالاً ضافياً في جريدة «الحرية» التونسية يعرب فيه عن شكوكه القوية في هذا الخبر، ثم يستدير لكي ينصف هذه الشاعرة الرائدة التي عرفها عن قرب، ونعم بزمالتها الجامعية، وتابع مسيرتها الشعرية، وكنتُ من ناحيتي قد استربتُ بدوري في هذا الخبر، فكتبت إلى أصدقائي في بغداد مستوضحاً حقيقته، فنفوه نفياً باتاً، وقالوا: إن الشاعرة تعيش في بيتها مع زوجها وابنها ولم تغادر مكانها من الحياة الثقافية العربية التي عاشت دائماً في خضمّها. ولمّا أنهيتُ هذا التوضيح إلى أستاذنا «أبو القاسم» سرّه أن تشككه السابق كان في محلّه، فعاد يبشّر قراءه بأن نازك الملائكة ما زالت بيننا، ثم أنحى باللائمة على أولئك الحاقدين الذين يخترعون أمثال هذه الشائعات، مع أنها لم تُؤْذِ أحداً في حياتها، فأبو القاسم لا يأخذ الأمور بظاهرها، ولا بما يتواتر على الألسنة، ولكنه يدقق في كل ما يسمعه أو يطالعه، ولا يتقلّبه بيقين إلّا بعد تمحيص وتحرٍّ شخصي. ومتى وقف على الحقيقة أعلنها على الناس مجلوّةً ساطعة، وهذه هي شيمةُ العلماء الأصلاء الذين «يعرفون الحق والحق يحرّرهم» بتعبير السيد المسيح.

وكنت كلّما خلوتُ إلى «أبو القاسم» في زياراته الدورية إلى القاهرة أزداد إيماناً بأن العروبة الأصيلة هي عروبة المثقفين وليست عروبة السياسيين. فالمثقفون - في عرف «أبو القاسم» وعرفي - يهتمّون بالقيم الحضارية العليا التي تجمع ولا تفرّق، وهم ينظرون نظرة زراية إلى التخوم المصطنعة القائمة بين دولٍ مفروض أنها أعضاء في «جامعة عربية». وهم يضيقون بهذه «التأشيرات» المتغالظة

التي بدونها يمتنع على أي أديب أو مثقف أن ينتقل من بلده إلى بلدٍ مفروض أنه شقيق، وهم يعجبون للقيود المفروضة على تداول الكتب والمطبوعات في مصر «الإنترنت» حتّى بات الكتاب العربي يعامل وكأنه بضاعة أو مهرّبات! وهم يدهشون لأن البريد - في عصر الطائرات النفاثة - يحتاج إلى أسبوعين أو أكثر للانتقال من بلدٍ عربي إلى بلدٍ متاخم له، وأكثر من مرّة ضجّت نفس «أبو القاسم» ونفسي بالشكوى من هذه السدود والقيود التي لم يُعرف مثلها في زمن ابن بطوطة أو ابن خلدون، أو المتنبي أو محمد الخضر حسين، ولا عُرفت في أوائل هذا القرن حين كان روّاد النهضة ينتقلون من الشام إلى مصر ليقيموا فيها دوراً لنشر الثقافة والتوعية بالعلوم الحديثة، وكان أبو القاسم يقول لي: متى يعقل العرب ويُلغون كل هذه الحواجز والسدود بجرّة قلم؟ لو فعلوا هذا لانتهت مهمة الجامعة العربية كهيئة سياسية، ولعظمت مهمة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، فالمستقبل للمعرفة والعلم وليس لألاعيب السياسة ومناوراتها، ونحن نُجرم في حق أنفسنا إذا أقمنا العوائق في وجه المعرفة والعلم وتوهّمنا أن السياسة هي المنقذ.

كانت صرخات «أبي القاسم» تصادف هوًى من نفسي، بل لقد كنت أعلى منه صوتاً في الدعوة إلى إعلاء شأن العلم والمعرفة والأدب والثقافة والكتاب في وطننا العربي الذي جزّأه الاستعمارُ، ورضينا بهذه التجزئة، بل كرّسناها أقدس تكريس! ولقد كان أبو القاسم بشخصه وبحياته وبكل قواه رسولاً للتآلف والتعاون والتواصل بين أدباء الأمة العربية ومفكّريها، وقد حمل أمانة هذه الرسالة من باكورة حياته، وما زال يؤدّيها أعظم ما يكون الأداء.

ولعلّي أوجزتُ في شهادتي عن الحياة الثرية المعطاء لأستاذنا الكبير «أبو القاسم محمد كرّو» - وهو من مواليد أول يوليو ١٩٢٤ - وإنما أردت أن تكون شهادتي شهادة عاطفية مضمّخة بالحب العارم لشقيق روحي على الدهر «أبو القاسم محمد كرّو» الذي أجزل لي من مودّاته ومحبته ومكرماته وأياديه ما يعزّ على كل حصر، وما يؤودني أن أشكره عليه أو أثيبه على بعض فضله.

وقصاراي أن أعانق «أبو القاسم» على البعد، ويا طالما تعانقنا قلباً بقلب.

❁ ❁ ❁

أحمد حسن الزيات

لعل الدكتور زكي مبارك (١٨٩١ ـ ١٩٥٢) ـ وكان من عادته أن يصف نفسه بـ «الدكاترة» لتعدّد درجات الدكتوراه التي ظفر بها، ونكايةً في صديقه اللدود طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) ـ هو أكبر مشاكس أدبيّ عرفته الحياة الثقافية في مصر، وربّما في العالم العربي. فقد خاض معارك ـ أغلبها من طرف واحد ـ مع أحمد أمين (١٨٨٦ ـ ١٩٥٤) وطه حسين، والسباعي بيومي (١٨٩٠ ـ ؟) الذي كان يدرّسنا الأدب العربي في الجامعة.

وذات يوم دخل علينا السباعي وقد أربدّ وجهه، وزالت عنه بشاشته المعهودة، فأدركنا أن عارضاً عكّر عليه صفوه، ولمّا استوضحناه عن حقيقة ذلك العارض، أخرج من حقيبته مجلة «الرسالة» وقال: اسمعوا كيف تهجّم عليَّ هذا الزكي المبارك، ثم أخذ يتلو علينا مقاله الحادّ المنشور في المجلّة، مؤكّداً أنه سيردّ له الصاع صاعيْن، وصرنا كل أسبوع نتابع هذه المعركة على صفحات «الرسالة» إلى أن لزم زكي مبارك الصمت، فأيقنّا أن أستاذنا انتصر عليه وأسكته بحججه الدامغة.

كان هذا هو أوّل عهدي بمجلة «الرسالة» وبصاحبها أحمد حسن الزيات الذي أنشأها عام ١٩٣٣ بعد عودته من العراق، حيث عمل أستاذاً في دار المعلمين العليا بين عامي ١٩٢٩ ـ ١٩٣٢. وحرصتُ مُنذئذٍ على متابعة هذه المجلة، بل شرعتُ بعد تخرجي بعاميْن من الجامعة في إرسال فصولي إليها بالبريد، فكان أول مقال نشرته لي يتعلّق بالكاتب المسرحي النروجي هنريك إبسن، وذلك في عددها الصادر في ٢٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٤. ثم واليتُ الكتابة فيها مرسلاً مقالاتي بالبريد تهيّباً من مقابلة الزيّات ـ وكان صاحب اسم مُدَوّ ـ إلى أن صحبني في زيارة ندوته الأسبوعية صديقي الأديب سيد قطب (١٩٠٦ ـ ١٩٦٦) في إحدى المرّات، وصديقي أستاذ الفلسفة وعلم النفس الدكتور أحمد

فؤاد الأهواني (١٩٠٨ ـ ١٩٧٠) في مرة أخرى، فألفيت الزيّات يستقبل ضيوف ندوته هاشّاً باشاً، ويشعرهم من أوّل لقاء بمؤانسته الجميلة ومودّاته الكريمة.

وكان عُمرُ الزيات وقتها ستيّن عاماً أو نحو ذلك، ولكنّ الغضون لم تكن قد زحفت على وجهه النضر الجميل المحيا، ولا كان الشيب قد غزا شعره، ربّما لأنه كان يتمتّع بنفس مطمئنة وصفاء روح، كان أميل إلى القِصَر، مع شيء من البدانة، لا تفارقه الابتسامة، ولا تسمع منه إلّا عفيف اللفظ.

صحيح أنه كان يفتح صفحات مجلّته للمعارك الأدبية، ويرحّب بها كعنصر من عناصر الرواج، ولكنه كان يتخذ منها موقف المتفرج أو المراقب المحايد، ولا يخوض فيها بنفسه إلّا باستخدام سلطة رئيس التحرير في مصادرة أي كلام يخرج عن دائرة النقاش الأدبيّ النظيف الشريف.

ومع هذا، فإن الزيات كان يترك أبواب مجلّته لأديبيّن ناشئين هما عباس خضر (١٩٠٨ ـ ١٩٨٧) وأنور المعدّاوي (١٩٢٠ ـ ١٩٦٥) يصولان فيها ويجولان، ويتعرّضان لكبار الكتاب والمفكرين وكأنهما من «قبضايات» لبنان! حتّى لقد نفّرا كبار الأدباء ـ وفي طليعتهم عباس محمود العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) ـ من الكتابة في المجلّة.

اقتربت من الزيات كثيراً عندما عهد إليَّ ناشرو مجلّة «قافلة الزيت» السعودية في استكتاب كبار الأدباء في مصر والعالم العربي والاتفاق معهم على الموضوعات التي يتناولونها في كتاباتهم.

فرغبت إلى الزيات في أن يكتب للمجلة فصلاً عن «مدرسة الرسالة» (نُشر في عدد (تموز ـ يوليو/آب/أغسطس) ١٩٦٣) وفيه اعتبر أن جميع الذين كتبوا في المجلّة من جميع الأقطار العربية مُنتمين إلى هذه المدرسة، وساق عشرات من أسماء الأدباء مُغفلاً اسمي، وبعد ذلك ببضع سنين، أجرى معه الدكتور جمال الدين الرمادي (قبل هجرته النهائية إلى الولايات المتحدة حيث توفي في أوائل السبعينات) حديثاً لمجلة «صوت الشرق» سأله فيه عن المنتمين إلى مدرسة «الرسالة»، فأملى عليه نفس الأسماء بعد استبعاد اسم سيّد قطب لاعتبارات سياسية، وإضافة اسمي في مكانه!

كما رغبتُ إلى الزيات في كتابة مقال عن «الحدود التي يصحّ فيها التجديد

في الأدب» (نشر في عدد كانون الأول - ديسمبر - ١٩٦٣/ كانون الثاني - يناير ١٩٦٤) قال فيه «إن التجديد طبيعة في الحياة والحيّ، ولكن لا بدّ في الشعر من المحافظة على سلامة الوزن وتساوي التفعيلات ولزوم القافية، فإن النظم بدونها يُفقد الشعر موسيقيته، وهي كلّ شيء فيه، ويجعله ضرباً عجيباً من الكلام، لا هو نثر ولا هو شعر».

وفي عام ١٩٦٤ أو نحوه، قرأت في مجلة «آخر ساعة» المصرية مقالاً فكهاً للأديب الساخر محمد عفيفي قال في تضاعيفه: إنه كان من قراء مجلة الرسالة «للمرحوم» الزيات! ولم أشأ أن أنبّه الزيات إلى هذا الخلط رفقاً بهدوء باله. ولكنّ الصحف السعودية تلقّفت هذه العبارة، وتوهّمت أن الزيات قد لقي وجه ربه، فأفاضت في نشر المراثي «للراحل العظيم» شعراً ونثراً، وخُصّصت صفحات كاملة في بعض المجلّات للحديث عن «الفقيد» وتاريخه الأدبي المجيد، وكنتُ في ذلك الوقت أتلقّى جميع الصحف السعودية بحكم تمثيلي لمجلة «قافلة الزيت» في القاهرة، فهالني كل هذا السواد الذي يجّلل صور الزيات والفصول الضافيات في رثائه. وكان مكتب الزيّات في وزارة الثقافة (عند إعادة إصدار «الرسالة» برياسة تحريره بين عامي ١٩٦٣ و١٩٦٥) قريباً من مكتبي، فبعثتُ إليه بكل هذه الصحف دون تعليق، وهاتفني مستوضحاً جلية الأمر، فرويت له ما كان من سقطة هذا الكاتب الساخر، ثم سألني: وما العمل؟ قلت عليك بالإبراق إلى هذه الصحف نافياً الخبر، مع تكذيبه في الصحف المصرية. وقد كان. وقال لي الزيات: صحيح أنني صُدمت من هول الذين تعجلوا منيّتي، ولكنّني حمدت الله على أن جميع الكتاب غمروني بآيات تقديرهم وأنصفوا شخصي وأدبي ورسالتي، وهكذا استسلفتُ ما سيقوله التالون عنّي، حسب تعبير الشاعر خليل مطران (١٨٧٢ - ١٩٤٩).

ولد أحمد حسن الزيات في اليوم الثاني من نيسان - إبريل ١٨٨٥ في محافظة الدقهلية، ودخل كُتّاب القرية، وانتقل منه إلى الأزهر حيث زامل طه حسين ومحمود زناتي، ولم يكن ثلاثتهم راضين عن الأسلوب الأزهري في الدراسة، فانصرف زناتي إلى الاشتغال بالوراقة وتجارة الكتب، في حين أخذ الزيات وطه حسين يترددان على الجامعة الأهلية المصرية لمتابعة المحاضرات التي كان الأساتذة المستشرقون يلقونها فيها وفقاً للمناهج الغربية، وتعلّما اللغة

الفرنسية، والتحق الزيات بمدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة، ثم سافر إلى باريس لمتابعة الدراسة هناك.

وبعد عودته، عمل مدرّساً للغة العربية في بعض المدارس المصرية والأجنبية، ثم سافر إلى العراق حيث قضى ثلاث سنين أستاذاً في دار المعلمين العليا، وعاد إلى القاهرة في عام ١٩٣٢ بعد أغلاق هذه الدار.

وفي العراق، ارتبط بصداقات وثيقة برجال الحكم ورجال الأدب وكان موضوع تكريم من الجميع لعلمه وخلقه الرضيّ.

وكان الزيات قد انضم إلى جماعة «لجنة التأليف والترجمة والنشر» التي يرأسها أحمد أمين، ولكنه آثر بعد عودته من العراق أن يستقلّ بنشاطه، فأصدر مجلة «الرسالة» على وعدٍ من زميله طه حسين بالمشاركة فيها، وفي هذا قال الزيات: في ذات عشية من عشايا تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٣٢ زرت أخي الدكتور طه حسين، وقلت له بعد حديثٍ شهيّ من أحاديث الذكرى والأمل: ما رأيك في أن نصدر معاً مجلة أسبوعية للأدب الرفيع؟ فضحك ضحكته التي تبتدئ بابتسامةٍ عريضة ثم تنتهي بقهقهةٍ طويلة وقال: «وهل تظنّك واجداً لمجلة الأدب الرفيع قرّاء في مجتمع ثقافةُ خاصته أوربية، وعقلية عامّته أُميّة، والمذبذبون بين ذلك وذلك لا يقرأون ـ إذا قرأوا ـ إلّا المقالة الخفيفة والقصة الخليعة والنكتة المضحكة؟ وقال لي بعد نقاش طويل: أنت وشأنك! أما شأني فهو المقال الذي أكتبه ورأيي الذي أراه».

وهكذا نفض طه حسين يديه من مشروع «الرسالة»، فنهض به الزيات بمفرده، وصدر العدد الأول منها في ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣، ولقيت رواجاً واسعاً شجّع الزيات على المضي في مشروعه بقدمين واثقتين.

وحفلت الرسالة منذ ظهورها بأقلام كبار الكتاب في مصر والعالم العربي: طه حسين، وعباس محمود العقاد، ومصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ ـ ١٩٣٧)، وإبراهيم عبد القادر المازني (١٨٩٠ ـ ١٩٤٩)، والدكتور عبد الوهاب عزام (١٨٨٤ ـ ١٩٥٩) والشيخ مصطفى عبد الرزاق (١٨٨٥ ـ ١٩٤٧) وغيرهم.

وكانت «الرسالة» تطبع على ورق الصحف، وتفتقر إلى فنون الإخراج الحديثة، ولا تنشر صوراً إلّا في العدد السنوي الممتاز الذي يظهر بانتظام في

رأس السنة الهجرية. واستمرّ إصدار مجلة «الرسالة» ـ مع ظهور شقيقة لها هي مجلة «الرواية» في عام ١٩٣٧ ولكنها لم تعمّر طويلاً ـ عشرين عاماً زاد عددُ ما صدر منها حتى توقّفها في ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٥٣ على ألف عدد تُعتبر سجّلاً أميناً للحركة الفكرية العربية في هذه الحقبة. وإذا كانت رداءةُ الطباعة والورق عرّضت مجموعات الرسالة الأصلية للتهرؤ، فقد أحسنت السيدة سعاد الصباح بإعادة نشر المجلة في طباعةٍ فاخرة، وحبّذا لو أضيف إلى هذه المجلدات فهرس شامل للكتاب والموضوعات يُستعان به في مراجعة موادّ المجلة على وجه السرعة.

ظهر العدد الأخير من المجلة يتصدره مقال للزيات عنوانه «الرسالة تحتجب» قال فيه: «كانت الرسالة منذ فحش غلاء الورق، وفَدَحَتْ نفقات الطبع تكفي نفسها أو تخسر قليلاً، وكنّا نواجه هذا الحال بالتعفّف والتقشف والصبر، فتزداد مرارتها أو تخفّ. فلمّا شاءت الضرائب ألّا تعقل، وأرادت الحكومة ألّا تُعلن، وقررت وزارة التربية والتعليم ألّا تشترك، أخذت الخسارة تنمو وتطرد حتى بلغت في العام المنصرم (عام ١٩٥٢) ألفاً ومئة عشرين جنيهاً. فرأينا في مطلع هذا العام أن نقوّي الرسالة لتصمد، وأن نعيد (الرواية) لتساعد، فإذا بالخسارة تتسّع، وبالطاقة تضيق، وبالأزمة تشتدّ، وبالأمل يضعف، فلم نجد بداً من الإذعان لمشيئة القدر».

وختم كلمته ـ التي أعاد نشرها في «الأهرام» بقوله: «ولكنّ القضاء غالب، والرجاء في الله أولى، ولكل أجلٍ كتاب، ولكل سافرةٍ حجاب، ولكل بداية نهاية».

وكان الزيات يملك مطبعة خاصة يطبع فيها مجلّته وكتب المؤلفين، تعلوها إدارة المجلة، ثم البيت الذي يقيم فيه، فباع المطبعة للأديب عمر الدسوقي، وانتقل للإقامة في ڤيلّا ـ أو دارة كما كان يصفها ـ ابتناها لنفسه في حي منيل الروضة.

وإذا كان الزيّات أشار إلى بعض الأسباب التي أدّت إلى توقف الرسالة، فقد أغفل سببين آخرين: أولهما أن ضياع فلسطين في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ أفقد الرسالة نصف عدد قرائها، فكانت هذه ضربة قاصمة للظهر. أما السبب الآخر،

فهو أن «جرثومة سامّة» فشت في تلك الفترة، فقتلت جميع المجلات الأدبية في مصر: المقتطف، والكاتب المصري، والكتاب، ومجلة علم النفس، والثقافة، في مواقيت متقاربة حتّى قال طه حسين قولته المشهورة: إن الإشعاع قد انتقل من القاهرة إلى بيروت.

جرت بعد ذلك محاولات لإحياء الرسالة ولو في ثوب مغاير، فأصدر يوسف السباعي مجلة «الرسالة الجديدة» في عام ١٩٥٤ مطبوعةً بالروتوغرافور على ورق مصقول ومزدانة بالصور ولكنها مُنيت بالفشل.

وفي عام ١٩٦٣ قررّت وزارة الثقافة إعادة إصدار «الرسالة» واختارت الزيات ليكون رئيساً لتحريرها، فاتّصل بجميع مؤازريها في الماضي - وأنا من جملتهم - ودعاهم إلى الكتابة في المجلة بعدما انتقلت كل الأعباء الإدارية والمالية إلى الدولة، فرحبت بالكتابة فيها على الرغم من نفوري الطبيعي من الكتابة في المجلات الحكومية التي تخضع للنواميس البيروقراطية.

وبقيت «الرسالة» في إصدارها الثاني تواصل الظهور إلى عام ١٩٦٥ عندما توقفت نهائياً.

وعندما عين الشيخ محمود شلتوت (١٨٩٣ - ١٩٦٣) صديق الزيات شيخاً للجامع الأزهر، اختار الزيات لرياسة تحرير مجلة «الأزهر» - عام ١٩٥٨ - على الرغم من أن المشايخ كانوا يطمعون في هذا المنصب، ويعتبرون أن الزيات لم يعد أزهرياً، فقد تخلى عن العمامة منذ ما سافر إلى باريس، وانقطعت صلته بالأزهر من سنوات بعيدة. وظلوا يتربصون به إلى أن أمسكوه في سقطة وردت في مقالٍ له خلط فيه بين أمور السياسة وأمور الدين خلطاً يفتقر إلى الفطنة، فقدّموا فيه عشرات من الشكاوى بغية تنحيته عن رياسة التحرير، ولكن الشيخ شلتوت تمسّك به.

رزق الزيات بولدين هما رجاء، الذي توفي في صباه، وفجع فيه أبوه أشدّ فجيعة، وعلاء الذي صار اليوم طبيباً مرموقاً.

وكُرّم الزيات في حياته بمنحه جائزة الدولة التقديرية، واختياره عضواً في المجامع اللغوية في القاهرة ودمشق وبغداد، وعضواً في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، ومن أبرز أعماله في مجمع القاهرة اشتراكه مع إبراهيم مصطفى

(١٨٨٨ ـ ١٩٦٢) وحامد عبد القادر (١٨٩٥ ـ ١٩٦٦) ومحمد علي النجار (١٨٩٥ ـ ١٩٦٥) في إصدار الطبعة الأولى من «المعجم الوسيط» في جزءين.

وللزيات كتب مؤلفة ومترجمة، هي: «تاريخ الأدب العربي» و«أصول الأدب» و«وحي الرسالة» في أربعة أجزاء و«دفاع عن البلاغة» و«تاريخ الأدب العربي» و«في ضوء الرسالة» و«عبقرية الإسلام» و«ذكرى عهود» كما ترجم «آلام فرتر» و«رفائيل» ومجموعة أقاصيص عنوانها «في ضوء القمر» وكان له كتاب مخطوط عنوانه «العراق كما رأيته» ولكن أصوله فُقدت منه. وعندما استعاد أيامه في العراق، كتب في عام ١٩٦٢ ثلاث مقالات في مجلة «العربي» على عهد الدكتور أحمد زكي (١٨٩٤ ـ ١٩٧٥) تحدّث فيها لا عن أعلام الأدباء الذين اتصل بهم، بل عن الحكايات العاطفية التي وقف عليها في الفندق العائلي الذي أقام فيه في بغداد، وبعضها حكايات تحرّج جمال الدين الألوسي من إثباتها في كتابه «أدب الزيات في العراق» عندما نقل هذه المقالات من «العربي» لما فيها من خروج على العرف.

توفي الزيات في ١١ حزيران (يونيو) ١٩٦٨، ولكن آثاره باقية، فقد تميّز بأسلوب ناصع البيان، تتراءى فيه جميع فنون البلاغة من سجع وجناس وطباق ولكن دون تكلف. وكان يقضي يوماً كاملاً في الاعتكاف متى شرع في كتابة المقال الافتتاحي «للرسالة»، يكتبه، وينقحه، ويتأنق فيه، مرّكزاً كل آرائه في صفحة ونصف تخرج على القرّاء آية في الروعة وجمال الديباجة وحلو اللفظ والمعنى. حتّى لقد رأيت واحدةً من الأديبات تزيّن جدران غرفتها بمقالات الزيات محوطةً بإطارات جميلة.

❁ ❁ ❁

أحمد حسين

إن آخر شخص كنت أرغب في التواصل معه هو أحمد حسين الذي عُرف في الشق الأول من حياته بأنه محرّض أو مهيّج، وبأنه يتحدث بلغة الحديد والنار والتهديد والوعيد. وقد شهدتُ الخطب التي كان يلقيها في السرادقات المقامة، ورأيت الشرر يخرج من فيه، والأرض تهتز تحت قدميه وهو منفعل، تتحرك يداه وكل جسمه في كل اتجاه، وهو منطلق كالسهم في خطب تمتد ساعات وساعات بلا كلل أو ملل.

كان مثله الأعلى أدولف هتلر زعيم حركة النازي الألمانية، وبنيتو موسوليني زعيم الحركة الفاشية الإيطالية، وكان يحاكيهما في مواقفه الخطابية، ولو ملك مدفعاً لوقف عليه كموسوليني يريد بخطبه أن يدك الأرض دكاً.

وقد سعى أحمد حسين إلى لقاء هذين الزعيمين وعاد وهو أشد افتتاناً بشخصيتهما ومنهاجهما الاستفزازي الذي مهّد للحرب العالمية الثانية.

وعندما التقيت بأحمد حسين للمرة الأولى في ندوة المجاهد الفلسطيني محمد علي الطاهر المكنّى «بأبي الحسن» (١٨٩٦ ـ ١٩٧٤) جافيته، ولم أستجب لمطارحاته الوديّة، بل بعثت إليه بُعيد ذلك برسالة قلت له فيها: «إنني أكره فيك هذه النزعة النازية الفاشية، ولا أريد أن أصافح يداً صُبّت من حديد». والغريب أنه جاوبني برسالة قال فيها: إن كراهيته من جانبي تسعده، وإنني لو عرفت حقيقة معدنه لتحولت مشاعري نحوه من النقيض إلى النقيض.

كانت حياة أحمد حسين منذ ما تخرج من كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول ـ بل وهو ما زال طالباً ـ تشبه المرجل الذي لا يكف عن الغليان، وكان أول ظهوره في المجتمع عندما احتشد مع مجموعة من الفتية هم فتحي رضوان (١٩١١ ـ ١٩٨٨) وحافظ محمود (ت١٩٩٦) ومحمد صبيح (١٩١٠ ـ ١٩٨٣) وانبعثوا يشنون حملة في طول البلاد وعرضها أطلقوا عليها اسم «مشروع القرش»،

يناشدون الناس أن يتبرع كل منهم بقرش واحدٍ فقط لاستخدام حصيلة التبرعات في إنشاء مصنع للطرابيش عوضاً عن استيراد خامتها من الخارج - من النمسا على ما أذكر، فما دام الطربوش هو غطاء الرأس الوطني في مصر، فلتكن صناعته بأيدٍ مصرية، حتى لا يقال: إن الأجنبي يستعمر حتى رؤوس المصريين، وقد نجحوا فعلاً في إقامة هذا المصنع، وما زال «شارع مصنع الطرابيش» في حي العباسية شاهداً تاريخياً على هذا المشروع الذي انتهى دوره بانتهاء عرش الطربوش، وانقراض جميع الصناعات المرتبطة به.

اشتغل أحمد حسين بعد ذلك بالمحاماة وبالصحافة، وأصدر جريدة «الصرخة» في الثلاثينيات وجعل منها لساناً للقوى الرافضة لكثير من أوضاع المجتمع ونظمه، مما عرّضه لمحاكمات هو وكتّاب الجريدة.

واعتقد أحمد حسين أن السبيل إلى الإصلاح هو النشاط الحزبي، فأنشأ حزباً أطلق عليه اسم «مصر الفتاة» وجعل الزي الرسمي لأعضائه قميصاً أزرق تشبُّهاً بالكتائب الهتلرية والموسولينية، وتحول أصحاب القمصان الزرق إلى ما يشبه الميليشيا الداعية إلى الإصلاح بالقوة، فكانوا يهاجمون الملاهي ومحال بيع الخمور، ويحطمون محتوياتها، ويفتكون بأصحابها.

وكان أحمد حسين يعقد المؤتمرات الصاخبة، ويلقي فيها خطباً نارية حتى صار مطارداً من الشرطة في جميع الأوقات، وصارت المعتقلات والسجون مرابعه الدائمة! ولم يلبث أن غيّر اسم حزبه إلى «الحزب الاشتراكي» واسم جريدته إلى «جريدة الاشتراكية» وجعلها صوتاً صارخاً زاعقاً في وجه السلطة: الاحتلال الإنكليزي والنظام الملكي. وبلغ من جرأته أنه نشر على صفحتين كاملتين صوراً لمواطنين في أسمالهم البالية وخرقهم الممزقة تحت عنوان عريض «رعاياك يا مولاي»!.

وفي عام ١٩٤٩ طلب أحمد حسين لقاء مع الرايت أونرابل كليمنت أتلي رئيس وزراء بريطانية ليحاول إقناعه بضرورة جلاء البريطانيين عن مصر، ولكن أتلي اعتذر عن مقابلته بسبب كثرة مشاغله، فوجّه إليه رسالة مطبوعة باللغة الإنكليزية سجل فيها رأيه كتابة، وكان قد بعث برسالة إلى الهر هتلر وهو في قمة مجده.

كان كل تاريخ أحمد حسين آية على أنه «مهيّج» و«محرّض» فلا الملك،

ولا كل الحكومات التي تعاقبت على حكم مصر ـ حتى الحكومات الائتلافية التي كانت تضم ممثلين للأحزاب المختلفة رضيت بأن تتعامل مع أحمد حسين وحزبه الاشتراكي، ولا أن تمد إليه يداً، بل كانت الشرطة في كل العهود تترصده عساها تحد من نشاطه.

وعندما احترقت القاهرة في ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢ اتجهت جميع الأصابع ـ بحق أو بباطل ـ إلى أحمد حسين، فقد واتت الفرصة أخيراً لمحاكمته وإدانته والتخلص منه على أعواد المشانق، ولم ينقذه من هذا المصير المؤكد إلا قيام حركة الضباط في ٢٣ تموز (يوليو) من نفس العام، فأفرج عنه وإن لم يؤمن جانبه، إذ اعتقل في عهد الثورة عدة مرت، واضطر إلى الهرب خارج مصر، ولما عاد كان قد تاب عن السياسة توبة نصوحاً، وانصرف بكليته إلى الاهتمامات الفكرية، وبعدما كنت طوال المرحلة السابقة أتحاشاه كراهية في اتجاهاته ولكي أدرأ عن نفسي شبهات التعامل معه، أصبحت آنس إليه، لأنه بدأ صفحة جديدة، هي في اعتقادي الأبقى والأجدى.

وكم كانت دهشتي عندما أهداني أول ثمرة من ثمار هذا التحول تتمثل في رواية طويلة عنوانها «أزهار» كانت حلقة من ثلاثية اختار لجزئيها الآخرين عنوان «الدكتور خالد» و«احترقت القاهرة»، وهي سيرة ذاتية من خلال الأحداث التي مرَّ بها أحمد حسين، وقد أبدع فيها إبداعاً كبيراً على الرغم من امتزاج الخيال بالواقع في بعض فصول هذه الثلاثية. وعند ظهور رواية «أزهار» كان صديقي العلامة الأمير مصطفى الشهابي (١٨٩٣ ـ ١٩٦٨) رئيس مجمع دمشق[١] يزور القاهرة للمشاركة في المؤتمر السنوي لمجمع القاهرة، فرجاني أن أشير عليه بكتاب يطالعه من قبيل الترويح عن النفس، فأشرت عليه بمطالعة رواية «أزهار»، فبعث إلي بعد قراءتها برسالة (مندرجة في مجلة «الأديب» اللبنانية في عدد حزيران/يونيو ١٩٦٤) قال فيها: «قرأت قصة «أزهار» لمؤلفها الأديب الألمعي أحمد حسين، وهي التي أشرتم علي بقراءتها يوم كانت صحتي تحول دون دوامي على الأعمال المجمعية المتعبة، ولا أكون مغالياً إذا قلت لكم إن هذه القصة الماتعة هي من أروع ما قرأت من القصص والروايات، سواء في لغتنا الضادية أو

---

(١) المجمع العلمي العربي والذي صار اسمه مجمع اللغة العربية.

في اللغة الفرنسية، فتصوير طبقات المجتمع فيها جميل، وكذلك سرد الموضوعات وتسلسلها، فلا شيء فيها يدعو إلى الملل، وأنا الذي عشت مع حوادث ذلك الزمن لم تستغلق علي، في تلاوة القصة، حادثة منها، على الرغم من تعمد المؤلف عدم ذكر الأسماء الصحيحة لرجال السياسة في تلك الأيام. فأرجو نقل تهنئتي إلى المؤلف الفاضل، وحثه على إتمام هذه السلسلة المفيدة». وأضاف الأمير الشهابي حاشية نصّها: «لا يشوب القصة في نظري إلا اتباع المؤلف فيها أحياناً الرأي القائل بإثبات جمل عامية في التخاطب، وبتسهيل اللغة الفصحى إلى حد إدخال كلمات غير صحيحة فيها، ولا شك أنه يلاحظ مراعاة نجيب محفوظ، ولا سيما محمود تيمور (١٨٩٤ ـ ١٩٧٣) لهذه الناحية في مؤلفاتهما الحديثة».

وغريب أن يختار اتحاد الكتاب المصريين مئة رواية عربية باعتبارها أهم الروايات التي صدرت في القرن العشرين دون أن يدرج هذه الثلاثية ضمنها.

كان أحمد حسين قد أيقن ـ قبل فوات الأوان ـ بأن دوره كرجل سياسي وزعيم حزب قد انتهى نزولاً على واقع الحياة ما دامت الدولة قد احتكرت لنفسها هذه الميادين، وعرف أن السنوات التي قضاها في السجون والمنافي والمطاردات قد كانت حصيلتها الفعلية لا شيء. فوقف بقية حياته على مشاغل الفكر، ولم يمنعه عن ذلك إصابته بفالج عطل جميع وظائف جسمه، ما عدا عقله ويمناه، فكان في وسعه أن يفكر وأن يكتب ما يريد وهو جالس على مقعده المتحرك.

وكان أكبر انقلاب في حياة أحمد حسين هو تحوّله من مذهب القوة والعنف إلى رحاب الإنسانية، ممّا تمثّل في كتبه «تاريخ الإنسانية» و«الأمة الإنسانية» و«كوكب الإنسانية»، و«الطاقة الإنسانية». وقد رحب أستاذنا عباس محمود العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) بدعوتي لقراءة الكتاب الأخير النفيس، وإعداد دراسة عنه نشرتُها في عدد تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦٢ من مجلة «قافلة الزيت» السعودية التي كنت أمثلها في مصر، وصف فيه الكتاب بأنه «كتاب الموسم»، وقال عنه: «استطاع المؤلف أن يقر بالوسائل التجريبية أن الإنسان لا يحلم بشيء في الخيال يعجز عن تحقيقه في صورته العملية، وأن الطاقة الإنسانية تصنع المعجزات لتحقيق تلك الأحلام متى استعدت لها بعدّة الإرادة الصادقة، وتمكنت من توجيه تلك الإرادة إلى هدفها على طريق السواء والهداية».

ولعلّ المحنة المرضية لأحمد حسين هي خير برهان على أنه استطاع بطاقته

الإنسانية أن يتغلب عليها، وأمكنه بقوة الإرادة أن يواصل رسالته في المجال الفكري الذي تفرغ له تماماً بعدما أغلق مكتب المحاماة الذي كان يديره ويدافع من خلاله عن حقوق العمال التي عالجها في كتابين هما «علاقات العمل» و«مجموعة تشريعات العمل» فضلاً عن ترافعه في عدد من القضايا السياسية.

وبفضل هذا التفرغ توالت كتب أحمد حسين بين مؤلفة ومترجمة، كما تكاثرت مقالاته في الصحف، فترجم عن تولستوي مسرحية «نور يسطع في الظلام»، وترجم مسرحيتين اجتماعيتين بعنوان «من الحياة» وأصدر «موسوعة تاريخ مصر» وكتاباً عن «الزواج والمرأة»... عدا ما سبق له تأليفه من كتب عن رحلاته في منابع النيل بعنوان «من وحي الجنوب» وفي آسية بعنوان «يقظة العملاق» وفي المملكة العربية السعودية بعنوان «مشاهداتي في جزيرة العرب» وفي الهند بعنوان «أمة تبعث» كما أصدر كتاباً عنوانه «إيماني».

وعندما نبهني الزميل أنور الجندي ـ المتوفى في ٢٨ يناير ٢٠٠٢ ـ إلى الوضع الصحي المتدهور لأحمد حسين، وكنت وقتها شبه معتزل للحياة العامة، سعيت إلى زيارته مع الجندي في بيته بجزيرة الروضة ـ وهو بيت طالما مررت به طوال المرحلة الثانوية في طريقي إلى مدرستي دون أن أعرف أن أحمد حسين يقيم فيه ـ فاستقبلنا وهو جالس على كرسيه المتحرك، وقد أطلق لحيته بغير تشذيب، وقامت ابنته بدور المترجم لما كان يصدر منه من همهمات لا تُبين، في حين اغرورقت عيناه بالدموع وهو يصافح صديقين قديمين. فتذكرت مواقفه الخطابية التي كانت تهز المنابر هزاً عندما كان حزبه يحتفل بالمناسبات المختلفة، ورثيت لهذا الخطيب المفوّه وقد أصبح لسانه عاجزاً عن الكلام، وإن كان ذهنه شديد اليقظة.

ولم أشأ أن أطيل الزيارة إشفاقاً على صحّته، وتخفيفاً من انفعالاته، وأيقنت وقتها أن شمعة حياته لن تلبث أن تنطفىء سريعاً، وقلت لزميلي: إنني لن أعاود زيارته لأنها تورث كلينا ألماً ممضاً، فهو يألم لأنه أصبح بلا حول أو طول، وأنا آلم لأنني لا أستطيع له عوناً، ولكن الأقدار أرخت له في العمر وهو في هذا الوضع الصحي إلى أن فاضت روحه إلى بارئها في ٢٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢، تلك الروح التي كان «الجلّادون» يدبرون لاقتصالها على حبل المشنقة قبل ثلاثين عاماً! فماتوا جميعاً أما هو فطالت منيته، وتوفي عن واحد وسبعين عاماً؛ لأنه من مواليد عام ١٩١١.

أحمد زكي أبو شادي

في عام ١٩٤٥ كانت الحرب العالمية الثانية تلفظ أنفاسها الأخيرة، وشرعت دول الحلفاء تصفّي مكاتبها الخاصة بالاستعلامات التي أقامتها في نواح شتّى من العالم، ومن جملتها مكتب الاستعلامات الحربية الأمريكي في القاهرة، وكان صديقي المستشرق الأمريكي جورج رنس George-Rentz (١٩١٢ ـ ١٩٨٦) يدير وحدةً من وحدات هذا المركز، وقد عرفته بعدما تزّوج زميلةً من زميلاتي الجامعيات.

وفي إحدى زياراتي لمكتبه سألني عمَّا إذا كنت أعرف الدكتور أحمد زكي أبا شادي. فقلت له: إنني لا أعرفه شخصياً، ولكنّه أديب متعّدد المواهب والاهتمامات، وإنْ يكن في الأصل طبيباً، وإنه كان يصدر مجلّة خالصةً للشعر ونقده هي مجلة «أپولو». ثم استوضحته عن سبب سؤاله عنه، فأجاب بأن أبا شادي قد تقدّم بطلب للهجرة النهائية إلى الولايات المتحدة مع أسرته، وأنه يعتزم السفر بمجرّد انتظام رحلات سفن الركاب التي توقّفت رحلاتها بسبب الحرب، وقد طُلب منّي إعداد مذكرة عنه.

وفي عدد ٢٢ نيسان (إبريل) ١٩٤٦ قرأت في مجلة «الرسالة» المصرية لصاحبها أحمد حسن الزيّات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨) رسالةً وداعيةً موجّهة من أبي شادي كتبها عشيّة هجرته، وأرفق بها مرثيةً لزوجته الإنكليزية التي كان مرضها العضال من أقوى دوافع الهجرة تلمّساً لأسباب العلاج المتقدم في الولايات المتحدة، وقد أُدرجت المرثية بمقدّمةٍ جاء فيها «سافر إلى نيويورك يوم الأحد الماضي الدكتور أحمد زكي أبو شادي ليقيم بها هو وأسرته، وقد أرسل إلينا عشية سفره هذه القصيدة ومعها كتاب يقول فيه: كان بودّي أن أزورك مودّعاً قبيل مبارحة وطني الذي لم تسمح لي الظروف بخدمته كما أود، ولكن أحوالي الخاصة لم تمكنّي من مغادرة الإسكندرية (التي كان يقيم فيها) لهذا القصد،

وسأبحر منها مع أولادي على الباخرة ڤلكانيا يوم الأحد ١٤ نيسان (إبريل) وعلى فمي بيت المتنبي:

إذا تَرَحَّلْتَ عَنْ قومٍ وَقَدْ قَدِرُوْا ألّا تُفَارِقَهُمْ فالرَّاحِلُوْنَ هُمُ!

«وكان بودّي لو حمّلتُ رسالة توديعي طاقةً باسمةً لا هذه المرثية الحزينة لزوجتي، ولكنّها أغلى ما أملكه الآن، وقد ارتسمت فيها ذكرياتي وعواطفي وأشجاني».

وعلّق الزيات على هذه الرسالة بقوله: «كتب الله للدكتور السلامة، ومنَّ عليه في مهجره بطيب الإقامة».

وصل أبو شادي إلى نيويورك مع أولاده الثلاثة: صفية ورمزي وهدى، ولم يكن أيٌّ منهم قد استكمل دراسته الجامعية، ولا كانت هناك وظيفةٌ جاهزةٌ تنتظره في المهجر، فتعيّن عليه، وهو صاحب التراث الأدبي الضخم في الوطن أن يبدأ من نقطة الصفر، آملاً أن تكون شهرته الأدبية قد سبقته إلى أواسط العرب المهاجرين بحيث تُوطِّيء له مكاناً حفيّاً بينهم، سواء في الصحف العربية التي كانت تصدر هناك، مثل جريدة «الهدى» لصاحبيْها نعوم مكرزل (١٨٦٤ ـ ١٩٣٢) وسلّوم مكرزل (١٨٧٩ ـ ١٩٥٢) و«السائح» لصاحبها عبد المسيح حداد (١٨٩٠ ـ ١٩٦٣) و«السمير» لصاحبها إيليا أبي ماضي (١٨٨٩ ـ ١٩٥٧) و«نهضة العرب» لصاحبها سعيد داود فيّاض وسواها، أو في أقسام الدراسات العربية في الجامعات الأميركية، أو في الأمم المتحدة، التي كانت حديثة عهد بالنشوء، ولكنّه فوجئ بمقالٍ للشاعر إيليا أبي ماضي عنوانه «ليس منّا» هاجم فيه أبا شادي، رافضاً أن يعترف له بمكان بين عُصَبة المهجريين.

ومن المفارقات الصارخة، أنه حين تبّرأ أبو ماضي من أبي شادي، فقد انتهزت أكاديمية الشعراء الأميركيين وجمعية الشعر الأمريكية فرصة ظهور ديوان «من السماء» لأبي شادي ـ وهو الديوان الوحيد الذي ظهر له في الولايات المتحدة ـ فأقامتا حفلاً جامعاً في فندق والدورف أستوريا يوم ٣٠ نيسان (إبريل) ١٩٥٠ تكريماً للشاعر وصفه أبو شادي بقوله: «اشتركت فيه الحكومات العربية وجامعات شتّى وأساتذة أعلام ومستشرقون فطاحل من أوربة وأميركة ورجال الصحافة وصفوة أدباء المهجر ومراسلون بارزون من أقطارٍ شتّى إلّا مصر العزيزة

التي أحببتها الحبّ كله، وخدمتها بجوارحي طوال حياتي، وما زلتُ أخدمها بدافع من ضميري وحده».

وقد وقف أبو شادي ريع هذا الديوان لخدمة القضية الفلسطينية، فأهدى ألف نسخة منه، شحنها على حسابه الخاص، إلى حكومة عموم فلسطين التي كان مقرها في القاهرة لتباع وتخصّص حصيلة البيع للقضية الوطنية.

كان على أبي شادي وقد بلغ الرابعة والخمسين من عمره عند هجرته، فهو من مواليد ٩ شباط (فبراير) ١٨٩٢ ـ وهي سنّ متأخرة نسبياً ـ أن يطرق أبواب العمل جميعاً في سبيل الرزق له ولأسرته، ولعلّه لو طرق باب الطبّ لألفاه مفتوحاً على مصراعيه أمامه، ولكنّه آثر الاشتغال في ميادين أخرى، فعمل مندوباً للمملكة العربية السعودية، ومستشاراً للوفد الإرتري في ثلاث دورات متتالية منذ بدء عمل الأمم المتحدة، وحرّر في جريدة «الهدى» وجريدة «السائح» وجريدة «النيويورك هرالد تريبيون» وحاضر في جامعة نيويورك وفي معهد آسية، وارتبط بإذاعة صوت أمريكة التي صال فيها وجال أديباً وشاعراً وناقداً ومؤلّفاً مسرحياً ومعلقاً، وهو العمل الذي ظلَّ يزاوله حتى وفاته في ١٢ نيسان (إبريل) ١٩٥٥.

وكان من أسباب هجرة أبي شادي أنه ـ دون أن ينخرط في أي أنشطة سياسية عدا ميوله الوفدية الطبيعية ـ قد صادف في عمله كوكيلٍ لكلية الطب في الإسكندرية مضايقات كثيرة، كما تَعَرَّض لهجوم عنيف من عباس محمود العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) الذي اتهّمه بأنه صنيعة السراي، وقال: إن الاتجاه الرومانسي العاطفي الذي طغى على شعراء أپولو كان محاولةً من حكومة الطاغية إسماعيل صدقي باشا (١٨٧٥ ـ ١٩٤٥) لصرف الشعراء والمفكّرين عن دفع بلاء الاستبداد، وذلك باستغراقهم في شعر الحب والعاطفة هروباً من الواقع السياسي الكئيب للحياة.

وتوهّم أبو شادي أن من شأن هجرته وضع حدٍ لهذه المضايقات التي اضطرته إلى تكليف محاميه محمد لطفي جمعة (١٨٨٦ ـ ١٩٥٣) برفع دعاوي أمام المحاكم ضد مناوئيه، وفي طليعتهم الشاعر محمد مصطفى حمام (١٩٠٦ ـ ١٩٦٤) الذي كان ينشر عنه مقالات ساخرة في الصحف الهزلية، بل زيّف قصيدةً للشاعر أحمد شوقي (١٨٦٩ ـ ١٩٣٢) امتلأت بعبارات التجريح في أبي شادي.

ولكنّ المتاعب ظلت تلاحق أبا شادي حتّى وهو بعيد عن وطنه، فقد اتفق أن زار الصحافي مصطفى أمين بك صاحب دار «أخبار اليوم» الولايات المتحدة في عام ١٩٤٩ وبعث من هناك إلى جريدته برسالة جاء فيها: إن أبا شادي هاجم مصر في سلسلة من المقالات نشرها في جريدة «الهدى» وواقع الأمر أن أبا شادي كان يهاجم الفساد، ولا سيّما بعدما امتلأت صحف العالم بأخبار النشاط الماجن للجالس على عرش مصر، وتلقّف عباس خضر (١٩٠٨ ـ ١٩٨٧) هذا الخبر ليجعل منه موضوعاً جديداً من موضوعات تحرّشاته المستمرّة بكبار الأدباء، فانتهز فرصة اعتكاف الزيات صاحب «الرسالة» في ضيعته بالمنصورة، واطمأن إلى أن أبا شادي لن يطالع «الرسالة» في مهجره، فعقد كلمةً بعنوان «أبو شادي العجيب» نشرها في عدد ٢٢ آب (أغسطس) ١٩٤٩ من «الرسالة» قال فيها: «إن أبا شادي مكث دهراً ينظم كلاماً فارغاً، ويقذف به ديواناً وراء ديوان، وهو يحاول أن يُقنع الناس بأنه شاعر، فأخفق ولم يُفلح إلّا في إفساد المذهب التجديدي في الشعر العربي... حتّى لقد نفّر أبو شادي بعض المجيدين من لفظ التجديد، وأصبح مثار التندّر في مجالسهم... إن مصر لا تستحقّ هجومه عليها إلّا لسبب واحد هو أنه من أبنائها، وإنْ كانت كفّرت عن ذنبها بلفظه وقذفه إلى ما وراء البحار»!.

غضب أبو شادي لهذا الهجوم، فقد كان من قرّاء «الرسالة» حتّى في مهجره، وبعث بكلمة إلى الزيّات نُشرت في عدد ١٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٩ بعنوان «بين الأدب والوطنية والأخلاق» عاتب فيها الزيات لسماحه «بترديد مطاعن جارحة في أخلاقي وفي محبتي لمسقط رأسي» واستنكر أن تقابل خدماته لوطنه الأول بالجحود قائلاً: إنه وجد في الصحف الأميركية مجالاً لنشر آرائه «بعدما حال الرقيب دون نشر آرائي الحرّة في مصر، ولحمتها وسداها الدفاع عن صوالحها العليا وعن عاملها وفلاحها وعن حرّياتها العامة وعن عرش مصر».

ونشرت «الرسالة» في نفس العدد دفاعاً عن أبي شادي بتوقيع عبد الحفيظ نصّار من دمنهور جاء فيه: «آلمني حقاً الأسلوب الذي تحدّث به الكاتب الفاضل عن رجل كان له في الحياة الأدبية أثر لا ينكر... ومن المعروف أن أبا شادي بذل مجهوداً صادقاً في خدمة الأدب الحديث، وأقلّ ما يُنسب إليه من فضل أنه جمع جمهور شعراء العربية، وحفز همم الشباب منهم بنوع خاص، ومَنْ يُنكر

نشاط جماعة أپولو التي كان رئيسها شوقي ووكيلها أحمد محرم (١٨٧٧ ـ ١٩٣٢) وسكرتيرها أبو شادي؟ وأعتقد أنه قبل مجلة أبولو وهي مجلة خاصة بالشعر ودراساته ممّا لم يسبق له نظير في عالم الصحافة العربية ـ كان القارئ العربي لا يعرف شيئاً عن هذا العدد الكبير من شعراء الشباب بنوعٍ خاص، نذكر في طليعتهم الشاعر أبا القاسم الشابي (١٩٠٩ ـ ١٩٣٤)... فهل أفسد أبو شادي سليقته؟».

ولمّا فاض الكأس، اضطر أبو شادي إلى إصدار «بيان شامل لمواطنيه المصريين» نشرته مجلة «الصباح» القاهرية لصاحبها مصطفى القشاشي بك في عددها بتاريخ ٢٥ تموز (يوليو) ١٩٥١ جاء فيه: «آمنت بأن العوامل التي أرغمتني إرغاماً على الهجرة من وطني لا تزال سائدة، بل إنها شرٌّ ممّا كانت عليه، وبناءً على ذلك، فإني سأقضي في أميركة البقية القصيرة الباقية من حياتي، وعلى الأخصّ بعد اشتداد المرض عليّ في أواخر إبريل (نيسان) من هذا العام، حتّى إني لم أنجُ من الموت إلّا بأعجوبة... والآن، بعد اضطراري إلى تنظيم استقراري في أميركة نهائياً، لا أطلب إلّا تركي وشأني هنا. والأوْلَى بأولئك الأصدقاء والمريدين الذين يودّون، كرماً منهم، عودتي إلى مصر ألّا ينسوا أن شخصي هو مبادئي وتفكيري فحسب... وسأظلّ إلى آخر أنفاسي على هذا العهد من الحب والوفاء، دون النظر إلى أي جزاء».

وقد أعاد العلامة الأردني روكس بن زائد العزيزي نشر هذا البيان في ذيل كتابه الجديد «يوميات الدكتور أحمد زكي أبي شادي».

وجرياً على الخطة التي اتّبعها أبو شادي في الماضي، أدار ظهره لحملات أبي ماضي الذي كان يقول عنه: إنه يحبّ شعره ويمقت شخصه، وعاود سيرته القديمة في إنشاء الجمعيات الأدبية، واختار للجمعية الأدبية الجديدة التي أنشأها في أميركة اسم «رابطة منيرڤا» قانعاً ـ كعادته ـ بمنصب الأمين العام، أما الرياسة فقد أسندها إلى الشاعر نعمة الحاج (١٨٨٩ ـ ١٩٧٨)، كما افتتح لنفسه منذ حزيران (يونيو) ١٩٤٦ مكتباً في نيويورك أطلق عليه اسم «المكتب الأدبي المصري» يزاول من خلاله نشاطه في إعداد الدراسات والمحاضرات والمقالات والقصائد التي تفرّغ لها تفرغاً كاملاً، ولا سيّما بعدما توزّع أبناؤه في أميركة طلباً للعلم أو للعمل، وصار يعيش بمفرده في ضاحية جاميكا لا يشغله عن أعماله الفكرية شاغل.

وعندما ترمّلت «زينب» وهي أول حبّ في حياته خلّده في ديوان كامل يحمل اسمها، وإنْ كانت الظروف لم تسمح وقتها بتتويج هذا الحبّ بالزواج، جرت محاولات مع أبي شادي لتحقيق الحلم من جديد، ولكنّها محاولات لم يحالفها التوفيق، فتزوّج من أميركية من أصل إيطالي، وتبنى ابنها الذي صار يعرف حتى اليوم باسم «كلايف أبو شادي».

وفي أثناء إقامته في أميركة نشرت له طائفة من الكتب في مصر، مثل «أبو شادي في المهجر» وجزءين من مسرحيات «من نافذة التاريخ» و«مملكة النحل» كما نشر له رضوان إبراهيم (١٩١٩ ـ ١٩٧٥) ثلاثة كتب هي «شعراء العرب المعاصرون» و«عظمة الإسلام» و«الإسلام الحي»، وطُبعت له في بيروت «رباعيات الخيام» مترجمةً شعراً بمقدّمة للعلامة روكس بن زائد العزيزي، ونُشر له في الولايات المتحدة كتابان بعنوان «دراسات أدبية» و«دراسات إسلامية»، وأعدّ ديوانين باللغة الإنكليزية ما زالا مخطوطين عنوان أولهما «أغاني العدم Songs of Nothingness» وعنوان الثاني «أغاني الفرح والحزن Songs of-Joy and Sorrow» . وأشرفتُ بعد وفاته على إخراج دواوينه المخطوطة وهي «الإنسان الجديد» و«النيروز الحرّ»، و«إيزيس» و«من أناشيد الحياة». وسبقت الإشارة إلى «يوميات الدكتور أحمد زكي أبي شادي» التي نشرها العلامة العزيزي.

أمّا آثاره النثرية وهي مجموعة ضخمة من الأحاديث والدراسات والمقالات التي سبق تنضيدها في سلاسل بعنوان «وليمة منيرفا» و«هذا ما يعنينا» و«كتب حيّة» و«الأدباء الأقباط» و«الإسلام في نقائه» و«أحاديث إسلامية» وغيرها، فقد كان في نية أبي شادي إصدارها في كتاب متعدّد الأجزاء بعنوان «الكشكول» ولكن وفاته حالت دون ذلك.

عرفتُ أبا شادي بعد هجرته، عندما أطلعني صديقي مصطفى عبد اللطيف السحرتي (١٩٠٢ ـ ١٩٨٣) ـ وهو من أركان أپولو ـ على أخبار الحفل الضخم الذي أقيم لتكريم أبي شادي في فندق والدورف أستوريا، فحرصت على نشر وقائع هذا الحفل في صفحة كاملة من جريدة «المقطم» تتصدّرها صورة بانورامية جامعة للمشاركين وهم عشرات. وعلى إثر ذلك، تلقيت رسالة شكر من أبي شادي، شفعها بأهدائي نسخةً من ديوانه «من السماء» ثم اتّصلت بيننا المراسلات، حتّى تلقيت آخر رسائله بتاريخ ٨ نيسان (إبريل) ١٩٥٥ بعد أيام من

وفاته في الثاني عشر من ذلك الشهر، إذْ كان جالساً في حديقة بيته الذي انتقل إليه في واشنطن العاصمة، عندما صرخ بأنه لم يعد يرى شيئاً، ولم يلبث أن لفظ أنفاسه متأثراً بجلطة في المخّ. ومن المفارقات العجيبة أنني زرت واشنطن في شهر تموز (يوليو) من نفس العام أي بعد ثلاثة أشهر من وفاته، ولو تقدّم موعد زيارتي أو لو أُرخي له في العمر هذه الأشهر الثلاثة لصافحت وجهه بدلاً من الوقوف على قبره.

كان أبو شادي متعدّد المواهب، يرسم بالريشة وله نحو خمسين لوحة استولت عليها زوجته الثانية بعد وفاته، ولا يُعرف مصيرها، وكانت له عناية بتربية النحل في بيته، بل أنشأ جمعيةً لهواة تربية النحل، وأصدر مجلة متخصّصة في ذلك، ومجلة أخرى خاصة بتربية الدواجن، وشارك في إنشاء جمعيات التعاون الزراعي.

وكان أبو شادي عند هجرته قد عبّأ جميع كتبه في صناديق توطئةً لشحنها إلى مقرّه في الولايات المتحدة، واستقرّت هذه الصناديق في مستودعات (البوندد) في جمرك الإسكندرية انتظاراً لإتمام إجراءات الإفراج عنها، وهي إجراءات اتّضحت استحالة الوفاء بها بسبب العقبات البيروقراطية، فاستنجد بي عساي أوفق في هذه المهمة. وكان لوزارة المالية وكيل مُستنير هو الدكتور محمد توفيق يونس، وكانت تربطني به صلة ودّ، فكتبت إليه رسالة أوضحت فيها أن أبا شادي يسخّر كل حياته في مهجره لخدمة وطنه وأمّته وثقافته العربية، وهو في أشدّ الحاجة إلى مكتبته الخاصة المعبأة في صناديق عرضة للأمطار والرياح وعوامل الجو في مخازن ميناء الإسكندرية، فلعلّك تأمر بالإفراج عنها. فبادر الدكتور يونس بإصدار أمره بالإفراج عنها فوراً بعد عرضها على الرقابة؛ لأن الرقابة لم تكن من سلطته. وجيء بالرقيب الهمام، وقيل له: إن المطلوب هو الموافقة على الإفراج عن هذه الكتب ـ ويزيد عددها على خمسة آلاف كتاب ـ ولا بأس من قراءتها كتاباً كتاباً بشرط التعجيل بهذه المهمّة حتى لا تتزايد رسوم التخزين المفروضة عليها، فما كان منه إلّا أن وقّع على الأوراق دون أن يقرأ كتاباً واحداً، وشُحنت الكتب إلى وجهتها، فوصلت إلى أبي شادي في أواخر عام ١٩٥١. وتلقيت منه بعد ذلك رسالةً تاريخها ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥١ جاء فيها «لم أشأ أن أبلغك من قبل عن المأساة التي أصابت صناديق كتبي حتّى لا

تتكدّر وحتى نصل إلى حلّ، فأولاً الصناديق وصلت مكسورة الجوانب ومسروق منها مئات من الكتب حتّى اضطرت مصلحة الجمارك هنا إلى سدّها بألواح من الخشب! وثانياً، ضاع صندوق كامل فلم يصل. وثالثاً، جميع المخطوطات والمستندات والرسائل الأدبية الهامة مفقودة، ولم أعثر إلّا على مخطوط ديوان (عبد الحكم الجرّاحي) ـ وهو أحد شهداء الوطنية من الطلاب في الثلاثينيات ـ وأشياء قليلة أخرى، وأما ديوان «نزغات الشيطان» للزهاوي فلم نهتد إليه، وما زلنا في أخذ وردّ مع شركة الملاحة دون جدوى إلى الآن، وأنا لا يهمّني التأمين، وإنّما تهمّني تلك الآثار الأدبية».

ومخطوطة ديوان «النزغات» للشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ ـ ١٩٣٦) تحتاج إلى وقفة. كان الشاعر قد أودع هذه المخطوطة لدى صديقه سلامة موسى (١٨٨٧ ـ ١٩٥٨) بُغية نشرها ذات يوم، فقام الأخير بإيداعها لدى أبي شادي، لأن سلامة موسى كان مستهدفاً لإغارات الشرطة التي تصادر كتبه وأوراقه كلّما اعتقلته.

وبقيت هذه المخطوطة لدى أبي شادي، فلمّا بحث عنها ضمن صناديق كتبه لم يعثر عليها، واعتقد بأنها فقدت، وظلّ على هذا الاعتقاد إلى وفاته، وبينما كانت كريمته صفية تقلّب في كتبه، عثرت عليها فقامت باستنساخها وأهدتني نسخةً منها مع رجاء بعدم نشرها، لأن المخطوطة كانت عُهدةً لدى أبيها ولم يكن مرخّصاً له في نشرها، وفي هذه الأثناء كان الشاعر العراقي هلال ناجي، اللاجئ السياسي في القاهرة، يُعدّ كتاباً عن الزهاوي، ورغب إليَّ في الاتصال بابنة أبي شادي للحصول على المخطوطة. وبعد ما تكررت زياراته واشتدّ إلحاحه قلت له: أن صورة المخطوطة عندي، ولكنّني وعدتُ بألا أنشرها. فقال: إنه لا يريد إلّا الإطلاع عليها للاسترشاد بها في بحثه عن الزهاوي، وإنه سيعيدها إليّ دون تأخير. وتلقاء إلحاحه ووعده بعدم نشر المخطوطة أعرته إياها. وفوجئت بعد ذلك بصدور كتاب «الزهاوي وديوانه المفقود» وفي متنه النص الكامل لهذه المخطوطة التي استطاع الباحث أن ينفرد بالحصول عليها ونشرها!.

أما مكتبة أبي شادي، زائداً كل ما استجدّ من كتب تلقّاها في مهجره، فقد قامت كريمته صفية بإهدائها إلى جامعة يوطا UTAH الأميركية عندما كان المؤرخ المصري الدكتور عزيز سوريال عطية (؟ ـ ١٩٨٨) صديق أبي شادي يعمل أستاذاً

للتاريخ فيها، فخصَّص لها جناحاً في خزانة الكتب الجامعية وعهد في الإشراف عليه إلى أمين مكتبة يلمّ باللغة العربية.

وإذا كان أبو شادي قد صادف كثيراً من الجحود في حياته، فإنّ ذلك لم يطمس صورته المضيئة في الحياة الأدبية المعاصرة، فقد قامت «دار صادر» في لبنان بطبع المجموعة الكاملة لمجلة «أپولو» لأهميتها القصوى في الحياة الأدبية باعتبارها أوّل مجلة عربية خالصة للشعر صدرت في العالم العربي (عام ١٩٣٢) وتلتها بعد ذلك عدة مجلات منها «القيثارة» لمحررها عبد العزيز أرناؤوط التي صدرت في دمشق عام ١٩٤٦ ومجلة «شعر» التي صدرت في بيروت عام ١٩٥٧ لمحررها يوسف الخال، ومجلة «الشعر» التي صدرت في القاهرة عام ١٩٦٣ لمحررها الدكتور عبد القادر القِط، ومجلة «الشعر» التي ما زالت تصدر في القاهرة منذ عام ١٩٧٦ وتعاقب على تحريرها الدكتور عبده بدوي، وفتحي سعيد، وخيري شلبي.

كما صدرت عن أبي شادي وجماعة أبولو طائفة كبيرة من الدراسات الأدبية والجامعية لأساتذة من أمثال الدكتور محمد مندور والدكتور، محمد عبد المنعم خفاجي، والدكتور كمال نشأت، والدكتور عبد العزيز الدسوقي، والدكتور محمد سعيد فشوان، والدكتور يسري العزب، والدكتور سيد البحراوي، والدكتور طلعت عبد العزيز أبو العزم، وجميل زهير كتبي وغيرهم. كما عُقدت دراسات أكاديمية كثيرة على روّاد أپولو.

وكان من عادة أبي شادي أن يطبع دواوينه على نفقته الخاصة في خمسين نسخة محدودة يوزّعها على أصدقائه، وكان من نتيجة ذلك أن صار الاهتداء إلى دواوينه عسير المنال، ولا سيما لأن دار الكتب الوطنية لم تكن خُصَّتْ بقانون «الإيداع» الذي يلزم الناشرين بإيداع نسخ من كتبهم فيها.

وخير ما يصنعه المجتمع الأدبي لتبديد آثار الجحود الذي عانى منه أبو شادي هو إعادة طبع جميع كتبه ودواوينه التي أربى عددها على الخمسين حتّى نجلو صورة هذا الرجل الضخم في أذهان المعاصرين.

❁ ❁ ❁

إسحاق موسى الحسيني

ينتمي الدكتور إسحاق موسى الحسيني إلى عائلة الحسيني الشهيرة في بيت المقدس، التي أنجبت عدداً من كبار المشتغلين بالسياسة والصحافة والاقتصاد، وأبلوا بلاء حسناً في خدمة قضية فلسطين، ومنهم مَنْ استشهد في سبيلها مثل القائد عبد القادر الحسيني (١٩٠٨ ـ ١٩٤٨) شهيد القسطل.

وقد عرفت عدداً من أعضاء هذه العائلة الماجدة منذ أيام الدراسة الجامعية، حين زاملني إسحاق عبد السلام الحسيني الذي أنشأ بعد تخرجه جريدة «الوحدة» اليومية في يافا، فلّما تعاظمت الأحداث الإرهابية في فلسطين تحت حكم الانتداب البريطاني، غادر بلاده إلى طرابلس الغرب. وعندما التقيت به هناك كان يملك ويدير مرأباً لإصلاح السيارات! وسألته وقتها: والصحافة؟ والقضية؟» فقال: «البركة في زعمائنا وحناجرهم ذات الدويّ»! وقد توفي هناك في أوائل السبعينات.

كما عرفت سماحة الحاج محمد أمين الحسيني (١٨٩٧ ـ ١٩٧٤) مفتي القدس الأكبر ورئيس الهيئة العربية العليا الفلسطينية عند وصوله إلى القاهرة عام ١٩٤٦، قادماً من ألمانية متخفياً وراء جواز سفر الدكتور معروف الدواليبي، لأن السلطات البريطانية كانت تطارده، بل كانت تطالب بتسليمه إليها.

وقد أولاني المفتي من مودّاته وثقته ما أذكره له بكل إجلال وتوقير، وبقي في مصر يعمل في سبيل قضية بلاده، تحيطه الهيبة والوقار إلى أن استشعر استخفافاً بدوره في حشد الجهود لإنقاذ بلاده، وتضييقاً عليه في نشاطه، فغادر القاهرة سرّاً إلى بيروت في عام ١٩٥٩ ليواصل منها نضاله، وبقي هناك إلى أن لقي وجه ربه في الرابع من تموز (يوليو) ١٩٧٤. وكانت أمنيته أن يموت ويدفن في بيت المقدس، ولكنها باتت بعيدة المنال.

وإذا كان زميلي إسحاق عبد السلام الحسيني خدم قضية بلاده عن طريق

الصحافة قبل أنْ يكسر أقلامه، وإذا كان مفتي فلسطين قد وقف حياته على النضال السياسي والتعبوي في سبيل نصرة الحق في فلسطين، فإن الدكتور إسحاق موسى الحسيني اختار لخدمة قضية بلاده الجانب الأكاديمي والثقافي اعتقاداً منه بأن الثقافة هي سبيل التضامن العربي، ولو تحقّق هذا التضامن على أي مستوى علمي، ودع عنك أحلام الوحدة البعيدة المنال ـ لاستطاع العرب أن ينتزعوا حقوقهم بأيديهم وأن يفرضوا على المجتمع الدولي إرادتهم لاستخلاص ما ضيّعوه بتفرّقهم من الحقوق، بل المصائر وكل أمجاد الماضي غير البعيد.

كانت المرة الأولى التي تنبّهتُ فيها إلى الرسالة الثقافية للدكتور إسحاق موسى الحسيني ـ وهو بدوره من مواليد بيت المقدس في عام ١٩٠٤ ـ عندما صدرت له في شهر آب (أغسطس) ١٩٤٣ رواية «مذكرات دجاجة» في سلسلة «اقرأ» في السنة الأولى لصدور هذه السلسلة. وفي هذه الرواية، أجرى المؤلف على لسان الطير دروس الحكم والأخلاق، وانتقد ما في المجتمع من شهوات وأحقاد وأطماع وعدوان وأنانية، وغايته المتوّخاة هي أن ينصلح عالم البشر إذا ما استوصى بالقيم الخلقية وأخذ الحكمة من مناقير الطير، وعندئذٍ تهون مهمّة إنقاذ الوطن من مخالب الأعداء.

وعندما أجرت دار المعارف استفتاء بين القراء حول أفضل كتاب صدر في هذه السلسلة في عامها الأول، فاز كتاب «مذكرات دجاجة» بثقة القراء، وساعد ذلك على ذيوع شهرة إسحاق موسى الحسيني في مصر بسبب شعبية هذه السلسلة، على الرغم من أنه كان ينشر كثيراً من المقالات في مجلة «الرسالة» لمحررها أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨) ومجلة «الثقافة» لمحررها الدكتور أحمد أمين (١٨٨٦ ـ ١٩٥٤).

ولكنني لم أعرف الدكتور الحسيني شخصياً إلّا عندما زاملته في التدريس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وكان هو يدّرس الآداب العربية في حين كنت أدرّس علوم الصحافة، وما أكثر ما التقينا سواء في الاجتماعات الأكاديمية أو في مكتبة الجامعة أو في حرمها. ولو لم أكن أعرف أن إسحاق موسى الحسيني فلسطيني من بيت المقدس، لقلت: إنه مواطن عربي لا يفترق عن المواطن العربي في مصر أو سورية أو لبنان، لأنه يؤمن بأن أمة العرب أمة واحدة، وأن الحواجز الجغرافية والتخوم المرسومة بين الأقطار المختلفة هي حواجز مصطنعة وتخوم

شكلية يترفّع عن الاعتراف بها العروبي الصادق العروبة، حتّى وإنْ اضطرته هذه الأوضاع الواقعية إلى الإذعان لها كارهاً بل محتجاً.

كان إسحاق موسى الحسيني رشيق القوام وبقي محافظاً على هذه الرشاقة طوال العمر، ولعلّ من أسباب ذلك حبّه لرياضة المشي، وزهده في الجلوس الدائم وراء مقود السيارة، وكانت له عينان نافذتان، ولا أذكر أنني رأيته يستخدم العوينات في أي وقت على الرغم ممّا كان يبذله من جهد مُضنٍ في القراءة والكتابة. وكان متواضع الهيئة أنيقاً دون أن يصطنع الأناقة، وكان يصدق فيه قول الشاعر:

تَرَىٰ الرَّجُلَ النَّحِيْلَ فَتَزْدَرِيْهِ وَفِيْ أَثْوَابِهِ أَسَدٌ مَزِيرُ[1]

وكان إذا اخترق فناء الجامعة حسبته واحداً من طلابها وليس من أساتذتها الكبار لفرط تواضعه ولنفوره من جميع مظاهر التعالي والتشامخ.

وكان إذا تحدّث سواء في محاضرة أو في نجوى بين صديقين، كان خفيض الصوت، لا يتكلم إلّا بمقدار، ولا يُسلس للحدّة قياداً. فهو هادئ الطبع، أنيس المعشر، لا تسمع منه كلمة نابية أو عبارة ناشزة، والناس عنده سواسية، سواء أكانوا من علية القوم أم من سواد الناس.

جمعتنا المناسبات الأدبية مع ملكة عربية سابقة، تعمل أستاذة جامعية بحكم نشأتها الأكاديمية، وفي حين كنتُ متحرّجاً من التحدّث معها بلغة بروتوكولية، كان إسحاق موسى الحسيني يتحدث معها بعفويةٍ وطلاقة، صحيح أنه في حضرة أميرة حملت تاج العرش على رأسها ذات يوم، ولكنّها من قبل ومن بعد إنسانة تجمعه بها زمالة الثقافة، فلِمَ التهيّب من محادثتها ما دام الحديث يدور في حدود الأدب، ويتناول أمور الثقافة والفكر، فليكن إذن حديثاً مباشراً لا تلوّنه عبارات المجاملة أو النفاق.

كان إسحاق موسى الحسيني منذ ما غادر بلاده فلسطين بعد النكبة في عام ١٩٤٨ يحمل معه قضية شعبه بين جوانحه أينما حطّ به المزار أو ساقته الأقدار في المهام العلمية الكثيرة التي اضطلع بها، سواء في البلاد العربية أو في أوربة

---

(١) المزير: القوي الشكيمة.

وأمريكة أو حتى في اليابان. وكانت أمنيته التي يعبّر عنها في كل مناسبة هي أن يعود إلى بيت المقدس ليموت فيها ويدفن إلى جوار الآباء والأجداد، وهي أمنية تحققت بعد طول اغتراب وتطواف بين القارات، وشفع له في تحقيقها أنه رجل علم لا يحمل سواه سلاحاً، فعاد إلى القدس في عام ١٩٧٤ وأهدى المدينة مكتبته الخاصة التي يحمل كل كتاب منها أثار أنامله المنبّشة وضوء عينيْه القارئتين، وحلّت منيته في التاسع عشر من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٠ عن ٨٦ عاماً. وكان يتمنى أن تكون عودته مقترنة بعودة جميع النازحين إلى ديارهم، وأن يكون الوطن قد تحرّر واستعاد مكانه على الخارطة الجغرافية العالمية، ولكن هذا الأمل لم يَخْبُ أبداً عنده، ولا ذوت جذوته في صدره، وقد عبّر عنه في آخر حديث ألقاه في مجمع اللغة العربية بالقاهرة في مؤتمره السنوي لعام ١٩٩٠ حيث قال بلسانه المبين: إن المعوّل على مثقفي الأمة في استردد حقوقها الضائعة.

كان إسحاق موسى الحسيني يستأجر بيتاً يقيم فيه في حي مصر الجديدة، وظلّ يحتفظ بهذا البيت حتى بعد تقاعده وعودته إلى القدس، لأنه كان ينتظم في حضور المؤتمر السنوي لمجمع القاهرة، وليس له عن بيته غِنًى. ولكنه أخبرني في زيارته الأخيرة للقاهرة في عام ١٩٩٠ أنه سيكف عن المجيء إلى القاهرة أو المشاركة في مؤتمر المجمع، ولما استوضحته السبب، قال: إن صاحب البناية التي يقيم في إحدى شققها انتهز فرصة غيابه، واستولى على الشقة، وكوّم أمتعتها في مستودع، ولم يعد له بالتالي بيت يضمّه كلما رغب في زيارة القاهرة، وكأنما كان يتنبأ بقرب رحيله، لأن عمره انقضى في آخر تلك السنة، وانتفت بالتالي الحاجة إلى البيت وإلى الزيارة المجمعية السنوية.

ولد إسحاق موسى الحسيني في بيت المقدس في عام ١٩٠٤، وتعلم هناك في مدارس عربية ثم فرنسية وإنكليزية. وكان أستاذ العربية الذي تفتحت على يديه كنوز الضاد هو المعلم نخلة زريق (١٨٦١ ـ ١٩٢١) عضو المجمع العلمي العربي في دمشق، وأيضاً العلامة محمد إسعاف النشاشيبي (١٨٨٢ ـ ١٩٤٨). وشرع في سنّ مبكرة ينشر مقالات في الصحف الفلسطينية، ولكنه لم يقنع بإتمام الدراسة الثانوية، فقرر السفر إلى القاهرة، حيث التحق بالجامعة الأمريكية فيها، وتخرج منها عام ١٩٢٥، وعند عودته إلى القدس عين مدرساً في الكلية الرشيدية لمدة عامين، انتوى بعدهما أن يتابع دراسته في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

بالقاهرة، ومنها نال درجة الليسانس في اللغة العربية في عام ١٩٣٠. وعاد بعد ذلك إلى فلسطين وهو أكثر توقاً إلى الاستزادة من الدراسة الجامعية، فسافر إلى لندن، والتحق بمعهد الدراسات الشرقية التابع لجامعة لندن، ومنه ظفر بدرجة البكالوريوس مع مرتبة الشرف في عام ١٩٣٢، وتابع بعد ذلك الدراسة في نفس المعهد متخصصاً في الآداب السامية على يدي المستشرق البريطاني هاملتون ألكسندر جيب (١٨٨٥ ـ ١٩٧١) ونال شهادة الدكتوراه في عام ١٩٣٤.

وعاد إلى القدس ليخدم بلاده في ميدان التعليم، وعمل مدرساً بين عامي ١٩٣٤ و١٩٤٦، ثم اختير مفتشاً أول للغة العربية في حكومة فلسطين حتى عام ١٩٤٨، وأنشأ في عام ١٩٤٥ لجنة الثقافة العربية في فلسطين ـ وكان سكرتيراً لها ـ فتعاونت هذه اللجنة مع المؤسسات الثقافية العربية في تنظيم سلسلة من المحاضرات، وأقامت في عام ١٩٤٦ أول معرض للكتاب الفلسطيني، وأصدرت دليلاً للمؤلفين الفلسطينيين وآثارهم. واختير عضواً في مجلس التعليم العالمي لحكومة فلسطين إلى أن حلت النكبة النكباء في عام ١٩٤٨. وعندئذٍ سافر أولاً إلى حلب، ومنها إلى بيروت حيث عمل أستاذاً للغة العربية في جامعتها الأميركية بين عامي ١٩٤٩ و١٩٥٥. وفي أثناء ذلك، أُعير مرتين للعمل أستاذاً في جامعة مكجيل في كندة وتولّى منذ عام ١٩٥٥ منصب أستاذ الآداب العربية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، واستعان به ساطع الحصري (١٨٨٠ ـ ١٩٦٨) ليرأس قسم الآداب العربية في معهد الدراسات العربية العالية التابع للجامعة العربية، وفي أثناء ذلك اختير عضواً عاملاً في مجمع القاهرة مع عشرة من كبار العلماء العرب في عام ١٩٦١ وعضواً في المجمع العلمي العراقي في نفس العام، وعضواً في لجنة البحوث الإسلامية في الأزهر عام ١٩٦٢، وشارك في كثير من اللجان والمؤتمرات الثقافية في البلاد العربية والخارج، وحاضر في عدد من الجامعات الأمريكية.

وفي عام ١٩٦٧ تقاعد الدكتور إسحاق موسى الحسيني من عمله في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ولكنه ظل يواصل عمله في معهد الدراسات العربية العالية إلى أن قرر العودة النهائية إلى القدس في عام ١٩٧٤.

وللحسيني إسهامات كثيرة في الموسوعات والمجلات الأكاديمية، حيث استعانت به دائرة المعارف البريطانية والمجلات الأميركية المتخصصة ونشرات

اليونسكو في إعداد دراسات عن العالم العربي، كما شارك ببحوث كثيرة قدّمها إلى مجمع القاهرة.

أما مؤلفاته، فمنها «رأي في تدريس اللغة العربية» و«أساليب تدريس اللغة العربية» و«الأدب والقومية العربية» و«المدخل إلى الأدب العربي المعاصر» و«النقد الأدبي المعاصر» و«أزمة الفكر العربي» و«عروبة بيت المقدس» و«هل الأدباء بشر»؟ و«علماء المشرقيات في إنكلترة» و«ابن قتيبة، حياته ومؤلفاته»، وهو باللغة الإنكليزية[1]، و«عودة السفينة» و«مذكرات دجاجة» و«العروض السهل» وهو في جزءين ألفه بالاشتراك مع فائز الغول (١٩١٥ ـ ١٩٧٢) و«فن إنشاد الشعر العربي» وقد ترجمه عن اللغة الفرنسية بالاشتراك مع الأب اسطفان سالم (١٩١٣ ـ ؟) و«الإسلام في نظر الغرب». كما أصدر سلسلة من كتب الأطفال.

ولو جمعت بحوثه المتناثرة في المجلات الأدبية والعلمية لأضافت إلى آثاره المنشورة عدة مجلدات ضخام.

ووفاء من إسحاق موسى الحسيني لأستاذه العلامة محمد إسعاف النشاشيبي، أشرف على جمع سلسلة المقالات التي كان ينشرها في مجلة «الرسالة» بعنوان «نُقل الأديب» ونشرها في كتاب قدّم له بالحديث عن النشاشيبي وإسهاماته في الأدب العربي.

كما أشرف الحسيني على عدد من الأطروحات الجامعية التي كان يعدّها طلاب معهد الدراسات العربية العالية، وتدور موضوعاتها حول اللغة والعروبة وأعلام الضاد.

وإذا كان الدكتور إسحاق موسى الحسيني لم ينشر إلّا كتاباً واحداً عن مدينة القدس هو «عروبَة بيت المقدس»، فقد أعدّ بحوثاً مجمعية دارت حول المدينة مثل «أسماء بيت المقدس» و«علم من بيت المقدس» عدا بحثه عن «أسماء فلسطين» وفضلاً عن ذلك، شجّع الباحثين على تحقيق المخطوطات التي تتناول تاريخ هذه المدينة، فنهض الدكتور كامل السوافيري (١٩١٧ ـ ١٩٩٢) بتحقيق كتاب «مُثير الغرام إلى زيارة القدس والشام» من تأليف أبي محمود بن هلال

---

(١) وهي رسالته لنيل الدكتوراه، وقد عرّبت ونشرت في بيروت.

القدسي، وإنْ ظلّ هذا الكتاب مطويّاً لأنه لم يُنشر. وهناك مخطوطة أخرى عن تاريخ القدس عنوانها «الإكليل في تاريخ القدس الجليل» وكان الدكتور الحسيني يسعى جاهداً في سبيل التشجيع على نشرها ولو في مسابقة بين الأدباء تُرصد فيها جائزة، وذلك وفاءً منه لمسقط رأسه.

وبعد هجرة ولديه وابنته إلى الولايات المتحدة صارت أمتع مباهجه اليومية أن يتجول في صبيحة كل يوم في أرجاء بيت المقدس يستقبل الندى ورذاذ المطر، ويستروح ذكريات الماضي، تؤنس وحدته قُدسيةُ المكان وعواطف المواطنين، إذْ كان سكان المدينة يرونه منطلقاً بقامته المهيبة، وقد حمل على رأسه تاجاً من الشعر الأبيض المرسل ولسان حاله يردّد «القدس لنا».

❁ ❁ ❁

إسماعيل مظهر

عرفتُ إسماعيل مظهر في مجلة «المقتطف» التي عمّرت ٧٧ عاماً منذ إنشائها في عام ١٨٧٦ وإلى توقفها عن الصدور في آخر عام ١٩٥٢، وهي مجلة أصدرها في بيروت الدكتوران فارس نمر (١٨٥٦ ـ ١٩٥١) ويعقوب صرّوف (١٨٥٢ ـ ١٩٢٧) بوصفها «جريدة علمية صناعية» كما طُبع على الصفحة الأولى من العدد الأول. وإزاء مضايقات سلطات الدولة العثمانية الحاكمة، نقلا المجلة إلى القاهرة في عام ١٨٨٥ حيث انضم إلى أصحابها شاهين مكاريوس (١٨٥٣ ـ ١٩١٠). وكان إسماعيل مظهر رابع رئيس تحرير لهذه المجلة بعد يعقوب صرّوف وابن أخيه فؤاد صروف (١٩٠٠ ـ ١٩٨٥) والدكتور بشر فارس (١٩٠٧ ـ ١٩٦٣). وكنت في ذلك الوقت أعمل محرراً في «دار المقتطف والمقطم»، ولم يكن باقياً على قيد الحياة من أصحاب الدار سوى الدكتور فارس نمر الذي عمّر خمسة وتسعين عاماً.

جاء إسماعيل مظهر إلى «المقتطف» في عام ١٩٤٥ وكان وراءه تاريخ حافل بالتمرّد، يشهد على ذلك أنّه وإن كان ينتمي إلى أسرة ذات وجاهة وسراوة، إلّا أنه انشغل بالتيارات الاشتراكية، ووضع في ذلك عدّة كتب منها «عصر الاشتراكية» و«التكافل الاشتراكي لا الشيوعية»، و«الدين في ظلّ الشيوعية» وغيرها.

كما أنه فُتن بنظرية داروين في النشوء والارتقاء، فترجم كتابه بعنوان «أصل الأنواع»، وألّف عن النظرية كتاباً عنوانه «مُلقي السبيل في مذهب النشوء والارتقاء»، ممّا عرّضه للاتهام بالمروق.

وعندما أصدر إسماعيل مظهر مجلة «العصور» بين عامي ١٩٢٧ و١٩٣١ فتح أبوابها لمصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ ـ ١٩٣٧) لمهاجمة غريمه عباس محمود العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) بأسلوب شديد الإقذاع حيث وضع العقّاد «على السّفُود» كي يشويه بناره الحارقة بلا رحمة. ولم يجرؤ الرافعي على توقيع هذه الفصول

باسمه الصحيح تهيّباً لصولة العقاد، فَظُنَّ في بادئ الأمر أن كاتبها هو إسماعيل مظهر نفسه، ولكن أسلوب الرافعي المأثور عنه وشى به ودلّ عليه.

وكانت مجلة «المقتطف» مشهورةً بالاعتدال، فتتفادى الموضوعات التي تثير جدلاً سياسياً أو مذهبياً أو دينياً، وتمتنع عن التجريح أو الاتهام، ولكن إسماعيل مظهر، الذي سبق له أن كتب في المجلة عشرات من الفصول منذ عام ١٩١٩، لم يرَ أن يتقيّد بهذه السياسة التقليدية المحافظة، ولا استطاع أن يتخلّص من تمرّده، فاحتفى احتفاءً عريضاً بكتاب «هذي هي الأغلال» لعبد الله القصيمي (ت ١٩٩٦) وعقد عليه افتتاحيةً عدد من أعداد المجلة مع أن الكتاب أثار عواصف من الجدل الديني ولا سيّما في المملكة العربية السعودية. ومضى إسماعيل مظهر في تمرّده فهاجم الدكتور طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) هجوماً شرساً في المجلة بسبب قبوله العمل في تحرير مجلة «الكاتب المصري»، وهي مجلة كانت تموّلها دار يهودية.

ولمّا ضاق صاحب «المقتطف» بتمرّد إسماعيل مظهر الذي خرج عن السياسة المرسومة للمجلة أعفاه من رياسة تحريرها في عام ١٩٤٩ وخلفه في العمل نقولا الحدّاد (١٨٧٠ ـ ١٩٥٤) وبعده جاء أسبيرو جسري الذي غير اسمه إلى سامي الجسري، وهو الذي عمل في المجلة سنوات طويلة كسكرتير لتحريرها، فكان آخر مَنْ تولوا رياسة تحريرها، وعلى يديه أُغلقت المجلة نهائياً في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٢.

واستحدث إسماعيل مظهر في أثناء عمله في المجلة «لواحق» أو ملاحق تضاف إلى كل عددٍ، يتضمّن كل منها كتاباً كاملاً أو فصولاً من كتاب تُستكمل في لحق الشهر التالي، وهكذا كان القارئ يحصل على مجلة وكتاب في كل عدد. كما كانت المجلة تصدر شهرياً عشر مرات في السنة وتحتجب في شهري الصيف، ثم تعوّض مشتركيها عن هذه العطلة بكتاب بحجم عددَيْن، فانتهز إسماعيل مظهر هذه الفرصة وأهدى إلى القراء ما جمعه من كتابات أستاذ الجيل الدكتور أحمد لطفي السيد باشا (١٨٧٢ ـ ١٩٦٣) ـ وهو وإسماعيل مظهر ينتميان إلى قرية برقين من أعمال محافظة الدقهلية، وكان مظهر متزوجاً من شقيقة لطفي السيد. أما الكتابان اللذان نشرهما للطفي السيد وَوُزّعا كهدية من مجلة «المقتطف» فهما الجزء الثاني من كتاب «المنتخبات» (وكانت دار المعارف قد أصدرت جزأه الأول)

وكتاب «صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر».

لم تنته صلتي بإسماعيل مظهر بخروجه من «المقتطف» بل بقيتُ موصول الأسباب به سواء عندما كلّفني تليفزيون الظهران بتسجيل خمسة أحاديث علمية له، أو عندما كلفتني مجلة «قافلة الزيت» التي كنت أمثلها في مصر أن استكتبه فيها، أو عندما تعاونتُ معه عند اختياره رئيساً لتحرير «الموسوعة العربية الميسّرة» فأعددت البنود التي اندرجت فيها عن الصحافة والصحف والصحفيين على الصعيدين العالمي والعربي، وهي الموسوعة التي ظهرت بعد وفاة إسماعيل مظهر واستكمل العمل من بعده زميله في رياسة التحرير المؤرّخ عبد الرحمن زكي (١٩٠٤ ـ ١٩٨٠).

وأشهد أن إسماعيل مظهر، برغم تمرّده وعنفه في بعض ما كتب، كان رجلاً هادئ الطباع يتحلّى بأخلاق النبلاء، ويتجمّل بالتواضع الحميد، ولا يتحدّث إلّا عن علم وبصوتٍ خفيض، ولا تزدهيه أمجاده التي تتمثل في المعاجم التي صنّفها، والكتب التي ألّفها وترجمها، وهي ضخام حجماً وموضوعاً. وكان بصورة عامّة زاهداً في الوظائف التي تسمّره في مقعده، وتلزمه بالمحافظة على مواعيد منتظمة في الدخول والخروج، إذْ كان يؤثر العمل في بيته بين كتبه ومراجعه، كما كان يقضي في ضيعته الخاصة في برقين شطراً من أوقاته.

ولد إسماعيل مظهر في القاهرة في الثامن من كانون الثاني (يناير) ١٨٩١ وتعلّم ـ كما أخبرني بذلك ـ على مشايخه في حيّ الحلمية الجديدة حيث كان يقيم، وهو حيّ قريب من الأزهر، ومن أقدم أحياء القاهرة. ولمّا بلغ أشدّه، قرّر إصدار جريدة أسبوعية في عام ١٩٠٧ أطلق عليها اسم «الشعب»، ولكنه اضطر إلى إغلاقها كي يسافر في العام التالي (١٩٠٨) إلى إنكلترة للدراسة في جامعتي لندن وأكسفورد، وبقي هناك حتى عام ١٩١٤ ثم عاد إلى مصر ومعه شهادة في علم الأحياء.

بعد عودته أصدر مجلة «العصور» وحرّر مجلة «المقتطف» وعمل خبيراً في لجان مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وساعد المستشرق الألماني أوغست فيشر (١٨٦٥ ـ ١٩٤٩) في إعداد معجمه اللغوي التاريخي الذي قضى أربعين عاماً في تصنيفه، ولم يخرج إلى الوجود لا في حياته ولا بعد وفاته.

وفي عام ١٩٦١ انتخب إسماعيل مظهر عضواً عاملاً في مجمع القاهرة، ولكن عضويته لم تطل لأنه لحق بربّه في الثالث من شباط (فبراير) ١٩٦٢. وكانت جريدة «الأخبار» تنشر يوميات إسماعيل مظهر في سنوات عمره الأخيرة.

أنجب إسماعيل مظهر ثلاثة أبناء هم جلال (ت١٩٨٨) الذي كان حرياً بأن يكون امتداداً لأبيه في اهتماماته الفكرية والعلمية، حيث اشترك مع أبيه في ترجمة كتاب «أحداث شهيرة من التاريخ»، وانفرد بنشر عدة كتب منها «مآثر العرب على الحضارة الأوربية» و«علوم المسلمين أساس التقدم العلمي الحديث» وترجم كتاب «عمالقة العلم»، ولكنه سرعان ما برم بركود الحياة الفكرية، وسيطرة الفكر الدعائي الإعلامي على الحياة الثقافية، فاعتزل في الضيعة في برقين يربي الدجاج. ولمّا سألته عن هذا التحوّل في حياته قال: إنه يتكيف مع طبائع الدجاج، بأيسر ممّا يتكيف مع طبائع البشر، وإن حياة الريف ببساطتها أهنأ من حياة المدن بكل ضجيجها وصخبها ومنافساتها التي تُقطع فيها الرقاب حسب التعبير الإنكليزي. ولمّا سألته: ألا تحنّ إلى الكتب والأوراق؟ قال في نغمةٍ يائسة: وما الفائدة من علم لا ينتفع به إلّا صاحبه؟ فإن سكبناه على الورق لم نجد ناشراً ولا قارئاً إلّا بشق الأنفس. فدعني يا صاحبي أربّي الدجاج وأحصد بيضة كل صباح، وسوقه رائجة بحمد الله.

وأما النجل الثاني عقيل مظهر فقد كان من الضباط الأحرار الذين نُقلوا بعد ذلك إلى وظائف مدنية، فعيّن سكرتيراً لمحافظة الدقهلية. ولم يشأ عقيل أن يفوّت هذه الفرصة، فعمل على إقامة احتفال كبير تخليداً لذكرى أبيه، ابن الدقهلية الوفيّ، شارك فيه أصدقاء إسماعيل مظهر، وهم محمود تيمور (١٨٩٤ ـ ١٩٧٣) والدكتور محمد صبري السوربوني (١٨٩٤ ـ ١٩٧٨) والمؤرخ عبد الرحمن زكي، والمؤرخ محمود الشرقاوي (ت١٩٧٢) والأديب محمد عبد الحليم عبد الله (١٩١٣ ـ ١٩٧٠) وكاتب هذه السطور.

وعندما توفيت أرملة إسماعيل مظهر، توجهتُ إلى سرادق العزاء حيث استقبلني جلال، ولمّا سألته عن شقيقه عقيل، أشار إلى شيخ يعتمر عمامةً خضراء، ويطلق لحيته بغير تشذيب، ويرتدي جلباباً قصيراً ويحيط خصره بحزام من الجلد تتصّل به حقيبة صغيرة، وقال لي: لقد أصبح شيخ طريقة من الطرق الصوفية! فقمت إليه ـ وقد اختلف مظهره عليّ ـ وتبادلنا العناق والقبلات، وقلتُ

في سرّي: ما أعجب تصاريف هذا الزمان؟ لقد كانت تُهمة المروق تطارد إسماعيل مظهر، وها هو ابنه يتحوّل إلى شيخ من شيوخ الدين.

أما الابن الثالث فهو سمير وهو يتولى الإشراف على الضيعة.

وعندما زرت إسماعيل مظهر في بيته أطلعني على آلاف من الجذاذات التي أعدّها واستعان بها في تصنيف عددٍ من المعاجم أهمها «قاموس النهضة» الإنكليزي/العربي في جزءين و«قاموس الجمل والعبارات الاصطلاحية» و«معجم التقريبات». وقال لي: إن «قاموس النهضة» ما كان ليرى النور لولا أنه ارتضى أن يطبع على غلافه عبارة «راجعه بإذن خاص من وزارة التربية والتعليم محمد بدران وإبراهيم زكي خورشيد»، والأوّل مراقب عام للثقافة والثاني مدير لإدارة الترجمة. فبسبب التكلفة الباهظة لإصدار المعجم، ارتأى الناشر مفاتحة وزارة التربية والتعليم في شراء بضع مئات من النسخ لتوزيعها على المدارس والمعاهد والكليات، ولكن الوزارة اشترطت للموافقة على هذا الطلب مراجعة المعجم بواسطة هذين الخبيرين، وأكدّ لي مظهر أن هذه المراجعة لم تتمّ أبداً، وإنّما كانت إجراءً شكلياً ارتضاه مذعناً في سبيل طبع معجمه.

ومن الكتب الأخرى التي أصدرها إسماعيل مظهر، عدا ما سبقت الإشارة إليه، «تجديد العربية» و«قصة الطوفان» و«نزعة الفكر الأدبي في القرن التاسع عشر» و«نهضة فرنسة العلمية في القرن التاسع عشر» و«تاريخ الفكر العربي» و«معضلات المدنيّة الحديثة» و«وثبة الشرق في الانقلاب التركي عقب الحرب العالمية الأولى» و«القانون والحرية» و«فك الأغلال: رأي في التربية والتعليم» و«بداءة عصر البطالمة» و«مصر في قيصيرية الإسكندر المقدوني» و«فلسفة اللذة والألم» و«المرأة في ظل الديمقراطية». كما ترجم عدداً من الكتب منها «حياة الروح في ضوء العلم» و«نشوء الكون» و«بين العلم والدين» و«سير ملهمة» ويضم سيراً لعلماء غربيين قام بترجمتها إلى جانب سير لعلماء من العرب من تأليفه.

كما كانت له عناية بالفن القصصي فنشر مجموعة عنوانها «رؤيا هناء» ورواية «الحب الأول: قيصر وكليوبطرة».

وقد مرت في عام ١٩٩١ الذكرى المئوية لميلاد إسماعيل مظهر، فلم تحرّك ساكناً. ما أكثر المنسيّين في حياتنا الفكرية المعاصرة!!

أكرم زعيتر

كنت في عام ١٩٤٨ أزور صديقي رشيد خوري (١٨٩٣ ـ ١٩٨١) وكيل بلدية حيفا السابق في منزله بالقاهرة ـ وكان راوية للأدب والشعر وعمل بالصحافة في مصر بعد ضياع فلسطين ـ فاتّفق أنْ كان في زيارته أكرم زعيتر العائد لتوّه من جولةٍ في ١٣ بلداً من بلدان أمريكة اللاتينية حيث اتصل بالجاليات العربية فيها وبالمسؤولين في حكوماتها لشرح قضية فلسطين وسائر القضايا العربية المتفاقمة بسبب الاستعمار الجاثم على الدول العربية جميعاً تحت أسماء ومسمّيات مختلفة كالانتداب والحماية والحكم الثنائي وما إليها. فانتهزت الفرصة لإجراء حديث صحفي معه لجريدة «المقطم» التي كنتُ أعمل فيها، ورحبّ بذلك ولا سيما بعدما علم بأنني صديق لشقيقه الأكبر عادل زعيتر (١٨٩٧ ـ ١٩٥٧) مترجم نفائس الكتب وضخامها عن تاريخ العرب.

وبعد ثلاث سنين من هذا اللقاء، تلقيت من أكرم زعيتر كتابه الموثّق «مهمّة في قارّة» الذي نشرته دار الحياة في بيروت، وسجّل فيه يوميات هذه الرحلة الطويلة التي بدأت في تموز (يوليو) ١٩٤٧ وانتهت في حزيران (يونيو) ١٩٤٨ وزار في أثنائها البرازيل والأرجنتين وشيلي وبيرو وإكوادور وكولمبية وفنزويلا وكوبة والمكسيك وغواتيمالا وسلفادور وهندوراس ونيكارغوة، وهي جولة اشتركت فيها تنظيمها الهيئة العربية العليا لفلسطين ممثّلةً في أكرم زعيتر، والحكومة اللبنانية ممثّلةً في المحامي نصري المعلوف، والحكومة السورية ممثلةً في توفيق اليازجي مستشار المفوضية السورية في البرازيل. وقد اقتصر زميلا أكرم زعيتر على قسمٍ من الجولة، فقام باستكمالها بمفرده وفقاً للبرنامج الموضوع.

ويعتبر هذا الكتاب سجلاً حافلاً بأخبار الجاليات العربية في أمريكة اللاتينية وأعلامها وأنشطتها وأنديتها وصحفها وإحصائياتها واهتماماتها الأدبية بتفصيلٍ شافٍ. فكان هذا الكتاب موضوع تعليق جديد نشرتُه في جريدتي.

وعلى مدار هذه السنوات الطوال، التي تقرب من الخمسين، بقيتُ على اتصالٍ بأكرم زعيتر، سواء باللقاء الشخصيّ إذا سنحت الظروف، أو بالمكاتبة، أو بالمهاتفة، أو بالتواصل الفكري من خلال الكتابة الأدبية، فما أكثر ما أشار إليّ في تضاعيف فصوله، وما قصّرتُ في الإشارة إليه كلّما تطرّق الحديث المكتوب إلى سيرته.

ومن أياديه البارّة عليّ أنه توافق مع صديقيْه العلّامة روكس بن زائد العزيزي والدكتور همام غصيب عميد البحث العلمي بكلية الدراسات العليا بالجامعة الأردنية ـ وثلاثتهم من أعضاء مجمع اللغة العربية الأردني ـ وقام هذا الثالوث بتزكيتي لعضوية هذا المجمع الموقر، فانتخبت عضواً مؤازراً فيه في عام ١٩٨٨.

ومن عجب أن ثالوثاً آخر، هو ركنٌ فيه، حرص على إزجاء التحيات والأمنيات إليَّ منذ بضع سنين، فتلقيت من مصيف ماربيا في إسبانية بطاقةً بريدية تحمل إمضاءات الأديبة السورية سلمى الحفار الكزبري، والشاعر المفكر السعودي عبد الله بلخير، وأكرم زعيتر ولم ينسوا في لقائهم العارض في هذا المصيف أن يذكروا بالخير صديقاً لهم في القاهرة. وكانت هذه البطاقة آخر ما وصلني من البريد الزعيتريّ المثقل بآيات الودّ الصادق.

بدأت الحياة الصاخبة الخصبة لأكرم زعيتر في مدينة نابلس بفلسطين التي ولد فيها في عام ١٩٠٩ وفيها تلقّى دروسه الابتدائية والثانوية في كلية النجاح قبل أن ينتسب إلى جامعة بيروت الأميركية وكلية الحقوق في القدس التي ظفر منها بشهادة في الحقوق، وكان من أساتذته في فلسطين الأديب خليل السكاكيني (١٨٧٨ ـ ١٩٥٣) الذي ارتبط به أكرم بوثاقٍ شديد وظلّ طوال عمره يباهي بتلمذته على هذا الأديب الكبير، وبلغ من تأثره بعلمه وشخصيته أنْ أطلق اسم «سريّ» على بكر أبنائه تشبهاً بأستاذه السكاكيني، أبي سريّ.

اشتغل بعد ذلك بالتدريس في المدارس الثانوية في فلسطين حتّى إذا ما اندلعت نيران ثورة عام ١٩٢٩ استقال من عمله، وألقى بنفسه في خضم النضال الوطني متفرّغاً له تفرغاً كاملاً، وهو ما استغرقه طوال حياته، فعرف السجون والمنافي والمحاكمات، وفي سبيل الوطن يُسترخص كل شيء. عمل فترة في الصحافة، فحرّر مجلّة (مرآة الشرق) في بيت المقدس لصاحبها بولس شحادة

(١٨٨٢ ـ ١٩٤٣) وجريدة «الحياة» في القدس، وأنشأ حزب الاستقلال في فلسطين ثم «عصبة العمل القومي». في سورية، ونزح مرّة إلى الشام ومرّة إلى العراق، ودعا إلى اجتماعات شعبية وإضرابات عامة في فلسطين عند استشهاد الشيخ عز الدين القسام في عام ١٩٣٥ والثورة العارمة التي هبّت في إثر ذلك.

وانضمّ في العراق إلى ثورة رشيد علي الكيلاني (١٨٩٣ ـ ١٩٦٥) عند قيامها في عام ١٩٤١، فلما أخفقت يممّ صوب تركية حيث قضى عامين في منفى اختياري.

وعند إعلان استقلال سورية في عام ١٩٤٣ عاد إلى دمشق، فاستعانت به الحكومة في بعض المهام الرسمية، فكان مستشاراً للوفد السوري في الجامعة العربية كما كان عضواً في لجنة فلسطين الدائمة في الجامعة بعد إنشائها في عام ١٩٤٥.

عاد بعد «رحلة القارة» إلى عمّان، إذْ استحال عليه أن يعود إلى بلاده بعد ما ضاعت فلسطين في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨. وعند إنشاء حكومة عموم فلسطين في القاهرة في ٢٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٨ برئاسة دولة أحمد حلمي باشا عبد الباقي (١٨٨٢ ـ ١٩٦٣) اختير أكرم زعيتر وزيراً فيها، ولكنّه تجاهل هذا المنصب لاعتقاده بأن الحكومة المذكورة بقيت كياناً هلامياً، واقتصر نشاطها على إصدار البيانات دون أن تزاول عملاً جدّياً كحكومةٍ لها وزراء للاقتصاد والتجارة والصحة والخارجية وهلم جرا.

لم يكن أمام أكرم زعيتر من خيارٍ لمتابعة رسالته الوطنية إلّا بالانتماء إلى الأردن، فعيّنته حكومتها ممثلاً لها في الأمم المتحدة في عام ١٩٦٢، وتقلّد بعد ذلك مناصب شتى كسفيرٍ للأردن في دمشق وطهران وكابل وبيروت، واختير وزيراً للخارجية وللبلاط الهاشمي، وعين عضواً في مجلس الأعيان الأردني، ورئيساً للجنة الملكية لشؤون القدس، وانتخب عضواً في مجمع اللغة العربية الأردني والمجمع الملكي للحضارة الإسلامية في عمّان، كما رأس المركز الثقافي الإسلامي في بيروت.

أعرف أنني أظلم أكرم زعيتر ظلماً شديداً إذْ أحاول في بضعة أسطر الإحاطة بهذه الحياة المليئة بصنوف الكفاح، والتي سجّلها في يومياته وأوراقه

الضخمة المنشورة، ولكن حين تصبح حياةُ المرء جزءاً من نسيج حياة أمّته، فإنَّ أبلغ البلغاء يصيبهم العيّ إذا ما حاولوا الإحاطة حتى ببعض معالم السيرة الخصبة لرجل من طراز أكرم زعيتر.

حفلت حياة أكرم زعيتر بالنكبات المتلاحقة من ضياع الوطن والبيت والمقتنيات، بل نجا من حادث احتراق فندق شبرد بالقاهرة الذي كان ينزل فيه مع شقيقه عادل زعيتر عندما أُحرقت القاهرة في ٢٦ كانون الأول (يناير) ١٩٥٢ وفقد فيه جميع أمتعته، ولكن مصرياً نبيلاً هو النائب الأسبق محمد محمود جلال بك استضافه في بيته إلى أن استطاع تدبير بديل لما فقده من ثياب وأمتعة. وعرف في حياته المحاكمات والسجون والنفي القسريّ والاختياري والتشرّد.

ولكن كل هذه الملمّات لم تفجعه بالقدر الذي أفجعه فقدان ضنائنه من الكتب والرسائل والأوراق ومجموعات المجلات عندما أصاب صاروخ صهيوني الجناح الذي كان يحتفظ به في فندق كمودور في بيروت في أول آب (أغسطس) ١٩٨٢ فأحرق مكتبته التي وصفها بأنها «واحته في بيداء الحياة». كانت هذه الداهية مُلْجِمَةً للسانه، فلّما أفاق من هولها عقد فصلاً ودّع به مكتبته وأوراقه ورثاها بدم قلبه، لأنها ضمّت كنوز عصرٍ كان يذود عنه من عاديات الأيام، وكان ممّا قاله في هذا الموقف العصيب: «إذن، لقد احترقت مكتبتي... واحتي في بيداء الحياة... مدرستي وجامعتي... ملتقاي وكبار العلماء وأعلام الأدباء... مُنتدي أصدقائي الأخيار وأساتذي الأبرار... أشتاق إلى أحبائي، فألقاهم في رسائلهم وصورهم وثمرات قرائحهم... أرواح الأعلام الفضلاء جعلت من أرض مكتبتي سماءً... الهموم تطبق عليَّ، ولكنها تُهادِنُني حين آوي إلى مكتبتي، وأتفيّأ ظلّها الظليل... لكل كتاب فيها قصة، ولي معه صحبة، ولكلمات الإهداء من جهابذة الفضلاء عندي حرمة ووفاء... لقد التهمت النار مع الكتب سطور الأئمة الذين هم جمال هذا الكون... أراني في المكتبة أحسُّ بشرف التواضع أمام عمالقة، ثم أراني أَتَجَاهَى وأتباهى وأزهو بهم... الصاروخ الصهيوني لم يحرق أوراقاً وأخشاباً وألواحاً، ولكنه أحرق عبقرياتٍ، وأحرق هناءاتٍ، وباعد بين لِدَاتٍ!... أشتاق إلى صحبة الأمير شكيب والإمام رشيد والثعالبي والزركلي وعلّال والنشاشيبي ومحبّ الدين والقاسمي وهيكل باشا والسكاكيني وعبد الرزاق وأباظة والبشري والمازني والأعظمي وطه ونويهض وعادل والمقدادي وفرحات

وعبد الغني حسن والمعلوف والسباعي وباكثير والزيّات والبدويّ والنجفيّ والحصري ودروزة والأفغاني وعبده والطباطبائي والأمين، فاعتمر منازلهم في مجمع الفضلاء في مكتبتي... رفّ جمال الدين الأفغاني، وفيه آثاره ووثائقه وروائعه أصبح رماداً، وليت الرياح لم تذره، إذن لجمعته في قارورةٍ وأبقيتها ذكرى تجدّد تعظيمي له وحقدي على أعداء العربية والإسلام... إخواني ودّعتهم في عمري تفاريق، واليوم ودّعتهم مجتمعين! مَنْ لي بمن يعوضني عن مجموعات السياسة الأسبوعية والزهراء والفتح والزهور والرسالة والثقافة والحياة والحديث والمواهب والسمير والميزان والبيان والعربي والأفق الجديد وعكاظ، وكنوز دار المعارف والكاتب العربي والمكتب الإسلامي وتهامة ودار الإحياء والعصرية والكتاب العربي وغيرها ممّن جعلوا مكتبتي منجم علم وأدب... قد أجد الموسوعات والمعاجم والقواميس في المجامع، ولكن التعليقات والهوامش وعبارات أئمّةٍ بخط يدهم تعدّ وثائق مجدٍ وأدب، لن تعوض... وثلاثون من دواوين الشعر الراقي في سالف العصور وحاضرها، هيهات هيهات أن أجد منها عوضاً... وداعاً إخوان الصفاء... وداعاً ساعات الهناء.. وبعض العزاء في ما أنقذت من رسائل الكبراء وصفوة الأعزاء وذؤابات الوطنية ورفاق الجهاد».

وكان أكرم زعيتر قد أخبرني عندما كان يمثل الأردن كسفير في طهران، أنه جمع «أجولةً» من الوثائق النادرة عن جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧) الذي يطلقون عليه في إيران اسم جمال الدين الأسد آبادي، وكان يعتزم إعداد دراسة ضخمة عن الأفغاني بالاستناد إلى هذه الوثائق، ولكنها ضاعت طُعمةً للصاروخ الطائش.

كان أكرم زعيتر أديباً مكيناً وخطيباً مفوّهاً، فلم تَجْنِ الاهتماماتُ النضاليةُ على هذا الجانب من حياته. وفي ذاكرتي ـ الخؤون أحياناً ـ ما كتبه أكرم زعيتر تقديماً لديوان صديقه الشاعر بدوي الجبل محمد سليمان الأحمد (١٩٠٣ ـ ١٩٨٢) وكتابه الذي أفرده بعد ذلك عن هذا الشاعر العظيم، وما كتبه عن الشاعر القروي رشيد سليم الخوري (١٨٨٧ ـ ١٩٨٤) وعن شقيقه الأكبر عادل زعيتر وعن أستاذه خليل السكاكيني وعن الراحلين من أصدقائه الذين رثاهم بقلمه البليغ مثل محمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ ـ ١٩٨٥) وألبير أديب (١٩٠٨ ـ ١٩٨٥) وجعفر الخليلي (١٩٠٤ ـ ١٩٨٥) وفتحي رضوان (١٩١١ ـ ١٩٨٨) وما كتبه عن الزعيم المصري

سعد زغلول باشا (١٨٦٠ ـ ١٩٢٧)، كما أذكر المقدمة النفيسة التي كتبها للطبعة العربية لكتاب Palestine, The Arabs and Israel للمحامي الفلسطيني هنري كتن (١٩٠٦ ـ ١٩٩٢) التي ظهرت بعنوان «فلسطين في ضوء الحق والعدل» والتي قمتُ بنقلها إلى العربية، وكذلك مقدمته للمجموعة الكاملة لافتتاحيات كامل مرّوة (١٩١٥ ـ ١٩٦٦) في جريدة الحياة. وعسى أن يُقدَّر لكل هذه الفصول ـ وما ألمعتُ إلّا إلى ما هدتني إليه الذاكرة ـ أن تُجْمَعَ لأنها قطعةٌ من البلاغة الرفيعة، وهي بلاغة تراءت حتّى في الرسائل الخاصة التي كان يبعث بها إلى أصدقائه.

وإذا كان أكرم زعيتر أصدر في فترة باكرة كتاب «القضية الفلسطينية» للتعريف بها قبل انتشار الوعي بخطورتها، فقد نشر بعد ذلك وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية بين عامي ١٩١٨ و١٩٣٩، ويوميات حول الحركة الوطنية في الفترة ١٩٣٥ ـ ١٩٣٩، كما نشر مذكراته وأوراقه عن تطورات القضية الوطنية التي عاصرها وأسهم فيها بجهده الدؤوب، وبهذا ترك للأجيال التالية سجّلاً موثقاً بالمعاينة الشخصية للتاريخ الذي كان هو جزءاً لا ينفصل عنه، عدا أن له كتباً مدرسية في التاريخ وفي المطالعات الأدبية شارك في تأليفها.

وقابلت أكرم زعيتر للمرة الأخيرة في القاهرة عندما زارها من نحو خمس سنين مع زوجته الفاضلة لمراجعة أطباء العيون الذين نصحوه بقضاء فترة استجمام في مكان هادئ مثل أسوان للنأي عن الضوضاء وصخب الحياة، ولا سيّما لأن أعصاب العينين كانت في حاجة إلى راحةٍ واسترخاء لا إلى تدخل جراحي. وتذكرنا في هذا اللقاء كيف أن اسمه كان قد طُرح كسفيرٍ للأردن في القاهرة، ولكنّ الظروف المتلوّنة حالت دون الائتناس بصحبته، ولا سيما لأن له في مصر عصبة كبيرة من أصدقائه الأدباء والشعراء الذين كان حَبْلُهمْ قد انفرط في الفترة الغابرة، فترحّمنا على عادل الغضبان (١٩٠٨ ـ ١٩٧٣) ومحمد عبد الغني حسن، وحبيب جاماتي (١٨٨٧ ـ ١٩٦٨). ورشيد خوري وكريمته الصحافية النابغة جاكلين خوري (١٩٢٥ ـ ١٩٨٠) التي توفيت في حادث أليم، وظللنا نستعيد ذكريات ماضٍ ودّعناه، وما كنا ندري بأننا في موقف وداع أخير.

عاد أكرم زعيتر إلى عمّان من رحلته إلى القاهرة، فتكالبت عليه الأمراض التي كان يقاومها بمراسٍ شديد كيلا يتخلّف عن اجتماعٍ في مجمع اللغة العربية أو موعدٍ في اللجنة الملكية لشؤون القدس، ولكن صحّته لم تلبث أن تداعت تحت

وطأة العلل، فاضطر إلى ملازمة داره واعتزال لناس، وصارع أمراض الشيخوخة طويلاً حتّى أدركته رحمة الله في مساء الخميس ١١ نيسان (إبريل) الماضي، فَصُلّي على جثمانه الطاهر في مسجد مدينة الحسين الطبية، ووري الثرى في المقبرة الإسلامية في سحاب بالقرب من عمّان.

هذا رجلٌ عروبي من هامة الرأس إلى أخمص القدم، آمن بقضية أمّته وهو ما زال في ريّق العمر، ونذر حياته كلّها لخدمتها دون أن يتمذهب أو يركب موجةً من الموجات الغوغائية التي ابتُلي بها عالمنا العربي. وعندما صار الاغتيال لغةً من لغات التعامل السياسي، نصحت أكرم زعيتر بأن يهجر السياسة بعدما أدّى دوره بتمامه، ولم يعد أحدٌ يطالبه بمزيد، وقلت له إن من حقّه أن يستريح في السنوات الباقية من عمره. فالتفت إليَّ مستنكراً وقال: «أتراني أهرب من أداء واجبي تجاه أمّتي؟ إنَّ راحتي الحقيقية هي في متابعة أداء الرسالة العروبية وليس في الإخلاد إلى السكون». وقلت له: «إن السياسة كانت تجعلني أتحرّج من مقابلتك، بل لقد تحرّجت من تعزيتك بشخصي في استشهاد الشاب وائل عادل زعيتر في عام ١٩٧٢، وكنت أنا يومذاك في بيروت، وكنتَ أنت سفيراً للأردن في العاصمة اللبنانية، واستصوبت أن أبعث إليك ببرقية تعزية وأنا شديد الخجل من هذا التصرف». وقلت له: «أتذكر عندما حللتَ القاهرة كوزيرٍ للخارجية للمشاركة في أعمال الجامعة العربية، ثم هاتفتني معاتباً لأنني لم أسع إلى لقائك مثل بقية أصدقائك، فقلت لك: إنني لا أتعامل مع السياسيين. فانفجرتَ فيَّ قائلاً إنك تخاطبني كصديق وليس كسياسي، فقلت لك: إن صفة السياسي غطّت على صفة الصديق. وعندئذٍ هدّدتني بأن تزورني بموكبك الرسمي، فقلت: إن الأفضل أن أزورك في موكب صعلكتي! فقال: «إني أقدّر ظروفك، وأعرف أنك زاهد في السياسة ورجالها، ولا أتطلّب منك أن تتغيّر. أما أنا فباقٍ في الميدان إلى آخر لحظة».

عندما توفي عادل زعيتر، كان شقيقه أكرم يجري جراحة في «بيروت» فَكُتِمَ الخبر عنه، ولم يُنبأ به إلا بعد إبلاله، فحيل بذلك بينه وبين تشييع شقيقه إلى مقره الأخير. ومن المفارقات أنه عندما توفي أكرم كان ابن شقيقه عمر عادل زعيتر يُجري جراحةً في مستشفى في الكويت، فكُتِمَ عنه الخبر، ولم يدر به إلّا بعد ما غادر المستشفى، ففاته بدوره أن يشارك في تشييع جنازة عمّه، وإنْ كان عجّل بعد ذلك بالسفر إلى عمّان ليشارك في تقبل آيات العزاء.

ألبير أديب

في عام ١٩٤٥ استرعت انتباهي وأنا أسير في شارع عماد الدين بالقاهرة مجلة معروضة لدى بائع صحف على طوار الشارع تحمل اسم «الأديب» وهي ـ كما جاء في تعريفها المدرج تحت عنوانها «مجلة تبحث في الآداب والفنون والعلوم السياسية والاجتماع». وقد نقش اسم المجلة بخط زخرفي جميل شبيه بالكوفيّ باللون الأبيض على رقعة سوداء بين خطين باللون الأحمر، وتصدَّر غلاف المجلة الناصع البياض إطار أحمر يضمّ تاريخ العدد وحكمة سيّارة. فاقتنيت العدد من قبيل الفضول، واكتشفت من العبارات المنشورة في الصفحة الأولى أن منشئ المجلة هو ألبير أديب، وأنها في السنة الرابعة من عمرها، ممّا يُوحي بأنها أُسست في عام ١٩٤٢ (في شهر كانون الثاني/ يناير منه). وقرأت المجلة فأعجبتني وأغرتني على الإسهام فيها. وكنت وقتها قد اشتركت في مسابقة نظمها «ركن المحدّثين والمستمعين» في محطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية في يافا بفلسطين، وفُزت بجائزتها الأولى عن حديث عنوانه «شباب العُرْبِ، آمال الشرق فيكم»، فبعثت بنصّ هذا الحديث إلى عنوان المجلة في بيروت مع مقالٍ آخر كتبته تعريفاً بكتاب «أبو حنيفة» من تأليف المستشار عبد الحليم الجندي. فرحّبت المجلة بالموضوعين، ونشرتهما في عدد كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٥. ومنذ ذلك التاريخ بدأت مشاركتي الدؤوبة ـ وإن تكنْ اضطربت في بعض الأشهر بسبب ظروفي الخاصة ـ وهي مشاركة استمرّت إلى السنة الأخيرة من عمر «الأديب» التي صدر آخر أعدادها حاملاً تاريخ آب/ أغسطس ـ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٣.

وامتدّت بسبب هذه الصلة الأدبية صلة روحية وصداقة جميلة مع ألبير أديب صاحب هذه المدرسة الأدبية الجامعة التي لم تُسْتَخْلَف ولا حاكتها مجلّةٌ أخرى. فهي قد صدرت بانتظام مُعْجِبٍ اثنين وأربعين عاماً متصلة، ولم تضطرب إلّا بسبب أحداث لبنان الجهنمية فصدرت منها أعداد تحمل تاريخ شهرين أو أكثر من شهرين، وأعداد تحمل تاريخ سنة كاملة.

من أكبر مميّزات مجلة «الأديب» أنها أدارت ظهرها تماماً للسياسة بكل تناظراتها وتقلّباتها على الرغم من أنها ـ كما جاء في تعريفها مجلة «تبحث في العلوم السياسية»، فانفتحت أمامها جميع الحواجز إلى جميع البلدان العربية، ولم تتعرّض في جميع العهود لأي مصادرة أو تعطيل في أي قطر عربي، وكانت بالتالي مائدةً أدبية عامرة بالأطايب تشارك فيها جموع الأدباء العرب في جميع أمصارهم.

واستحدث ألبير أديب في مجلته ثلاثة أبواب كانت جزيلة النفع في التأليف بين قلوب الأدباء والكتّاب في المعمور العربي، وهي باب لنشر الرسائل التي يتبادلها الأدباء لا عن طريق البريد غير المأمون بل عن طريق هذه المجلة الرائدة. وحين كانت المنازعات السياسية تقوم حائلاً دون المناجيات بين الأدباء، كانوا يتبادلون النجوى من خلال مجلة «الأديب». أما الباب الثاني فهو باب «البرقيات الأدبية»، فجاء سجلاً وافياً بالأحداث الأدبية التي جرت في الشهر السابق على صدور العدد في جميع البلاد العربية، وما زلت أراجع هذا الباب لضبط تاريخ وفاة أديب أو تاريخ واقعة أدبية معيّنة. وأما الباب الثالث، فكان ألبير يلخص فيه أهم الأحداث السياسية التي جرت في العالم في الشهر السابق دون تعليق على أي منها.

وشرفني ألبير أديب بين عامي ١٩٤٧ و١٩٥٢ بأن عهد إليّ في أن أكون وكيلاً للأديب ومراسلاً لها في مصر، فحاولت جهدي أن أعرّف بالمجلة لدى كبار الأدباء وناشئتهم، وكانت لي مثلاً زيارة شهرية إلى نجيب محفوظ في مكتبه بوزارة الأوقاف، لأقدّم إليه العدد الجديد من «الأديب» طوال هذه الفترة. ولا أظنّني مبالغاً إن قلت: إن «الأديب» كانت أوسع نافذة أطلّ منها نجيب محفوظ على الحركات الأدبية في العالم العربي كلّه، إذ كانت اهتماماته يومئذٍ منحصرة في الدائرة المحلية.

ولد ألبير أديب في المكسيك عام ١٩٠٨، ونزح بعد ذلك إلى السودان ومصر حيث تلقى تعليمه في مدارسها، وشرع في دراسة الحقوق، ولكن انغماسه في إضرابات الطلاب بحكم ميله إلى حزب الوفد أدّى إلى فصله من التعليم الجامعي، فعمل محرراً في بعض الصحف المصرية مثل «كوكب الشرق» لصاحبها أحمد حافظ عوض (١٨٧٤ ـ ١٩٥٠) و«الرقيب» لصاحبها جورج طنوس (١٨٨٠ـ

١٩٢٦)، ثم سافر إلى لبنان حيث عمل في الصحافة، ثم اختير مديراً للإذاعة، وشارك في الأنشطة السياسية ذات الاتجاه الاشتراكي، ولكنه تفرّغَ بعد ذلك لإصدار «الأديب» ورفض أن يوفد سفيراً للبنان في الخارج، ورفض جميع الدعوات التي وجهت إليه لحضور مؤتمرات علمية أو أدبية خارج لبنان. وكان له في بداية العهد بإصدار «الأديب» مكتب قريب من ساحة رياض الصلح، ولكنه لم يلبث أن تخلّى عنه واكتفى بغرفةٍ في بيته في الطابق الأعلى من بناية مواجهة للطبية الإفرنسية جعلها مكتبه «الأبدي». فمن هذه الغرفة أدار شؤون المجلة، واستقبل ضيوفه الزائرين من الأقطار المختلفة، وكاد بحكم ملازمته الدائمة لمقعده في هذه الغرفة يصبح مُسَمَّراً في المقعد بغراء سميك!

ولما صار موقع بيته نقطة تماس بين الفرق المتصارعة في بيروت، تخترق الصواريخ جدران غرفه من جميع الاتجاهات، اضطر إلى الانتقال إلى منطقة أكثر أماناً. وكانت صحته قد بدأت تتداعى تحت وطأة الأعمال المرهقة المستمرة بلا راحة، وفقد نور إحدى عينيه بينما تضاءل نور العين الثانية، ومع ذلك ظلّ صامداً إلى أن انهارت مقاومته تماماً وأدركته منيته في السادس والعشرين من أيلول/ سبتمبر ١٩٨٥بعد عامين اثنين من توقّف «الأديب» عن الصدور.

وعندما قرّر ألبير أديب اعتزال السياسة نهائياً بعث إليّ برسالة في شهر تموز/يوليو ١٩٤٩ رجاني أن أعمل على نشر البيان المرفق بها في الصحف المصرية تفسيراً لاعتزاله. وجاء في البيان: «لقد اتضحّ لي تماماً أن الشبيبة العربية في حَيْرَةٍ، ليس لها هدف تسعى إليه، ولا برنامج تحاول تطبيقه لتقطف ثمار مواظبتها عليه. والدنيا العربية انصرف أولياؤها إلى النهم والجشع، واستباحوا كل شيء، واستهانوا بكل شيء، فلا ضمير يردّهم، وشعارهم: الغاية تبرر الواسطة، فليس بمستغربٍ، وقد أهملوا كل شيء إلّا أنفسهم وذويهم، أن يهملوا أمر الشبيبة وتوجيهها والأخذ بيدها، فلا تتخبط قلقة في حيرة المبهم من الحاضر والمستقبل.

أما الأمة العربية فمتهالكة، مضعضعة، مفككة، ليس في عقول أبنائها مفاهيم الجماعة. فالبدائية الأولى: الأنانية والفردية والغرور والخوف والجهل والجشع والكذب والمراوغة والخيانة إلى آخره... ما تزال متأصلة في النفوس، بل من المؤلم ألّا تكون آخذة في النمو والتأصّل. العالم يعيش في القرن

العشرين، ونحن نعيش في القرن الثاني عشر، وكل جهدٍ سياسي يذهب هباء. فيجب أن ننصرف بقوة إلى الإصلاح الاجتماعي. لذلك اعتزلت السياسة لأنها جهدٌ ضائع في حلقة مفرغة».

فهو إذن لم يعتزل صامتاً، بل أطلق هذه الصيحة المدوية التي تنطوي على تشخيصٍ يصدق شيءٌ منه على يومنا الحاضر.

وفي عام ١٩٤٨ صدر في لبنان قانون جديد خاص بالصحافة فزع منه الصحفيون، فكتب ألبير أديب رسالة إليّ يطلب فيها «أن أدرس إمكانية الاتفاق مع دار للنشر أو للطباعة وإصدار الأديب في مصر، وهل لا يشترط في صاحب المجلة أن يكون مصرياً؟ مع بحث جميع المسائل المتعلقة بقضية انتقالي أنا والمجلة إلى مصر والاشتراك مع إحدى دور النشر والصحافة لإصدارها، أو طبعها في مصر مع بقائي هنا، أو أي حل يدور حول هذه الفكرة» وقال: «إن قانوناً جديداً للمطبوعات صدر في لبنان أعادنا إلى العهد الذي كان يلقى فيه القبض على الكاتب الذي ينعت الأسد بملك الغاب باعتبار أن السلطان هو وحده ملك الغاب. ومن حسنات القانون السوداء أنه يفرض علينا تقديم ضمانة مالية نقدية قدرها ثلاثة آلاف ليرة، وسأحاول نشر القانون بكامله في الأديب ليطلع العالم العربي على الكيفية التي حطم بها القلم في لبنان، وكيف أصبحت حرية الفكر في خبر كان. وتجدني الآن أحاول أن أجد قيمة الضمان المالي وإلّا اضطررت إلى وقف الأديب».

أثارتني هذه الرسالة، وعجبت أن يصدر مثل هذا القانون في لبنان في وقت كان فيه الأديب خليل تقي الدين (١٩٠٦ ـ ١٩٨٧) مسؤولاً عن دائرة الدعاية والنشر، فهاجمت هذا القانون هجوماً عنيفاً في جريدة «المقطم»، وانتصرت لحرية الصحافة في لبنان، فتنوقلت هذه الحملة الصحفية في صحف لبنان، وتلقيت على إثرها رسالة من المحامي بهيج تقي الدين، شقيق خليل تقي الدين، وعضو مجلس النواب قال فيها: «إنني أشاطرك رأيك بشأن المفعول السلفي للقانون، ولقد كنت بين النواب الذي اقترعوا ضد إعطاء النص المتعلق بدفع الثلاثة آلاف ليرة مفعولاً رجعياً. ولكن الأكثرية وافقت على المشروع كما ورد من الحكومة. أما الشيخ خليل فقد كان مكلفاً بتنظيم دائرة الدعاية والنشر إلّا أنه لم يكمّل مهمّته لأسبابٍ لا مجال لذكرها هنا.

إن في قانون المطبوعات سيئات لا مجال لنكرانها، ونقابة الصحافة اللبنانية ساعية لإزالة تلك المساوئ، ويمكنني أن أؤكد لحضرتك أنني سأقف من التعديل الذي يطلبه الصحافيون الموقف الذي يمليه عليّ واجبي وضميري، ذلك أنني أعتبر أن الدفاع عن حرية الفكر واجب مقدس وفرض على كل من يؤمن بالنظام الديموقراطي ولا يرضى عنه بديلاً. وإنني واثق من أن زملائي في المجلس سيقفون من القانون الموقف نفسه، لأنهم في ممارستهم لرسالتهم النيابية إنّما يستروحون الروح نفسها». (وكان تاريخ هذه الرسالة ٢٥ آذار/مارس ١٩٤٩).

وكانت مجلة «الأديب» تعاني في هذه الفترة من «ضيق مالي خانق» دعا صاحبها إلى أن يكتب إليّ رسالة قال فيها:

«علمتُ أن دار أخبار اليوم ترغب في إنشاء وكالة عامة لها ببيروت، فكتبت اليوم رسالةً إلى مصطفى أمين بك أعرض عليه فيها أن تتولى الأديب هذه الوكالة، وذكرت له أن يسأل الصديق الدكتور محمود عزمي (١٨٨٩ ـ ١٩٥٤ وهو الذي رأس وفد مصر بعد ذلك في الأمم المتحدة ومات وهو يخطب في ساحتها) عن إمكانياتنا، ولم أشأ أن أذكّره بمعرفة شخصية تعود إلى سنة ١٩٢٦ أيام كنت أشتغل محرراً في «كوكب الشرق» و«الرقيب» للمرحوم جورج طنوس، وكان هو يكتب في مجلة «المسرح» ويتردّد على صاحبها الصديق عبد المجيد حلمي الذي كان يشتغل أيضاً في «الكواكب». ثم إذا كان بإمكانك أن تعمل أي جهد أو مداخلة في المسألة، فتبذل جهدك في ذلك لأن وكالتنا لأخبار اليوم تنقذ الأديب حتماً من ضيقها المالي الخانق». فلم يكن طريق «الأديب» مفروشاً بالذهب ولا حتّى بالورود، بل كان طريقاً شديد الوعورة كما يُستخلص من عبارة ألبير أديب نفسه.

فقد أفنى ألبير أديب نفسه في المجلة في سبيل أن يجعل منها منبراً مفتوحاً لأدباء الأمة العربية والمهاجر، والذي يراجع مجموعات «الأديب» طوال عهدها بالصدور، يلاحظ أن صاحبها ومحرّرها لم ينشر فيها من آثاره هو إلّا النزر اليسير، ولمّا سألته عن ذلك قال: «إنني مضّطر للقيام بأعمال الأديب كبيرها وصغيرها، فلا يبقى من يومي متّسع حتّى للتفكير... وأنا الآن أشتغل ١٨ ساعة في اليوم». كما كان دائم الشكوى من الإرهاق لأن حالة «الأديب» المالية لا تسمح باستخدام معاون له، فكان يضطر إلى كتابة أغلفة الاشتراكات بنفسه وإلى الردّ على جميع بريد المجلة والقيام بالأعمال الإدارية من حسابات ومعاملات مع

وكالات التوزيع، ولهذا لم يصدر له إلّا كتاب واحد هو مجموعة من الخواطر الرمزية المنثورة التي وصفها «بالشعر الطلق» عنوانها «لمن؟». ومع أنه كان يرجو أن أكتب عن هذا الكتاب كلمةً هنا أو هناك، فقد خيّبت ظنّه لأن ذوقي لم يستسغ هذه الخواطر ولا أدرك مغزاها، وآثرت أن أحجب عنه رأيي خشية إغضابه.

بدأ ألبير أديب مشروع مجلته بدايةً بعيدة المطامح، إذ كان يريد أن يجعل من «الأديب» نواةً لدار نشر كبرى، فأقدم على نشر طائفة من الكتب منها ديوان عمر أبي ريشة (١٩٠٨ ـ ١٩٩٠) والملحمة الشعرية «عشتروت وأدونيس» للدكتور حبيب ثابت (١٨٩٢ ـ ١٩٥٣) و«المعري ذلك المجهول» للشيخ عبد الله العلايلي (١٩١٤ ـ ١٩٩٦) و«لا هوادة» لعمر فاخوري (١٨٩٦ ـ ١٩٤٦) وديون «الواحة» لصلاح الأسير (١٩١٧ ـ ١٩٧١) ومسرحية «سارق النار» لخليل هنداوي (١٩٠٦ ـ ١٩٧٦) و«بنت الساحرة» للدكور عبد السلام العجيلي (١٩١٨ ـ). ولكنه اكتشف بعد إصداره هذه الكتب استحالة المضي في هذا المضمار فتوقف. وكان قد وعد القاص المصري أمين يوسف غراب (١٩١٠ ـ ١٩٧٤) بنشر مجموعته «المستضعفون في الأرض»، بل أعلن عن قرب صدورها، ولكنه رجاني أن أبلغه اعتذاره من عدم نشرها.

في أواخر عام ١٩٧٩ سألني ألبير أديب عن أخبار صديقنا المشترك إبراهيم المصري (١٩٠٠ ـ ١٩٧٩) ولم يكن يعرف أنه انتقل إلى رحمة مولاه في الثالث عشر من تشرين الأول/أكتوبر من عام ١٩٧٩ بسبب الظلام الذي يحيط بغالبية الأدباء في حياتهم وموتهم، لأن المجتمع العربي قلّ أن يحفل بذلك. فانبريت أسجّل أخبار وفيات الأدباء على مدار العام وأعد ثبتاً بها ينشر في بداية السنة اللاحقة. وواليتُ هذا العرف إلى آخر سنة من عمر الأديب، ثم تابعه الأديب أحمد حسين الطماوي في مجلة «القاهرة» المصرية في عهد محرّرها الدكتور إبراهيم حمادة، فلمّا تغيّر طابع المجلة ومحررها كفّ عن هذا العمل.

قابلت ألبير أديب عدة مرات في زياراتي المتكررة إلى لبنان، وكنت بمجرد مهاتفته وقبل ذكر اسمي أسمع منه على الفور عبارة «أهلاً يا أستاذ فلان». وكنت أسأله: وهل صوتي مميّز إلى هذا الحد؟ فكان يقول: إن لهجتك المصرية تفضحك، ولا تنس أنني عشت وعملت في مصر، بل صارت لهجتي أقرب إلى المصرية منها إلى اللبنانية.

وطالما نصحته بالتماس الراحة لبدنه، سواء بتلبية الدعوات إلى المؤتمرات العلمية في الخارج حيث ينأى بنفسه عن «سجن العمر» الذي حبس نفسه فيه، أو باحتذاء المجلات الشهرية التي كانت تصدر عشرة أعداد في السنة وتحتجب خلال فصلي الصيف كمجلة «المقتطف» ومجلة «الكتاب» ومجلة «الهلال» في سالف عهدها، ولكنه كان يرفض هذه النصيحة بإصرار قائلاً: إنه لن يترك «الأديب» ما دام فيه عرق ينبض وإنه سيظل يصدرها إلى آخر يوم في حياته.

ولا بدّ من الإقرار بأنني أدين «للأديب» وصاحبها النبيل بكثير من الصداقات التي انعقدت بيني وبين أدباء الأمة العربية في أوطانها ومهاجرها، حتّى كان ألبير يحوّل إليّ بريداً تلقاه في مكتبه معنوناً باسمي ظنّاً من مرسليه بأنني أقيم في بيروت.

هذا وقد جرت محاولات عدّة من جانب أرملة ألبير أديب، السيدة الفاضلة كامي شلفون، لإعادة إصدار «الأديب» وفقاً لأي ترتيب يحفظ للمجلة طابعها وشخصيتها الخاصة، ولكن ظروف المعارك في لبنان من ناحية، وانحسار الاهتمام بالأدب من ناحية أخرى حالا دون إنجاح هذه المساعي، مع الأسف الشديد.

وتعتبر مجلة «الأديب» مرجعاً هاماً للباحثين والدارسين حتّى لقد قدمت طالبة لبنانية أطروحة جامعية إلى جامعة بيروت الأميركية، فهرست فيها هذه المجلة في فترةٍ من عمرها، ممّا يتعيّن معه استكمال هذه الفهرسة إلى آخر أعدادها. ومن حسن الاتفاق أن أرملة ألبير أديب كانت تحتفظ قبل وفاتها بمجموعة كاملة من هذه المجلّة الهامّة باعتبارها أثمن ميراثٍ آل إليها من زوجها الراحل.

❁ ❁ ❁

الشاعر المهجري إلياس فرحات

في عام ١٩٦٠ زار الشاعر المهجري إلياس حبيب فرحات (وهذا هو اسمه الكامل) القاهرة بدعوةٍ رسمية، وكانت تصحبه قرينته السيدة جوليا بشارة جبران التي تمّت بصلة قرابة لجبران خليل جبران (١٨٨٣ ـ ١٩٣١). لم تكن لي بهذا الشاعر المقيم في مدينة بلو أوريزونتي (وكان يترجم اسمها إلى الأفق الجميل) في ولاية ميناس جيرايس بالبرازيل أي صلة شخصية سابقة تُطوِّع لي أن أخترق البرنامج الرسمي الموضوع لزيارته سعياً إلى لقائه، ولا سيّما لأنني بسبب افتقاري إلى أي صفة ـ اللهم إلّا صفة الصعلكة الأدبية ـ بقيت خارج نطاق المدعوين إلى وقائع البرنامج الرسمي لزيارته، ولم أشارك بالتالي في أي من الحفلات التي أقيمت لتكريمه ولو كمتفرّج.

صحيح أنني كنت مبتوت الصلة الشخصية بالشاعر، ولكنني كنتُ من مطالعاتي واقفاً على شعره، كما كنتُ أعرف أنه عندما قرّر النزوح من مدينته كفرشيما في لبنان إلى البرازيل، وهو دون العشرين من العمر، كان حظّه من التعليم متواضعاً، وحصيلته من اللغة العربية أشدّ تواضعاً، ورصيده من الشعر صفراً مجلجلاً! وهو ما أقرّ به بنفسه بقوله:

لَئِنْ كُنْتُ لَمْ أَدْخُلْ المَدْرَسَاتِ ... صَغِيْراً، ولا بَعْدَ هَذا الكِبَرْ
فذا الكَوْنُ جَامِعَةُ الجَامِعَاتِ ... وذا الدَّهْرُ أُسْتَاذُهَا المُعْتَبَرْ

وانتهزت رابطة الأدب الحديث ـ وأنا من أعضائها المؤسسين ـ فرصة زيارة الشاعر فرحات إلى مصر فأقامت، بمبادرةٍ من عميدها الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، ندوةً لتكريمه خارج نطاق البرنامج الرسمي، وكنتُ من جملة المشاركين فيها بكلمةٍ استندت في إعدادها إلى ما تقطّر عندي من معلومات عن الشاعر، وعوّلت فيها على كلام الشاعر نفسه، وكان ممّا قلته في هذه الكلمة «إن إلياس فرحات عبقرية عصامية معدودة بين عبقريات الأدب المعاصر، ولد في كفرشيما

في لبنان، واختلف على المدارس فلم يكن حظه منها إلّا لَفَفَ معلومات لا تُغني رجلاً في حياة كفاح، وبالتالي لا تبشّر لصاحبها بأية منزلة في دنيا الأدب، وكان إلى يوم هجرته لا يُحسن علماً ولا لغةً، ولا يتقن فنّاً من فنون الأدب، ولا ينظم شعراً، ولا يعرف من النحو والصرف ما يقوّم عبارة، ولو طُبِّقت عليه نظريات قياس الذكاء في الفترة الأولى من حياته، لأجمع العلماء النفسيون على أنه رجل ميئوس من نجاحه في ميادين الفكر والقلم والرأي، لأن يومه لا يومئ إلى غدٍ مضيء، ولأن مستوى ذكائه دون المتوسط».

ثم قلت: «ولكن إلياس فرحات الخامل في لبنان، استوى بُعيد الهجرة على عرشٍ من العبقرية المصنوعة والمطبوعة، وجاء مكذِّباً نظريات علم النفس من حيث قِياس درجات الذكاء وتقدير مناسيبه، فهذا الشاب الساذج الطرير، الذي لم تَبْدُ عليه أي لمعة من لمعات الذكاء، أو ومضة من ومضات العبقرية، صار في بضع سنين شاعراً عربي الديباجة، عربيّ الأداء، عربيّ البيان، عربيّ الفصاحة، عربيّ النفس والروح. وأين؟ في بلادٍ كل من فيها حوله يرطن ويُعْجِم وينطق الضاد «داداً» كما قال في وصفهم أستاذنا العقاد».

توهّمتُ بعد إلقاء هذه الكلمة التي أجريتُ فيها مقابلة صارخة بين خمولٍ في عهد الصبى وعبقرية في عهد الرجولة أن وقعها لدى الشاعر فرحات سيكون، في القليل، وقعاً مقبولاً. ولكن، لما جاء الدور على فرحات ليخاطب المجتمعين، ألقى كلمة شكر فيها الرابطة على تكريمه، وأثنى على المتحدثين شعراً ونثراً، ثم تحوّل إليَّ بوجهٍ صارم وانفعالٍ شديد أورثني حرجاً بالغاً. واستصوبُ هنا أن أنقل وصفة لهذا الموقف كما أورده في آخر كتبه الموسوم «ذكرياتي بين صباح الحياة ومسائها» المطبوع في البرازيل في عام ١٩٧٥ والذي يمثّل ضرباً من ضروب السيرة الذاتية. قال:

«استقبلني الإخوان المجتمعون هناك بالتصفيق، وكان عدد الحاضرين كبيراً، وأنا لا أعرف منهم أحداً. تكلّم فريق من الأدباء والشعراء... ثم تكلّم فتى، فزعم أنني لم أكن في صغري ذكياً، أو أن ذكائي لم يظهر إلّا بعد أن أصبحت رجلاً في الثلاثين من عمري! فلمّا جاء دوري وقفت وشكرت، ثم قلت موجهاً كلامي إلى الفتى: لو قلت في كفرشيما ما قلته هنا، لردّ عليك أهلها رجالاً ونساءً، ولردّت أرضها وسماؤها، منكرين عاتبين، وربّما غاضبين! إنهم هناك،

أي في كفرشيما، لا يزالون يردّدون أزجالي اللبنانية، ويعجبون كيف يمكن لطفل في مثل سنّي أن يأتي بهذه المعاني. قلت هذا الكلام ضاحكاً، ولكني قلته جادّاً صادقاً، فلم يُحِرْ جواباً. ثم أنشدت شيئاً من شعري».

ومضى فرحات يقول: «وعندما انتهت الحفلة جلستُ إلى جانب هذا الفتى الأسمر الذي زعم ما زعم، ورحتُ أتجاذب وإيّاه أطراف الحديث، فأعجبني تفكيره وإطّلاعه الواسع (إلّا على زجل طفولتي). فقلت له: مَنْ أنت؟ وما اسمك؟ فأجاب بوداعة ولطف (اسمي وديع فلسطين). فَبُهِتُّ لهذا الاسم الذي أعرفه جيّداً، وأعجب بصاحبه دون أن أرى له وجهاً. فقلت: يا سبحان الله! إني منذ وصلتُ إلى القاهرة أسأل عنك وأعجب لاختفائك، وأنتَ اليوم تخطب في حفلتي دون أن أنتبه إلى اسمك، فعفواً ومعذرة، وقمنا مجدّداً نتصافح ونتعانق كأننا أخوان التقيا بعد فراقٍ طويل».

أوضحت لفرحات أنني لم أسع إلى لقائه لأنه «مبرمج» في ارتباطات رسمية وبرامج مقرّرة ليس لي بها أي شأن، وتواعدنا على أن نلتقي كل ليلة بعد أن يصرف المندوب المرافق المعين لملازمته صباحاً ومساء. وكانت الصحف تردّد في ذلك الوقت اسم الزعيم الجزائري فرحات عباس، فاختلط الأمر على المندوب المرافق وصار يخاطب الشاعر فرحات طوال الوقت بقوله: عباس بك! ولم تفلح جميع محاولات فرحات في تصحيح اسمه لدى هذا المندوب العجيب الذي كان يصر على مناداته باسمه الصحيح وهو عباس بك!.

لم تطل زيارة فرحات لمصر؛ لأن زوجته كانت تعاني من حمى طوال الزيارة، فعجّل بالعودة إلى البرازيل، حتّى إذا ما استقرّ في مدينة الأفق الجميل، شرع يواصلني برسائله، ويهديني جميع دواوينه. وكان أوّل ما بحثت عنه في دواوينه هو قصيدته الموسومة «خصلة الشعر» التي راجت ربّما أكثر من رواج أي قصيدة أخرى لفرحات. ذلك أن الشاعر كان يحب فتاةً في كفرشيما عاهدته على الوفاء والإخلاص والانتظار إلى أن يعود من هجرته لكي يقترن بها، وقدّمت إليه عربون حبّ يتمثّل في خصلة من شعرها، ولكن الفتاة لم تطق صبراً، فاقترنت بأوّل خاطب، ولمّا انتهى الخبر إلى فرحات نظم قصيدته الجميلة:

خِصْلَةُ الشَّعْرِ التي أَعْطَيْتِنِيْهَا ... عِنْدَما البَيْنُ دَعَانِي بالنَّفِيرْ

لَمْ أزَلْ أتْلُوْ سُطُوْرَ الحُبِّ فِيْهَا وَسَأتْلُوْهَا إلَى اليَوْمِ الأخِيْر
خُنْتِ عَهْدَ الحُبِّ، لا بأسَ، فإنِّي مُكْتَفٍ بالأثَرِ الغَالِي الثَّمِيْن
لستُ بعدَ اليومِ أحْيَا بالتَّمَنِّي بعدَ أنْ مَنَّيْتِنِي عشرَ سِنِيْن

يقول فرحات: إنه ولد في مدينة كفرشيما، وهي مسقط رأس آل تقلا أصحاب جريدة «الأهرام» وآل الشميّل أصحاب جريدة «البصير» وآل اليازجي وهم من أعلام اللغة، وكان ذلك عام ١٨٩٣. ولكن كاتباً زعم أنه ولد عام ١٨٩١. وعندما أراد الزواج في البرازيل لم تكن لديه شهادة ميلاد، فقدرت السلطات عمره - بما يتفق مع رغبة العروس طبعاً، على حد قوله - بأنه في الحادية والعشرين أي أنه من مواليد عام ١٩٠٠، وهو التاريخ الذي تضمّه السجلات الرسمية في البرازيل. تردّد في صباه على مدرسة الدير في كفرشيما حتّى إذا بلغ العاشرة من عمره ترك التعليم النظامي إلّا من التردّد على المدرسة لفترات قصيرة لا تتجاوز أسبوعاً أو شهراً. وعمل بعد ذلك في مهنٍ حرفية شتّى، متنقّلاً - حسب كلامه - من معمل نجارة إفرنجية إلى معمل نجارة عربية وبالعكس.

وفي عام ١٩١٠ انضمّ إلى موكب النازحين إلى العالم الجديد طلباً للثراء والحياة الرغيدة، ولكنه ذاق في البرازيل طعم التشرد والجوع، فلا كان يعرف لغة البلد، ولا خبر شيئاً من أوضاعها الاجتماعية. وكان مصيرهُ، كمصير معظم النازحين من قبله، حمل «الكشّة» - وهي صندوق يضم عينات من الأقمشة يطوف بها المندوب التجاري من متجر إلى متجر محاولاً إقناع التجار بالتعاقد على شراء ما يروق لهم من النماذج المعروضة، وله في كل صفقة جعل أو عمولة يتقاضاها من مصنع الأقمشة.

وقد اقتضاه هذا العمل - ولم يكن له عمل سواه - أن يطوف بأنحاء البرازيل، مخترقاً الفيافي والمستنقعات، على قدميه آناً وعلى مركبةٍ تجرّها الخيل آناً في سبيل تدبير أسباب الرزق له ولأسرته، وقد وصف فرحات هذه الحياة الشرسة في قصيدة عنوانها «حياة مشقات» كان مما قاله فيها:

أُغَرِّبُ خَلْفَ الرِّزْقِ، وَهُوَ مُشَرِّقٌ وَأُقْسِمُ لَوْ شَرَّقْتُ كان يُغرِّبُ
وَمَأكَلُنَا مِمَّا نَصِيْدُ، وَطَالَمَا طَوَيْنَا، لأنَّ الصَّيْدَ عنّا مُغَيَّبُ
وَنَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُ الخَيْلُ تارةً وَطَوْراً تَعَافُ الخَيْلُ ما نَحْنُ نَشْرَبُ

حَيَاةُ مَشَقّاتٍ، ولكنْ لِبُعْدِهَا عَنِ الذُّلِّ تَصْفُو لِلأَبِيِّ وَتَعْذُبُ

كان عزاء فرحات الوحيد في هذه الحياة بكل ضراوتها وغربتها هو قول الشعر، وكانت تصدر في سان باولو العاصمة جريدة اسمها «أبو الهول» فبعث إليها بأول قصيدة نظمها، ففوجئ بنشرها مع تقريظ قال فيه كاتبه: إن فرحات، وإن يكن غير متعلّم، فإن شعره يبذّ كثيراً من شعر المتعلمين، فشجّعه هذا على أن يواصل الجريدة بقصائده الوطنية ضد العثمانيين. ولمّا سئل فرحات: أين تعلّم الشعر، وعمّن أخذ القريض، جاوب سائليه بقصيدة قال فيها:

يَقُوْلُوْنَ: عَمَّنْ أَخَذْتَ القَرِيْضَ وَعَمّنْ تَعَلّمْتَ نَظْمَ الدُّرَرْ
وَأَيْنَ دَرَسْتَ العَرُوْضَ وَكَيْفَ تَلَقّنْتَ هذا البَيَانَ الأَغَرّ
وما كُنْتَ يوماً بِطَالِبِ عِلْمٍ فإنّا عَرَفْنَاكَ مُنْذُ الصِّغَرْ
فَقُلْتُ: أَخَذْتُ القَرِيْضَ صَبِيّاً عَنِ الطَّيْرِ وَهِيَ تُغَنِّي السَّحَرْ
وَعَنْ خَطَرَاتِ عَلِيْلِ النَّسِيْمِ يَمُرُّ فَيَشْفِي عَلِيْلَ البَشَرْ
وَعَنْ ضَحِكَاتِ مِيَاهِ الجَدَاوِلِ فَوْقَ الجَلَامِدِ، تَحْتَ الشَّجَرْ
وَعَنْ زَفَرَاتِ المُحِبِّ الأَدِيْبِ يُزَاحِمُه المُوْسِرُ المُحْتَقَرْ
وَعَنْ نَظَرَاتِ الحِسَانِ اللّلوَاتِي يَكَدْنَ يُغَلْغِلْنَهَا فِي الحَجَرْ

والحقيقة أن فرحات حفظ ديوان المتنبيّ عند ما عرف أنه اتخذ من الشعر سبيلاً له في الحياة الاجتماعية، وقرأ «البيان والتبيّين» للجاحظ، وطالع كل شعر المحدثين الفحول حتّى استقامت لغته وأداته الشعرية.

وهو قد عُرف بشعره الوطني الذي كان ينشده في محافل البرازيل في وقتٍ كانت فيه البلدان العربية جميعاً مهيضة الجناح، تعاني من الاستعمار صنوفاً وأشكالاً، على أن شعر الحماسة لم يكبت عاطفته الإنسانية التي عبّر عنها في عشرات «القصائد» تسلل بعضها إلى دواوينه، وبقي البعض الآخر طيّ أوراقه خشية أن يقال: إن شاعر الأوطان قد أصبح شاعر الحسان! وبعد ما نشر فرحات دواوينه التي تمثل مراحل حياته المختلفة رامزاً لها بأسماء فصول السنة، وهي «الربيع» و«الصيف» و«الخريف»، وبعدما نشر «رباعيات فرحات» وديوان «أحلام الراعي» فكّر في إخراج ديوان يضم قصائده في بدايات شتاء العمر، واختار له

عنوان «مطلع الشتاء» ثم في إخراج ديوانه العاطفي الذي اختار له عنوان «فواكه رجعية» ووافاني بمخطوطته طالباً أن أكتب له مقدمةً مناسبة، فجادلته طويلاً في صواب التقديم لأي من دواوينه، لأنه لم يعد في حاجةٍ إلى مَنْ يعرّف به الناس أو يقدّمه إليهم، ولكنه أصرّ على رأيه، فامتثلت لرغبته، ثم جادلته في عنوان الديوان اعتقاداً منّي بأنه لا يمثّل موضوعه وهو الحبّ، فقال: إن الفواكه الرجعية في لبنان هي التي تجيء في غير أوانها، وهو ما يصدق على تجاربه في الحب التي ستنشر بعد فوات أوانها.

وخشي فرحات، وقد تقدّمت به السن، وكثرت من حوله الرطانات، فلم يعد أحد من أفراد أسرته يدرك قيمة شعره بسبب عجمتهم جميعاً، أن يضيع تراثه، ولا سيما لأن كل دواوينه طُبعت في البرازيل باستثناء «مطلع الشتاء» الذي طبع في القاهرة و«فواكه رجعية» الذي طبع في دمشق، فكلّفني البحث عن ناشرٍ في مصر يطبع جميع دواوينه مع تنازله عن جميع حقوقه وحقوق ورثته فيها ـ فطفت بمن أعرف من الناشرين، ولكنهم أبدوا بما يشبه الإجماع اعتذارهم من عدم نشرها، ولم أفلح إلّا في التوسط لدى صديقي العلّامة منير البعلبكي (١٩١٨ ـ ١٩٩٩) صاحب دار العلم للملايين الذي وافق على إعادة طبع «أحلام الراعي». على أن الشاعر السوري عبد الله يوركي حلاق (١٩١١ ـ ١٩٩٦) صاحب مجلة «الضاد» الحلبية رحب بطبعها، وأعلن عن ذلك في مجلّته، ولكن يبدو أن تكاليف الطباعة الباهظة حالت دون المضيّ في هذا المشروع.

والحقيقة أن دواوين فرحات، زائداً كتاب «قال الراوي» الذي نشره في دمشق وكتاب «عودة الغائب» الذي نشره في بيروت، أصبحت بعيدةً عن منال الدارسين. وممّا زاد الطين بلّة أن مجموعات الدواوين التي كان فرحات يحتفظ بها في بيته ويهديها إلى رجال الأدب تعرّضت أثناء غيابه في زيارة الوطن في عامي ١٩٥٩ و١٩٦٠ لقطيع من الجرذان التهم ثلثها. فكتب فرحات إلى صديقه الشاعر جورج صيدح في باريس يقول: «الحمد لله، وجدتُ مَنْ يستطعم شعري ويحبّ دواويني»!.

صدرت عن إلياس فرحات دراستان، أولاهما للأديب الأردني الدكتور عيسى الناعوري (١٩١٨ ـ ١٩٨٥) بعنوان «إلياس فرحات شاعر العروبة في المهجر» والثانية للأديب الأردني الدكتور سمير بدوان قطامي بعنوان «الشاعر

إلياس فرحات»، وهي أصلاً أطروحة دكتوراه نالها من جامعة القاهرة. ولكن الحساسية الشديدة التي كان فرحات يعاني منها تجاه النقد جعلته غير راضٍ عن كتابات معظم الباحثين عنه، بما في ذلك رسالة الدكتوراه المشار إليها.

توفي فرحات في ٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٦ دون أن تقام لتأبينه أي حفلات في البرازيل، ربّما لأنه عاش بعيداً عن العاصمة. وبوفاته انهدم ركن ضخم من أركان الشعر المهجري، ولم تلبث بقية صفحات أعلام المهجر أن انطوت إلى الأبد.

❁ ❁ ❁

الدكتور أمير بقطر

احتُفل في القاهرة من بضعة أشهر بذكرى روّاد التربية وعلم النفس في ندوةٍ استمرّت أياماً، وأدهشني وأنا أطالع أسماء الروّاد المحتفل بذكراهم ألّا أقع على أسماء الثلاثة الأوائل في هذا الميدان، وهم الدكتور أمير بقطر، والدكتور محمد مظهر سعيد، ومحمد عطية الإبراشي، مع أنهم هم الذين رادوا هذا الميدان قبل سواهم، وكان إذ ذاك ميداناً بكراً، وهم الذين خرجوا على الناس بمؤلّفاتهم، وأمّوا الجامعات والمعاهد يدرسّون طلابها، وغزوا المجلات بمقالاتهم وفصولهم تعريفاً بهذا العلم الجديد، وتبسيطاً له على النطاق الشعبي الأرحب، وذلك قبل أن تنتقل الراية إلى الدكتور يوسف مراد (١٩٠٢ ـ ١٩٦٧) ومدرسته التي سمّاها «جماعة علم النفس التكاملي» والتي من أعلامها الدكتور مصطفى زيور (١٩٠٧ ـ ١٩٩٠) والدكتور إسحاق رمزي (ت١٩٩٢) والدكتور صبري جرجس والدكتوران مصطفى سويف ومصطفى صفوان أطال الله بقاءهما.

وكان الدكتور أمير بقطر أسبقهم جميعاً إلى ولوج باب التربية وعلم النفس من الطريق الأكاديمي ومن منابعة في الجامعات الأمريكية، إذ نال درجة الماجستير في التربية من جامعة كولمبية بنيويورك في عام ١٩٢٤ ودرجة الدكتوراه في التربية وعلم النفس من نفس الجامعة في عام ١٩٣٦ موسّعاً دائرة اهتمامه إلى جميع فروع علم النفس الإكلينيكية والجنائية والتربوية، لا من الناحية النظرية وحسب، بل كذلك من ناحية التدريب العملي في العيادات والمستشفيات النفسية الملحقة بالجامعات الأمريكية والأوربية. وكان قد مهّد لدراسة علم النفس والتربية بدراسة الحقوق، واضطر في سبيل ذلك إلى الحصول على الشهادة الثانوية في الفرع الأدبي بعدما ظفر بها في الفرع العلمي.

كنتُ وأنا طالب جامعي أرى الدكتور أمير بقطر بقامته المشيقة ومشيته الواثقة يدخل من باب الجامعة في ميقاتٍ يوميّ لا يغيّره، رأسه مشرئب إلى

أعلى، وجبهته العريضة تتجّه صوب الجوزاء، لا يلتفت يميناً ولا يساراً إلّا إذا لمح زميلاً أو صديقاً، ووجهته مكتبه العريق في كلية التربية التي أنشأها بنفسه، وهو مكتب لم يجلس فيه سواه إلّا في فترات زيارته للجامعات الأميركية أو الأوربية كأستاذ زائر مرّةً كل سبع سنين جرياً على العرف الجامعي، وبتقاعده من عمادة الكلية جرى إغلاقه، فلا قبله ولا بعده عرفت عميداً سواه، بيد أنه حرص على المضيّ في إصدار المجلة الفصلية التي أنشأها في عام ١٩٢٨. باسم «مجلة التربية الحديثة» والتي حرّرها بنفسه، وأصدرها بانتظام مُعجب إلى وفاته في عام ١٩٦٦ أي ٣٨ عاماً.

كان الدكتور أمير بقطر يمثل بمفرده مؤسسةً كاملة، فهوعميد الكلية وأستاذها الأول، وهو المرجع العلمي الأكبر لطلابه، وجلّهم من المشتغلين بالتدريس في المدارس الحكومية والأهلية، هو راسم للمنهاج الأكاديمي للدارسين والمشرف على أعمالهم وأطروحاتهم.

ومكتبته الخاصة العامرة بكتب التربية وعلم النفس ـ ما عاصر منها نشأة هذا العلم وما ساير تطوراته ـ هي مقصد الدارسين والباحثين. وكل هذا لم يحل دون اتساع دائرة نشاطه في المجتمع، يحاضر هنا وهناك، ويشارك في الجمعيات والأنشطة العلمية، ويكتب في مجلات مثل «الهلال» و«المقتطف» و«المصوّر» وغيرها مقالات تتناول نظرياته في الجماعة ورحلاته الواسعة في العالم، فضلاً عن اختصاصه بأبواب ثابتة يعالج فيها المشكلات النفسية ومشاكل الشباب، عدا قيامه بالتدريس كأستاذ زائر في جامعتي إيلينوي ونيويورك الأمريكيتيْن.

وعندما احتفلت جامعة كولمبية بمرور مئتي سنة على إنشائها في عام ١٩٥٩ منحته مداليتها للخدمة الممتازة مع ١٥ أستاذاً بارزاً من خريجيها على الصعيد العالمي، وكان من جملة المكرَّمين الرئيس الأسبق دوايت أيزنهاور الذي رأس هذه الجامعة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وقبل انتخابه رئيساً للولايات المتحدة.

وفي عام ١٩٤٠ ارتأى الدكتور بقطر أن الدراسات النظرية في كلية التربية تظل قاصرة إنْ لم تقترن بالتطبيق العملي، فأنشأ عيادةً نفسيّةً فتح أبوابها لاستقبال المبتئسين من معاناة العلّل النفسية والسلوكية بأجور رمزية، وحشد للعمل فيها

مجموعة من طلابه وطالباته المؤهلين، فأسدت إلى الجماعة خدمةً مقدورة.

تابعتُ مسيرة الدكتور أمير بقطر عن قرب ما يقرب منه ثلاثين عاماً، سواء وأنا ما زلت في مقاعد الدرس، أو عندما جمعتنا زمالة التدريس في نفس الجامعة، أو عندما اشتغلتُ بالصحافة اليومية، فكان أمير بقطر لا يفتأ يوافيني بتعليقاته البصيرة على ما أكتب، سواء في محادثات هاتفية خاصة أو في رسائل مكتوبة، ثم عندما رحّب بانضمامي إلى أسرة تحرير «مجلة التربية الحديثة» متخلّياً لي غير مرّةٍ عن مكانه في تحرير مقالة الصدر، وقُدِّر لي بعد وفاته أن أكون من جملة أعضاء الهيئة التي اختارتها الجامعة للإشراف على مواصلة إصدار هذه المجلة، وكانت تضمّ الأساتذة الأجلّاء الدكتور عثمان لبيب فراج، والدكتور صلاح الدين قطب، والدكتور إبراهيم عصمت مطاوع، والدكتور فيليب صابر سيف، والدكتور ميشيل وهبة، والدكتور أبو الفتوح رضوان (ت١٩٨٥) والدكتورة سميّة فهمي (ت١٩٩٦)، وكلّهم من كبار أساتذة علم النفس في الجامعات المصرية، واستمرت المجلة تصدر بانتظام بعد وفاة منشئها حتى عام ١٩٧٢.

وكان أمير بقطر يعتقد أن المدرّس لن يستطيع أن يؤدّي رسالته التعليمية على وجهٍ سليم إلّا إذا درس أسس التربية وعلم النفس واستعان بها في التعامل مع طلّابه، وشتّان بين مدّرسٍ يقتصر على تلقين الدورس لاستظهارها وبين مُرَبٍ تَعْنِيه شخصية الطالب ونفسيته، ويحرص على تقويم أي قصور فيه كيما يُساعد الطالب على حسن الاستيعاب من ناحية، وعلى أن تتكامل شخصيته بحيث يغدو عضواً سويّاً في الجماعة، من ناحية أخرى. ومن أقواله التي كان يردّدها: إن أثر الأستاذ لا يقتصر على محاضراته وكتبه وبحوثه، وإنّما يشمل فوق ذلك شخصيّته وعلاقته بطلابه ونفسيته وما يُشعّه حوله في جو الجامعة من تلك القوة السحرية التي توجّه الطالب إلى فوق - إلى التفكير السليم والمثل العليا واستدعاء أسباب الإلهام والإيحاء.

وعندما أنشأ أمير بقطر كلية التربية، لم تكن هناك كليات مناظرة لها في الوطن العربي، ولكنه أدرك ببعد نظره وحسن تقديره أن العملية التعليمية تظل مهيضةً في غياب كليات التربية، وهو ما اجتهد في تحقيقه، وتعهده بعنايته نحو أربعين عاماً.

وكانت لأمير بقطر قدرة فائقة على تبسيط علم النفس وترجمة مصطلحاته ترجمة عربية سائغة مفهومة، ممّا حدا بي إلى دعوته مراراً إلى إعداد معجم لمصطلحات علم النفس يضمّ حصيلة جهوده المترامية في هذا الميدان، ولكنه كان يقول: إن مهمته الأساسية تنحصر في نشر الثقافة على أوسع نطاق، أمّا تصنيف المعاجم فهو من عمل المجامع اللغوية. كما نصحته بأن يجمع المقالات الكثيرة التي نشرها في مجلّته وفي المجلات الأخرى في كتاب متعدّد الأجزاء، فكان يقول: إنه يؤثر إنجاز عملٍ جديد عوضاً عن تجميع أعمال قديمة أدّت مهمّتها في حينها.

وكان أمير بقطر يحث المشتغلين بالفكر، أياً كان مجال تخصصهم، على العناية باللغة العربية، وتحصيل أكبر قدرٍ من مفرداتها حتّى تخرج أساليبهم العربية جامعةً بين السلاسة والجمال والصحّة اللغوية. وكان يقول: إن الثروة من المفردات اللغوية لا تقتصر على الأديب وحده، بل يتعين على العلماء، كل في اختصاصه، أن يتزود بثروة من هذه المفردات تعينه في التعبير عن مقاصده العلمية تعبيراً واضحاً مُبيناً. ولا غرّو أن يقول أنور الجندي عن أسلوب أمير بقطر: إنه «يحكي أساليب أقدر كتاب العربية، وقد داخلته فنون الأساليب الغربية فأعطته ذلك اللون الطريف الطلي الذي يمزج بين العلم والأدب والجدّ والفكاهة».

وكان أمير بقطر يؤمن بالتفاؤل منهاجاً في الحياة، ويرى أن الحياة جديرةٌ بأن نحياها فلا نقنط من المثبّطات العارضة، وأن المشكلات مهما تعاظمت لا بدّ أن تنفرج، لأن الإيمان من ناحية والعلم من ناحية أخرى كفيلان بالقضاء عليها.

ومن حكيم أقواله: «لتكن مطامحك ورغباتك في الحياة مُنتقاةً بحكمة وتعقّل، فلا تكن خيالياً، بل اجعل هذه المطامح مطابقةً لمقدرتك، مُتفقةً مع مواهبك. لتكن لك فلسفة واضحة في الحياة، وثابر على تحقيق مبادئها. وليكن شعارك الإعطاء أكثر من الأخذ. اهتمّ بالغير اهتمامك بنفسك».

وما هذه النصائح المسوقة عبارات إنشائية جميلة محرّرة، ولكنّها تمثل عند أمير بقطر حصيلة تجارب ونتيجة دراسات وخلاصة حكمة.

ولد أمير بقطر في مدينة أسيوط في صعيد مصر في عام ١٨٩٨ أو ١٨٩٩ ـ فلم تكن المواليد تقيّد وقتها في السجّلات الحكومية ـ وتعلّم في كلية الأمريكان

في أسيوط حتى المرحلة الثانوية، ثم درس الحقوق قبل أن يتابع دراساته العليا في الولايات المتحدة، وعند عودته من أمريكة عُين أولاً ناظراً لمدرسة ثانوية في بني سويف، ثم ناظراً للقسم الحكومي في الجامعة الأميركية بالقاهرة قبل أن يتفرّغ للعمل في كلية التربية، وتزوّج من سيدة إنكليزية توفيت قبله بعامين دون أن يُنجب منها، وأصيب بعلّة في الحبال الصوتية اضطرته إلى إجراء جراحة في أمريكة ترتّب عليها خفوتٌ في الصوت، ومع ذلك استمرّ يؤدّي عمله في محاضراته دون الاستعانة بمكبّر للصوت.

وكان من عادته أن يقضي العطلة الصيفية السنوية سائحاً في شرق العالم وغربه، ولكنه أنِسَ في سنوات عمره الأخيرة إلى مدينة ريفية في النمسا قرّر الاصطياف فيها سنوياً. وفي ١٩ من تموز (يوليو) ١٩٦٦ أصيب في هذه المدينة بنوبة قلبية قاتلة، فنقل جثمانه إلى القاهرة حيث شيِّع ودفن.

أما مؤلّفاته فمنها «الدنيا في أمريكة» و«كيف نتعلّم لنعيش» و«دانيمركة ومدارسها الشعبية» و«اتجاهات حديثة في التربية» و«آراء حديثة في التعليم» و«فن الزواج» كما أصدر كتابيْن باللغة الإنكليزية هما «المدرسة والمجتمع في وادي النيل» و«تطور التعليم واتّساعه في الجمهورية العربية المتحدة». وترجم عدة كتب منها «التربية في الشرق الأوسط العربي» و«لا تخف» و«اعرف نفسك» و«٢٠ سنة في غرفة الاعترافات» و«أنت وأنا: من أين جئنا» و«مأساة مايرلنغ».

وعند وفاة أمير بقطر تواعدتُ مع صديقنا المشترك طاهر الطناحي (١٩٠٣ - ١٩٦٧) مدير تحرير مجلة «الهلال» على إقامة حفل لتأبينه نُشرك فيه كثيرين من أصدقائه وطلّابه البارزين، ونظم الطناحي مطولّة شعريةً لإلقائها في الحفل سلَّمني إياها بسبب إصابته بفالج عارض كيما تُلقى نيابةً عنه. ولكن ترتّب على النكسة النكباء التي حدثت في عام ١٩٦٧ إلغاء جميع الاحتفالات والتجمّعات، فتعذّر علينا إعطاء أمير بقطر حقه الكامل من التقدير والعرفان. من حُسن الاتفاق أننا قمنا بإصدار عدد خاص من «مجلة التربية الحديثة» عن منشئها ومحرّرها أمير بقطر صدر في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٦ في العام الأربعين لعمر المجلة، فأنصفناه بأقلام عارفي فضله، كما قامت الجامعة بصنع لوحةٍ من النحت البارز تخليداً له.

وكان أمير بقطر يقيم في شقة في بنايةٍ قديمة في حي جاردن ستي

الأرستقراطي، وكان أصحاب البناية يتلهّفون على هدمها لإقامة ناطحة للسحاب في مكانها تدرّ عليهم الملايين، فلمّا أتاهم نبأ وفاة الساكن الوحيد الباقي في البناية، بادروا بإبلاغ بيت المال بأن الساكن مات وليس له وريث ظاهر، وهو ما يخوّل لبيت المال أن يرثه، فجاء مندوبوه وكسروا باب الشقة، ونقلوا جميع الأمتعة المودعة فيها لبيعها في المزاد، أما المكتبة النفيسة التي ضمّت ذخائر كتب التربية وعلم النفس والتي أنفق أمير بقطر عمره في جمعها والحرص عليها، فقد كان مصيرها الإزجاء على سور حديقة الأزبكية ليسومها كل مفلس. وقد أفجعني أن أرى هذه الكتب متناثرةً على السور العتيد ـ قبل هدمه ـ تقلّبها أيدي المماكسين وتُباع مفرداتها بقروش قليلة. ولو كان هناك رشيد يعرف قيمة هذه المكتبة لأشار بإهدائها إلى إحدى كليات التربية كيما ينتفع بها طلابها وأساتذتها وباحثوها. ولكن لا جدوى من البكاء على اللبن المسكوب!.

❁ ❁ ❁

امين نخلة

في بدايات عمري مشتغلاً بالصحافة مشدوداً إلى الأدب تعرّفت بدبلوماسي شاب يعمل في المفوضية السورية في القاهرة (قبل أن ترفع درجة التمثيل إلى مرتبة سفارة). فأخبرني بأنه شاعر، وبأنه يقوم بطبع ديوانه الثاني وعنوانه «طفولة نهد» في مطابع القاهرة، وعلمت منه أن ديوانه الأول «قالت لي السمراء» نُشر في دمشق، وأحدث فيها وفي برلمانها ضجة مُدوِّية رئي معها نقله إلى القاهرة من قبيل الترضية للثائرين عليه.

هذا الشاعر الشاب هو نزار قباني، (١٩٢٣ ـ ١٩٩٨)، وكنتُ وإيّاه نذرع القاهرة طولاً وعرضاً، ولا سيما بعد ظهور ديوانه لتعريفه بالأدباء المصريين وإهداء الديوان إليهم، فلم يكتب عنه أحدٌ من الأدباء أو النقّاد في صحف مصر إلّاي.

وفي لقاء من لقاءاتي المتعدّدة معه في تلك الفترة ـ حوالي عام ١٩٤٨ ـ سألني: هل قرأت «المفكرة الريفية»؟ فقلت له: وما هي «المفكرة الريفية»؟. فقال: إنها كتاب بديع للأديب الشاعر أمين نخلة ـ وكانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها باسم أمين نخلة، إذْ كنت ما زلت أجتهد في اكتشاف الحياة الأدبية، ولا سيما في خارج مصر، ولم أكن صادفت شيئاً في مطالعاتي لأمين نخلة أو عنه.

وتداركاً لجهلي، بعثت إلى صديق في لبنان أرجوه موافاتي بنسخة من هذه المفكرة الريفية التي أوصاني نزار قباني بمطالعتها دون غيرها من الكتب، وعكفت على قراءة المفكرة بعناية، فاكتشفت أن مؤلّفها أمين نخلة يختار ألفاظه من سبائك الذهب، وينتقي أسلوباً في الكتابة جميلاً بليغاً معبّراً، وأنه غنيّ بمعجمه في وصف الطبيعة والريف، وكأنه مصوِّر مفتون بجمال الكون، وريشته عبقرية في رسم صور البلابل والزهور والأعناب والفاكهة والينابيع وما إليها. وحسبي تمثيلاً

لأسلوبه في «المفكرة» أن أنقل منها سطريْن اثنين، حيث يقول: «الكريز، وهو الذي يكاد يثب من نفسه إلى فمك». وحيث يقول: «الهرّ لا يأكل آباءه، بل يأكل بنيه».

عشت مع «المفكرة» فترة عرفت فيها شيئاً عن أمين نخلة، ولا سيما لأنه ألحق بكتابه «مراسلةً مطرانية» حيث وجّه إليه شاعر الأقطار العربية خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩) قصيدةً يشكره فيها على إهدائه نسخة من «المفكرة» قال فيها:

أَهْـدَيْـتَ والـمُـهْـدَى ثَـمِـيْـن
للهِ درُّك يـا أَمِـيْـن
مـا أبـدعَ الـكَـلِـمَ الـمـشـقَّـقَ
فـيـه مِـنْ أَدَبٍ فُـتُـون
فـيـه الـمُـنَـمَّـقُ والـمُـرَوَّقُ
والـمُـحَـجَّـبُ والـمُـبِـيْـن

إلى آخر هذه القصيدة التي ردّ عليها أمين نخلة بقصيدة من نفس الوزن والقافية كان مما جاء فيها قوله:

قَسَماً بِمُطَرَانِيَّةٍ زهيت بها في الشعر نون
غرّاء من ذهبٍ، وبعضُ قصائدِ الشعراءِ طيْن

وفي أوّل زيارة لي بعد ذلك لصديقي خليل مطران أبديتُ إعجابي بهذه «المراسلة المطرانية»، فتوقّف طويلاً عند أمين نخلة وأشاد به وقال: إنه قطعاً من أشعر شعراء العصر.

وذات يوم كنت أفحص بريد الصباح في مكتبي بجريدة «المقطم» فلاحظت بينه رسالة مسجلة مرسلة من بيروت ومطبوع على مظروفها عبارة «مجلس النواب اللبناني» وصورة شجرة الأرز، وأدهشني أن يكون في هذا المجلس مَنْ يعرفني فيوجّه إليّ رسالة. ولمّا فضضتها تبينت أنها من أمين نخلة عضو البرلمان، يقول فيها: إنه عاكف على جمع تراث الشاعر الأديب ولي الدين يكن (١٨٧٣ ـ ١٩٢١) الذي كان صديقاً لأبيه، وإن يكن كان ينشر في جريدة «المقطم» في عام ١٩١٣ مقالات منجّمة بعنوان «التجاريب» و«الصحائف السود»، وإنه استطاع

الظفر بمعظم هذه الفصول ما عدا فصلين، ورجاني أن أكلّف أحداً بالبحث عنهما في مجموعات الجريدة ونسخهما ـ ولم تكن أجهزة التصوير قد انتشرت بعدُ ـ وإنه سيتحمَّل التكاليف. وبادرت بمراجعة مجموعة الجريدة، ووقفت على الفصلين المطلوبين ونسختهما بنفسي، وبعثت بهما إلى أمين نخلة دون أن أتقاضاه أي تكاليف، إذ اقتصرت على رسوم البريد، وكانت في ذلك الوقت ملاليم. وقد استعان أمين نخلة بهذين الفصلين عند نشره كتاب «عفو الخاطر» الذي ضمّ كتابات ولي الدين يكن.

وعندما زرت لبنان للمرة الأولى في عام ١٩٥٥ اتصلت بأمين نخلة، فاستقبلني في مكتب المحاماة الخاص به في أول طريق الشام، وكان لقاءً ودّياً على الرغم من إحساسي بأن أمين نخلة ذو مهابة، وبه كثير من خصائص الأرستقراطية الرفيعة، يتكلّم بكثير من الثقة بالنفس، وكل كلامه قاطع ناجز. له قامة مشيقة، وملامح صارمة ـ لعلّه اكتسبها من مهنة المحاماة ـ ولكنّه كان يتقبّل الفكاهة، ولا يضيق بصحبة زائر بسيط مثلي.

وممّا قاله لي في ذلك اللقاء الأول ـ وقد تكرّرت اجتماعاتي به خلال مدة إقامتي في بيروت ـ: إنه سيرشّح نفسه لمنصب رئيس الجمهورية اللبنانية، وإن في اعتقاده أن حيثيته الاجتماعية وشهرته الأدبية وتاريخه الوطني كفيلة بتحقيق هذا الأمل. ولكن يبدو أنه صرف النظر عن هذا المطمح لاعتبارات أجهلها.

وعندما أعاد أمين نخلة إصدار جريدة «الشعب» التي كان والده يصدرها، كتب إليَّ مبدياً رغبته في أن أواصلها بمقالاتي، بل سبق هذا إلى نشر مقال لي نقله عن «المقطم» حول ديوان «من نبع الحياة» لصديقي الشاعر محمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ ـ ١٩٨٥). وقبل أن أستجيبَ لرغبته علمت أن الجريدة عُطِّلت مراراً وتكراراً واضطر إلى إغلاقها.

ولعلّ أكبر ما كان أمين نخلة يعتّز به في مسيرة حياته الشعرية هو شهادة الشاعر أحمد شوقي (١٨٦٨ ـ ١٩٣٢) الملّقب بأمير الشعراء، والتي نشرها أمين نخلة كمقدمة للطبعة الأولى لديوانه «دفتر الغزل» عند صدورها في عام ١٩٥٢ ونصّها:

هَـــذَا وَلِـــيٌّ لَـــعَـــهْـــدِي وَقَـــيِّـــمُ الـــشِّـــعْـــرِ بَـــعْـــدِي

فَكُلُّ مَنْ قالَ شِعْراً في الناسِ عَبْدٌ لِعَبْدِي
كأنَّ شِعْرَ أَمِيْنٍ مِنْ نَفْحِ بانٍ وَرَنْدِ
أو مِنْ عِناقِ التَّصابِي وَقَرْعِ خِدٍّ بِخَدِّ
أو مِنْ حديثِ ابنِ هاني يُعِيْدُ فيه ويُبْدِي
أو مَنْ حَنِيْنِ الهَوَادِي إِلَى العَرَارِ ونَجْدِ
دِيْوَانُهُ زَفُّ طِيْبٍ ونشرُهُ نَشْرُ وَرْدِ
والعَصْرُ عَصْرُ أمينٍ خيرٌ، ومطلعُ سَعْدِ

وإذا كانت «المراسلة المطرانية» قد نُشرت في حياة الشاعر خليل مطران بحيث لا يستطاع الشكّ في صدورها عن الشاعر، فإنَّ التحية الشوقية التي نصّب فيها أمير الشعراء شاعر «دفتر الغزل» ولياً لعهده وقيّم الشعر بعده وبأنَّ العصر عصر أمين نخلة. . . . هذه القصيدة قد نُشرت بعد سنوات من وفاة شوقي، ولم تظهر في «الشوقيات» بأجزائها الأربعة، ممّا أثار بعض الشكّ في صدورها عن أمير الشعراء. وعندما أصدر الدكتور محمد صبري السوربوني (١٨٩٠ ـ ١٩٧٨) الجزء الثاني من كتابه «الشوقيات المجهولة» الذي رصد فيه مئات من الشوقيات التي لم تندرج في ديوان شوقي المطبوع، تلقّى رسالةً من الشاعر السوري أنور العطار (١٩١٣ ـ ١٩٧٢) ينبهه إلى تحية شوقي لأمين نخلة، وقد انخفض عدد أبياتها إلى النصف، ورُفعت منها عبارات ولاية العهد وعبيد عبيده وعصر أمين، ممّا يُوحي بأن العطّار أو السوربوني تشكك في صدور هذه الأوصاف عن شوقي.

ولا أظن أمين نخلة كان في حاجة إلى انتحال هذه الأوصاف الفضفاضة، فشعره وحده أبلغ شهادة على شاعريته. ولكنّه ـ كما أسلفت ـ كان ذا مطامح لبلوغ مرتبة الصدارة السياسية في بلاده، وكان ولوعاً بصحبة الملوك ـ ولو على الورق ـ يشهد على هذا السفر الذي أصدره في عام ١٩٥٤ بعنوان «كتاب الملوك» وفيه أحاديث عن ملوك زالت عنهم عروشهم.

وشاعريّة أمين نخلة شاعرية ثرّة، تتجلّى في دواوينه الثلاثة «دفتر الغزل» و«الديوان الجديد» و«ليالي الرقمتين»، ولكنّه قصير النفَس بصورة واضحة، وقلّ أن تزيد قصيدةٌ عنده على عشرين بيتاً كحد أقصى، ولكنْ عند إزاحة الستار عن تمثال رياض الصلح، نظم قصيدةً عامرةً من ٥٥ بيتاً، لعلّها أطول قصائده طرّاً،

وقد حرص على إهدائي نسخة منها، لأنها صيغت من مهجته ووجدانه، وقد ختمها بقوله:

وَأَتَيْتُ وَحْدِي، بعدَ أيّامِ الجَنَى أَبْكِي على الرَّوْضِ الخَلِيِّ، وأَنْحَبُ
أَفْنَىٰ عَزَائِي فيكَ أنّي لا أَرَىٰ وِرْداً على الدنيا، ولا أتطلّبُ

ولد أمين نخلة في شهر أيار (مايو) ١٩٠١ في مجدل معوش، ودرس في المعاهد اللبنانية إلى أن ظفر بدرجة الليسانس في الحقوق من بيروت، ثم نال درجة ثانية في ليسانس الحقوق من دمشق في عام ١٩٣٠. وعمل بالمحاماة في فترة من حياته، وانتخب عضواً في البرلمان اللبناني عام ١٩٤٧. وحاول الاشتغال بالصحافة فاستأنف إصدار جريدة «الشعب» المملوكة لأبيه الزجال المشهور رشيد نخلة (١٨٧٣ ـ ١٩٣٩) واضع النشيد الوطني اللبناني، ولكنها عطلت لاعتبارات سياسية.

وفي عام ١٩٦٥ فاز بجائزة رئيس الجمهورية عن أفضل كتاب، وانتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية بدمشق الآن) في عام ١٩٦٦.

ويقول يوسف أسعد داغر (١٨٩٩ ـ ١٩٨١) إن أمين نخلة عمل في مقتبل عمره مديراً لناحية العرقوب في لبنان عام ١٩١٦ فكان أصغر حاكم إداري في الدولة العثمانية، وتوفي عن ٧٥ عاماً في ١٣ أيار/مايو ١٩٧٦ أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، فلم ينل حقّه من الوفاء إلّا في المهرجان الكبير الذي أقيم له في بيروت في العام الماضي، وإلّا في مهرجان أقامه عبد العزيز البابطين في يناير ٢٠٠٢.

ولأمين نخلة عدا دواوينه وكتبه التي تقدمت الإشارة إليها كتب نثرية منها «كتاب المئة» و«تحت قناطر أرسطو» و«في الهواء الطلق: تذكارات وتجارب» و«الدقائق في اللغة» و«الإثارة التأريخية» و«الأساتذة في النثر العربي» و«قصة الفردوس الأرضي» و«الحركة اللغوية في لبنان في الصدر الأول من القرن العشرين» و«أوراق مسافر». كما حقق ديوان أبيه رشيد نخلة في الزجل، ونشر «كتاب المنفى» لوالده. وأصدر طائفة من الكتب القانونية.

وقد سمعت أن المجموعة الكاملة لآثار أمين نخلة قد صدرت في بيروت،

ومؤكد أنها ذخيرة أدبية فاخرة لفرط عناية نخلة بانتقاء ألفاظه؛ وحرصه على التنقيح وإعادة التنقيح في كل أثر يصدر عنه اطّلاباً للجودة ونشداناً للكمال. ومَنْ طمع في أن يكون قيّماً للشعر بعد شوقي ووليّاً لعهده، فليس كثيراً عليه أن ينخل كل كلامه بمنخلٍ دقيق حتى يخرج في أروع صورة يطيب لها ذوقه الرفيع.

وقد يُنعى على أمين نخلة أنه شاعر مُقلّ، فلم يصدر في حياته إلّا ثلاثة دواوين صغيرة الحجم، ولكن الموازين الدقيقة التي آثر أن يزن بها كل قصيدة جعلته يفضل القلّة مع التبريز على الكثرة مع الترّخص.

❁ ❁ ❁

بدوي طبانة

او هوامش على متون كتاب «فرسان الحلبة»

أعادني أستاذُنا الكبير الدكتور بدوي طبانة (١٩١٤ - ٢٠٠٠) من عالم الرطانات إلى عالم الضاد بكتابه الموسوم «فرسان الحلبة» فقد رأيتُني مطروداً من حلبات الأدب بعدما سيطر الموظفون وأشباهُهُم على مجلات الأدب في ديارات العرب، وبعدما افترش مَنْ يُدْعَوْن بأحفاد شوقي - وشوقي منهم براء - دورياتِ الأدب وصفحاتِه، وبتنا - على أحسن الفروض - ننتظر دورنا في النشر في طوابير مطوبرةٍ أطولَ من طوابير الخبز والدجاج، بل باتت المجلّاتُ الأدبية تضع مقالاتنا في «ديب فريز» لتنشرَها بعد رحيلنا عن هذه الفانية، كما فعلت مع أستاذنا العظيم محمد عبد الغني حسن، الذي ماتَ مقهوراً من أفاعيل أباطرة الأدب في دنيا العرب، الذين حبسوا شعره ونثره ثلاث سنين ولم ينشروه إلّا بعدما اطمأنوا إلى وفاته، وهم حتّى مع ذلك ضنّوا عليه بمجرّد الإشارة إلى فجيعة الأدب بموته!

أما الناشرون، فقد صاروا يعدّون الأدب وباءً أشبه بوباء الأيدز، فلا يكاد أديبٌ يعرض عليهم كتابه حتّى يوصدوا في وجهه الأبواب فزعاً من شرّه دون أن ينظروا في ما يحمل في يُمناه.

وأمّا القراءُ، فقد عصفت بهم نوازلُ الغلاء الأفحش، وكوارثُ انهيار قدرتهم الشرائية المنعدمةِ أصلاً، فعدّوا الكتابَ ترفاً لا يتأتّى نوالُه إلّا لمن كان في ثراء أوناسيس[1]، وهؤلاء ينفقون أموالهم في كل غرضٍ من أغراض المتعة والبهجة إلّا غرضَ متعةِ القراءة.

أقول: إن أستاذنا الكبير بدوي طبانة انتزعني من مآربِ الحياة بين مدوّنات الفرنجة التي تكفل لي الخبز مع الكرامة، إلى دنيا الأدب - ويا ويلَ من أدركته

---

(١) الثري اليوناني الشهير.

حُرفة الأدب! ـ ولا بأس من مزاحمة المتصعلكين فيها قبل أن أنكفئ من جديد على الرطانات الولود، بعيداً عن الضاد العقيم! فلعلّكم تحتملون منّي هذه النفثة التي أطلقتُها من واقع التجارب الغليظة، ولعلها تطابقُ تجارب كثيرين من الأدباء الذين لا ينتمون إلى فصيلة أحفاد شوقي وشعراء الأسمنت والمداميك والمستوظفين الذين قيل لهم: كونوا أدباء، فكانوا!

ومعذرةً إذا ما حوّمتُ بخواطري وذكرياتي حول كتاب «فرسان الحلبة» دون الخوض في أوقيانوسِه المحيط، وعوالِمِهِ المتراحبة العميقة. وليكن مدخلي إلى الكتاب الرجلُ الذي صنّفه وأبدعه بأستاذيته الرصينة وذوقه الرفيع وأصالته المكينة وعلمه الزاخر وخُلُقه السامي المتسامي، ألا وهو أستاذنا الكبير الدكتور بدوي طبانة الذي يصدق فيه قول المتنبيّ:

مَنْ كانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ ولا يَضَعُ

إنه أستاذ من هامة الرأس إلى أخمص القدم، وهو لن يكون إلّا أستاذاً معلّماً مهذباً ناصحاً أميناً. فإنْ جفته مناصبُ العمادِة والوكالة فهي ـ وإن سَمَتْ في أعراف الدوبيا ـ لن ترقي إلى شرفِ الأستاذيةِ الذي قَنَعَ به طبانة إيماناً منه برسالته التي حملها على مدى العمر بأمانة وضمير حيّ ودأبٍ كدأب الرسل.

كنتُ في باكورة عمري أعمل بالصحافة التي فيها تخصصت، ولا أزعمُ أنني أنتمي إلّا إليها. وكان عملي يُتيح لي لقاء كثيرين من المشتغلين بالحياة العامة على صعيد الأمة العربية، ومنهم رجالٌ في بلاد الرافديْن، لا يتحدثون إلّا بميزان دقيق. وقد سمعت منهم على تعدد مشاربهم وشيعهم ومراتبهم ثناءً مستطاباً على ثلاثة رجال قالوا إنهم هم وحدهم الذين نقشوا أبيض الصفحات في هذه البلاد. ولمّا استوضحتهم عمن يكونون قالوا: زكي مبارك، وعبد الرزاق السنهوري، وبدوي أحمد طبانة. وقالوا: إن من سبقوهم ومَنْ لحقوا بهم لم يتركوا أثراً يُذكرُ لهم أو يُشاد به.

وأحمدُ ربّي لأنني عرفت ثلاثهم على تفاوتٍ في المعرفة. فالسنهوري باشا رافقتُه في زيارة إلى معرض كان يفتتحه بوصفه وزيراً للمعارف، وزكي مبارك اتّصلت به منذ ما كنتُ في فصول الدراسة الجامعية، ولولا حياةُ «البهدلة» التي كان يحياها لوثّقت علاقتي به، وأما أستاذُنا طبانة فقد أفضل عليّ بمودّاته وحبّه

سنوات لا أحصيها ـ إشفاقاً على شباب شيخوختنا! ـ وإن كانت قد عَمَرَتْ دائماً بأشهى أسباب الألفة والتوادّ، وبأصفى ما تكون الوشائج بين قلبيْن.

أقول، وفي الصدر غصّة: إن هذا الرجلَ العظيم يكاد يتوه في زحام الحياة، في حين أن منزلته الشامخة تزكيّه لعضويات المجامع ولجوائز التقدير على أعلى المستويات.

والحمد لله أنه ظفر بهذا الشرف، بل إن كتابه الذي نحن بصدده خليقٌ وحدَه بجائزة نقد الشعر البابطينية. وعندما تكرّم بعض الأصفياء المجاملين. أعضاء مجمعي دمشق والأردن بتزكيتي لعضوية المجمعين الجليلين قلت لهم صادقاً: لو أردتم لهذا التكريم أن يصادفَ أهله، فعليكم بأساتذتي الكبار: بدوي طبانة، ومحمد عبد المنعم خفاجي، وحسين مجيب المصري، وكامل السوافيري (١٩١٧ ـ ١٩٩٢) عوضاً عنّي، فهؤلاء يستوون على المقاعد في مصافّكم، أما أنا فمكاني الذي لا أَبْرَحُهُ هو مكان التلميذ من أساتذته الكبار.

فإذا انتقلتُ إلى كتاب «فرسان الحلبة» قلت: إنني استمتعت بقراءته استمتاعي بقراءة جميع مؤلّفات أستاذنا بدوي طبانة، ولا سيّما لأنني عرفتُ بالمشافهة فارسين من فرسانه هما حافظ جميل وهلال ناجي ـ هداه الله ـ كما تفضل فارس ثالث هو حازم سعيد بإهدائي ديوانه بإيعاز من أستاذنا طبانة. وإذا كانت الصلةُ الشخصيةُ الوثيقة هي التي أغرت أستاذَنا طبانة بتناول هؤلاء الفرسان الخمسة دون سواهم، فإن هذه الصلةَ الشخصية نفسَها هي التي شوّقتني إلى متابعة فصول الكتاب، واستعادةِ ما كنتُ قرأتهُ من شعر أصحابه، وكذلك استعادةِ ذكرياتي عن بلاد ما بين النهرين منذ ما فوجئتُ وأنا في مستهلّ حياتي الصحفية بزيارة كريمة من الأديب المؤرخ الصحفي الكبير رفائيل بطي. ومنذ ما زارنا في ندوة «المقتطف» طالبُ الدكتوراه عبد الرزاق محيي الدين الذي صار رئيساً للمجمع العلمي ووزيراً، وكذلك الطلابُ الشبّان مشكور الأسدي، وشاكر خصباك، والمرحومان: إبراهيم الوائلي، وغائب طعمة فرمان، ومنذ ما تفضّل العلامة الكبير محمد رضا الشبيبي بالاتصال بي في إحدى زياراته للقاهرة للمشاركة في المؤتمر السنوي لمجمع القاهرة هو وزوج ابنته صاحب دهب. كان هذا في الأربعينيات من القرن الماضي، وكنت وقتها في العشرينات من عمري.

هذه الذكرياتُ جميعاً أيقظتها مطالعةُ كتاب «فرسان الحلبة» الذي جاء من حيث توقيته برهاناً أكيداً على أن عُرى الأدب هي العرى الوحيدة الباقية الآبدة، وأن جامعة الضاد هي جامعة العرب الكبرى التي قال فيها الشاعر محمود أبو الوفا:

وَطَنِي هو الفُصْحَى، وكُلُّ بلادِها ... في مِصْرَ أو فِي الشَّامِ هُنَّ بِلادِي
هـذا هـو الـوَطَـنُ الـذي أَحْـيَـا لَـهُ ... وَلَـهُ أُوالـي صـادِقـاً وأُعَـادِي

وأعجبني من الناقد الكبير الدكتور بدوي طبانة أنه أعفانا من تطبيقات نُقّادِ هذا الزمان الذين استعاروا مقاييسهم من مذاهب تكعيبية وبنيويةٍ ومعماريةٍ وأسمنتيةٍ ومن معادلات رياضية وتخريجات كمبيوترية، فخلا الكتاب من الرسوم البيانية ومن الدوائر والمثلثات والأواني المستطرقة، ولم نر فيه أسهماً هابطة أو صاعدة، ممّا صار اليوم سمةً للنقد العصريّ الانطلاقي الانبثاقي الاندفاعي التجديدي الطليعي الوثاب! وقد أشفق الدكتور طبانة على سذاجتنا، فاقتصر على الاحتكام إلى الذوق الأدبي والجمال الفنّي، وخاطبنا بلغةٍ عربية فصيحة بريئة من شقشقات اللسان، ولولبيات، الكلام، وطمطمانيات الأعجام!

وحديثه عن حافظ جميل أعاد إليَّ ذكرى لقائي الأوّلِ والأخير معه في حديقة فندق عمر الخيام (الذي تحول الآن إلى فندق ماريوت) إذ كان الشاعر في زيارة صيفية لمصر، كما كانت زميلته السابقة في الجامعة أرملةُ صديقنا الأديب العربي الكبير عادل زعيتر في زيارة للقاهرة، فرغب أخونا الحميم قاسم الخطاط في استصحاب كليْنا للقاء هذا الشاعر الكبير، فكان لقاءً في دوحة الشعر وبين خمائل الخيام. كان الجميل اسماً على مسمى، يرتدي بزةً بيضاء تزيده فراعةً في القوام، وتَشيع الحمرة في وجهه، ويفتّر ثغره عن ابتسامة عريضة لم تفارقه طوال اللقاء، وانصرف كعادته إلى خندريسه الأثيرة، في حين تقاسم الباقون أقداح الشاي. وظللنا نشنّف الآذان بشعره وذكريات مغامراته مع التين والتوت والرمان وغيرها من الفواكه المحرّمة إلى أن أصّر على توديعنا عند باب الفندق. ألَا رحم الله هذا الشاعر الكبير، ورعى أخانا قاسماً الخطاط جامعَ الأحباب ومؤلف القلوب، ورحم الله أم عمر عادل زعيتر التي ظلت تعيش في نابلس تحت وطأة الاحتلال البغيض.

وقد تعرّض أستاذنا طبانة في موضعين من كتابه لديوان «النزغات» للشاعر جميل صدقي الزهاوي، وكان تعرضُهُ للديوان موجزاً لوروده في سياق الحديث دونما حاجة إلى الإفاضة والإسهاب. وما دام أستاذُنا طبانة قد تكرَّم فأشار إليَّ في هذا المقام، فلعلّ من المناسب أن أروي في هذا الحديث المستطرد ما أعرفه من قصة هذا الديوان المنبوذ.

كان الزهاوي شاعراً كبيراً، ولكنّه كان إلى ذلك ذا شغلٍ شاغل بالمباحث العلمية والفكرية والفلسفية، ويطعم بها شعرَه ـ شأنُه في هذا شأنُ العالم البحاثة نقولا الحداد، الذي كان بدوره ينظم شعراً علمياً ـ حتّى كان الزهاوي يوصف بالشاعر الفيلسوف، وكان حرّ التفكير. فأسلمتُه هذه الحرّيةُ إلى كثير من الشطط والزيغ، ونظم مجموعة من القصائد التي اجترأ فيها على المعتقدات والمواضعات وأطلق عليها اسم «ديوان النزغات» وهو ديوان صغير وليس كبيراً كما ظنّ أستاذُنا طبانة. وكان الزهاوي يغشى القاهرة في الحين بعد الحين حيث حاول نشر هذا الديوان، ولكن أصدقاءه ثنوه عن عزمه إلى أن يحين حينٌ مناسب. وعندئذٍ أودعه لدى صديقه سلامة موسى عساه يوفّق إلى نشره ذات يوم، وكان سلامة موسى في ذلك الوقت «مشبوهاً» بسبب آرائه السياسية، وكان بيتُه هدفاً لإغارات متوالية من البوليس في ساعات الفجر المبكرة، وهؤلاء يجمعون كتبه في زكائب ويسوقونه إلى التحقيق والرقاد على الأسفلت، وكانت التعليمات الصادرة إليهم أن يجمعوا كل كتاب ذي غلافٍ أحمر، فانقضوا على «القاموس العصري» لإلياس أنطوان إلياس بعدما حامت حوله الشبهات باعتباره كتاباً خطيراً! وخَشِي سلامة موسى أن يضيع ديوان النزغات في إحدى هذه الإغارات، فأودعه لدى صديقه الدكتور أحمد زكي أبي شادي رائد جماعة أبولو (الذي حلّت ذكرى ميلاده المئة في شهر فبراير ١٩٩٢) حتّى يكون الديوان في حرز حريز.

ولم يلبث أبو شادي أن ضاق بأسباب الجحود التي كانت تلاحقه في مصر التي عبّر عنها بقوله:

وَطَارَدَتْنِي إِلَىٰ مَنْفَايَ جَانِيَةً ... وَعَدَّدَتْ صَفْوَ آثَارِي كَآثَامِي

فقرر الهجرة إلى الولايات المتحدة بمجرد انتهاء الحرب العالمية الثانية وانتظام خطوط الملاحة عبر المحيط، سافر إلى العالم الجديد في عام ١٩٤٦.

وكان قبل سفره قد جهّز جميع كتبه في صناديق تُعدّ بالمئات لشحنها بصحبته، ولكنّ السلطات اعترضت على تصديرها باعتبارها سلعةً تجارية كالبصل والأسمنت والأحذية، ولا بدّ من إخضاعها لإجراءات بيروقراطية، فترك كتبه في مستودعات ميناء الإسكندرية عرضة للأمطار وتقلبات الجو والنوّات المعروفة، ولم يتيسّر شحنها إليه إلّا بعد ذلك بسنوات.

وعند وصول الكتب إلى أمريكة رُوِّع أبو شادي بالحالة المزرية التي صارت عليها نتيجة لرحلة الطريق بأعاصيرها وأمواجها وأمطارها، ولطول العهد بتخزينها في ساحات جمرك الإسكندرية. وبحث وقتها عن ديوان النزغات فلم يجده، وأسف لهذا أشدّ الأسف، ولم يستطع أبو شادي الاهتداء إلى مخطوطة هذا الديوان إلى أن لقي وجه ربه في عام ١٩٥٥.

وكان الشاعر هلال ناجي اللاجئُ السياسيّ في مصر ـ هداه الله ـ في صدد إعداء دراسة عن الزهاوي، وعرف قصة هذا الديوان المفقود من حديث أورده سلامة موسى في كتابه «تربية سلامة موسى»، وأدرك أن الديوان لا بدّ أن يكون في حوزة أسرة أبي شادي، وكان هلال ناجي يعرف أنني على صلة وثقى بهذه الأسرة، فرجاني أن أعاونه في الحصول على هذه المخطوطة. ومن فوري كتبت إلى الآنسة صفية أبي شادي القيّمة على آثار أبيها التي أجابتني بأنها بحثت عنه بين آلاف من الكتب فلم تعثر عليه، وهي رسالةٌ نقلتها إلى هلال ناجي. وبُعيد ذلك جاءتني رسالة أخرى من الآنسة صفية تقول فيها: إنها عثرت على الديوان مدسوساً داخل كتاب، وإنها قامت باستنساخ صورةٍ منه لي، ورجتني ألّا أنشرها أو أفرّط فيها. وعاد هلال ناجي يلح في ضرورة معاودة البحث عن الديوان حتى ضجرتُ من كثرة إلحاحه، وعندئذٍ قلت له: إن الديوان عندي، فطار صوابه ورجاني أن أطلعه عليه على وعدٍ بألّا ينقل منه شيئاً، لأن غايته الوحيدة هي الاسترشادُ به في دراسته عن الزهاوي. واستعار الديوان أسبوعاً أعاده بعده مؤكداً أنه عند وعده. وفوجئتُ بعد ذلك بالديوان منشوراً برمّته في ذيل كتاب «الزهاوي وديوانه المفقود» ممّا أورثني حرجاً شديداً مع أسرة أبي شادي.

ومع هذا رجوت أستاذنا العظيم عباس محمود العقاد أن يتناول هذا الكتاب بقلمه ـ وفي ذهني أن أسهم في تكريم اللاجئ السياسي هلال ناجي تكريماً لم

يحلم به في كل عمره ـ فاستجاب لي، وعقد فصلاً أثنى فيه على الكتاب وصاحبه وشهد بأن الديوان المفقود هو للزهاوي دون أدنى ريب.

ولاحظت أن أستاذنا الدكتور بدوي طبانة قال في غير موضع واحدٍ من مواضع كتابه: إنه ليس مؤرّخاً، وإنّما هو أديبٌ نقّادة يتناول شعر الشعراء من حيث هو مادةٌ أدبية دون كبير احتفال بالوقائع التاريخية، وهو في هذا قد حصر نفسه في ميدانه الأدبي، وازورَّ عن كل ما يخرجه عن غايته الأدبية المرتجاة.

ولكنّا كنا نرجو لو أن أستاذنا الكبير سجّل لنا التواريخ الحيوية الخاصة بالشعراء أنفسهم، ولا سيما تاريخَ الميلاد وتاريخَ الوفاة ـ إن وُجد. صحيح أنه جعلنا نستنتج أن الشاعر حازم سعيد ولد عام ١٩٢٤ (من قوله: إنه نظم قصيدة في عام ١٩٤٤ وكانت سنّه إذ ذاك عشرين سنة) وماهر نعمان الكنعاني من مواليد عام ١٩١٩ (من قوله: إنه درج على نظم الشعر منذ عام ١٩٣٦ عندما كانت سنّه سبع عشرة سنة) إلّا أنه سكت عن إيراد تواريخ الميلاد لبقية شعرائه الخمسة. ولم أر بأساً في أن أحاول استكمال هذا النقص بالرجوع إلى مصدريْن هما «معجم المؤلفين العراقيين» لكوركيس عوّاد، و«الأدباء العراقيون المعاصرون وإنتاجهم» لسعدون الريس، حيث اختلف الباحثان في تاريخ ميلاد حافظ جميل، فذهب الأول إلى أنه ولد في عام ١٩٠٨ في حين ذهب الثاني إلى أنه من مواليد عام ١٩٠٦ (ولم تسعفني وسائلي بالاهتداء إلى تاريخ وفاته، وإن كان ثابتاً في إحدى رسائل صديقي وحيد الدين بهاء الدين ولا بدّ من التنقيب عنها). واتفق الباحثان على أن هلال ناجي من مواليد عام ١٩٢٩، وخالد الشواف من مواليد عام ١٩٢٤، وماهر نعمان الكنعاني من مواليد عام ١٩١٩، وحازم سعيد من مواليد عام ١٩٢٤. وقد توفي الأخير في عام ١٩٧٦ تحت عجلات سيارة كما أنبأنا أستاذُنا طبانة.

كما لاحظتُ أن أستاذنا طبانة لم يُشر في دراسته إلى أن لنعمان ماهر الكنعاني ديواناً عنوانه «المزاهر» صدر في عام ١٩٨١ بمقدمة للدكتور عبد الرزاق محيي الدين. وعندما راجعتُ الشعر الوارد في هذا الديوان ألفيتُه مختارات من شعره على غرار ديوانه الموسوم «من شعري». وإذا كان الدكتور طبانة قد رصد تأثر خالد الشوّاف في بعض شعره بالشاعر أحمد شوقي، فقد لاحظت أن الشاعر نعمان ماهر الكنعاني كاد يودّع الشعر عندما شارف الستيّن من عمره

بقصيدة عنوانها «في وداع الشعر» تحاكي قصيدة خليل مطران الموسومة «الشاعر يوقع على وتره الأخير لحن الرضى وسكينة النفس». ففي حين استهلّ مطران قصيدته بقوله:

مـاذا يـريـدُ الـشِّـعْـرُ مِـنِّـي أَخْـنَـىٰ عَـلَـيْـهِ عُـلُـوُّ سِـنِّـي

استهل الكنعاني قصيدته بقوله:

مـاذا يُـرِيْـدُ الـشِّـعْـرُ إِنِّـي أَقْـصَـيْـتُ قِـيْـثَـارَتِـي وَدَنِّـي

ثم إن الكنعاني بثّ جميع معاني مطران وألفاظه في قصيدته.

ولا أدري، لِمَ أهمل أستاذنا طبانة إثبات مطولته في رثاء الشاعر حازم أحمد سعيد التي أُلقيت في حفل تأبينه، وقد أسمعني إياها مسجلةً بصوته ونغمته الحزينة.

وأخيراً لاحظت أن أستاذنا طبانة أشار إلى القاص عبد المجيد لطفي بعبارة «المرحوم»، وأظنه كان ما زال على قيد الحياة، وإنْ كان قد بلغ من الشيخوخة أرذلها. تلك كانت خواطري المستطردة المرسلة حول أستاذنا الجليل العظيم الدكتور بدوي طبانة وكتابه .....

كلام في رثائه:

ذَهَبَ الّذِيْنَ يُعَاشُ في أَكْنافِهِمْ وَبَقِيْتُ في خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ

ذهب الدكتور بدوي طبانة الذي انتسبتُ إليه تلميذاً في مدرسته الواسعة، وهي أكبرُ من مدارس التعليم ومعاهد العلم، لأن أستاذيّته كانت آمرة، وعلمُه كان غزيراً، وفضلُه كان أكبر من أن تَحْصُرَهُ هذه الكلماتُ العليلة.

عرفت الدكتور بدوي طبانة في الأربعينيات، وكان عائداً لتوّه من العراق حيث أفاضَ بعلمه السابغ على أبناء هذا القطر وبناته أيضاً، وكنتُ إذ ذاك صحفياً يتطفَّلُ على الأدب، وليست لي فيه أيُّ منزلةٍ مهما تواضع أمرها، فلقيتُ من الدكتور طبانة من الحفاوةِ والحبِّ وعمق الأخوّات ما جعلني أتعلّق به، وأحرصُ على الاغتراف من معين علمه ومحبته، وهو لم يضنّ عليَّ بالتشجيع والعطف والتوجيه، وهي نِعَمٌ إلهيةٌ سعدتُ باسترواحها عُمراً مديداً، وما زلتُ أسعد اليوم باستذكار فصولها المترعات بعدما غادرنا بدوي طبانة إلى جنة الخلد مبكيّاً على

حلو شمائله، مخلّفاً لنا الحزن الممضّ على مفارقته في وقتٍ كان مرجوّاً فيه لمزيد من العطاء الأدبي والودّ الصافي.

أخذ الحياة مأخذ جدّ منذ ما أهلّ نفسه بأعلى الدرجات الجامعية، وجعل من فنون الضاد رسالةً قدسيةً يضطلع بها أستاذاً جامعياً، ومؤلفاً أكاديمياً، وسفيراً للعلم في ديارات العرب، ومجمعياً شامخاً في محفل الخالدين المخلَّدين. كان نقّادةً بصيراً، وإنْ تجاهله مؤرخو النقد الأدبي، لأنه لم يتمذهب بمذاهبهم التفكيكية والتشكيلية والتكعيبية والبنائية والكمبيوترية واللوغاريتمية، فكان ناصراً للبيان العربي، سواءٌ بشخصه أو بأسلوبه الناصع، أو بالمصنفات الثمينة التي وضعها. وكان عُمدةً في البلاغة، وحسبُك معجمُهُ الرفيعُ القدر الذي ليس له مثيل في الماضي أو الحاضر. وكان بصيراً بالشعر، بل شاعراً وإنْ لم يجمع شعره في ديوان. وكان سباقاً إلى اجتراح الدراسات البكر عن أديبات العراق وعن معروف الرصافي وعن القمم الشعرية المعاصرة في الوطن العربي مثل حافظ جميل، ومحمود حسن إسماعيل، وأحمد زكي أبي شادي، وعمر أبي ريشة، وأحمد محرّم، وزكي قنصل، وصقر القاسمي، وحازم سعيد، ويوسف عز الدين. وكان بميزانه العادل خيَر مَنْ أنصفَ أدباءَ السعودية وشعراءها.

وكان قبل ذلك وبعد ذلك قد درس بكثيرٍ من العمق والفهم والوضوح مذاهبَ النقد الأدبي عند العرب وأعلامَه وتياراتِه، وشرح معلقات العرب، وسجّل سيرَ الأعلام من أمثال الصاحب بن عباد وقُدامة بن جعفر وأبي هلال العسكري، ورصد السرقات الأدبية، هذا إلى جانب ما حقّقه من كتب التراث مثل «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» لضياء الدين بن الأثير و«الفَلَك الدائر على المثل السائر» لابن أبي الحديد، وحقق حلقةً من «خريدة القصر وفريدة العصر» للعماد الأصفهاني وإنْ لم ينشرها.

هذا ميراث ضخم محض به الدكتور بدوي طبانة المشتغلين بالأدب ودارسيه، وهو بأصالته وموسوعيته يفرض نفسه فرضاً في حياتنا الفكرية المعاصرة.

قال لي أديب عراقي كبير: إن كثير من المصريين عملوا في العراق مُدداً متفاوتة، ولكن العراقيين لا يذكرون منهم إلّا زكي مبارك وأحمد حسن الزيات وعبد الرزاق السنهوري، وخليل صابات، ومحمد مصطفى الماحي، وبدوي

طبانة، لأن هؤلاء العلماء هم الذين تركوا بآثارهم وبشخصياتهم أجمل الذكريات في نفوس العراقيين، إذ إنهم لم يقتصروا على أداء عملهم في نطاقٍ مرسوم، بل جالوا في العراق يُسهمون في أنشطته الثقافية والعلمية بكل صدقٍ وتفانٍ، فكانوا بحق رسلاً ينبعثون إلى حمل رسالاتهم بأريحية النفس، وبإيمانٍ فطري عميق بقيمة الفكر باعتباره العروة الوثقى في تأصيل العروبة الحقة.

وليس أدلُّ على أن الدكتور بدوي طبانة كان صاحب رسالة من أنه، وقد علت سنّه، وضعف بصره، وتحالفت عليه أمراضُ الشيخوخة، وصار يتحرك مستنداً إلى ذراع وإلى عكازة، وبعدما هزّته فجيعةُ فقد الزوجة الأمينة... أصّر مع ذلك على أن يواصل عمله في التدريس الجامعي لفائدة النشء الجديد من طلابه، وأن ينتظم في حضور جلسات المجمع ليشارك في مناقشاته برأيه الخمير، وما كان أحراه أن يتقاعد ويَنْشُدَ راحته الشخصية بعد عمره قضاه في خدمة أمّته دون كلل أو ملل أو مَنّ.

وبكل عرفان بالجميل، أذكر لأستاذنا بدوي طبانة أنه أكرمني بعبارات سخيّةٍ سجلها في كتبه «التيارات المعاصرة في النقد الأدبي» و«البيان العربي» و«كوكبة من شعراء العصر»، وما كنت لأحلم بأن يطوّق عنقي بكل هذا الفضل، وهو هو الأستاذُ الكبيرُ الجليل.

وقصاراي في هذا المقام أن أحنيَ الرأسَ إجلالاً لأستاذٍ مَهَرَ الضادَ دُرَراً كثيرة على مدى ستين عاماً، فكان في بلاغتها من أبلغ المعاصرين، وكان في بيانها ربَّ بيان، وكان في كل أدبها المرجعَ الموثَّق المكين العمدة.

رحم الله بدوي طبانة رحمة واسعة وأنزله منازل الأبرار والصديقين. وقد جاءت وفاته في ١٧ شباط/ فبراير ٢٠٠٠.

❁ ❁ ❁

الدكتور بشر فارس

كنت أراه دائماً مزهوّاً بنفسه، يمشي وكأنه أميرٌ يختال اختيالاً في إهاب شبابٍ دائم، جميل الصورة، لا تفارقه البسمة، معتدل القوام على شيءٍ من القِصَر، يخطو خطوات الواثق، ربّما لأنه على ميسرةٍ من العيش تُغنيه عن اطّلاب الوظائف، إذ كان يملك بعض الضياع في ريف مصر يتعهّدها شقيقه نيابةً عن الأسرة.

زرته مرّةً واحدة في بيته ـ وكان إذ ذاك من جيرتي ـ فألفيته يرتدي عباءةً مغربية، ويعيش في متحفٍ شرقيّ القسمات أندلسيّ الجوّ، تحيط به الطنافس والسجاجيد معلّقة على الجدران أو مفترشةً على أرض البيت، وهنا وهناك تحفٌ جمعها بهواية الفنّان، فيوحي إليك سيّد البيت بأنه شهريار المنعّم بأطايب الحياة. أما شهرزاد، فلم يقترن بها في زواج رسميّ إلّا قبل شهور قليلة من وفاته المفاجئة في عام ١٩٦٣.

وقد وصف محمود تيمور هذا البيت بقوله: إنه مزار مبتكر يعبق في جوّه عطر الفنّ، وتشمله روح الجمال، كما وصف بشر فارس بقوله: إن طابع الفن والجمال يسم حياته بأكملها، يسم شخصه ومسكنه وتآليفه وكل أسباب عيشه.

كان بشر فارس متفرّداً في كل شيء، يعيش في عالم يكاد يكون من صنعه بكل مفرداته وتفاصيله، وليس يهمّ بعد ذلك أن يصيب حظاً من إعجاب الجماهير أو أن يُحصى بين الذين يروحون ويجيئون في الحياة الأدبية. فقد اختار طريق الرمز والاستعضال، وجاء أسلوبه في النثر، وفي شعره القليل، شديدَ الإبهام، يستعصي على التفسير والفهم، حتّى بالنسبة لمن تفقّهوا مثله في ثقافة الفرنسيس العريقة.

ولد بشر فارس في عام ١٩٠٧ في بكفيا بلبنان، وكان اسمه عند الميلاد «إدوار» وهو اسم لازمه حتّى نال درجة الدكتوراه من باريس عام ١٩٣٢.

وهناك «فارسان» آخران من فوارس الأدب والفكر، لا أظن أنهما يمتّان إلى بشر فارس بصلة قربى، أولهما فليكس فارس (١٨٨٢ ـ ١٩٣٦) وهو من قرية صليما (رأس المتن) في لبنان، وقد اشتهر بترجمته لكتاب نيتشه «هكذا تكلّم زرادشت». وثانيهما هو الدكتور نبيه أمين فارس (١٩٠٦ ـ ١٩٦٨) وقد ولد في الناصرة من أصل لبناني بحمدوني، وله كثرة من المؤلفات باللغتين العربية والإنجليزية، ومن أهم أعماله اشتراكه مع منير البعلبكي (١٩١٨ ـ ١٩٩٩) في ترجمة كتاب «تاريخ الشعوب الإسلامية» لبروكلمن في خمسة أجزاء.

أما ظروف انتقال «إدوار فارس» من لبنان إلى مصر في القرن الماضي فغير معروفة على وجه التحديد، وإن كانت عائلات كثيرة من «الشوام» قصدت مصر واستقرت فيها ربما إلى الثلاثينيات، والتحق الشاب بالمدرسة اليسوعية في مصر، ثم لم يلبث أن توجه إلى فرنسة لمتابعة دراسته حتى أجيزت أطروحة الدكتواره التي أعدّها عن «العِرْض عند عرب الجاهلية». ويقول الدكتور أكرم فاضل: إن شيخ العروبة أحمد زكي باشا هو الذي وجّه الطالب إلى اختيار هذا الموضوع، وإنه أرشده إلى أمهات المصادر وأعاره بعضها، بل هو الذي أطلق عليه اسم «بشر» بديلاً عن اسم إدوار الذي ظهر على الأطروحة الإفرنسية عند نشرها.

لم يكن بشر فارس في حاجة مادية إلى الوظائف، ومع ذلك قبل التدريس في جامعة القاهرة، واختير أميناً عاماً للمجمع العلمي المصري، وهي وظيفة شرفية.

ولمّا تكاثرت الأعباء على فؤاد صروف محرّر مجلة «المقتطف» بعدما أُسندت إليه رياسة تحرير مجلة «المختار من ريدرز دايجست» في طبعتها العربية الأولى التي صدرت في أيلول/ سبتمبر ١٩٤٣ وتوقفت في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧، رغب إلى صديقه بشر فارس في الإشراف على «المقتطف». وارتأى بشر أن يستقلّ في المجلّة بباب استحدثه كان بمثابة مجلّة داخل المجلّة، أطلق عليه عنوان «باب التعريف والتنقيب» وقدّم له بعبارة ظلّت تتكرّر منذ استهلال الباب في عدد شباط/ فبراير ١٩٤٤ إلى آخر حلقة منه في كانون الثاني/ يناير ١٩٤٥، وهي عبارة تمثل أسلوب بشر فارس الفريد الذي يختلف الناسُ في أمره، ونصّ العبارة:

«نستحدث هذا الباب ونتبسّط فيه إرادة أن نتدبّر ما يتّصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق، فنجريه إلى غايتيْن: إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفنّ كتابةً أو أداءً، والأخرى نشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة. ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل، ومعرضاً للمستبصر الراكن. هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى».

والمؤكّد أن بشر فارس أفلح في أن يحشد في هذا الباب طائفةً من كبار الكتّاب من مصر والبلاد العربية، مثل إبراهيم عبد القادر المازني، ومحمود تيمور، والأب أنستاس ماري الكرملي، ومحمد عبد الغني حسن، وحسن كامل الصيرفي، وعبد السلام هارون، والدكتور زكي محمد حسن، والشيخ أحمد محمد شاكر، والدكتور الشيخ محمد يوسف موسى، والشيخ كامل محمد عجلان، والدكتور مصطفى جواد، والدكاترة زكي مبارك، وخليل وصديق شيبوب، والدكتور أسعد طلس، ووداد سكاكيني، والدكتور وهيب كامل، وكوركيس عوّاد، وزكي طليمات وغيرهم، لأن الباب، برغم تعدّد كتّابه، كان يدور في فلك بشر فارس ويمثل ذوقه الشخصي.

وقد ألّف بشر فارس طائفةً غير قليلة من الكتب باللغتين العربية والإفرنسية تنوّعت موضوعاتها بين كتبٍ في الفن الروائي مثل مسرحية «مفرق الطريق» ومسرحية «جبهة الغيب» ومجموعة أقاصيص «سوء تفاهم» وقصة «رجل»، وبين دراسات أدبية مثل «مباحث عربية في اللغة والاجتماع» و«الظلال في الأدب» وأطروحته الجامعية «العرض عند عرب الجاهلية» و«المصاعب اللغوية والاجتماعية التي تعترض الكاتب المعاصر ولا سيّما في مصر»، وبين كتب في التراث مثل «كتاب الترياق» و«مخطوط عربي في النبات»، وبين كتبٍ في الفنون مثل «سرّ الزخرفة الإسلامية» و«اصطلاحات عربية لفن التصوير» و«منمنمة دينية تمثّل النبيّ العربي من أسلوب التصوير العربي البغدادي» و«الفن القدسي في التصوير الإسلامي» و«كيف زوّق العرب كتب الفلسفة والفقه» و«طلاسم مصوّرة» فضلاً عن «مباحث في تكملة دائرة المعارف الإسلامية»، هذا عدا ما كان ينشره من دراسات في مجلة «الأديب» اللبنانية، ومجلة «الكاتب المصري» التي كان

يحرّرها طه حسين، ومجلة «الكتاب» التي كان يحرّرها عادل الغضبان وغيرها من المجلات الأدبية والعلمية باللغتين اللتين يجيدهما.

وقد أثار بشر فارس بقصيده «إلى زائرة» معركة أدبية واسعة لم تكن لتخطر له على بال، وإنما أوقد شعلتها وأضرم نيرانها حبيب الزحلاوي، ولن يكون الحديث عن بشر فارس وافياً دون التعرض لهذه القصيدة وأصدائها، فالقصيدة الموسومة «إلى زائرة» نشرت للمرة الأولى في عدد أيار/مايو ١٩٤٤ من مجلة «المقتطف» ونصها:

لو كُنْتِ ناصعةَ الجبين ... هيهاتَ تَنْفُضُنِي الزِّيَارَه
ما رَوْعَةُ اللَّفْظِ المُبِيْن؟ ... السِّحْرُ مِنْ وَحْي العباره
ظِلٌّ على وَهْجِ الحَنِيْن ... رَسَمَتْهُ مُعْجِزَةُ الإِشَارَه
خَطٌّ تَسَاقَطَ كالحَزِيْن ... أَرْخَى على العَزْمِ انْكِسَارَه
ماذا بِوَجْدِ المُحَصَنِيْن ... صوتٌ شجٍ خَلْفَ السِّتَارَه
غَيَّبْتِ في العُجْبِ الدَّفِيْن ... مَعْنَى بَرَاعَتِه البَكَارَه
دُرَّاً يَفُوْتُ النَّاظِمِيْن ... ونَهَضْتِ تَهْدِيْنِي بِحَارَه
خطواتُ وَسْوَاسٍ رَزِيْن: ... وَهبٌ تُعَمِّيْه الطَّهَارَه

لم تكد هذه القصيدة تظهر حتّى انبرى لها حبيب الزحلاوي، ناشراً بياناً في مجلة «الرسالة» لأستاذنا أحمد حسن الزيات وبياناً مشابهاً في مجلة «الأديب» لأستاذنا ألبير أديب قال فيه: إنه قرأ القصيدة عدة مرات «وكنت عقب كل قراءة أعود بالخيبة من عدم الفهم» ودعا القراء إلى شرح معانيها واعداً إياهم بجائزة قدرها خمسة جنيهات في مصر ومئة ليرة سورية في لبنان لمن يفلح في تفسير «بدعة الشعر الرمزي»!.

وحبيب الزحلاوي يستحق وقفةً في هذا الحديث المستطرد؛ لأنه بدوره يمثّل ظاهرةً شاذة في أدبنا المعاصر. فهو أصلاً بائع حديد خردة، له متجر يقع في منطقة بولاق القديمة، يسلك قاصده دروباً وأزقة عتيقة موحلة إلى أنه يبلغه في مكان مُعتم لا تدركه أشعة الشمس ولا يعرف ضوء الكهرباء. وقد زرته بنفسي في هذا المتجر فعجبت أن تكون هذه الحياة مستولدةً لأي نتاج ذي قيمة أدبية.

وقد أخرج الزحلاوي عدّة مجموعات من الأقاصيص دون أن تقرّ له أي منزلة في الحياة الأدبية، ومن هنا اتجه إلى إصدار كتاب عنوانه «شيوخ الأدب الحديث» استعان فيه بكل معاول الخردة في متجره لكي يهدم جميع شوامخ الأدب المعاصرين.

وقد قابلت الزحلاوي للمرة الأخيرة بالقرب من مكتب البريد الرئيسي في ميدان العتبة، وكان يتوكأ على عكاز غليظ، ويعاني من ظلام العينيْن، وعرفت منه أنه باع متجره، وصار يعمل حارساً ليلياً في مكتبة عتيقة في الفجالة مقابل مبيته في داخلها بعدما تنكرت له أسرته، فهجر بيته قبل أن يهاجر بعد ذلك إلى كولمبية في أمريكة الجنوبية حيث توفي عن أكثر من تسعين عاماً.

تبارى في تفسير قصيدة «إلى زائرة» أدباء من مصر ولبنان وسورية، فالمعجبون بالشعر الرمزي مثل صلاح الأسير قالوا: إنها من «أجود قصائد بشر فارس» وفسّرها عدنان الذهبي بأنها قصة لقاء بين حبيبيْن افترقا سنواتٍ طوالاً، فإذا جاءت الحبيبة تزور صاحبها كانت قد أصبحت عجوزاً محطمة، ومع ذلك اكتمل اللقاء بين الطرفين برغم الهواجس والوساوس.

أمّا الشيخ عبد الله العلايلي، أبو مضر، فقد تناول القصيدة لغرضٍ «أنبل قصداً وأكبر غاية، وهو وضع حدٍ لهذا النوع الغريب من التوهين، ولا سيما لأديب موهوب وعالم». ومضى الشيخ العلايلي يفسّر القصيدة بتفسير ألفاظها ومعانيها، ثم ختم تعليقه بقوله: «هذه هي القطعة في معناها كلّه، وهو كما ترى حلو أنيق، وبارع شيق ومبتكر أيضاً».

أما زكي طليمات فيقول: إن الشاعر «آثر نهج التلويح والإيماء لا نهج الإفصاح والتبيين، فهو يوحي ويقلل الكلام، فلا يذهب بالتعبير إلى أقصى مداه، وغرضه أن يمنح القارئ لذة تنبّه الفكر وترهف الحسّ لأجل استخراج المعنى، فيصبح القارئ شريكاً للشاعر في النظم».

ثم ذكّر القراء بقول الصابيء، وهو من أعلام نقّاد العرب، «أفخر الشعر ما غمض عنك فلم يعطل إلّا بعد مماطلة منه».

والمهم أن الجائزة التي رصدها الزحلاوي من حرّ ماله لم تخرج من جيبه!.

وكأنما أراد بشر فارس أن يوضح مذهبه الشعري، فانتهز فرصة اصطيافه في شتورة بلبنان وعقد مقالاً في مجلة «الأديب» بعنوان «لفظ الشاعر» قال فيه:

«على الشاعر الحديث أن يصوغ عبارته على حسب ما يستأنس حسّه اللغوي بفيض هاجسه، فذلك تعبيره، ومن هنا عظمة أبي العلاء ودانتي... أفلا تراهم يمتدحون الشاعر بابتكاراته اللفظية؟ وربّما ذهب الشاعر في الاستقلال اللفظي حتّى إنّه يجدّد الكلمات ويوّلد التعبيرات فيفجأ ويحيّر... وقد يرتجل الشاعر لغته، فيسبح في ملكوت كلمته... نريد اليوم شاعراً يحوك ويوشّي على نحوٍ يخيَّل إليك أنه غريب، وما هو والله بغريب، ولكنّه جار على غير مثالٍ موقوف. وقد تستوحش أذنك لأنك تعودت سماع ما ألفت، فإذا كنت مستطرف الحسّ، مستطلع الفكر أنست وتمتّعت... إنما الشاعر سيّد لفظه، وهو لا يكون كذلك إلّا إذا أوتي القدرة على التعبير من ذات ملكته، فيسخّر الألفاظ لغرضه، ويروّض القوافي لنفسه...».

والسؤال الذي يطالع القارئ في هذا المقام هو: لمن ينظم الشاعر شعره؟ هل ينظم لنفسه فلا يدرك معانيه أحدٌ سواه، أو أنه ينظمه لجمهرة القارئين أملاً في أن يتجاوب معهم تجاوباً تلقائياً ناجماً عن الفهم وعن الاستمتاع؟ والجواب عن هذا السؤال يكاد يكون من بديهيات الأدب.

ولإلقاء ضوء على الأدب المسرحي لبشر فارس عدتُ إلى مطالعة مسرحيته «مفرق الطريق» مُنتقياً إيّاها، لأنها نشرت مرتين، في عامي ١٩٣٧ و١٩٥٢، ولأنها ترجمت إلى اللغتين الإفرنسية والألمانية ومثلت بالألمانية في سالزبورج عام ١٩٥١. وقد قدّم للمسرحية في طبعتها العربية الثانية المستشرق الفرنسي لوي ماسينيون، الذي أقام أوجه شبه بين بشر فارس والكتّاب الفرنسيين غبريل مارسيل، وألبير كامو، وأندريه جيد، والكاتب التشكوسلوفاكي فرانز كافكا. ثم قال: إن «الانفعالات التي صاحبت ظهور المسرحية في القاهرة في عام ١٩٣٨ لدى الشباب المتشوّف مردّها إلى أن الشباب ما كان ليتقبّل مواقف يبدو فيها التحليل وقد أثقله البطء وأطاله الصبر ـ وهما بطء وصبر فرنسيان يخالفان سرّ اللغة العربية التي تطلَّبت في أوّل أمرها كبح جماح براعة البيان لأجل إخراجه في أسلوب الإشارة الخاطفة مع إيجاز الفكرة في صيغة شفافة تكون صلدة أي صلودة، حتّى إنها تلمع هنا وهنا لمعان الفراشة البرّاقة».

وواضح أن ماسينيون يتحفظ في امتداحه لهذه المسرحية بهذه العبارات ذات الإيماءات الفضفاضة التي لا تكاد تقول شيئاً واضحاً.

يصف المؤلّف مسرحيته بأنها من الأدب الرمزي، ويدير حواراتها بين شخوص ثلاثة: سميرة وأبله ومنصور، ويتخلّل الحوار عزف على الناي. والحوار يمضي متثاقلاً بل بليداً، فينتقل من جدل ملحاح حول الكلاب وهل تمتصّ قصب السكر، إلى تلميحات غامضة عن الحب، وهو حبّ ممتزج بالعطف تضمره سميرة للأبله، حتّى إذا ما ظهر منصور ـ وكانت لسميرة به ألفة سابقة ـ انصرفت بعواطفها اللفظية إليه، ثم لم تلبث أن تنفض اليدين من الأبله ومنصور معاً. كل هذه الوقائع العملية تستشفّ من الحوار اللفظي الرمزي الذي يطول أو يقصر حسب المقام.

فإنْ حاولنا تصنيف هذه المسرحية وفقاً لنّصها، قلنا: إنها تنتمي إلى المسرح الذهني الذي يعتمد على الكلام دون الحركة، وإن كان الكلام في «مفرق الطريق» لا يشي بحكمةٍ ولا يلهب خيالاً، ولا يستدّر تصفيقاً من الجمهور أو إعجاباً من القرّاء. فإن كان المقصود بالمسرحية الإمتاع، فمفرق الطريق «لا تمتع مشاهداً أو قارئاً. وإن كان المقصود هو التمثيل في حدّ ذاته، فالمسرحية فقيرة في فنون التمثيل. وإن كان المقصود هو أداء رسالة خلقية أو فكرية أو وطنية، فالمسرحية بعيدة عن هذا كلّه.

وعلى الرغم من التوطئة المسهبة التي مهّد بها بشر فارس لمسرحيته تفسيراً لمذهبه، فلم يغب عنه أن عمله «غامض المعالم أول الأمر» وأن المسرحية «خرجت عن التأليف المرصوف» وأنها «تحيّر جمهوراً كره التفكّر المتصل مفتتناً بزخرف البراعة في التنسيق والتأثير» وأنها «تجربة مجالها وعر غائم». ولم يكتف المؤلف بهذه التوطئة الشارحة، بل شفع المسرحية بتعليقات جديدة حول أبطاله وتصرفاتهم عساه بذلك يزيل شيئاً من الغموض المسرف.

وأقول محكّماً ذوقي الخاص: إن بشر فارس أراد التجديد فانتهت به المحاولة إلى عملٍ باهت مهزوز لا يدخل تاريخ المسرح ولا تاريخ الأدب.

ونسوق فيما يلي آراء قيلت في بشر فارس وأدبه:

قال عنه الدكتور لويس عوض: «تقرأ أدب بشر فارس، فتحسّ بأنك إزاء رجل واحدٍ لم يتغيّر خلال ثلاثين سنة، ولم يتطور، ولم يجر عليه ما يجري عادة على أدب الأدباء من نموٍ تدريجي إلى الكمال أو الانهيار. فكأنما بشر فارس قد

اهتدى منذ حياته الباكرة إلى رقية أدبية استقرّت في وجدانه، ولم يستقرّ في وجدانه غيرها، أو لعلّه وُلد بها ولازمته هذه الرقية طول حياته».

وقال عنه الدكتور جميل جبر: «ما تلهّى في التفتيش عن اللفظة لمجرد التفتيش المعجز، بل سعياً وراء بكارةٍ خصبة لم يأت الزمان على فعاليتها... كان صعباً مع نفسه ومع القارئ، لا يسهل فيدنو من المستويات الدانية، بل يرتفع ليرفع معه قارئيه».

أما خليل رامز سركيس، وبين أسلوبه وأسلوب بشر فارس صلة رحم، فقد وصف أسلوبه بقوله: «إنه لا يبرح في أكابر المنشئين. فهو ـ نائراً ـ عصيّ مقاله، صعب مرتقاه إلّا على القلّة.... يصطفي اللفظ والقارئ في قصدٍ معاً، يحمّل النصّ أضعاف ما به من ظاهر معنى... إنه حدثٌ في نثرنا أيّ حدث».

واستكمالاً لصورة بشر فارس نورد جانباً طريفاً عنه ساقه صديقه محمود تيمور في كتابه «ملامح وغضون» حيث قال:

«وللدكتوربشر نواح خفية لا يعرفها إلّا أصدقاؤه الخلصاء، وإنّي لمذيع بعضها وأمري إلى الله... فقد يحاسبني على إفشائها حساباً عسيراً!.

«إن صديقي بشراً ـ ولنخفض أصواتنا قليلاً ـ رجل ذوّاقة في المآكل، واسع الاطّلاع على ألوان الطعام، عظيم الخبرة بكل ما تزدان به الموائد... وإنها لمتعة حقاً حين تسمعه يحدثك عن صحاف الأطعمة المختلفة واحدة بعد أخرى، يروي لك ـ وعيناه تلمعان لمعان المرق الشهيّ ـ كيف يشتري بنفسه الزبد الطازج، وينتقي عند الجزار أطايب اللحم، وكيف يقف أمام الفرن يجهّز الصنف الذي يحبّ، ثم لا يلبث أن يأتي عليه ولمّا يتمّ نضجهُ على النار، مقتفياً أثر المثل الصالح: خير البرّ عاجله!.

«ولصديقنا بشر جولات موفقة في مطاعم المدينة، فهو إذا دخل أحدها لا يطلب القائمة، ولا يُعنى بمكانه من المائدة، بل يطلب أن يدلّوه فوراً على المطبخ، ثمَّ يكشف عن القدور يتفحصها تفحّص عارف، ثم يشير أخيراً إلى واحدة منها، فيحضرونها له بأكملها... ويشمّر الدكتور عن ساعد الجوع، غير معنيّ وقتئذٍ بأناقته، وويكبّ على القدر، فيأتي عليه بلحظة خاطفة... بما تعب الطاهي في طبخه ساعات طويلة! وإني أنصح ـ نصيحة مجرّب! ـ لمن أصيب في

معدته، ويرغب في دواءٍ ناجع لإصلاحها أن يأتي بالدكتور بشر عن يمينه وزكي طليمات عن يساره، ثم يراقبهما هنيهةً وهما يتناضلان في معركة القدور كرّاً وفرّاً. . . . فإنه لا يُعتّم أن يشعر بمعدته تتصايح في ثورة جامحة، وإذا به ينطلق هو أيضاً في صحاف الطعام، يفتك بما فيها فتك مغوار!».

❁ ❁ ❁

بولس سلامة

كنت في عام ١٩٤٩ عاكفاً على عملي اليومي في الجريدة التي اشتغل فيها عندما جاءني ساعي البريد برسائل اليوم، وفي جملتها كتابٌ دوريّ بتوقيع رشيد يوسف بيضون (١٨٨٩ ـ ١٩٧١) رئيس الجمعية الخيرية العاملية في لبنان يدعوني فيه إلى المشاركة في المهرجان الأدبي الذي يقام في بيروت تكريماً للشاعر بولس سلامة بمناسبة صدور ملحمته «عيد الغدير» وذلك في الثاني والعشرين من أيار/ مايو ١٩٤٩. ووقعتُ في حيص بيص، لأنني لا أعرف الداعي، ولا سمعتُ من قبل باسم الشاعر المكرَّم، وهو ما يُعزى إلى أنني كنت ما زلت في بداية الطريق، أستكشف من كُوَّةِ الصحافة العالم الأدبيَّ الرحيب، الذي يترامى في الديار العربية خارج مصر، وأُرفقت بالدعوة سيرةٌ موجزة للشاعر عرفتُ منها أنه جريح ولكنّه برغم أسقامه يعالج فنون الأدب، ويبرّز في الشعر الملحمي. وحاولتُ مداراة عجزي وجهلي، فكتبت مقالاً عن الشاعر، اعتمدتُ فيه على السيرة المرفقة بالدعوة، وعلى أخبار حفل التكريم التي وقفتُ عليها دون أن تكون لي فيه مشاركة، قلتُ في خاتمتها بعد وصف محنته المرضية واستقوائه عليها: «إن بولس سلامة شاعر يغمر لبنان بِدرره وقلائده، ويغزو دُنيا الأدب من صومعته، ويصوغ أبكار المعاني من خصيب ذهنه، ويُهَادِنُ بالشعر مرضه وأوجاعه، ويأتي بمبرّاتٍ أدبيّة على قدر ما تسعفه وسائله. هذا شاعرٌ يجب أن تُحيِّه، ويجب أن نهنّئ لبنان به، فالأيام لا تجود بكثيرين مثله».

كانت هذه الكلمة، التي اندرجت بعد ذلك في الكتاب التذكاري لحفل التكريم، رسولي الذي عقد بيني وبين بولس سلامة عُرى الودِّ وبات البريد يحمل إليّ رسائله ومؤلفاته تباعاً، فأزدادُ معرفةً بشخصه وتقديراً لأدبه وإجلالاً لسيرته. ولكنني كنت أتوهّم بأن حالته المرضية هي من قبيل العلل العارضة التي لن تلبث أن تزايله إنْ لم تكن زايلته فعلاً، ولا سيّما لأن النشاط الفكري الضخم لبولس سلامة لا يقوي حتى الأصحّاء على الإتيان بمثله.

وعندما زرتُ لبنان للمرة الأولى في عام ١٩٥٥ عوّلتُ على التعريج على بولس سلامة تحقيقاً للتعارف بالمشافهة بعد التعارف على الورق المسطور. وكان دليلي إلى بيته في شارع مستشفى الروم سائق التاكسي الذي أشار إلى المنزل قائلاً إنه يقيم في الطابق الأوّل. وعندما طرقت الباب، جاءت سيّدةٌ لتحيّتي، عرفت بعد ذلك أنها قرينته، فقلتُ لها: إنني صديق بالمراسلة لبولس بك وقد رغبتُ في زيارته. فاقتادتني ـ لدهشتي ـ لا إلى غرفة الجلوس بل إلى غرفة النوم حيث ألفيتُ بولس سلامة مضطجعاً على سرير، يسند ظهره إلى عددٍ من الحشايا، وفي يده أوراقٌ وأقلام، وبقيّةُ الفراش مغطاة بالكتب والدواوين والمعاجم. واعتذرت له لأنني اقتحمت عليه غرفة نومه، فقال: بل هي غرفة استقبالي وعملي ومطعمي لأنني لا أتحرك من مكاني بسبب المرض المُقعد. ثم أخذ يرّحب بي، وأجلسني على مقعد إلى جوار فراشه.

وبعد عبارات التحية والتعارف الوجيزة انطلق يتحدّث في كل موضوع يخطر على البال: في الأدب والفلسفة ومذاهب التفكير والشعر واللغة والتاريخ، وأنا ـ من فرط ذهولي ـ واجمٌ أمامه، أوثر السلامة بالتزام الصمت لأنني لن أستطيع مجاراته في أي من الميادين التي تطرّق إليها، ومثله يُتَتَلْمَذُ عليه بحسن الإصغاء والانتباه لا بالمقاطعة والتعليق. وأشفقت عليه من طول المحاضرة، واستأذنت في الانصراف وهو يكرّر لي اعتذاره لأنه غير قادر على توديعي عند الباب بسبب شلله النصفي.

وخرجت من حضرة بولس سلامة تتنازعني مشاعر شتّى: فقد بهرني بعلمه الغزير واطلاعه الواسع على الآداب العربية والغربية، ولكنّني حزنت على حالته الصحية الأسيفة التي بدا ألّا شِفاءَ منها، وساءني أني لا أستطيع له عوناً، حتّى عبارات الإشفاق والرثاء تفقد معناها في هذا الموقف الجلل.

وهو نفسه قد صوّر آلامه الطاغية في كثير من شعره، فقال مرّةً:

سَالَتْ على حَدِّ المباضِع مُهْجَتِي ... فَشِفَارُهَا مَصْبُوْغَةٌ بِدِمَائِي

وقال كذلك:

إنَّ حظِّي مِنَ الحَيَاةِ سريرٌ ... صِرْتُ مِنْهُ، فلم يَعُدْ خَشَبِيّا

كلُّ هذي الدُّنيا الطليقةُ أَضْحَتْ ... وَيْحَ حَظِّي! أَضْحَتْ حَرَاماً عليّا

وقال أيضاً:

أوّاهُ لَـوْ كـانَ الـرُّقَـادُ يَـزُوْرُنِـي لَـرَضِـيْـتُ مِـنْ دُنـيـايَ بـالإغْـفَـاءِ
لا يَـلْـتَـقِـي جَـفْـنَـايَ إلّا خِـلْـسَـةً فَـكَـأنَّ بَـيْـنَـهُـمَـا قـديـمَ عِـدَاءِ
أيّـوبُ، مـا أيـوبُ، مـاذا خَـطْـبُـهُ؟ هُـوَ قَـطْـرَةٌ، وَأنَـا خِـضَـمُّ بـلاءِ
فإذا مَـرَرْتَ عـلى الـجَـرِيْـحِ تَـعُـوْدُهُ فَـلَـقَـدْ أتَـيْـتَ مَـدَافِـنَ الأحْـيَـاءِ

ولد بولس سلامة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٠٢ في بتدين اللقش في قضاء جزّين بلبنان الجنوبي، والتحق بالمدارس المختلفة حتى قامت الحرب العالمية الأولى، فانقطع عن الدراسة، واستأنفها في عام ١٩١٨ ثم التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية في بيروت، ونال الليسانس، عمل فترة قصيرةً بالمحاماة، ثم انتقل إلى سلك القضاء، فأمضى فيه ١٥ عاماً كان فيها قاضي صلح، وعضواً في محكمة ومستنطقاً. ولو اطردّت حياته العملية والخاصة بصورةٍ طبيعية لانصرف إلى القانون ووظائفه طوال عمره، برغم هوايته الأدبية الشديدة الطموح والجموح. ولكنه أصيب في عام ١٩٣٦ بناسور في العمود الفقري، ممّا اضطره إلى الإذعان لمباضع الأطباء، ولكنَّ بادرةً من الإهمال سببت له شللاً نصفياً، فاستحال عليه أن يقوم بأعباء وظائفه، ولا سيّما لأنها كانت تقتضيه التنقّل في أنحاء شتّى من لبنان. فبدأت رحلته الطويلة مع الفراش والعذاب والمباضع حتى أُجريت له اثنتان وعشرون جراحة تصحيحية فلم تفلح في إعادته إلى حالته الطبيعية أو تخفف من آلامه، أو تزحزحه من الفراش. وهكذا صحّ فيه قول الشاعر:

إذَا مَـا الـجُـرْحُ رُمَّ عـلـى فَـسَـادٍ تَـبَـيَّـنَ فِـيْـهِ إهْـمَـالُ الـطَّـبِـيْـبِ

استسلم بولس سلامة لمصيره، وإن لم يقنط من رحمة الله، أو يفقد الأمل في استعادة شيء من الصحة.

وفي عام ١٩٥٨ جاءه مَنْ يُشير عليه بزيارة «عذراء لورد» في فرنسة إذْ يقصدها كثيرون من المرضى عساهم يُشفون. فقبل النصيحة ما دام الغريق يتشبث بقشّة، وسافر إلى هناك محمولاً، وألفى نفسه وسط آلاف من المرضى القادمين من جميع أنحاء العالم، وَبِهِمْ ما يُشبُهُ الأمل الوثيق بأن عذراء لورد ستمنّ عليهم بالشفاء. وقد وصفَ بولس سلامة تجربته هذه التي عاد منها وهو قادر على السير على قدميه، مشدود الوسط بحزام عريض، ومتوكئاً على عكازة بقوله: «أما

المعجزة، فلا، بحسب رأي الكنيسة التي تشترط أوَّلَ ما تشترط أن يكون الشفاء فورياً تاماً، بيد أني تحسنّت تحسناً واضحاً، واستقويتُ جسدياً وروحياً، وما هَمَّ أن أنْهَدَ إلى الحركة مسرعاً أو بطيئاً، وإنّي لموقن أن نعمة الله أدركتني، وهذا حسبي».

كنت في زياراتي السابقة للبنان أنقبض كلّما هممتُ بزيارة بولس سلامة حتّى لا تتجدّد فجيعتي في هذا الإنسان المُعَنَّى، وحتّى لا تخونني عواطفي فأرثي له عوضاً عن أن أشجعه وأدعو له بالشفاء، ولكنّني أصررتُ على زيارته في عام ١٩٧٢ بعدما عرفت أنه أصبح يتحرّك في البيت بل يخرج إلى بعض المنتديات ويجلس بين الناس، وهو ما كان متعذّراً في الماضي. وصحبني في هذه الزيارة، وكان قد انتقل إلى بيت جديد في بناية شاهقة احتل طابقها العلوي (الروف) ـ تلميذه وابنه الروحي فوزي عطوي، أما ابنه الروحي الآخر خليل رامز سركيس فلم يكن معنا. ولم أملك نفسي من فرحةٍ كفرحة العمر وأنا أرى بولس سلامة منتصب القامة يمشي الهوينا مستنداً إلى عكازته، فنتبادل العناق، ويجلس معنا وكأنه لم يقض نحو ربع قرن حبيس جدران أربعة كادت لفرط طول صحبتها معه، تردّد أصداء أحاديثه المرسلة شعراً ونثراً.

وكان مارون عبود (١٨٨٦ ـ ١٩٦٢) يقول: «خير للأدب أن يظل بولس سلامة في سريره» ظنّاً منه بأن مغادرة الفراش ستلهيه عن مآربه الأدبية الضخام، حيث أخرج للعربية من فراشه ملاحم كبيرة قليلة النظير في اللغة العربية مثل «ملحمة عيد الغدير»، وهي في ٣١٧ صفحة، وملحمة «عيد الرياض» وهي في ١٥٦ صفحة، وملحمة موجزة عن «فلسطين وأخواتها» في ٣٨ صفحة، وملحمة «عيد الستين»، هذا عدا كتبه الأخرى وهي «تحت السنديانة» و«علي والحسين» و«الأمير بشير» و«حديث العشية» و«مذكرات جريح» و«الصراع في الوجود» و«من شرفتي» و«خبز وملح» و«ليالي الفندق» و«مع المسيح» و«مختارات شعرية» و«حكاية عمر» وهو سيرة حياة الشاعر صاغها على هيئة رسائل موجهة إلى حفيده «فادي».

ومن توارد الخواطر أن ميخائيل نعيمة (١٨٨٩ ـ ١٩٨٨) اختار نفس هذا العنوان، وهو «حكاية عمر» لتسجيل سيرة حياته التي وقعت في ثلاثة أجزاء وكتبها عند بلوغه السبعين من عمره.

توفي بولس سلامة في الرابع عشر من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٩ والحرب الأهلية في لبنان مشتعلة الأوار، فلم ينل حظّه من حفلات التأبين شأنه شأن أنداده من أعلام الفكر في لبنان الذين لقوا وجه ربهم في هذه الحقبة مثل الشاعر أمين نخلة (١٩٠١ ـ ١٩٧٦) والمؤرخ محمدجميل بيهم (١٨٨٧ ـ ١٩٧٨) والمؤرخ الأديب عجاج نويهض (١٨٩٨ ـ ١٩٨٢) وألبير أديب صاحب مجلة «الأديب» (١٩٠٨ ـ ١٩٨٥) وفؤاد صروف (١٩٠٠ ـ ١٩٨٥). ولكن الباحث رفيق عطوي عمل على إنصاف بولس سلامة، فعقد عليه أطروحة دكتوراه عنوانها «بولس سلامة إنساناً وشاعراً ملحمياً»، ووصفه الأديب المؤرخ نجيب العقيقي (١٩١٦ ـ ١٩٨١) بأنه «هوميروس العرب»، وأصدرت مجلة «الشعلة» لصاحبها فاضل سعيد عقل عدداً خاصاً عنه (العدد ١٣ الصادر بتاريخ ١١ آذار/مارس ١٩٥٦)؛ ولكن هذا كله لا يكفي لتكريم هذا الأديب الشاعر المفكر العظيم الذي عاش راهباً لرسالة الفكر، وَمَهَرَ الضادَ أجمل الآثار، ولا سيّما تلك الملاحم الكبرى التي لم يجترح مثلها شاعر في القرن العشرين.

وممّا لا أنساه عن بولس سلامة أنه تناول عند زيارتي الأولى له كتاباً من كتب التراث التي تعدُّ عُمْدَةً في موضوعها، وشرع يُحصي المآخذ اللغوية الكثيرة التي تورّط فيها كاتب هذا الكتاب العمدة، وينبّه إلى أوجه الصواب في كل حالة. ولمّا استدركتُ عليه قائلاً: إن الخطأ قد يكون راجعاً إلى المحقّق وليس إلى المؤلّف، أراني عدّة طبعات من الكتاب، وقد تكرّر فيها نفس العيب اللغويّ، ولهذا امتلأت هوامش الكتب التي طالعها بالتصويبات والتعليقات لأن اللغة ـ في اعتقاده ـ ذات قداسة، ولا يصحّ لمشتغلٍ بها أن يترّخص في قواعدها أو يستهين بنحوها وصرفها وبلاغتها واشتقاقاتها. وحين قلتُ له: إن هناك أخطاء شائعة اكتسبت بالتداول ما يشبه المشروعية في استخدامها، قال: إن شيوع الخطأ لا يبّرر الإيغال فيه، ولا بدّ لنا من أن ننبّه عليه، وندعو إلى اجتنابه حتى وإنْ ذهبتْ صيحتُنا كالصَّرخة في وادٍ، فنحن حرّاس للغة، وليكن كل منا ديدباناً على الضاد، نصونُ حِيَاضَها ونذود عنها من جحافل العوامّ.

وممّا قاله بولس سلامة إنه عندما عرف أن حياته الباقية ستنفق في الفراش، ولن يكون في وسعه التزحزح منه، عصفت به عواصف نفسية جائحة، واستبدّت به أسباب السخط والقنوط، فلّما استعصم بالقلم يبثّه لواعجه وبالأوراق يودعها

مشاعره رَانَتْ عليه سكينةٌ طاغية، ولم يلبث أن نسي نفسه وآلامه وهو ماض في التحرير والتحبير. لقد باتت الكتابة متنفسه الوحيد وشغله الدائم، ولا سيما لأن آماد الفكر التي انصاعت له ملأت عقله ووجدانه، واستحال ذلك كلّه إلى شلّال هادر من الإنتاج الأدبي والفكري.

ويكفي للتمثيل على غزارة إنتاجه وتنوّع اهتماماته أن أُشير إلى رؤوس الموضوعات التي تناولها في كتاب «حديث العشية» وهو من بواكير كتبه، ومنها: «ما هي الفلسفة؟» و«الوجدان الأدبي» و«أساس الاجتماع السياسي وأساس السلطة» و«التشاؤم ومشكلة الشرّ» و«مرقس أوريلس أو الإمبراطور الفيلسوف» و«نفسية الجماهير» و«الأديان القديمة» و«الإمام علي فارس الإسلام وأمير الكلام والزاهد المتصوف» و«اللغة». وكلامه في كل من هذه الموضوعات ليس مجرّد عبارات إنشائية فضفاضة، وإنما هو آية على سعة اطلاعه وتعمّقه وارتياده لمجلات التفكير بلا حدود.

أما سيرة حياته الموسومة «حكاية عُمْر» والتي أهداها إلى شريكة حياته والتي دوّنها جالساً لا راقداً، فهي تصوّر الحياة والعادات والأوضاع التي كانت سائدة في لبنان في الربع الأول من القرن الماضي: كيف كانت الحياة تجري في الجبل، وكيف كان الناس يستمتعون بالقنص والصيد، وكيف كانت العائلات تعيش من تربية دود القزّ لصنع الحرير، وكيف كانت أوضاع لبنان في الحرب الكونية الأولى، وكيف كان الشباب يلهون في الريف بلعب «الكلّة» و«الطابة» والسباحة في بركة الضيعة. ثم يتحدث بولس سلامة عن مكوّناته الفكرية والوجدانية وسعيه الدؤوب إلى استخلاص القيم العليا من الفلسفات والعقائد والمذاهب السياسية حتّى استقامت له من كل ذلك نظراته الإنسانية الشاملة، وعصم نفسه من نزعات التعصّب وضيق الأفق. فسيرته الذاتية سيرة لعصره، ومرآة تنعكس عليها رؤاه، وله في كل موقف من مواقف الحياة قصيدة استوحاها من ظروفه، فجاء الكتاب متعةً أدبية ورحلةً جميلة في بستان من الذكرات والأفكار والمشاعر.

وما زال ديوان بولس سلامة محجوباً عن الأنظار، ولم يُنشر بكامله، وإنْ نُشرت قصائد منه في «المختارات» وفي بعض كتبه. وحبّذا التعجيل بنشره استكمالاً للصورة المبهرة لهذا الشاعر المتفرّد.

❁ ❁ ❁

جعفر الخليلي

من الجنايات التي لا تُغتفر لمجتمعنا الأدبيّ، أن الأجيال الطالعة من الأدباء تكاد تجهل حتى الكبار الكبار من أعلام المفكرين في عالمنا العربيّ، بل في وطننا المحليّ، أولئك الأساتذة الذين استفاضت آثارهم ومآثرهم، وعاشوا يرفدون الضاد بآلائهم من ريِّق العمر إلى منتهاه، وذادوا بأمانةٍ وشرفٍ وتقديس عن مُثلى القيم وفُضلى المآرب وعُظمى الغايات، وأغنوا الفكر والعلم والعرفان بنفائس المحَبّرات، وكانوا على الدهر صُوًى في طريق الفكر الحضاري، وأئمّة في محراب الكلمة النيّرة، ورسلاً ينطقون باللفظة المبينة والحرف الصادق والرأي البنّاء السديد. ومن المجنيّ عليهم في دُنيانا الأدبية الأديب المفكّر العراقي جعفر الخليلي الذي كان أمّةً برأسه، ومجموعةً من الرجال لا تتكرّر. وها هو علمه وريادته وآثاره وقد فرضت نفسها على الجامعات الأميركية، فقام باحث من الثقات في جامعة ميتشغن بوضع رسالة دكتوراه عن الخليلي ودوره الرائد في الأدب الروائي العراقي، أحاط فيها بجانبٍ واحدٍ فقط من جوانب الخليلي المتعددة، وما كان في وسعه أن يحيط بجوانبه الأخرى لاتّساعها وتراميها وتراحبها.

ولقد كان من أسباب سعادتي أن اشتركت في ترجمة هذه الرسالة الجامعية مع الدكتور صفاء خلوصي، الأستاذ الأكسفورديّ، كما كان من جميل التوفيق أن قدّم لهذه الترجمة محمد عبد الغني حسن الذي أجمل القول وركزه في عبارته الختامية ونصّها:

«ولا شكّ أن اجتماعنا هنا ما بين مسلم ومسيحيّ، وشرقي وغربي، ومصري وعراقي، وسنّي وشيعي، وعربي وأعجمي، هو اجتماع وإجماع على المكانة الأدبية المرموقة التي يتمتع بها صديقنا الأستاذ جعفر الخليلي الذي تخصّه، هذه الدراسة الجامعية بالتفصيل والتحليل».

نعم، لقد كان جعفر الخليلي مجموعةً من الرجال تكاملت في شخصه، وائتلفت في نسيج إنسانيته، وتخلّقت بأخلاقه وقيمه ومثلياته. ومن الواجب الحتم التعريف بهذه الشخصية الفريدة لجمهور ينبغي أن يعرف لهذا الرجل فضله وأياديه، لا سيّما وهو يؤمن، كما نؤمن معه، بأن وطننا العربيّ وطن واحد للضاد، يتعالى على صغائر ما ابتدعوا وصنّفوا ورسموا وسنّوا من سماتٍ وهويّات وتأشيرات واستمارات ونماذج وأسماء ومسمّيات، وما شئتُ من أوراق تعبقر العربُ في استنباطها واستحداثها واختراعها وتضخيمها وتزويقها وتكديسها حتّى صيروا وطنهم أوطاناً ممزّقة، ودارهم دياراً متباعدة، وأمتهم أمّماً شتّى! ورحم الله الشاعر المهجري إلياس فرحات (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦) الذي استَهْوَل أن تكون دول العُرْب سبعاً، فكيف وقد أربي عددها اليوم على عشرين؟ وهو هو القائل:

إذا كانَتِ الدُّولاتُ سَبْعاً لِيَعْرُبٍ فكم دَوْلَةً تستوعِبُ الصِّيْنُ والهِنْدُ؟

نشأ جعفر الخليلي في النجف في بيئةٍ علمية دينية أدبية، وهو من مواليد عام ١٩٠٤. وفي النجف تعلّم وتمّرس بالحياة أدباً وفقهاً، وفيها أصدر جريدة «الفجر الصادق» عام ١٩٣٠ وجريدة «الراعي» عام ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥، ثم أصدر جريدة «الهاتف» المخلّدة الآيات محاكياً بها من حيث رسالتها وشكلها وطابعها ومنهاجها جريدة «السياسة الأسبوعية» التي أصدرها في مصر الدكتور محمد حسين هيكل باشا، وجعلها منتدى فكرياً منصوباً لأمّة العرب قاطبة. وعلى هذا النسق عينه سارت جريدة «الهاتف» منذ إنشائها في عام ١٩٣٥ وإلى احتجابها في عام ١٩٥٤ بعد انتقالها من النجف إلى بغداد، فكانت ميداناً لأقلام أدباء يعرب في الوطن والمهجر، متوخيّةً هدفين ساميين هما: إعلاء شأن الأدب، وعقد أسباب الوئام والتعارف بين الأدباء العرب. وهكذا صارت «الهاتف» بستاناً أدبيّاً نفتقر إلى مثله اليوم، وفي سبيل الحفاظ على المستوى الرفيع لهذه المجلّة باع الخليلي متاع بيته، وهو قد اضطر أيضاً في أخريات عمره إلى بيع مكتبته الخاصة بدريهمات تصون كرامته وتُبقى على عِفَّته.

إنها تجربة في الصحافة الأدبية خاضها الخليلي فرداً، دون مؤازرة ـ أو دعم بلغة هذه الأيام ـ من جهةٍ ما، وانسحب منها بعد إغلاق الهاتف بقرارٍ إداري في وقتٍ يكاد يتزامن مع موسم وفيات المجلات الأدبية في مصر، وكأنها كانت

جميعاً على موعدٍ وميقاتٍ مع الموت. إذ تسلّط «عزرائيل الأدب» على مجلات «المقتطف» و«الرسالة» و«الثقافة». و«الكتاب» و«الكاتب المصري» و«الفصول» و«علم النفس»، ولم يلبث أن تسلّط على مجلات أخرى هي «عالم الفكر» و«الكتاب العربي» و«التربية الحديثة» و«المجلّة» و«الثقافة» لعبد العزيز الدسوقي. ومن الأسف أن مصارع المجلات الأدبية لا تستدّر دموعاً، ولا هناك مَنْ يبكي عليها.

هذا عن الصحفي جعفر الخليلي، أما ريادته التأريخيّة المذكورة فتتمثل في ميدان القصة الذي أصدر فيه كتابين كبيرين سجّل فيهما تاريخ القصة العربية. كما خاض تجربة الكتابة القصصية، فأصدر مجموعة «قرى الجن» التي اخترع فيها عالماً مُطوَّياً أو مدينة فاضلة يعيش أهلوها ناعمين بالحرية والعدالة والسلام. وهو قد اختار هذا الأسلوب الرمزي في القصة لكي يتخلّص من مآزق الواقع في عالم غير طوباي، وهو أسلوب في إنْطاق الحيوان أو الجنّ دروسَ الحكمة لجأ إليه الفيلسوف الهندي بيدبا في «كليلة ودمنة»، وتوفيق الحكيم في «حماريّاته» وكامل كيلاني في كتب الأطفال التي أصدرها، ولجأ إليه مؤخراً الدكتور حامد طاهر في «ديوان الشاعر النباحي»، وهو شاعر وهمي اخترعه المؤلّف ليجعل من شعره نُباحاً لا يملك الكلبُ «الفصيح» لغةً سواها في الجأر بشكواه!.

وللخليلي آثار روائية أخرى، بعضها يتّخذ شكل اليوميات، وبعضها يجري مجرى الاعترافات، وبعضها يقوم بدور البطولة فيه أولاد الخليلي - مع أن الخليلي لم يرزق إلّا ثلاث بنات، وينحو بعضها منحى النقد الاجتماعي الذي يساق في قالب قصصي.

على أن من أمتع الآثار الأدبية التي أصدرها جعفر الخليلي كتابه الباذخ الموسوم «هكذا عرفتهم»، وقد أصدر منه في حياته ستة أجزاء، وأصدرت ابنته فريدة بعد وفاته جزءاً سابعاً قدم له العلامة الأردني روكس بن زائد العزيزي. وهو في هذا الكتاب يتجرّد إلّا من إنسانيته وأدبه، ويروي باستطرادات مستملحة ذكرياته عن الأصدقاء الراحلين، وكلّهم من كبار الشعراء والأدباء والعلماء، فيسوق أطرافاً من حياتهم ونوادرهم وفكاهاتهم ومسامراتهم، وينقل من رسائلهم الخاصة ما يُلقي أضواء على شخصياتهم، ويسجّل المطارحات الشعرية والنثرية التي كان من شهودها أو الخائضين فيها، ويميط اللثام عن كثير من الآراء التي لا

تُستعلن عادة في الكتابات المنشورة. ويورد ما لا يعرفه الناس عن شاعر كبير كأحمد الصافي النجفي، أو مهجري شامخ كمخائيل نعيمة، أو مجاهد عربي ضخم كمحمد علي الطاهر، أو أديب متمكن كسامي الكيالي، أو عالم وطني راسخ كالطود كعجاج نويهض، ولم تحظ حواء في هذه المجلّدات السبعة إلّا بشخصية واحدة هي المحامية صبيحة الشيخ داود التي كان لها في بيتها صالون أدبي دوريّ ضاعت أخباره في ضجيج الحياة إلّا ما رواه عنه الخليلي في كتابه.

وفي اعتقادي إن هذه السلسلة النادرة المثال من الكتب تسدّ فراغاً كبيراً في أدب السير والتراجم، لأنها تدور جميعاً حول رجالٍ عرفهم الخليلي، وكانت له معهم عِشرة وصداقة طويلتان، فخبر من أمورهم وأحوالهم ما لم يُتح لسواه، وأتى بما لا يسع غيره أن يأتي به إلّا بالمخالطة والمصاحبة وطوال المطارحات.

ولا بدّ أن نسجّل هنا للخليلي أنه، على حرصه على الأمانة في تناول هذه الشخصيات، فقد عفّ قلمه عن أن يخوض في فنون القيل والقال، و«صان نفسه عمّا يدنس نفسه» بعبارة البحتري العظيم.

وكان الخليلي، الذي أنشأ مكتباً للتعارف وعقد الصلات مع أدباء المشارق والمغارب، يحتفظ بأضابير كثيرة من الرسائل الخاصة التي ظلّ يتبادلها مع أصحابه وأعلام عصره على مدى يزيد على ستين عاماً، وهي من واقع متابعتي الشخصية لرسائله ـ تعدّ ذخيرة أدبية وتاريخية ينبغي أن تُصان من عبث الأيّام.

ولئن كان الخليلي قد عالج موضوعاتٍ يستغرب اهتمامه بها ككتابه عن التمور العراقية، وكتابه الذي سمّاه «تِسْواهُنَّ» وهو نظرات في الغناء والرقص والجمال، فقد انصرف إلى الأعمال الموسوعية الباذخة بإخراجه ثلاثة عشر جزءاً من «موسوعة العتبات المقدّسة»، وهي موسوعة تاريخية جغرافية أدبية علمية دينية عن البقاع المقدسة. وكان في تقديره أن تقع الموسوعة بعد إتمامها في أكثر من ثلاثين جزءاً، ولكن الخليلي كان يملك أرصدةً من الهمّة والعزيمة والصبر على البحث، ولكن هذه الأرصدة الثلاثة تستحيل صفراً مجلجلاً إنْ افتقدت رصيد المال. وهكذا بقيت الموسوعة ناقصة، وأنّى لها بمن يتصدّى لإتمامها. والغريب أن هذه الموسوعة يعاد طبعها مرّاتٍ، دون استئذان ورثة الخليلي أو أداء أي حقوق ماديّة لهم استناداً إلى فتوى خُمينيّة استحلّت هضم حقوق التأليف!.

وكان الخليلي يجيد اللغة الفارسية إجادةً تامّة، فنقل عنها شعراً ديواناً أسماه «نفحات من خمائل الأدب الفارسي»، كما أعدّ دراسةً مقارنة عن «التقارض بين الأدبين العربي والفارسي»، وله دراسات أدبية عن النجف، وأخرى عن الحواضر العربية، فضلاً عن أن له ديواناً من الشعر الوجداني تحرّج من نشره.

وقد استبدت بالخليلي رغبة عارمة في أن يصلح المجتمع بآرائه ونظراته، فتخيّل نفسه قاضياً يجري العدل بين الناس، ويعالج ما اعوجَّ من أمورهم، وألف كتاباً عن تجارب القاضي لا يستريب قارئه في أن مؤلّفَه قاضٍ لا غشّ فيه! وبعدما جرَب الخليلي منصَّة القاضي بالخيال، شاء أن يجرّب حياة السجون بالمعاناة والمكابدة. فتقدم بأغرب طلب إلى السلطات ملتمساً منها أن تزجّ به في السجن، لكي تتاح له فرصة دراسة أوضاع المسجونين عن كثب، والوقوف على مآسيهم، واستصفاء العبرة من حياتهم البائسة. فوافقت السلطات على إيداعه إحدى الزنزانات، وعاش حياة السجن بجميع وقائعها، وخرج ليصدر كتابين كبيرين حافلين بالجوانب الإنسانية، وبما وقف عليه من تفاصيل كان هذا هو سبيله الوحيد للوصول إليها. وعُني في كتابه ذي الجزئين بالإشارة إلى السبل الكفيلة بمعالجة أسباب الإجرام، وصولاً إلى المجتمع المثالي الذي يعيش فيه الناس في حبٍ وتوادٍّ ونقاءٍ وصفاءٍ.

وكان طبيعياً أن يطرق الخليليّ باب التاريخ وميدان الجغرافية، فهو كما ذكرنا متعدد الاهتمامات متشابك الغايات، فوضع كتاباً عن الثورة العراقية الكبرى، ولخص كتاباً عن العرب واليهود في التاريخ، وصنف كتاباً عن جغرافية البلاد العربية، وأصدر كتاباً عنوانه «حبوب الاستقلال» صودر في زمن الحكم البريطاني.

كان ذا شخصيّة مهيبة ودودة، تراه لأوّل وهلة فتحسب أن فيه انقباضاً وأَنَفَةً، فإن اقتربت منه صافاك الودّ زلالاً، وغمرك بمحبته، وسخّر الدنيا لخدمتك. وما أكثر ما تلقيت كتباً من مؤلّفيها دون معرفة سابقة، فإذا فتّشتُ عن صاحب الفضل كان هو الخليلي. وما أكثر ما تلقيت مكالمات كان الخليلي هو المحرّض الأكبر عليها. بل لقد حدثت جفوة بيني وبين الشاعر القروي رشيد سليم الخوري مرّةً، وبين الشاعر إلياس فرحات مرّة أخرى، لأنهما كانا يحرجانني بأحاديث السياسة وأنا مطلّقها بالثلاثة! فتطوّع الخليلي لإصلاح ذات البيْن بيننا، وإعادة المياه إلى مجاريها.

ودعاني مرّة لحضور مؤتمر للمؤرخين العرب. فقلت له: وبأي صفة أشارك في هذا المؤتمر؟ قال: اكتب بحثاً عن الصلة بين الصحافة والتاريخ، أو عن أي موضوع آخر، والمهم أن تأتي عندنا ونراك، فقلت له: لو لبيت دعوتك، لقلت للمؤرخين العرب: توبوا عن كتابة التاريخ ألف عام؛ لأن ما تكتبون زيف وبهتان! فضحك قائلاً: وهل كتاباتكم يا معاشر الصحفيين تخلو من هذا الزيف والبهتان؟.

وكان للخليلي ولعٌ بالمطارحات الشعرية التي كانت تجري بينه وبين الشعراء في العراق وخارجه. ولئن نشر بعض هذه المطارحات في الصحف والمجلّات السيّارة، فلم يجر جمعُها في كتاب يصونها من الضياع لأنها تعبيرات صادقة عن النفس فضلاً عمّا تحتوي عليه من فكاهة مستطابة.

لقد كانت حياة الخليلي حيةً خصيبةً أرْبت على الثمانين من الأعوام، حفلت بالعطاء وجني الثمار، وانبعثت بكل مآتيها من ينبوع القيم والفضائل التي ازدادت إنسانيةً وشفافية، على امتداد العمر. وليس يؤودنا أن نردّ جميع آثار الخليلي إلى خصائصه التي تميّز بها وعُرفت عنه. ووفاؤه لأحبائه هو الذي حدا به إلى إنصافهم في السير التي عقدها عليهم. وأشواقه إلى العالم المثالي هي التي حفزته على تسطير ما كتبه عن المدينة الفاضلة التي اخترعها وصوّرها أدقّ تصوير. وإيْمانه العميق هو الذي دفعه إلى إخراج موسوعة العتبات المقدسة. وحبّه للإنصاف هو الذي وضع في يمناه قلم الناقد البصير، فجاءت دراساته النقدية بدعاً في التقييم والتقويم. ولستُ تجد في أدبه الروائي موقفاً جانحاً ولا فضيلةً ذبيحة، ولا غلبة لفاسق على صالح. وهو في مجلة «الهاتف» لم ينطق عن هوًى، ولا ازدهاه مجدٌ أو مال، فكان مثالاً للصحفي الشريف النظيف القلم والضمير. والذي ترفّع عن أن يتقدم بطلب لتقرير معاشٍ تقاعديّ له، على شدة حاجته إليه. فلّما تقرر له هذا المعاش لم يمسسه.

وقد آثر جعفر الخليلي أن يمضي السنوات الأخيرة من عمره مقيماً في عمّان بالأردن إلى جوار صديقه الأثير العلامة روكس بن زائد العزيزي، وعاش على ما كان يكتبه من فصول في المجلات الأدبية المختلفة مستعزاً برأيه المستقلّ وكرامته التي تأبى على كل ترخّص.

ولم يرزق الخليلي أولاداً، ولكن بناته الثلاث آثرن طريق العلم لا الأدب، فظفرت فريدة بدرجة الماجستير في الأنثروبوجيا، ونالت ابتسام درجة الماجستير في الكيمياء، وأما امتثال فقد خرج من صُلبها طبيب ومهندسة وهي نفسها خريجة جامعية.

وحساب الربح والخسارة في حياة جعفر الخليلي يمثل أرصدة ربيحة في جوانب القيم والأخلاق والمثل، وأرصدة مكشوفة في أبواب المكاسب والمغانم والماديات. وقد مات غريباً في دبيّ إذ فاجأته أزمة قلبية وهو في زيارة عائلية، ولقي وجه ربه في الثاني من شباط/فبراير ١٩٨٥.

❁ ❁ ❁

الشاعرة جميلة العلايلي

انسحبت الشاعرة المصرية جميلة العلايلي من الدنيا في صمتٍ تام في الحادي عشر من نيسان (إبريل) ١٩٩١، فقد استيقظت ساعة السحور في شهر الصوم في بيتها، فلمّا وافتها زوجة ابنها (جلال سيّد ندا) حاملة طعام السحور الخفيف، ألفتها فارقت الروح، فأنفذ ابنها وصيتها بتشييعها دون موكب، بل دون نعي في الصحف، وإنْ كانت أوصته بإبلاغ نبأ ارتحالها إلى خمسة من قدامى أصفيائها الذين كانوا يوالونها بالسؤال عنها في مرضها الطويل، وهم الصحافي حافظ محمود، والصحافي عبد الفتاح البارودي، والصحافية أماني فريد، والأديبة كريمة زكي مبارك، وكاتب هذه السطور.

قضت سني عمرها المتأخرة مُسمّرةً على مقعدٍ متحرّك بسبب كسور أصابتها نتيجةً لسقوطها في بيتها، كما تحالفت عليها أمراض الشيخوخة وآلام الروماتيزم الحادة، فاحتملتها في صبر المؤمنات الراضيات. وبقيت مع ذلك، وإلى آخر لحظة من عمرها، تكتب لتؤدي رسالتها حتّى التمام. فجهّزت ديوانها الثالث ـ بعد «صدى أحلامي» و«نبضات شاعرة» ـ للنشر، وهو ما زال مخطوطاً، وصنّفت كتاباً عن الفنّان زكي طليمات ورسائله الأدبية، وهو ما زال راقداً في إحدى خزائن دار «روز اليوسف»، وسجّلت سيرة حياتها وذكرياتها في كتابين مخطوطين أحدهما مهيّأ للنشر، أما الثاني ففيه أحاديث وأمور شخصية ارتأت ألّا تُتداول إلّا في نطاق الأسرة، هذا عدا عشرات من الرسائل المنتظمة التي كانت تتبادلها مع أدباء العالم العربي.

بدأت جميلة العلايلي حياتها الأدبية مبكرّة، ولعلّها كانت إذ ذاك دون العشرين من العمر عندما بعثت من مدينتها المنصورة بقصيدةً إلى مجلة «أپولو» عنوانها «الساحر» فاحتفى بها الشاعر أحمد زكي أبو شادي ونشرها في عدد نيسان (إبريل) ١٩٣٣.

وكان أبو شادي يشجّع الأديبات، ويفتح لهن صدر مجلة «أپولو»، ومنهن أديبات معروفات مثل الشاعرة العراقية رباب الكاظمي والأديبة المصرية سهير القلماوي (وقد نشر لها قصيدتين قبل أن تطلّق الشعر) والآنسة ماري عجمي، وهناك أديبات غير معروفات مثل الآنسة زينب الروبي، والآنسة ز. يسري، والآنسة فاطمة خليل إبراهيم، والآنسة ملكة محمود السراج، والآنسة سنيّة العقاد، والآنسة ز. السنوسي، والآنسة حكمت شبارة، والآنسة إقبال بدران.

ولكن جميلة العلايلي كانت أكثرهن انتظاماً في نشر شعرها ونثرها في «أپولو» حتّى حقّ لها أن تقول عن نفسها: إنها الشاعرة الوحيدة في هذه الجماعة.

والبدايات الأولى لجميلة العلايلي توحي بأنها، وإنْ عاشت في المنصورة التي عُرفت بتحررّها النسبي، كما عُرفت بندوات الأدباء التي كانت تنعقد فيها حول أحمد حسن الزيات وعلي محمود طه ومختار الوكيل وإبراهيم ناجي وصالح جودت، فقد كانت في شبه عزلةٍ عن الحياة الأدبية، تطلّ عليها من خلال رسائلها البريدية إلى «أپولو» وتطالع الناس من خلال صورها الفوتوغرافية الجميلة التي كانت المجلة تنشرها لها وهي جالسة إلى مكتبها أو وهي تطالع كتاباً أو وهي تلتفت إلى المجهول. وكان شعرها، ونثرها أيضاً، يتّسمان بمسحة من الكآبة والحزن، لأن روح الشاعرة تشدّها إلى الانطلاق، في حين أن بيئتها القريبة تشدّها وراء الأسوار. فقد ختمت قصيدتها البكر الموسومة «الساحر» بقولها:

إِنَّمَا الشِّعْرُ حَيَاةٌ ... لِمُنَى القَلْبِ الكَسِيْر

وفي قصيدة أخرى عنوانها «حب المُحَال» نشرت في عدد أيلول (سبتمبر) ١٩٣٣ قالت:

حُبُّ المُحَالِ أَصَابَ مَعْقِلَ مُهْجَتِي ... فَعَرَفْتُ فِيْهِ الصَّفْوَ والتَّعْذِيْبَا

لو أَنَّ أَحْزَانِي تُطِيْعُ مَدَامِعِي ... لرأيتَ دَمْعِي في القَرِيْضِ صَبِيْبَا

وفي قصيدة اختارت لها عنوان «الروح الظامىء» نشرت في عدد تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٣ قالت:

يا قَلْبُ لا تَخْشَ الضَّلَال ... ولا العَصِيَّ المُسْتَحِيْل

مـــا دامَ حُـــبُّـــكَ لافِـــحـــاً هَـيْـهَـاتَ يُـطْـفِـئُـهُ الـعَـلِـيْـل

وفي تشرين الثاني (نوفبر) ١٩٣٤ نشرت جميلة العلايلي قصيدة عنوانها «السجينة»، جاء فيها:

عَجَباً! أَأُسْجَنُ ها هُنا فِيْ قَسْوَةٍ وَسِوَاي يَحْيَا فِي دُنَىٰ الأَحْرَارِ؟
يَلْهُو ويَمْرَحُ ما يَشَاءُ مُنعَّماً وأنـا سَـجِـيْـنَـةُ هٰـذِهِ الأَغْـوَارِ؟!

وفي هذه النماذج تتحدث الشاعرة عن قلب كسير وأحزان وتعذيب ومدامع صبيبة، ثم تتحدث عن السجن الذي يسلمها إلى «هذه الأغوار» في قسوة، مع أن روحها ظامئة، وحبّ قلبها حبّ لافح هيهات أن ينطفئ.

وقد رغبت جميلة العلايلي في تصوير «معركة» الشاعرة مع العاطفة، فكتبت فصلاً نشر في عدد كانون الثاني (يناير) ١٩٣٤ بعنوان «المرأة والشعر العاطفي» قالت فيه: «يا لهول الحياة من المرأة الشاعرة! إنها تخضع الحياة لها في غير تهيّب، بينا هي تخضع بدورها لخيالها الطليق الجبّار، وعلى قدر نصيب المرأة من تذوّق الفنّ يكون حظّها من الشعور... فالمرأة الشاعرة عندما تجتاز حدود دنياها إلى الفضاء اللامحدود، تمرّ بأخيلةٍ لا عهد لها بها، وبعضها يروقها فيكهرب أعصابها حتّى تعود مأخوذةً بسحره، وعلى ضوء هذا السحر الفيّاض تكشف لنا ما وراء الضوء أو ما يخبو خلف الظلام... لتكن المرأة مناط المشاعر، ولتصوّر ما يحلو لها ما دام بريئاً في غير كلفة أو رياء، وليكن الرجل مناط التفكير».

استُقبل شعر جميلة العلايلي استقبالاً طيّباً من الدكتور أحمد زكي أبي شادي، وعلي الجندي، والدكاترة ـ كما كان يسمي نفسه ـ زكي مبارك، والدكتور محمد مندور، وصالح جودت وغيرهم من النقاد، فشجّعها ذلك على الانتقال من المنصورة إلى القاهرة للإقامة الدائمة فيها، بعدما كانت زياراتها خاطفة ومحدودة وتقتصر على غشيان دار الأوبرا الملكية، أو حضور عرض سينمائي، وكانت ترافقها في هذه الزيارات سيّدة من كبيرات الأسرة وكأنها «بودي غارد» بتعبير هذه الأيام.

على أن جميلة العلايلي تقول: إن بداياتها الأدبية سابقة على «أپولو» ويرجع الفضل فيها إلى الأديبة مي التي شجّعتها وبذلت لها حبال المودّات على مدى

العمر. تقول جميلة: «في باكورة صباي، وأنا لم أبلغ الثانية عشرة من عمري، كنت أحبّ أديبة الشرق الآنسة مي زيادة حبّاً مَلَكَ عليَّ مشاعري، ومن أجلها تعلّقتُ بالفن قبل أن أدرك ماهية الفنّ. ولي معها قصة هي سجّلٌ حافل بمشاعر الطفولة الساذجة وأحاسيس فنانة جيل ناضجة. كتبتُ لها يومئذٍ بأسلوب كان يمليه عليَّ حبّي الفطري، قلت لها: «إني أغار من شروق الشمس لأن نظرك يقع عليه، وأغار من غروبها لأنه يبعد خيالي عنك، وأنا أريده دائماً ملتصقاً بك». فكتبت إليها ميّ قائلة «لا تغاري من الشروق لأنه يُحيي الأمل، ولا تغاري من الغروب لأنه يثير الذكريات. وأنت في الحالتين يا صغيرتي قريبة من خاطري بإشراق روحك أثناء الشروق، وقريبة من خيالي بذكرى لقائله. وها هو النيل يستمتع بأشعة الشمس كأنها أسدلت عليه دثارها الذهبي الرائع، ومع ذلك لا أشعر بابتهاج روحي تصوّره آمالاً مشرقة ترفّ عليَّ، بل أشعر بحزنٍ عميق يطوي فؤادي لاستحالة تحقيق أمل يتمنّاه ذلك الرفيق، وبأن النيل في ناظري ساكن كسكون عواطفي، شاحب شحوب وجداني».

تزوجت جميلة العلايلي من الأديب سيّد ندا وأقاما في ضاحية عين شمس، وتعاونا على أن تكون حياتهما وقفاً على الأدب، يخدمانه بمجلة «الأهداف» الشهرية التي أصدارها في عام ١٩٤٩ وانتظم صدورها نحو عشرين عاماً، و«بمجمع الأدب العربي» الذي أنشآه، وكان ندوة أسبوعية تنعقد في منزلهما فيتردد عليها كثرة من أدباء مصر والعروبة، وبإصدار كتب جميلة العلايلي التي تعدّدت أغراضها بين القصة والأوبريت والدراسات الأدبية والنفحات الروحية والتوجيه النسويّ.

فمن رواياتها «هندية» و«الراهبة» و«إحسان» و«تآلف الأرواح» و«الراعية» و«الناسك» و«جاسوسة صهيون» و«من أجل الله» و«بين أبوين». كما أنها قامت بدور المحرّرة لمجموعة من الكتب التي أسهم في إعداد فصولها باحثون متخصصون ككتاب «أدب الربيع» وكتاب «أدب رمضان» وكتاب «قضية فلسطين».

فإذا التفتنا إلى كتابها «أنا وولدي» ألفيناه يصور قصّة فذّة من قصص صمود المرأة وهي حائرة بين طغيان العاطفة وواجب الأمومة، وقد اختارت جميلة العلايلي أن تنحاز إلى واجبها، ورفضت بكل استبسال أن توزّع قلبها بين ابنٍ أدركه اليُتم وما زال مستقبله في علم الغيب، وبين عاطفةٍ مشبوبة عقدت العزم

على أن تروّض جموحها وتلزمها حدود الترفّع والتسامي. وها هو ذا «أمين» ـ بطل هذه الملحمة العاطفية ـ لا يكفّ منذ وفاة زوجها عن تزيين أسباب الزواج منها، موجهاً إليها عشرات من رسائل الحبّ والهيام، متوسّلاً إلى غاياته بمعجم كامل من معاجم العشق والهوى، فلا يعود إلّا خائباً كسيف البال، لأن واجب الأمومة عندها يتقدّم على أهواء النفس. وهكذا انتصرت في معركةٍ وجدانية كبرى، وإنْ كانت هَزَمت فيها روحها ودفنت أشلاء ما اتّقد من عواطفها، ولم يبق من مخلّفاتها إلّا عشرات من رسائل الحبّ التي ضمّها الكتاب، وإلّا ذكرى تسعدها وإن امتزجت بمرارة الألم.

وإن القارىء لهذا الكتاب ليأنس فيه منتهى الصدق في تسجيل أحداثه، فالقصة ـ إن اعتُبرت من جنس القصص ـ نُسجت لا بخيال مجنّح، بل بواقع ملموس، وهي تمثل ذروة ما عانته الشاعرة في رحلة الحياة، ولا سيّما لأنها آثرت أن تكتم في الصدر أشجانها، وأبت أن تبوح بها إلى «ذي مروءةٍ» استنصاحاً بقول الشاعر:

فلا بُدَّ مِنْ شَكْوَىٰ إلى ذِيْ مُرُوْءَةٍ يُسَلِّيْكَ أَوْ يُشْجِيْكَ أو يَتَوجَّعُ

لم تكن لجميلة العلايلي وظيفة، ولا خرجت إلى الحياة تبحث عن عمل، بل إنها لم تكن تغادر البيت إلّا قليلاً. إذ كان دورها إلى جانب رعاية ابنها جلال وابنتها المتبناة سحر أن تشرف على تحرير مجلة «الأهداف» بناء على «الشركة الأدبية» التي عقدتها مع زوجها سيّد ندا، وأن تتفرّغ لمآرب الكتابة ولرعاية مجمع الأدب العربي الذي أنشأته، في حين انصرف زوجها إلى الشؤون الإدارية المتمثلة في طبع المجلة، وتحصيل بدلات الاشتراك، وجلب الإعلانات ومتابعة نشاط التوزيع وما إلى ذلك من شؤون. فلمّا أدركته الوفاة فجأة في السادس عشر من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٣، انتقلت جميع هموم الإدارة إلى جميلة حتّى ناءت بها لتضاربها مع طبيعتها، ولانعدام خبرتها بالمعاملات الإدارية وإمساك الدفاتر الحسابية. وهنا برز «الشطّار» الذين أوهموها بأن في وسعهم النهوض بالمجلّة لا تحريرياً بل إعلانياً، فحسبتهم طوق النجاة الذي امتدّ إليها لإخراجها من هذا المأزق. وطفق هؤلاء «الشطار» يتعاقدون مع الشركات ودور الأعمال على نشر إعلاناتهم، حتّى إذا ما تقاضوا قيمتها اختفوا عن الأنظار، وتركوا جميلة مستهدفةً

للمطالبات الضريبية بالآلاف! فلم يكن ثمة مفرّ من إغلاق «الأهداف» بعد تاريخ حافل اقترب من الأعوام العشرين، وأسهم فيها كثيرون من كبار الأدباء الأديبات.

هذه الظروف العنيفة التي مرّت بها جميلة العلايلي في الأعوام التالية ألهمتها بأن تلتمس السكينة في الاعتصام بالزهد، وبما يشبه التصوّف. وبعدما كانت في شعرها الأول تتغنّى بالعاطفة وتنشد أناشيد الحبّ وترنو إلى الحرية والانطلاق، صارت قصائدها ابتهالات وصلوتٍ ومراثي للراحلين. وديوانها المخطوط الأخير، وقد اختارت له عنوان «آخر المطاف» جعلت خاتمته قصيدةً عنوانها «وصيّتي» قالت فيها:

سَتَكُوْنُ رُوْحِي بَعْدَ مَوْتِي دَائِماً نُوْراً يُضِيْءُ وبَلْسَماً لِلدَّاءِ

وتحقيقاً لوصيتها بأن تكون روحها نوراً يضيء وبلسماً للداء، قام ابنها بعد وفاتها بإهداء بيتها إلى وزارة التعليم لتحويله إلى مدرسة تخدم الحيّ الذي عاشت فيه معظم عمرها، فكان هذا البيت قبلةً للأدباء من الأقطار العربية المختلفة. وكانت لها صداقات بسيدات فضليات مثل هدى شعراوي زعيمة النهضة النسائية، ومي زيادة، والأديبة السورية وداد سكاكيني، وصفية أبي شادي ابنة رائد «أپولو»، كما كانت موصولة الأسباب ببعض المستشرقين كالحاج عبد الكريم جرمانوس المستشرق المجري. ولكن عزلتها الطويلة حجبتها عن الأضواء، واستدبرها الدارسون ونقّاد الأدب ممّا أورثها شعوراً بالجحود وإنْ حال كبرياؤها دون الجهر به. فقد كان يحزّ في نفسها أن يُنسى تاريخها في الشعر والأدب مع أنها كانت من السابقات إلى ولوج هذا الميدان، ولم تبرحه أبداً على مدى نصف قرنٍ أو يزيد، وقد استشعر أبو شادي هذا القصور، فقال في مقدمة ديوانها «نبضات شاعرة».

«هذه ثروة جديدة تضاف إلى شعرنا العربي الحديث، قوامها المثالية الروحية العزيزة التي تجلّت وما تزال تتجلّى في آثار أخرى لجميلة العلايلي... ولا ريب أن هذا الفن الزاخر لن يجدب معينه، ولن ينقطع فيضه، وقد يؤرخ له مستقبلاً بأفضل ممّا نحسنه نحن المعاصرين، ولو كنا منصفين».

وهذه محاولة لإنصافها وإن تطاول عليها العهد وشابها القصور.

❁ ❁ ❁

الدكتور جورج خير الله (أبو علي)

كلمة إنصاف تطاول تقصيري في إزجائها إلى الطبيب المهجري جورج خير الله الذي زهد في الطب ليحمل عن أمّته همومها، ولسان حاله هو قول الشاعر القروي رشيد سليم الخوري:

حَـامِـلٌ فَـوْقَ هَـمِّـهِ هَـمَّ شَـعْـبٍ سَاوَرَتْهُ الخُطُوْبُ مِنْ كُلِّ جَانِبْ

فقد اصطلحت عليه أسباب الجحود والنكران، وظلمته الأضواء التي تسلّط هنا وهناك، ثم تتخطّاه ناسيةً دوره الفريد في تقديم العرب بحضارتهم وثقافتهم وفنونهم وشعرهم وقضاياهم إلى الغرب الأمريكي.

عاش خير الله في زمنٍ كانت فيه أمّة العرب مهيضة الجناح، تبلوها صنوف العسف تحت وطأة الاستعمار الأجنبي الضارب الأطناب في كل وادٍ. فهو في مصر والسودان وفلسطين وشرقي الأردن والعراق والخليج استعمار بريطاني، وهو في تونس والجزائر ولبنان وسورية استعمار فرنسي، وهو في المغرب استعمار فرنسي إسباني، وهو في ليبية استعمار إيطالي. إذن، فليقل جورج خير الله للطب وداعاً، ولينتظم في قافلة المؤذّنين: حيّ على الكفاح حتى يوم الخلاص، وليرصد كل ما حصّله من ثروة من مزاولة الجراحة للدفاع عن قضايا العرب في الولايات المتحدة، ولتقديم الثقافة العربية إلى الأمريكيين، ولترجمة الشعر العربي القديم والجديد والمهجري إلى اللغة الإنكليزية شعراً سائغاً أميناً في نقله.

عرفت جورج خير الله للمرة الأولى من خلال مجلته الفاخرة «العالم العربي» The Arab World التي شرع يصدرها باللغة الإنكليزية في نيويورك اعتباراً من عام ١٩٤٤ كمجلة فصلية من قَطْع الكتب، وكانت الحرب العالمية الثانية إذ ذاك تؤذن بالانتهاء، وكانت الجهود قد بذلت لتأسيس الجامعة العربية فقامت في عام ١٩٤٥، وكانت الاستعدادات لإنشاء هيئة الأمم المتحدة قد بدأت وأسفر مؤتمر سان فرنسيسكو عن قيامها في عام ١٩٤٥، ممّا حمل معه بُشريات

باستهلال فجر جديد للإنسانية تنعم فيه بالحرية والرخاء والسلام والمساواة، وتودّع فيه جميع أنواع الاستعمار والاستغلال والقمع والحروب التي لم يبرح العالم يعاني منها منذ ما عرُف التاريخ المسطور.

وقرأت الأعداد الأولى من مجلة العالم العربي، فإذا هي مجلة جامعة تعالج موضوعات أدبية وثقافية مثل الحديث عن أبي العلاء المعري (مع ترجمات لبعض شعره باللغة الإنجليزية) ومثل موضوع عن جامعة القرويين أقدم جامعة في العصور الوسطى، وموضوع عن الشاعر المهجري رشيد أيوب، وموضوع عن الأديبة مي، وموضوع عن الموسيقى في شرقي الجزيرة مع «نوتات» موسيقية، وموضوع عن المرأة في لبنان بقلم إيڤا مالك (قرينة الدكتور شارل مالك) وموضوع عن الجامعة الأمريكية في بيروت ودراسة الطب فيها، وموضوع عن ابن خلدون (بقلم الدكتورة وجدان، كريمة الدكتور خير الله) وموضوع عن حي ابن يقظان لابن طفيل، عدا ترجمات باللغة الإنجليزية شعراً لقصائد مختارة من جبران خليل جبران وأمين الريحاني وإيليا أبي ماضي ونسيب عريضة وندرة حدّاد وحبيب إبراهيم كاتبة (مراسل «الأهرام» في نيويورك) وطاغور وغيرهم.

كما اهتمت المجلة بموضوعات تاريخية ووطنية مثل الوطنية والاستعمار الفرنسي في المغرب، وشهادة فيليب حتّي عن فلسطين، ومساهمة العراق في المجهود الحربي (في الحرب العالمية الثانية)، ومعضلة فلسطين، وحادث أيلول/ سبتمبر في لبنان، وإنعاش القرى في لبنان وسورية، والبحرين: ولاية عربية عبر التاريخ.

ولاحظت أن المجلة احتفت بمشاركات من رجال مثل الدكتور قسطنطين زريق الذي كان إذ ذاك وزيراً مفوضاً لسورية في واشنطن، والدكتور شارل مالك، والدكتور فيليب حتّي والدكتور نبيه أمين فارس، والأميرة نجلاء أبي اللمع معلوف.

وقد قدم خير الله مجلته إلى القراء بما ترجمته: «إن مجلة العالم العربي تجتهد في أن تهيّىء ملتقى للفهم والتعاطف بين الشعب الأمريكي والبلدان العربية، وستحرص على تقديم وجهة النظر الأمريكية إلى العالم الناطق بالضاد، وأن تنقل المثل العليا للشعوب العربية ونواحي تقدمهم إلى أصدقائهم

الأمريكيين... وفي دوريّةٍ تتوجه إلى القارئ العام، فإن الدراسات التاريخية والثقافية والتراثية التي تنشر في الحين بعد الحين، تشكل، على ما يبدو، خلفيةً ضرورية لتقديم التيارات والأماني في يومنا الحاضر».

وبهرتني المجلة قلباً وقالباً، فعقدتُ كلمةً في صحف القاهرة قلت فيها: إن «مجلة العالم العربي» تحفة من حيث الإخراج، وتحفة من حيث انتقاء المادة الأدبية، فهي تلمّ بأطراف السياسة فتدافع عن قضايا العروبة، وتجنح إلى المنحى الأدبي فتترجم إلى اللغة الإنجليزية شعراً ونثراً ممّا تفيض به المكتبة العربية قديماً وحديثاً، وتقدّم أدباء من الشرق إلى أهل الغرب لتكون واسطة اتصال بين حضارتين تفصل بينهما آلاف السنين من العزلة والانطواء... ونوجّه النظر في مصر إلى هذه التحفة النفيسة التي يتعيّن أن تكون مألوفة فيها ومعروفة في دوائر أدبها وعلمها».

وعلى إثر صدور هذه «الكلمة» تلقيت رسالة شكر من الدكتور خير الله، شفعها بإرسال مؤلفاته وكلّها باللغة الإنكليزية: وهي «سيرة جبران خليل جبران» مع ترجمة كاملة بالإنكليزية شعراً لقصيدة «المواكب»، وكتاب «بعث جزيرة العرب» وكتاب «الإسلام والنبيّ العربي» واعتذر من عدم إرسال كتابه الهام «تأثير الإسلام في الطب» لأنه نافد، ووعد بأن يدبّر لي نسخة، سواء باسترداد نسخة سبق له أن أهداها إلى صديق (كما فعل عندما دبّر لي كتابه عن النبي العربي) أو عند طباعته مرّة ثانية، وهو ما لم يحدث مع الأسف الشديد. وبمطالعة هذه الكتب النفيسة وبمواصلة هذا الرجل العظيم عرفت كثيراً من جوانب سيرته الملهمة.

ومنذ بدء المكاتبة مع الدكتور خير الله، لاحظت أنه يوقع رسائله، بل كتبه المهداة إليّ، باسم «أبو علي»، فرغبت إليه في أن يوضّح لي سرّ هذه الكُنية. فأجاب بأنه بعد اعتناقه للإسلام، أطلق على ابنه الوحيد اسم أحمد علي الذي تخصص في الفيزياء الرياضية وعمل في الصناعة الأمريكية، كما أطلق على ابنته الوحيدة اسم جلّنار التي نالت درجة الدكتوراه في الفلسفة من المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو، وتخصصت في الفن الإسلامي، كما درست في جامعة السوربون في باريس وتزوجت من البروفسير بوش أستاذ فنون الحفر والفخار وزميلها في العمل في كلية وسليبان وهي من أقدم كليات البنات في الولايات

المتحدة، وقد رُزقا ابناً واحداً أسمياه «جرير» على اسم الشاعر العربي الكبير «جرير».

وبهذه المناسبة أخبرني الصحفي المهجري عبد المسيح حداد صاحب «السائح» النيويوركية بأنه أطلق على ابنه اسم جرير، وأن ابنه اختار التخصّص في الكمبيوتر وابتدع الآلة الحاسبة التي استخدمتها حكومة الولايات المتحدة للمرة الأولى في إعداد ميزانية الدولة المعقدة.

ولد جورج خير الله (وهو من أصل لبناني وموطن أسرته بحمدون) في الإسكندرية بمصر في ٢٥ من نيسان/إبريل ١٨٧٩ حيث قضى فترة يفاعته مع أبيه إبراهيم خير الله (المتوفى عام ١٩٢٩) والذي كان زميلاً للدكتور يعقوب صرّوف صاحب المقتطف والمقطم في أول دفعة تخرّجت من الكلية السورية الإنجيلية في بيروت (وهو الاسم القديم لجامعة بيروت الأميركية). ورغب والده في إيفاده إلى لبنان للدراسة هناك، فالتحق بمدرسة سوق الغرب ثم بالجامعة الأميركية.

وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره، هاجر إلى الولايات المتحدة للدراسة متخصّصاً في الطب والجراحة في كلية الطب التابعة لجامعة نورث وسترن، وتخرج منها عام ١٩٠٢ وبقي يخدم فيها مدة الامتياز.

وفي عام ١٩١٤ اختير زميلاً للكلية الأمريكية للجرّاحين، فكان أوّل طبيب عربي يحمل هذه الدرجة العلمية. واشتراك بعد ذلك مع الدكتور تشارلس مايو من جامعة روتشستر بولاية ميسوتة ومع خمسة أطباء آخرين في إنشاء نادي روتشستر ذي الشهرة العالمية، واشتغل بعد ذلك بالطب في عيادته الخاصة، وحقّق نجاحاً مقدوراً فيه كجراحٍ مشهود له بالكفاءة.

ولكن قضايا أمّته شغلته، فقام في عام ١٩١٨ بإنشاء «الرابطة الوطنية لسورية الجديدة» برياسته، وتولّى الدكتور فيليب حتّي أمانتها، وكانت أوّل منظمة في الأمريكتين تدعو إلى تحرير الأمّة العربية. وعند انعقاد مؤتمر ڤرساي في عام ١٩١٩ أوفدت هذه الرابطة عضوها إبراهيم متري رحباني إلى هناك، فقام بدور حلقة الاتصال بين الرئيس الأمريكي وودرو ولسن والملك فيصل الأول.

وانصرف جورج خير الله بعد ذلك إلى معالجة قضايا الأمة العربية، فسافر إلى المغرب حيث أقام سنواتٍ، واتصل بقادة الرأي والفكر فيه، ودرس تاريخه،

وقال في إحدى رسائله إليّ: إنّه ألف في أيام الصبا كتاباً عن «تاريخ الثقافة المغربية» وكان ينوي مراجعته ونشره كاملاً، ولكن الظروف لم تسعفه، وإنْ كان نشر بعض فصوله في جريدة «السمير» لصاحبها إيليا أبي ماضي وفي مجلته «العالم العربي»، وألقى عن المغرب محاضرات كثيرة في الولايات المتحدة.

وكان خير الله يتلقى كثيراً من الدعوات لإلقاء محاضرات في أنحاء الولايات المتحدة، فألقى مرّة محاضرة عن «تأثير المدنية العربية على الغرب» في نادي المركز الإسلامي في نيويورك، عدّد فيها مآثر العرب التي انتقلت إلى الغرب مثل الفروسية والموسيقى، وقال: إن العرب هم الذين وضعوا العلامات الموسيقية التي يعرفها الإفرنج باسم «النوتات».

وتحدث عن إسهام العرب في فن البناء وعلوم الكيمياء والطبيعيات والجبر والطب، وأبرز دور ابن سينا وابن رشد وابن الهيثم وابن البيطار وابن خلدون وجابر بن حيان وسواهم. وألقى محاضرة أخرى عن «الموقف في الشرق الأوسط من وجهة النظر العربية» في رابطة الموحّدين العلمانية في مدينة كمبردج بولاية ماساتشوستس في ٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٨.

وروت جريدة «مرآة الغرب» في عددها الصادر في ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٨ أن السيد «كوردل هل» وزير الخارجية الأمريكية استقبل وفداً من الأمريكيين من أصل عربي كان من جملتهم الدكتور خير الله، الذي ناب عن زملائه بإلقاء بيانٍ. استغرق نحو عشرين دقيقة «فكان تأثيره ظاهراً في وجه الوزير البشوش» وختم الخطيب العربي كلمته بأن طلب عدم تدخل الأمريكيين بجانب اليهود في قضية فلسطين قائلاً: «إن نهضتنا في الشرق الأدنى هي نتيجة التقاليد والمبادئ الأمريكية الأساسية التي تشرّبناها على أيدي المعلمين الأمريكيين وهي مبنيّة على روح آباء الجمهورية. أفيصّح لكم أن تهدموا ما شيّدته مدارسكم وبثته من روح الحرية على مدى مئة سنة، وذلك بأخذكم بيد أقلية يهودية تؤذن بأن تكتسح الأكثرية الساحقة من أهالي البلاد الأصليين؟»

وعند انتهاء أعضاء الوفد من طرح وجهات نظرهم ردّ الوزير عليهم بما طمأنهم قائلاً: «إنه لن يحيد عن الخطة التي رسمها وأعرب عنها في تصريحه الأخير، وهي أن أمريكة تهتم بمسائل ومصالح الأمريكيين فقط».

وعندما أصدر كتابه عن «الإسلام والنبي العربي» قرَّظه كثيرون، منهم جورج سارطون مؤرّخ العلوم، وفيليب حتّي، والدكتور سيد حسين الهندي، وماري هاسكل أستاذة جبران. وكان ممّا قاله الدكتور جورج سارطون الأستاذ بمعهد كارنجي في واشنطن العاصمة: «لعل هذا أجمل كتاب إسلامي ظهر في أمريكة حتّى الآن، إنه سيرة حياة النبي إلى جانب دراسة جيدة جداً عن التاريخ المبكر وعن عقيدة الإسلام». وقال عنه الدكتور حتّي: «إن الدكتور خير الله أسدى خدمة حقيقيةً للقارئ العام باللغة الإنكليزية، وذلك بتقديمه في أسلوب سلس وجهة النظر الإسلامية عن محمد وعن الدين الذي أرسى دعائمه. ونظراً لكثرة أسباب سوء الفهم في الغرب حول هذا الموضوع، فإن هذا الكتاب يعد مساهمة تدعو إلى الترحيب بها». كما قال عنه الدكتور سيد حسين أستاذ الحضارة الشرقية بجامعة كليفورنيا (وقد عرفته عندما جاءنا إلى القاهرة كأول سفير معتمد للهند بعد استقلالها): «إن هذا الكتاب يمثّل عرضاً شاملاً موثوقاً به لمبادئ الإسلام ولحياة مؤسسه العظيم وتعاليمه، وهو إلى جانب ذلك مكتوب بسلاسة في الأسلوب مع حسن إدراك يبعثان على الإعجاب».

أما كتابه عن جبران، فقد صدر بمقدّمة للأديب المهجري وليم كاتسفليس (وهو من أعضاء الرابطة القلمية) وقد روى فيه سيرة جبران ثم أثبت قصيدته الطويلة «المواكب» في نصّها العربي الأصلي وفي ترجمتها البديعة شعراً إلى اللغة الإنجليزية، وازدان الكتاب بمجموعةٍ منتقاة من اللوحات التي رسمها جبران، وكلّها ممَّا يندرج تحت تصنيف «الفن التجريدي». وأقول استطراداً: إن هيئة البريد اللبنانية لم تر في هذه الرسوم حرجاً، فجعلت منها مجموعة تذكارية بديعة أخرجتها تخليداً لجبران على طوابع بريدها.

وقبل صدور هذا الكتاب، عرض خير الله مخطوطته على سلّوم مكرزل صاحب جريدة «الهدى» النيويوركية، فتلقى منه رسالة تاريخها ٤ أيار/مايو ١٩٤٠ قال فيها: «بالرغم من قِصَر الفصل الذي كتبته عن جبران، أراك قد ألممت فيه بكل ناحية من تاريخ حياته الزمنية والروحية، فجاء في اعتقادي من خير ما كتب عن جبران لمن يريد الإلمام بتاريخ حياته بصورة معجلة... وأشكر لك عرضك عليّ مخطوطتك للمطالعة، وأحب أن أؤكد لك أني طالعتها بشوق واهتمام واستفدت كثيراً ممّا وجدت فيها من آثار البحث وشواهده المقدّرة».

أمّا كتابه الثالث «بعث جزيرة العرب» Arabia Reborn فهو يؤرخ للجزيرة العربية خلال سيرة موحّدها الملك عبد العزيز آل سعود ويتناول صوراً من حياة البداوة ثم من حياة النُقلة الحضارية التي عرفتها الجزيرة مع انفتاحها على العالم الخارجي دون أن يجور ذلك على تقاليدها وشخصيتها التراثية والثقافية والاجتماعية المتفرّدة، وقد وصف الجزيرة بأنها تنعم بالأمن والسلام أكثر من أي بقعة أخرى في العالم.

وقد تناول الشاعر الدكتور أحمد زكي أبو شادي هذا الكتاب بالتقييم فقال عنه: «إنه نافذة التاريخ التي أطلّ منها المؤلف والتي أتحفته بصورٍ رائعة نقلها إلينا بتصويره الأخاذ في بيان جميل، سواء أتناولت الحضارة العربية، أم الرسالة الإسلامية الإنسانية، أم الروح العربية الوثابة المصلحة، أم التطور التاريخي المدهش في توحيد القبائل العربية وتمدينها، أم التطور الحديث العجيب الذي أثمرته الحضارة الحديثة وكشوف النفط في الجزيرة، فأدّى إلى بعثها العظيم المتطوّر».

وقال أبو شادي عن الدكتور خير الله «إنه ترك المبضع وقد علت به السن، وامتشق القلم واللسان كاتباً وشاعراً وخطيباً ليعظ الأمة العربية ويبصّرها بماضيها المجيد وبحاضرها المؤلم، وليوحي إليها بمستقبل أفضل. وكان في كل هذا خلال أربعين عاماً ذلك المجاهد الغيّور والمكافح الجريء والأديب الناضج المعنيّ أولاً بإعادة الثقة إلى أبناء العرب برسالتهم الإنسانية، وثانياً بحثّهم على الاندماج في ركب الحضارة العالمية. . . . ومن ثمّة كتب وألّف وتحدث كثيراً بلغة مشرقة قلّ أن نظفر بمثلها بين ما خطته أقلام الشرقيين أو فاضت به ألسنتهم».

وهذا الوصف يكاد ينطبق على أبي شادي الذي هجر الطبّ إلى مآرب الأدب والثقافة والشعر وكافح بدوره مدافعاً عن أمتّه العربية بلسانيْه العربي والأمريكي.

وقد كان الدكتور خير الله حريصاً على ترجمة كتاب «بعث الجزيرة العربية» إلى لغة الضاد لفائده قرّائها، ونجح فعلاً في إنجاز هذه الترجمة (التي قمتُ بها بتكليف منه) ولكنّ لم يوفّق إلى نشرها، مع أنها كانت تمثل الأمنية الوحيدة التي

أعرب عنها في كثير من رسائله إليّ، إذ كان يقول: أريد أن أطبع هذا الكتاب ثم أموت، فهذه هي أمنيتي الغالية الوحيدة.

وكان الدكتور خير الله موهوباً في ترجمة الشعر العربي شعراً إلى اللغة الإنكليزية، فاجتمعت لديه مجموعة كبيرة من القصائد المترجمة لشعراء المهجر الشمالي الذين عرفهم واختلط بهم، وأعدّ كتاباً يحفل بهذه القصائد عنوانه «مُنشدون من شارع واشنطن» The Bards of Washington Street، ولكن لم يتسن له نشر هذا الكتاب وإنْ وافاني بنصوص كثيرة مخطوطة من هذه الترجمات ما زالت تحت يدي. وقد قال في رسالة منه تاريخها ٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٨: «إن أوراقي ومخطوطاتي موضوعة في سبعين صندوقاً من الكرتون، ولم أحظ ببعض الأشعار المترجمة لنسيب عريضة والدكتور حبيب إبراهيم كاتبة ومسعود سماحة ونعمه الحاج لأوافيك بها. كما أنه ترجم قصائد للمعري ومحيي الدين بن عربي وطاغور وبعض شعراء الهند.

وكان الدكتور خير الله جريئاً في نقد السياسة الخارجية الأمريكية تجاه العرب، وعندما رأى تخبط وزارة الخارجية في معالجة قضية فلسطين لافتقارها إلى الحقائق الناصعة، ولعدم دراية أعضاء الكنغرس بأوليائها، طالب بفتح روضة أطفال لرجال الكنغرس يدرسون فيها مبادئ حقوق الإنسان!.

كما كان صريحاً في مخاطبة أمّته العربية فقال في حديث له نشرته مجلة لبنانية (الشبكة في ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٧): «إن عبد الرحمن الكواكبي دعا العرب إلى القيام بثورة سلمية لاعتقاده في ذلك الحين بأنهم ضعفاء عسكرياً وفكرياً، لا سلاح لديهم، ولا علم بمستوى الدول الأجنبية الأخرى، ولذا راح يدعوهم إلى القيام بالشيء الوحيد الممكن تحقيقه، وهو الثورة السلمية... ولم يلتفت أحد من أبناء العرب إلى الكواكبي، بل سمعه شاب نحيل غائر العينيْن يلفّ جسده بشرشف أبيض اسمه المهاتما غاندي... وهكذا استفادت الهند من العرب، وما زال العرب يتخبطون بعماهم!».

ومن سوء الحظ أن مجلة «العالم العربي» لم تستطع الصمود لأكثر من عامين ونصف عام وصدر في أثناء هذه الفترة عشرة أعداد (منها عدد مزدوج) واضطر صاحبها إلى وقفها بعدما تكاثرت خسائره وديونه.

وكان طبيعياً أن يأسى عقلاء الأمّة العربية في أمريكة لتوقّف المجلة، فكتبت الأميرة نجلاء أبي اللمع معلوف مقالاً بعنوان «الأماني الضائعة باحتجاب مجلة العالم العربي الإنكليزية»، نشرته في جريدة الهدى النيويوركية في ٥ آب/أغسطس قالت فيه: أقلّب صفحاتها وأنعم الفكر بموادّها ورسومها، فلاحت لي من أبرز المجلّات إتقاناً، وأخلصها عروبة، وأغناها مادّةً، وأفضلها دعاية للقضية الفلسطينية، وعندما تساءلت عن سعة انتشارها وموقف مناصرة أبناء العروبة لها، أطرقت رأسي خجلاً أمام هجعة الأمة التي تغافلت عن مناصرة أكبر وأفعل دعاية لقضيتها في هذا المحيط».

واستطردت تقول: «اطلّعت من زمن على مقال باللغة الإنكليزية بقلم الدكتور جورج خير الله، وهو مقال ممتع عن الدعاية الصهيونية، حلّل فيه عقليتهم ونفسيتهم، وأعرب عن مكرهم وتفنّنهم بحجةٍ وجلاء وبلاغة اشتهر بها الدكتور خير الله. وكان لذاك المقال تأثير كبير في أوساط السياسة والاجتماع، فنشرته الجرائد في إنكلترة وكندة وأسترالية ونيوزيلندة وإفريقية الجنوبية نسبة لأهمية المقال وصحة تفكير كاتبه وقوة حجته وجلاء منطقه وصحة دعايته».

وتحدث بهذه المناسبة إيليا أبو ماضي فكتب في «السمير» يقول: «ما وقع نظري على الدكتور جورج خير الله مرّةً إلّا خُيِّل إليَّ أن الأمة العربية تطلّ عليَّ من ذلك الوجه الطلق البسّام، ما تكلم مرّة إلّا وقر في ذهني أني أسمع أصداء تلك الأماني التي تتلجلج بها نفس تلك الأمة. ومن الغريب أن رجلاً كالدكتور يحسن الإنكليزية كأحسن أهلها معرفةً بها لم تبدّل السنون ولا المراكز من نزعته القومية، بل زادت نفسه حنيناً إلى تلك البلاد وتعلّقاً بأهلها».

وقال عنه يونس بحري الصحفي الذي كان يجلجل بصوته المدوّي من راديو برلين طوال مدة الحرب العالمية الثانية مهاجماً الاستعمار الغربي في جريدته التي كان يصدرها في باريس باسم «العرب»: إنه «بتوقف مجلة العالم العربي عن الصدور ينقطع شريان عربي ثمين عن الجريان في وقتٍ يحتاج فيه العرب إلى أقل دعاية في ذلك الوسط الزاخر بخصوم العرب. والدكتور خيرالله علم من أعلام النهضة العربية الحديثة، ناضل في سبيل أمتّه بقلمه ولسانه في المهجر الأمريكي، فكان بحق حامل لواء التبشير بالعروبة والإسلام في هاتيك الأصقاع التي طغى عليها العجل الذهبي الذي له خوار».

وعندما أصدر الشاعر المهجري جورج صيدح الطبعة الثانية من كتابه الموسوعي «أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية» لاحظت أنه أغفل دور الدكتور خير الله، ونبهته إلى ضرورة تدارك ذلك في الطبعة الثالثة، فاستجاب مشكوراً لهذا التنبيه إنصافاً لهذا الرجل المغبون.

وأكاد أقول: إن لخير الله صِنْوَيْن مغبونين، أحدهما في كندة وهو الشيخ المناضل الدرزي محمد سعيد مسعود الذي سجّل تاريخ كفاحه في سبيل أمّته في كتاب ضخم باللغة الإنجليزية عنوانه «لقد حاربت وفقاً لعقيدتي» I fought As I Believed وهو يقع في أكثر من ٧٠٠ صفحة مثقلة بالوثائق. أما الصنو الآخر فهو الصحفي المصري قرياقص ميخائيل الذي عاش في إنجلترة أكثر من٥٠ عاماً كان فيها صوتاً مصرياً وعربياً مجلجلاً في جميع المحافل وعلى صفحات الصحف. وقد سجّل أعماله في سلسلة من الكتيبات عنوانها «للتذكار» Souvenir وفي مجموعة من الرسائل باللغة العربية. وكان الصحفي العجوز توفيق حبيب المحرّر بالأهرام قد نشر سيرة حياة قرياقص ميخائيل في عام ١٩٢٠ وسجل جوانب من حياته منذ ميلاده في صعيد مصر في عام ١٨٨٧ دون يمتّد به العمر لمتابعة مسيرته الوطنية حتى وفاته في عام ١٩٥٦.

وقد التقيت بالدكتور خير الله عدة مرات في رحلاته الكثيرة إلى البلدان العربية التي كان يستشعر بأنه لا يستطيع العيش إن لم يُقِمْ فيها شهوراً مديدة كل سنة. رجل مهيب الطلعة، جميل الصورة، فارع الجسم طولاً وعرضاً، يرخي لحية مهذبة تزيده مهابة، يتحدث بعاطفة عارمة لا يجد أفضل في التعبير عنها من القبلات والأحضان ودفء المشاعر. وعندما زرته في المرة الأخيرة في فندقه في القاهرة كان في زيارته الزعيم المغربي علّال الفاسي الذي جاء ليقدّم إليه نسخة من كتابه «النقد الذاتي». وقد سعد كلاهما إذْ اكتشفا بأن بين ثلاثتنا مودّةً قديمة. وقال لي الفاسي عند انصرافه: إن المغرب مدين بالكثير لهذا الرجل الذي زار بلادنا منذ الثلاثينيات، وملأ الصحف الأمريكية أحاديث عنها في وقت لم يكن الناس فيه على وعي بقضيتنا.

وفي رسالة من جورج خير الله تاريخها ٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٨ قال ما ترجمته: «لستُ في صحة طيبة، ولا أتوقع الشيء الكثير. وأحمد الله أنني عشت وأحببت وحاولت أن أكون ذا فائدة لأهلي. إنني راض بمصيري بلا خوف

ولا رهبة. وسيأتي يوم تفتح فيه أمنّا الأرض ذراعيها لتمنحنا الراحة. تلك هي سنة الحياة». ولقد كان يعاني من داء القلب، وعاودته نوبات المرض متكاثفة حتى وضعت حداً لحياته في ١٨ نيسان/أبريل ١٩٥٩ عن ثمانين عاماً كاملة. وبُعيد وفاته، رأت مجلة «ذي مسلم دايجست» التي تصدر في دربان بجنوب أفريقية تخصيص عدد تذكاري له (صدر في حزيران/يونيو ١٩٥٩) رثته فيه رثاءً جميلاً، ونشرت له آخر مقالَيْن مصورين أحدهما عن حضارة بلاد العرب والآخر عن الذين عمّروا المسجد الحرام.

هذه لمحة خاطفة عن رجل تتحدّث عنه أعماله، وإنْ صمت عن إنصافه المعاصرون.

❁ ❁ ❁

المستشرق جورج رنس

بغض النظر عن الأسباب والدوافع التي أغرت المستشرقين على ارتياد الجزيرة العربية قبل اكتشاف النفط والكتابة عن تاريخها وجغرافيتها من واقع المعاينة الشخصية، فالذي لاريب فيه أن هناك دراسات لها أهميتها في تاريخ الجزيرة خلّفها هؤلاء المستشرقون، الذين يعدّون الجيل الأوّل في هذا المضمار، وفي طليعتهم هربرت سانت جون فيلبي (١٨٨٥ ـ ١٩٦٠) الذي سمّى نفسه عبد الله فيلبي بعد إسلامه، وجوهن لويس بوركهارت (١٧٨٤ ـ ١٨١٧) الذي سمّى نفسه إبراهيم بن عبد الله، وتشارلس داوتي (١٨٤٣ ـ ١٩٢٦) وتوماس لورنس المشهور بلورنس العرب (١٨٨٨ ـ ١٩٣٥) والمستشرقة فريا ستارك (١٨٩٣ ـ ١٩٩٣) وبيرسي كوكس وآرنولد ولسن (ت ١٩٤٠) وهـ.ر.ب. ديكسون وجيرالد دي غوري وسواهم.

وعندما أصدر المستشرق فيلبي كتابه الموسوم «أربعون عاماً في البريّة» سجّل فيه شهادته عن المستشرق جورج رنس George S.Rentz قائلاً: «إنه الممثل الذي يتصدر بحق الجيل الحالي في دراسة جزيرة العرب الحقيقية التي ما زالت قادرةً على أن تعيش وراء واجهةٍ من التغرّب المتزايد». ولكن إذا كان الجيل الأوّل من المستشرقين لم يسلم من التشكيك في دوافعه وأسبابه، فلا أظن أن هذا ينطبق على جورج رنس الذي عرفته عن قرب سنواتٍ طويلة وساعدته في بعض أعماله منذ ما تزوج زميلتي الجامعية المصرية صوفي باسيلي (ت١٩٩٧)، فعرفت فيه على مدى العمر إخلاصاً للعلم وموضوعية في البحث، وحرصاً على استقاء معلوماته من أوثق مصادرها دون أي محاولة لتلوينها خدمةً لأي هدف خاص أو خبيء.

عندما عرفت جورج رنس كان يدير وحدة الترجمة في مركز للاستعلامات أقامته الحكومة الأميركية في القاهرة في أثناء الحرب العالمية الثانية تسهيلاً لمهمة

الصحفيين الذين كانوا يعتمدون على نشراته اليومية والدورية في الوقوف على البيانات الرسمية المتعلقة بالحرب، ثم في متابعة مشروعات ما بعد الحرب كالحريات الأربع ومشروع مارشال وإعلان ميثاق الأمم المتحدة في سان فرنسيسكو ومفاوضات إنشاء البنك الدولي وصندوق النقد الدولي في دمبارتن أوكس، وهلم جرًا. وكان من عادة الحكومة الأمريكية ألا تُعفي أحداً من مواطنيها من أداء واجب التجنيد في أثناء الحرب ولكنها كانت تستعين بذوي الخبرة الخاصة في أعمال إدارية مرتبطة بالمجهود الحربي، ولمّا كان جورج رنس ضليعاً في اللغة العربية التي تخصص فيها وفي قواعدها وآدابها في جامعة كليفورنية، فقد أُسندت إليه مهمّة إدارة وحدة الترجمة في ذلك المكتب.

وبانتهاء الحرب صفّى المكتب أعماله، وعاد جورج رنس إلى الولايات المتحدة لاستكمال دراسته العليا فظفر بدرجة الماجستير من جامعة بيركلي، وكان موضوع رسالته «امبراطورية المماليك في القرن الرابع عشر» وظفر بدرجة الدكتوراه من نفس الجامعة في عام ١٩٤٨ واختار لأطروحته موضوع «تاريخ الشرق الأوسط والدراسة العربية المتقدمة».

عاد جورج رنس بعد ذلك إلى الشرق الأوسط فقضى ثلاث سنين في التدريس في حلب، ثم التحق بشركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) في المملكة العربية السعودية حيث عمل في وحدة البحوث العربية التي لم يلبث أن تولّى رياستها. وكانت للوحدة مكتبة محدودة المصادر، فقرّر أن يجعل من هذه المكتبة أوفى وأشمل مكتبة عن جزيرة العرب وحضارتها وتاريخها ممّا اقتضاه القيام برحلات مكثفة شرقاً وغرباً لتصوير المخطوطات والمراجع المودعة في المكتبات الوطنية والجامعية والخاصة وكذلك الخرائط التي رسمها الرحّالة والباحثون، وعلى يديه أصبحت هذه المكتبة المرجع الأوّل والأوسع لكل ما يتعلق بالجزيرة العربية.

كما تبيّن أن الخرائط المتاحة لجزيرة العرب تكاد تكون بدائية، فجنّد مجموعة من الخبراء في رسم الخرائط وتولى بنفسه تحقيق أسماء جميع المدن والقرى والجبال والوهاد، وهي أسماء تعرّضت للتحريف، وتوّج هذا الجهد بإصدار أول خريطة حائط موثّقة للجزيرة العربية في طبعتين، إحداهما عربية والثانية إنكليزية، وأصبحت هي الخريطة المعتمدة التي على أساسها رسمت

الخرائط الجديدة لتوضح الطرق التي أنشئت والموانىء التي أقيمت والتوسعات التي جرت في النشاط النفطي والعمران الذي زحف إلى المناطق الصحراوية، وحتّى الربع الخالي والمطارات التي بنيت وما إليها من البيانات الضرورية في أحدث الخرائط.

وفي عام ١٩٥٠ أصدرت شعبة البحوث بإشرافه كتاباً عنوانه «المناطق الشرقية من مقاطعة الحسا»، ورأى الدكتور رنس أن هذا الكتاب يحتاج إلى استكمال مادته، فأصدر بعد عامين كتاب «عُمان والساحل الجنوبي للخليج» في طبعتين إحداهما عربية والأخرى إنكليزية. وهو كتاب قال عنه المستشرق فيلبي: «من الأمثلة البارزة على المواد العلمية، ذلك المجلد الذي أُعدّ ونشر باللغتين الإنكليزية والعربية بشعبة البحوث في أرامكو بإشراف الدكتور جورج رنس لتوزيعه توزيعاً محدوداً، وهو يدور حول القسم الجنوبي الشرقي في جزيرة العرب، بما في ذلك إقليم عُمان وواحدة البريمي المتنازع عليها».

وكان النزاع على واحة البريمي قد احتدم بين المملكة العربية السعودية من جهة ومسقط وأبو ظبي من جهة أخرى، فتقرر عرض النزاع على التحكيم الدولي في جنيف، واختارت الحكومة السعودية عبد الرحمن عزام باشا (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦) الأمين العام الأول لجامعة الدول العربية ليكون وكيلها وممثلها في هذا النزاع. وهنا استُعين بالدكتور جورج رنس، بحكم إلمامه الواسع بالتاريخ وبسلالات القبائل، ليعدّ المذكرة الرسمية التي تقدم إلى محكمة التحكيم، فأخرج هذه المذكرة في ثلاثة أجزاء ضخام في طبعتين بالعربية والإنكليزية وقُدمت إلى المملكة في الحادي والثلاثين من تموز (يوليو) ١٩٥٥.

وأقول بين عضادتين: إنني عندما زرت المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية في عام ١٩٥٥ لاحظت أن الدكتور رنس اختار لمكتبه أن يكون في الدّمام عوضاً عن الظهران، وهو المقر الرئيسي للشركة، ووجدت في غرفته عدداً من شيوخ القبائل وهو يتحدّث معهم باللغة الفصحى، ويجتهد في فهم لهجاتهم المختلفة، ولمّا سألته عن سرّ اهتمامه بهؤلاء، قال: إنه يدرس تاريخ القبائل المختلفة التي عاشت في منطقة الخليج، وإنه حريص على الوقوف على هذه المعلومات من كل منهم شخصياً نُشداناً للدقة، وأكد لي أنه اجتمع بمئات منهم فسجل بعضها في كتاب «عُمان» والبعض الآخر في مذكرة

التحكيم حتى تكون جميع الأسانيد موثقة من مصادرها الحيّة.

ولاحظ جورج رنس أن كثيرين من مواطنيه الأمريكيين يجهلون تاريخ الشرق الأوسط والمملكة العربية السعودية، وأن هناك حاجةً ماسّة إلى كتاب جامع مبسّط يعرّف بهذه المنطقة من العالم، فأصدر كتاباً عنوانه ARAMCO HANDBOOK طبع طباعة فاخرة في هولندة من قَطع الأطالس وزوّد بمجموعة كبيرة من الصور التي تمثّل حضارات الشرق الأوسط وآثاره وتاريخه ومعالمه وكل ما يتعلق به. وكان هذا الكتاب ـ على ضخامته شكلاً وموضوعاً ـ يُهدى إلى الأفراد والهيئات في الولايات المتحدة وكذلك في البلدان العربية، وكان قد رغب إليّ في نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية، فرحّبت بهذه الرغبة، ولكن حالت دونها عقبات لا أدْري كنهها.

لم يشأ جورج رنس أن يبقى بعيداً عن العمل الجامعي طويلاً، فبينه وبين عام ١٩٧٢، وهو موعد بلوغه سن التقاعد؛ لأنه من مواليد عام ١٩١٢ في بنسلفانيا، شوط طويل، فاكتفى بسبعة عشر عاماً قضاها في هذه الشركة، وعاد إلى أمريكة في عام ١٩٦٢ حيث عمل أميناً لمجموعة مقتنيات الشرق الأوسط في جامعة ستانفورد، ومحاضراً في التاريخ الإسلامي، وعضواً عاملاً في عدد كبير من الجمعيات العلمية الأميركية والبريطانية، وعضواً في مجلس أوصياء الجامعة الأميركية بالقاهرة. وفي هذه الفترة، نشر كتاباً عنوانه «الامبراطورية الوهابية الأولى» وأعدّ دراسات نشرها في المجلات الرصينة عن «الدراسات العربية في أميركة»، و«البحث عن اللآليء في الخليج» و«ملاحظات على كتاب ديكسون المعنون (عرب الصحراء)»، و«المراجع الخاصة بالمملكة العربية السعودية»، وغيرها.

وبقي يتردد على الشرق الأوسط بعد ذلك، سواء لاعتبارات خاصة بزوجته المصرية وبناته الثلاث اللائي ولدن في القاهرة، وقطعن بعض المراحل الدراسية فيها، وأطلق عليهن أسماء شبه عربية، هي مورين وتانيا (لأنها كانت الثانية في الميلاد) وجنين (لأنها الصغرى). وإذا كانت مورين وتانيا تزوجتا من أمريكيْن، فقد تزوجت جنين من زميلها في الجامعة محمد ياسر التلّ وتقيم حالياً في الأردن، أو كان يزور المنطقة لاعتبارات خاصة ببحوثه وأعماله الجامعية. وقد التقيت به للمرة الأخيرة في طرابلس الغرب عام ١٩٧٠ وكان يتفقد الآثار الرومانية في ليبية.

وتوفي جورج رنس في عام ١٩٨٦ عن أربعة وسبعين عاماً.

وقد روت رلى الزين مراسلة «الحياة» في باريس نقلاً عن مصادر في سان فرنسيسكو (عدد ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٣) أن المكتبة الخاصة لجورج رنس بيعت بالمزاد بثمنٍ إجمالي قدره ٢٤٠ ألف دولار، لأنها كانت تضمّ مجموعة كبيرة من الكتب المتخصصة في تاريخ الجزيرة العربية. وقالت: إن كتاب لويس بيلي المعنون «رحلة إلى الرياض» والمطبوع في لندن عام ١٨٦٦ بيع بمبلغ ٢٥ ألف دولار، وبيع كتاب جوفاني بلزوني عن «الآثار الفرعونية في مصر والنوبة» الذي طبع في لندن عام ١٨٢٠ بتسعة آلاف دولار. وبيع كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية» لنيبور الذي صدرت طبعته الأولى باللغة الفرنسية في مجلدين عام ١٧٧٤ بخمسة آلاف دولار. ووصل سعر كتاب مايلز عن «قبائل وبلدان الخليج» بجزئيه المطبوع في لندن عام ١١٢٠ إلى أربعة آلاف دولار. وهناك كتاب نادر من الحجم الكبير عنوانه «الجمل» يحتوي على رسوم ملّونة من تأليف إيليا والتون وجرى طبعه في لندن عام ١٨٦٥ فبيع بثمانية آلاف دولار. وبيعت خريطة من تخطيط الكولونل دكسون عام ١٨٨٥ عنوانها «الخريطة البحرية لشبه الجزيرة العربية» بسبعمائة دولار.

وواضح من الخبر الذي استقته رلى الزين من مصدر في سان فرنسيسكو أن محتويات خزانة جورج رنس من نفائس الكتب بيعت فرادى ولم تبع كمكتبة متخصصة تقتنيها إحدى الجامعات الأمريكية أو العربية ـ وهي الأحقّ باقتنائها. صحيح أن الذين اشتروا هذه الكتب عرفوا قيمتها وأدوا أثمانها العالية بكل رضا، ولكن. ألم يكن الأفضل أن يخصص للخزانة كلها جناح في جامعةٍ عربية يحمل اسم العالم الذي جمع فرائدها من جميع أنحاء الدنيا وقضى كل عمره في الحفاظ عليها وإثرائها؟.

كان جورج رنس جميل الصورة معتدل القوام على شيء من القِصَر، يزدان وجهه بشارب مهذّب، ويتكلم ببطء ويعامل مرؤوسيه بمودّة أبويّه كريمة. وقد استطاع أن يربّي جيلاً من شباب الأمريكيين المولعين بتاريخ الجزيرة العربية، فكانوا له عوناً في أبحاثه، وتوزّعوا بعد ذلك في الجامعات والمعاهد المختلفة. وكان له صبر عجيب على البحث، ولا يقنع إلّا إذا اطمأن تماماً إلى صحة النتائج التي انتهى إليها.

ويقول كارل تويتشل مهندس المعادن الأمريكي الذي كان صديقاً شخصياً للملك عبد العزيز آل سعود ولوزير ماليته عندما كان يعمل استشارياً للحكومة السعودية في شؤون التعدين قبل عام ١٩٤٦. يقول في كتابه عن المملكة العربية السعودية: إن اسم واحة الخرج يستمدّ من الخراج كما ذهب إلى ذلك جورج رنس الذي اعتبره مصدر ثقة.

وطبعاً واجهت جورج رنس في مباحثه المختلفة مشكلة رسم الأسماء العربية باللغة الإنجليزية، ولا سيما لخلوّ تلك اللغة من أحرف الضاد والظاء والذال والعين والصاد والطاء وما إليها. فوضع جورج رنس منهاجاً لرسم هذه الأسماء درج هو عليه طول الوقت، وألزم معاونيه باستخدامه مراعاةً للتجانس المنشود. فقد كان دأبه دائماً أن يرسّي القواعد، وأن يكفل للجميع احترامها. وقد جادلته غير مرّة في التعبيرات التي يستخدمها لأداء المصطلحات الإنجليزية، كقوله الفُرضة؛ معنى الرصيف البحري Terminal وقوله مواعين بمعنى الصنادل barges، ولكنه كان يقول لي: إن العبارات التي وضعها استقرّت فعلاً وأصبحت معهودة حتى في التداول اليومي، ولا حاجة إلى تغييرها لأن كل تغيير يحدث بلبلةً لا ضرورة لها.

وأقرّ بأنني أفدت كثيراً من توجيهات جورج رنس عندما كان يسند إليّ ترجمة بعض أعماله، ولا أظنه كان ـ في الثقة التي أولاني إياها ـ متأثراً بزمالتي لزوجته في المرحلة الجامعية.

❁ ❁ ❁

الشاعر المهجري جورج صيدح

فقد الشعر المهجري في عام ١٩٩٤ شاعرين من كبار الباقين على قيد الحياة من أعلامه، وأولهما الشاعر زكي قنصل (١٩١٦ ـ تموز/يوليو ١٩٩٤) في الأرجنتين الذي آلت إليه مصاير الشعر العربي المهجري بعد رحيل أبرز رموزه، وحقّ له أن يقول عن نفسه:

أنا سَيِّدُ الشُّعَرَاءِ غَيْرُ مُدَافَعٍ أَمْشِي فَتَمْشِي خَلْفِيَ الشُّعَرَاءُ!

إذ كان قد انتقل إلى الرفيق الأعلى إيليا أبو ماضي (١٨٨٩ ـ ١٩٥٧) وميخائيل نعيمة (١٨٨٩ ـ ١٩٨٨) والشاعر القروي رشيد سليم الخوري (١٨٨٧ ـ ١٩٨٤) وشقيقه الشاعر المدني قيصر سليم الخوري (١٨٩١ ـ ١٩٧٧) وفوزي المعلوف (١٨٩٩ ـ ١٩٣٠) وشقيقه شفيق معلوف (١٩٠٦ ـ ١٩٧٦) وإلياس فرحات (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦) وعقل الجر (١٨٨٦ ـ ١٩٤٧) وشقيقه شكر الله الجر (١٨٩٨ ـ ١٩٧٥) ونـدره حـداد (١٨٨١ ـ ١٩٥٠) ونـسـيـب عـريـضـة (١٨٨٧ ـ ١٩٤٦) ونعمة الحاج (١٨٨٩ ـ ١٩٧٨) وجورج صيدح (١٨٩٣ ـ ١٩٧٨) وميشال مغربي (١٩٠٢ ـ ١٩٧٨) وأحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥) الذي كان يمثل آخر جيلٍ من المهجريين.

أما الشاعر الثاني الراحل فهو نبيه سلامة الذي توفي في البرازيل، وهو شاعر مجيد برغم إقلاله، ولا نعرف له إلّا الديوان الضخم «أوتار القلوب».

وأكاد أجزم بأن عصر الشعر المهجري قد انتهى أو آذن بالزوال، ولم يبق من آخر أبنائه إلّا قلّة من أمثال الأب برناردس القزّي (١٩١٨ ـ) وجورج رشوان، وإلّا الشاعر المصري خليل جرجس خليل الذي هاجر من نحو عشر سنوات إلى سان فرنسيسكو وكذلك الشاعر جورج يوسف شدياق المقيم في فنزويلا.

ولقد كان الشعر المهجري يتمتّع بمنزلةٍ عالية من الإعجاب على الصعيد

العربي كلّه منذ ما نُشرت أول نماذج منه في كتاب «بلاغة العرب في القرن العشرين» في عام ١٩٢٤ لمؤلفه محيي الدين رضا (ابن شقيق صاحب «المنار» الشيخ محمد رشيد رضا)، وأثنى عليه كثرة من كبار النقّاد، في طليعتهم عباس محمود العقاد، والدكتور محمد مندور الذي أطلق عليه اسم «الشعر المهموس» والدكتور أحمد زكي أبو شادي، ومصطفى عبد اللطيف السحرتي، والدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، ولم تُوجّه إلى الشعر المهجري مطاعن جادّة في أي وقت إلى أن انتهزتْ مؤسسة فرنكلن فرصة ظهور كتاب أستاذنا محمد عبد الغني حسن «الشعر العربي في المهجر»، وتحيّنت فرصة إقامة الشاعر جورج صيدح في القاهرة ودعته لإلقاء محاضرة عن الشعر المهجري في القاعة الشرقية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة في عام ١٩٥٦ وكنت من شهودها، وهي المناسبة الوحيدة التي قابلت فيها جورج صيدح عندما تكرّم بتقديمي إليه صديق الطرفين أكرم زعيتر (١٩٠٩ ـ ١٩٩٦). وتواصلنا بعد ذلك بالبريد إلى أن فرّق الموت بيننا. وقد أشار صيدح إلى هذا اللقاء في قصيدته «العسجدية» حيث قال:

يَـوْمَ الْـتَـقَـيْـنَـا بُـرْهَـةً فِـي رَدْهَـةٍ ثُـمَّ افْـتَـرَقْـنَـا، أَصْـيَـداً عـن أَصْـيَـدِ
فَإِذا الغَرِيْبُ إلى الغَرِيْبِ مُقرَّبٌ وإذا الـمُـرَاسِـلُ بـالـمُـرَاسَـلَ يَقْـتَـدِي

اتخذ جورج صيدح موقف المباهي بالشعر المهجري، فعرض أوجه التجديد فيه وقال: إنه أدب عربي البزار، عربي الأرومة، فرع عريق من دوحة العروبة حملته الرياح إلى مشاتل العالم الجديد، فزكا في كل تربة، وأينع تحت كل سماء. طبعت شمس الغرب ألوانها على أوراقه، أما لُبّه فيحيا على إشعاع الشرق، وقلبه يختلج بنسمات الصحراء. وألمح إلى أن التفوق في الشعر اقترن في مصر بعهد شوقي وحافظ وصبري ومطران، ثم نسب التفوق لشعر المهجر منذ زوال ذلك العهد.

واتخذ عزيز أباظة موقف المهاجم للشعر المهجري، فقال: إن شعراء المهجر ليسوا فلاسفة، وإن شعرهم لا يسمى عربياً بل يسمّى مهجرياً، مثله مثل بعض الشعر المصري المعاصر، فهو ليس عربياً بل هو مصري، وإن من المهانة لشوقي أن يرد اسمه في معرض الكلام عن شعر المهجر. وقال: إن المهجريين ضاقوا بأوزان الشعر، فلجأوا إلى الشعر الحرّ، وقد أسماه النثر المشعور، وإنهم

ازدروا أثواب الشعر مع أنها مفخرة الديباحة العربية، وبدونها لا روعة للشعر ولا تأثير.

وعلّق محمد زكي عبد القادر على المناظرة بأن قال: إن لضعف اللغة عند أدباء المهجر مبرّراته الوجيهة، وهي لا تحدّ من فضلهم حتّى ولو قصّروا في الأداء عن الشعراء المقيمين.

ثم أنشد محمد عبد الغني حسن نماذج من شعراء المهجر.

وكان من الممكن أن تنتهي المناظرة عند هذا الحدّ على اعتبار أنها مناظرة أدبية ليس فيها غالب ومغلوب، ولكن «الأباظيين» وحلفاءهم نقلوها بعد ذلك إلى الصحف المصرية، وانفردوا بالساحة، فامتلأت بمقالات عنيفة ضد الشعر المهجري وضد محاميه جورج صيدح، حتى إن الشاعر العوضي الوكيل، وهو من شيعة الأباظيين، نظم قصيدة موجهةً إلى صيدح وصف فيها الشعر المهجري بأنه «رطانة المستعمر» حيث قال:

أحببتُ فِيْكَ الشِّعْرَ صافِي الجَوْهِرِ ... وَكَرِهْتُ فِيْكَ تَعَصُّباً لِلمَهْجَرِ
لكَ في «النَّوَافِل» رَنّةٌ مَسْمُوْعَةٌ ... تَجْري إلى سَمْعِ الخُلُوْدِ وتَجْتَرِي
دَافَعْتَ، عَمَّنْ شِعْرُهُمْ ذو لَكْنَةٍ ... والسَّالِكِيْنَ سَوَى الطَّرِيْقِ الأَيْسَرِ
والنَّاطِقِيْنَ بغيرِ مَنْطِق يَعْرُبٍ ... وَبِغَيْرِ ذَوْقٍ يَعْرُبِيٍّ أَطْهَرِ
تَأْبَىٰ العُرُوْبَةُ أنْ يكونَ لِسَانُهَا ... مُسْتَعْمَراً بِرَطانَةِ المُسْتَعْمِرِ

وتحوّل العوضي الوكيل بعد ذلك إلى إيليا أبي ماضي فقال في قصيدة أخرى:

وَفِي شِعْرِهِ هَفَوَاتُ اللُّغَىٰ ... تَرَاهُنَّ يَمْلأْنَ ما قَدْ كُتِبْ
فإنْ تَسْأَلُوْنِيَ عَنْ قَدْرِهِ ... فَبَيْنَ الرِّضَاءِ وَبَيْنَ الغَضَبْ

وانبرى ثروت أباظة يدافع عن عمّه وحميّه عزيز أباظة، فكتب مقالاً في مجلة «الرسالة الجديدة» ساير فيه الحملة على الشعر المهجري، ممّا استفزّ جورج صيدح، فبعث إليَّ بأبياتٍ أنشرُها للمرة الأولى - وإنْ كنت لا أوافق على قوله إن مصر كانت جحيماً - مع الاعتذار للصديق ثروت أباظة:

كُلُّ خَصْمٍ لِلْعَهْدِ في مِصْرَ أَمْسَى ... لِكِرَامِ المُهَاجِرِيْنَ خَصِيْمَا

لَمْ نَزَلْ نُضْرِمُ الحَمَاسَةَ حَتّى أَكَلَتْ ثَوْرَةُ الشَّبَابِ الهَشِيْمَا
فَاسْتَشَاطَ «الباشا» القَدِيْمَ لأنَّا قَدْ قَتَلْنَا لَهُ الغُرُوْرَ القَدِيْمَا
وَتَمَنّى لَوْ عادَ «بَيْكاً» وعادَتْ مِثْلَمَا كانَتْ البِلادُ جَحِيْمَا
لَمْ نَجِدْ قَبْلَهُ «عَزِيْزاً» ذَلِيْلاً يَقْتَنِي (ثَرْوَةً) فَيُمْسِي عَدِيْمَا
يَا لَهَا ثَرْوَةٌ إذا ثَمَّنُوْهَا لا يُسَاوِي دِيْنَارُهَا مَلِّيْمَا!

وتصدّى للمهاجمين، المهجري المنشئ البليغ العبارة نظير زيتون، فردّ عليهم بمقالٍ مسهب نشره في مجلة «الأديب» محاولاً تهدئة غضب جورج صيدح وكل المهجريين.

وكان اعتقادي الشخصي أن حملة عزيز أباظة صدرت عن قلّة إلمام بالشعر المهجريّ ولا سيما شعر الشوامخ، وأنها استندت إلى مطالعات سريعة لعدم توافر دواوينَ المهجريين في مصر، وربّما استندت أيضاً إلى تعصّب إقليمي على اعتبار أن مهد الشعر هو الشرق لا الغرب. وكنتُ بحكم اتّصالي الوثيق بكثيرين من شعراء المهجر أتلقّى نسخاً مكرّرة من دواوينهم، فهيأت مجموعة اشتملت على دواوين إلياس فرحات، والشاعر القروي، وزكي قنصل، ورشيد أيوب، وأهديتها إلى عزيز أباظة. واتفق بعد ذلك أن كلّفني تليفزيون الظهران التابع لأرامكو بأن أُجرى حديثاً أدبيّاً مع الشاعر عزيز أباظة، فانتهزت الفرصة وسألته عن رأيه في الشعر المهجري، وعمّا إذا كان ما انفكّ يعتقد بأنه ضعيف الأداة والتعبير، فتراجع عن رأيه الفارط القاطع، وقال ما معناه: إن شأن شعر المهجر كشأن الشعر في كل مكان، فيه القمم وفيه السفوح، ومن الحقّ أن نعترف للمجيدين بإجادتهم، وألّا نغمطهم حقّهم، وقد حرصتُ وقتها على نقل هذا الكلام إلى جورج صيدح في باريس حيث آثر الإقامة إلى أن أدركته الوفاة في عام ١٩٧٨.

تجدّد غضب جورج صيدح عندما أصدر الدكتور عيسى الناعوري الطبعة الثالثة من كتابه «أدب المهجر» عام ١٩٧٧ حيث انتهى من حديثه عن صيدح إلى القول: «على أن ممّا يؤسف له أن صيدح - مثل القروي وفرحات ومَنْ بقي من شيوخ المهجر - لم يعد يستطيع أن يقدّم معنى جديداً، ولا شعراً نابضاً بمثل الحيوية القديمة، ولا سيما في وطنياته التي أصبحت تغلب عليها الخطابية والعنترية وكذلك النثرية والركاكة... وفي قصائده من النثر الركيك ومن العنتريات

الخطابية شيء كثير، ممّا يدل على أن عهد الشعر الجيّد قد ذبل وانتهى أمره».

كما ختم الناعوري حديثه عن الشاعر إلياس فرحات بقوله: «وهذا دليل على أن أدب المهجر قد مات أكثره في الخمسينيات، وما بقي منه شاخ مع شيوخه وأصحابه، وأصابه الهرم، إذ فقد زهوته ولونه».

ولمّا قرأ صيدح هذه الأحكام، وافاني بقصيدة من تسعة أبيات في هجاء الناعوري كتمتُ أمرها مراعاةً لصداقتي للطرفين، وما زلتُ أرى في عنف عباراتها ما ينهاني عن نشر نصّها الكامل، فأجتزئ بأخف أبياتها:

قُلْ لِعِيْسَى «القَدِيْمِ» إنّي مُحِبٌّ ... أَتَعَامَىٰ عَنْ «الجَدِيْدِ» المُرَائِي
لَيْتَ طَرْفَيَّ أُغْمِضَا قَبْلَ يومٍ ... فِيْهِ بَانَتْ عَدَاوَةُ الأَصْدِقَاءِ!

ولد جورج صيدح في دمشق عام ١٨٩٣ حيث درس في معاهدها الابتدائية، ثم توجّه إلى لبنان حيث التحق بكلية عينطورة التي تخرج منها عام ١٩١١.

وفي عام ١٩٢٥ نزح إلى مصر، وأقام فيها عامين، زار بعدهما أوربة حيث تزوّج من سيدة فرنسية قبل أن يهاجر هجرةً نهائية إلى فنزويلا، ثم إلى الأرجنتين. اشتغل في المهجر بالتجارة كمهنة يرتزق منها وإنْ شدّته مباهج الأدب، فأنشأ مجلة «الأرزة» التي كان يوزّعها بالمجان على الجالية العربية في فنزويلا، ولمّا قصد الأرجنتين في عام ١٩٤٧ أنشأ جمعية «الرابطة الأدبية» ومجلّتها. وبعدما حقّق أوطاره من التجارة قرّر العودة إلى الوطن في عام ١٩٥٢ فتوجّه أولاً إلى سورية، ولكنه وجد نفسه غريباً بعدما تغيّرت الدنيا، ولم يلبث أن قصد لبنان حيث أقام بين عامي ١٩٥٢ و١٩٥٩. وتلقاء إلحاح زوجته الفرنسية هاجر إلى فرنسة واتخذ منها دار إقامة.

أما كتبه المنشورة فهي ديوان «النوافل» الذي صدر في فنزويلا عام ١٩٤٧، وديوان «نبضات» الذي طبع في باريس عام ١٩٥٣ وديوان «حكاية مغتَرب» الذي صدر في بيروت عام ١٩٦٠، ثم كتاب «أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية» وهو أصلاً مجموعة محاضرات ألقاها الشاعر صيدح في معهد الدراسات العربية العالية، وقام المعهد بطبعه في عام ١٩٥٦ ثم طبعه مرّتيْن في بيروت في عام ١٩٥٧ و١٩٦٥ في طبعتين منقّحتين مزيدتين، وأعدّ لطبعة رابعة أوسع تنقيحاً وزيادة ولكن حالت أحداث لبنان دون نشرها، فعهدت بها أسرة صيدح بعد وفاته

إلى الدكتورة اللبنانية تغريد البيطار المدرسة بالجامعة اللبنانية فرع الجنوب والتي ظفرت من باريس بدرجة الدكتوراه في أطروحة عقدتها على صيدح لتقوم بنشرها متى تهيأت لذلك الظروف، ويبدو أنها لم تتهيأ بعد. ولكن طبعة رابعة من الكتاب صدرت في دمشق بإشراف عيسى فتوح وبمقدمة ضافية كتبها لها.

كما أصدر صيدح ديوانيْن صغيرين بعد النكسة هما «شظايا حزيران» عام ١٩٧١ و«شظايا أيلول» في نفس السنة، وشرع بعد ذلك في نشر «ديوان صيدح» في أربعة أجزاء فلم يصدر منه إلّا جزءان في عامي ١٩٧٢ و١٩٧٣.

ودواوين صيدح المنشورة لا تضم كل شعره، ولا تضمّ بالتالي أصداء شعره من معارضات أو مناقضات. فمن ذلك مثلاً أنه فوجئ وهو ما زال في بونس أيرس عام ١٩٤٩ بشائعة أطلقها البعض مؤدّاها أنه لقي وجه ربه، فنظم قصيدة في هذه المناسبة عنوانها «يا نُعاتي» قال فيها:

يـا مُـجِـيْـرِي مِـنَ الـنُّـعَـاةِ ... رُسُـلِ الـمَـوْتِ فِـي الـحَـيَـاةِ
سَـابَـقُـوا ربَّـهُـمْ عَـلَـىٰ ... أَجَـلٍ فـي الـكِـتَـابِ آتِ
مَـوْعِـدٌ فِـيْـهِ يَـسْـتَـوِي ... ذو لَـجَـاجٍ بِـذِي أنـاةِ
يـا لَـهَـا مِـنْ رِوَايَـةٍ ... شُـؤْمُـهَـا حـاقَ بـالـرُّوَاةِ
عَـظَّـمَ اللهُ أَجْـرَهُـمْ ... وَوَقَـاهُـمْ أَذَى الـنُّـعَـاةِ

واتفق أن كان الأديب الشاعر إلياس خليل زخريا (١٩١١ ـ ١٩٨٦) في بونس أيرس عندما انطلقت هذه الشائعة، فنظم بلسان صيدح قصيدةً قال فيها:

قَـدْ نَـعَـوْنِـي وَلَـمْ أَمُـتْ ... أَنَـا مَـا زِلْـتُ فـي الـحَـيَـاةِ
لِـي خَـطْـوٌ عَـلـى الـعَـشِـيِّ ... وَرفٌّ عـلـى الـغَـدَاةِ
أَزْرَعُ الـوُرُوْدَ فـي الـدُّرُوْبِ ... ولا أَتَّـقِـي الـجَـنَـاةِ

وبُعيد النكسة نشرت جريدة «الحياة» كلمة بعنوان «واشكيباه» احتجاجاً على تدنيس اليهود للمساجد الإسلامية جاء في ختامها: «أين شكيب أرسلان يطلق الصرخات من جنيف فتتألّب على صوته الشعوب الإسلامية في جميع الأقطار؟».

فأنطقت هذه العبارات الحماسية لسان الشاعر بقصيدة يغلفها القنوط والتشاؤم جاء فيها:

رِمَمٌ نَحْنُ، دَعْ شَكِيْباً وَهَمَّهُ قَاصِفُ الرَّعْدِ لا يُحَرِّكُ رِمَّهْ
حَشْرَجَاتُ الإِبَاءِ ضَاعَ صَدَاهَا في كُهُوْفِ المَطَامِعِ المُذْلَهِمَّهْ
رَحِمَ اللهُ عَهْداً كَانَ فِيْهِ قَوْلَةُ الحَقِّ لا تُشَكِّلُ تُهْمَهْ

وختم قصيدته بقوله:

يَا حُقُوقَ الإِنْسَانِ لا تَشْمَلِيْنَا نَحْنُ قَوْمٌ نَبِيْعُ حَقّاً بِلُقْمَهْ

فانبرى الشاعران عادل الغضبان ومحمد عبد الغني حسن للردّ على صيدح. فقال الغضبان في قصيدة أجتزىء منها بالأبيات التالية:

صَيْدَحَ الأَيْكِ، تِلْكَ أَغْرَبُ نَغْمَهْ سَامَتِ العُرْبَ تُهْمَةً أي تُهْمَهْ
وَأَحَالَتْهُمُو عِظَاماً رَمِيْماً غَطَّتِ الأَرْضَ رِمَّةً جَنْبَ رِمَّهْ
وَنَفَتْ عَنْهُمُوْ الكَرَامَةَ حتَّى لَيَبِيْعُوْنَ كُلَّ حَقٍّ بِلُقْمَهْ
عَمْرُكَ اللهُ يا أُخَيَّ تَمَهَّلْ إنَّ في رَاحَتَيْكَ مُهْجَةُ أُمَّهْ

أما عبد الغني حسن فقد ردّ على صيدح بقصيدةٍ أنتقي منها الأبيات التالية:

لا تلمها في الحادثات الملمَّة إنها أمّةٌ وأية أمّه
كَيْفَ لا يَحْمِلُ الحَوَادِثَ شعبٌ عَرَبِيُّ السِّمَاتِ، عَالِيَ الهِمَّهْ
إنَّمَا الحَرْبُ يا صَدِيْقِي سِجَالٌ فَلِمَ اليَأْسُ عِنْدَ أوّلِ صَدْمَهْ
بَيْنَنَا فِي الوَغَىٰ لِقَاءٌ طَوِيْلٌ وَمَوَاعِيْدُ في المَعَارِكِ جَمّهْ
إنَّهَا نَكْسَةٌ ولكنَّ فِيْهَا مِنْ دُرُوْسِ الحَيَاةِ أَجْمَلَ حِكْمَهْ

وكان صيدح قد قرأ للشاعرة طلعت الرفاعي قولها:

لا، يا رَفِيقَ الدَّرْبِ أَنَا لَمْ أُخْلَقْ لِيَوْمِي
أنا بِنْتُ هذا الشَّعْبِ لَنْ يَقْضِي عليَّ ذلٌّ وضيم
دَرْسُ الفِدَاءِ أَخَذْتُهُ عَنْ وَالِدِي وأَخِي وَأُمِّي
وَمَحَبَّةُ الأَوْطَانِ قَبْلَ تَكَوُّنِي تَغْلِي بِدَمِّي

فعلّق عليها الشاعر، وهو ما زال في مزاجه السوداوي بعد النكسة، بقوله:

أَغْفَىٰ ونَامَ الشَّعْبُ لا يَلْوِي عَلى خَالٍ وعَمٍّ
يومَ القِيَامَةِ مَوْعِدٌ لِنُهُوضِهِ يا بِنْتَ أُمِّيّ

وللشاعر قصائد كثيرة في النكسة تتسّم بالتشاؤم الشديد، وقد عمر بها ديوانه «شظايا حزيران».

وفي عام ١٩٧٥ فوجئ الشاعر بجريدة «المصري» التي يصدرها في لوس أنجلس الصحفي القاصّ المصري فؤاد القصاص تدعو إلى إقامة مهرجان شعري لتنصيب جورج صيدح أميراً للشعراء «لنعيد بذلك العصر الذهبي للشعر العربي ونردّ إلى هذا الشاعر العظيم في كلمة وفاء بعض الفيض الذي أسعدنا به طوال نصف قرن» على ما جاء في العدد الصادر في آذار (مارس) ١٩٧٥ من تلك الجريدة التي أعلنت أن الدعوة مفتوحة لجميع الشعراء العرب من كل المذاهب والاتجاهات، أما اختيار الموعد على التحديد فمتروك للشاعر.

وفي الوقت عينه دعا الدكتور صفاء خلوصي الأديب المجمعي المقيم في أكسفورد إلى ترشيح صيدح لإمارة الشعر، ونظم قصيدة في هذا المقام مطلعها:

يا بعث صَيْدح للقَرِيْضِ أميراً فاقَ الفِرَزْدَقَ في العُلَى وجَرِيْرَا

فردّ عليه صيدح بقصيدة جاء فيها (نقلاً عن الجزء السابع من كتاب «هكذا عرفتهم» للأديب العراقي جعفر الخليلي):

جَازَاكَ رَبِّي جَنّةً وحَرِيْرَا يا مَنْ حِبَالِي نُضْرَةً وسُرُوْرَا
لَسْتُ الجَدِيْرَ بِرُتْبةٍ بَيْنَ الأُلى سَمَّيْتَهُم، إنْ كُنْتَ أَنْتَ جَرِيْرا
أأردتَ تَسْحَرُنِي وتَبْلُوْ شِيْمَتِي حِيْنَ اصْطَنَعْتَ مِنَ الأَجِيْرِ أَمِيْرا؟

وقد رفض صيدح محاولات «تأميره» اعتقاداً منه بأن بين الشعراء من هو أحقّ منه بهذا التشريف.

وعندما سألته عن حكايته مع الشعر، خصّني بحديثٍ كان قد أفضى به إلى مجلة «الحرية» اللبنانية (عدد ٢٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٥) جاء فيه:

«في عام ١٩٠٧ وقعتُ في شرك الغرام وقعةً سوداء أطارت صوابي وشغلتني مدة سنتين عن كل شيء إلّا نظم الشعر حنيناً وأنيناً، وشكوى بلا أمل. وقد صحّ بي قول الشاعر: ما الحبّ إلا للحبيب الأول، فهو الحبّ الحقيقي، وإن كان صبيانياً ساذجاً في أسبابه وأغراضه. كان بالنسبة إليّ جناحاً سحرياً لخيالي يحملني إلى آفاق سعادة سماوية، أوّلها نظرة وآخرها ابتسامة.

«هي في ميعة الشباب، طالبة في مدرسة البنات تجاه مدرستي، أجمل وردة (روز) نبتت في حدائق الشام، عرفتها في قاعة المدرسة ليلة تمثيل مسرحية «السّيد»، وكنت ألقيت قصيدة في فترة الاستراحة، ثم طلبت كوب ماء، فبادرت فتاتي إلى تلبية طلبي. ومنذ تلك اللحظة، ملكت عليّ مذاهبي، وصيّرتني مدّلهاً كمجنون ليلى، لا يفارق وجهها مخيّلتي ولا اسمها شفتيّ، أقضي ساعات النهار مترقّباً مرورها في الطريق، وساعات الليل تحت نافذة دارها متغزّلاً بإطلالة منها، حتّى إذا مرّت هربتُ، وإن أطلّت اختَفيتُ، جبانةً وحياءً. ولم أجرؤ على مخاطبتها بكلمة حتّى ولا تحية، مع أنها كانت تقبل عليّ، وتمهّد سبيل التلاقي بانتظاري على باب المدرسة أو في منعطفات الطرق أو بين أعمدة الكنيسة، وتشير بالاقتراب، دون جدوى. حتّى كان يومٌ وقعتُ فيه من الدرّاجة فتهشمت ركبتي، ولزمت السرير شهراً. وفي ذلك الشهر، خطبها وتزوّجها مهاجر كان قد عاد من أمريكة إلى زيارة بلده بقصد الزواج، فتمّ له ما أراد، واصطحبها معه إلى أمريكة الشمالية. وبالكاد أدركت القطار في محطة البرامكة، قبل سفرها، وتزوّدت منها بنظرةٍ ودمعة... صديقي جرجي حدّاد كان شاهد هذا الغرام ومؤرّخه بالشعر الرقيق. نظمَ ملحمةً تلمْ جميع أدواره وملابساته جاء فيها:

أيُّ عـيـنٍ سَـحَـرَتْـهُ، أيُّ عـيـنْ ... فَـجَـفَـا الـنَّـوْمَ وَرَاعَـى الـفَـرْقَـدَيْـن
مُـغْـرَمٌ حَـاوَلَ كِـتْـمَـان الـهَـوَى ... فَـأَذَاعَـتْـهُ دُمُـوْعُ الـنَّـاظِـرَيْـن
أَمْرَدٌ، غَضُّ الصِّبَا، عَفُّ المُنَى ... ماجدُ الأَصْلِ، كَرِيْمُ النَّبْعَتَيْن
فَـتَـنَـتْـهُ ذاتُ حُـسْـنٍ بـاهِـرٍ ... أو شكتْ تَفْتِنُ زَهْرَ الغُوْطَتَيْن

ويقول صيدح: «بعد عامين، ثبت إلى رشدي، وعوّلت على استئناف الدرس في كلية عينطورة.

وفي عينطورة حافظت على أنفاس الشعر المترددة في صدري بفضل رفيق المدرسة بركات بركات ـ وهو شقيق داود بركات الذي رأس تحرير «الأهرام» ـ وصديق الشام جرجي حداد، فكانت مطارحاتنا شعراً ورسائلنا قصائد، لم أنشر منها سوى ما نشرته في ذلك الحين جريدة (البرق) لصاحبها الأخطل الصغير بشارة الخوري.

وفي مدرسة عينطورة كانت الرقابة صارمة على بريد الطلّاب، فلّما ظهرت

قصائدي في جريدة «البرق» فتح رئيس المدرسة العجوز تحقيقاً دقيقاً انتهى بأن صاح بي: هيّىء حقيبتك للسفر غداً، أنت مطرود من المدرسة! هالني الأمر، إذ كنت في ريعان نشاطي الدراسي، فاستنجدت بالمدير المباشر، وأقسمت بالله أمامه بأنني لن أنشر شيئاً من الشعر في الصحف ما دمت في عينطورة... فاستصدر العفو عنّي وبررت بقسمي». وهكذا كاد الشعر يقضي على مستقبل صيدح التعليمي.

وكانت بيني وبين صيدح والشاعر القروي رشيد سليم الخوري والشاعر إلياس فرحات مودّة وثيقة تطوّع لي أن أمازحهم، ولا سيّما لأنني كنت أعرف أن بين ثلاثتهم «زمالة منقوصة» أو عتاباً ظاهراً أو مكتوماً بسبب آراء هذا في ذاك. وعندما توفي الشاعر المهجري إلياس فرحات في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٦، رثاه صيدح بقصيدةٍ أجتزئ منها بقوله:

ذَابَ جِسْمِي وَلَابَ رُوْحِي أَسِيًّا ... يا ضَمِيْرِي، لَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ حَيًّا
كُنْ لِسَانِي وتَرْجُمَانِي وَحَدّثْ ... كَيْفَ أَمْسَيْتَ يا مُعَذَّبُ عِيّا
أنا لولاكَ ما عَرَفْتُ ارْتِيَاحاً ... في حَيَاتِي ولا رُقَاداً هَنِيًّا
إيهِ فَرْحَاتُ، واللَّيَالِي الحَبَالى ... أَسْكَتَتْ عَنْدَلِيْبِهَا المَهْجَرِيّا
هاكَ شِعْرِي في أَرْذَلِ العُمْرِ يَحْكِي ... أَنَّ لِي في الأَسَى مَكَاناً قَصِيًّا

وانتظرت أن أقرأ مرثيةً للشاعر القروي في فرحات، ولكن انتظاري طال دون جدوى.

وكنت ألاحظ في رسائل صيدح حديثاً متواتراً شعراً ونثراً عن سأمه من الحياة، وتوقه إلى مغادرتها، فكتبت إليه رسالة قلتُ فيها ما معناه: إن من مصلحة الأدب ـ ودع عنك مصلحة أصدقائك ـ أن يطول أجلك، لأنك «قمت بالواجب» مع فرحات في حين قصّر القروي في أدائه. ولو سبقك القروي إلى الرحيل فالمؤكد أنك ستقوم بالواجب معه وترثيه بقصيدةٍ رنّانة. أما إذا كنتَ أنت السابق، فلا تنتظر من القروي رثاءً ولا بكاء. وقد حدث ما توقعته، إذ توفي جورج صيدح في التاسع من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٨ دون أن يرثيه القروي الذي توفي بعده بست سنين في ٢٧ آب (أغسطس) ١٩٨٤.

وفي الفترة الأخيرة من عمر صيدح ازدادت عليه وطأة العلة، وأجرى عدة

جراحات، واحتجب عن الناس، وصار يتعجّل النهاية، وعبّر عن ذلك في قصاصات شعرية كثيرة كنت أتلقاها منه كقوله:

أَصْبَحْتُ لا أَشْدُو ولا أَمْرَحُ ... يا لَيْتَنِي أُمْسِي ولا أُصْبِحُ
أَقْعَدَنِي الهَمُّ وسِنُّ عَلَتْ ... وعُزْلَةٌ طَالَتْ بِها أَرْزَحُ

حتّى إذا أراد أن يصفّي حسابه مع دنيا الشعر ودنيا الواقع، نظم قصيدة طويلة ذات مقاطع عنوانها «الصلوات على مسمع الإخوان الأبرار في مختلف الأقطار» وقد سمّيتُها «بالقصيدة العسجدية»، وفيها خاطب ستّةً من أصدقائه الحميمين: محمد عبد الغني حسن، وجعفر الخليلي، وألبير أديب، والدكتور عبد اللطيف اليونس، ووليم صعب، وكاتب هذه السطور، وختمها بابتهالاتٍ جاء فيها:

يا ربِّ هَبْنِي راحةً روحيّةً ... طالَ السُّهَادُ وعِيْلَ صَبْرُ المَرْقَدِ
وسَّعْتَ في عُمْرِي إلى أنْ ضَاقَ بِي ... جَلَدِي، وأَدْمَانِي حِزَامُ المَقْعَدِ
أخفيتُ وَجْهِي عَنْ عُيونِ صَحَابَتِي ... حَذَرَ الشماتَةِ إنْ بكانِي عُوَّدِي
الدَّهْرُ عاداني فَلَمْ اَحْفَلْ بِهِ ... إنِّي نَجِيُّكَ رَغْمَ أَنْفِ المُعْتَدِي
أَنْجَدْتَ «يونانَ» الغريقِ وها أنا ... أَهْوِي أمامَك مِثْلَهُ، كُنْ مُنْجِدِي

استهللتُ هذا الحديث المستطرد بالإشارة إلى وفاة الشاعر زكي فيصل، ولا بأس أن أختمه بأبيات من المَرْثية المطوّلة التي نظمها قنصل في صيدح وقد وافاني بها في حينها:

يا صَيْدَحَ الشِّعْرِ الذي رَقَصَتْ عَلَىٰ ... نَغَمَاتِهِ الدُّنْيَا.. فُدِيْتَ هَزَارَا
لَوْ يَعْلَمِ النّاعِي مكانَك فِي العُلَىٰ ... لَطَوَىٰ النَّعِيَّ، وآثَرَ الإنْكَارَا!
عجباً أَتثوِي في التُّرابِ وكنتَ لا ... تَرْضَىٰ أَقَلَّ مِنَ المَجَرَّةِ دَارَا؟
كَمْ صَيْحَةٍ لِلثَّأْرِ لَوْ أَطلَقْتَهَا ... فِي القَفْرِ لَانْتَفَضَ الجَمَادُ وَثَارَا
طافَتْ على الأسماعِ، لكنْ لا صَدَى ... مَنْ ذا يُلبِّي شاعِراً ثَرْثَارَا؟

وختم مرثيته بقوله:

يا شَاعِرَ الفَيْحَاءِ هٰذِي دَمْعَتِي ... هَلِ اخْتَرَعْتَ لِعَيْنِها الأَعْذَارا؟
أَقْسَمْتُ لَنْ يُجْزِيْكَ حقَّك شاعرٌ ... ولو أنَّه نَظَمَ السُّهَى أشْعَارَا

عَقِلَ المُصَابُ يدي، وغَلَّ فَصَاحَتِي فَليَبْكِكَ قلبي... إنَّ دَمْعِي غَارَا؟

هذا وقد أقامت الجمعية السورية الثقافية في بونس أيرس حفلاً لتأبين الشاعر جورج صيدح وأصدرت جريدة «الوطن» في الأرجنتين لمحررها الدكتور عبد اللطيف اليونس عدداً تذكارياً وفاءً لهذا الشاعر العظيم.

❁ ❁ ❁

الشيخ حافظ وهبة

حتّى وقتٍ قريب كان الوطن العربي يمثّل بالنسبة لرجال الفكر وروّاد النهضة وطناً واحداً، تهاوت بين أقطاره التخوم المصنوعة، وذابت النعرات المحلية، وأصبح الواحدُ منهم مواطناً عربياً أينما حلّ، مستمتعاً بجميع حقوق المواطنة. ساطع الحصري (١٨٨٠ ـ ١٩٦٨) مثلاً، ولد في اليمن، فإذا قصد سورية أو العراق تقلّد في كل منهما مناصب وزارية، حتّى إذا استقر في مصر صار عميداً لمعهد الدراسات العربية العالية التابع للجامعة العربية، والشيخ محمد الخضر حسين (١٨٧٦ ـ ١٩٥٨) عالم ديني تونسي نزح إلى مصر حيث اختير شيخاً للأزهر، وعبد الرحمن عزام (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦) حارب في شمال إفريقية وكأنه واحد من أبنائها، كما حارب عزيز المصري (١٨٨٠ ـ ١٩٦٥) في شمال إفريقية وفي اليمن عاملاً مع الشريف حسين. والأمثلة على هذا كثيرة، وهي جميعاً سابقة على قيام جامعة الدول العربية في عام ١٩٤٥ بوصفها الهيئة الإقليمية الرسمية التي نيط بها تحقيق الحدّ الأدنى من متطلبات الوطن الواحد.

والشيخ حافظ وهبة هو بدوره من هؤلاء الرجال الذين تعاملوا مع الواقع العربي بتخطي تلك التخوم المصنوعة. فهو وإنْ يكن مصرياً، فقد عاش واشتغل بقضايا الأمة العربية في الكويت والبحرين قبل أن يستقرّ في المملكة العربية السعودية، ويصبح أوّل وزير للتعليم فيها، ثم وزيراً مفوضاً فسفيراً لها في لندن منذ عام ١٩٢٥ وحتّى عام ١٩٦٦، ما عدا فترة قصيرة قُطِعت فيها العلاقات الدبلوماسية بين المملكة العربية السعودية والحكومة البريطانية.

عَرفتُ الشيخ حافظ وهبة في دروب الصحافة التي سلكتها، واتّصلتُ من خلالها بطائفة من وجوه هذه الأمّة العربية على اختلاف مشاربهم، وجذبني في شخصية الشيخ حافظ وهبة أنه كان بحياته وسلوكه يمثّل «الوسط السعيد» الذي تحدّث عنه الفلاسفة الحالمون، عاش في الغرب طويلاً، فلم يتغيّر كعربيّ أصيل شريف، وإنْ أخذ من الحضارة كلَّ طيبٍ وترك كل خبيث.

أدّى واجباته الدبلوماسية والاجتماعية معتصماً بقيمه العربية الراسخة، عن إيمانٍ واقتناعٍ، لا عن تصنّع ومجاراة. وكان في منصبه كسفير متحلّياً بصفات الوداعة والرِّقّة وسعة الصدر، كما كان يأخذ الأمور بروح العالم، وإنصاف المؤرخ، وموضوعية الباحث عن الحقيقة. فقد ذهب إلى لندن وهو يجهل لغتها وأساليبَ الحياة فيها وتقاليد القصور وبروتوكولات الدبلوماسية، ولكنّه بشخصيته الرصينة وأسسه الأخلاقية المتينة استطاع أن يستوعب هذا كلّه، حتّى صار عميداً شبه دائمٍ للسلك الدبلوماسي كلّه في العاصمة البريطانية. بل إنّ كتابه الأوّل الموسومَ «جزيرة العرب في القرن العشرين» الذي طُبع أربع مرّات، تَمَّ تأليفه في لندن في خضمّ الأعباء الدبلوماسية التي كانت ملقاة عليه في عاصمة أكبر امبراطورية في العالم في ذلك الحين (عام ١٩٣٥).

أمّا وهذا هو خُلُقُه الذي فُطر عليه، فلم تعد تدهشني زياراته إلى مكتبي في طريق ذهابه أو إيابه بين مقرّ عمله في لندن والمملكة، ولا بهرتني مكتبته الضخمة في بيته في حي الزمالك في القاهرة التي انتقى مفرداتها بنفسه من كتب الأدب والتاريخ والسِّير، ولا سيّما ما تعلّق منها بتاريخ جزيرة العرب التي عاش فيها وانتسب إليها نصف قرن، فهو في المقام الأول عالم ثبت، يصرّف أمور الحياة الدارجة التي أُسندت إليه بروح هذا العالم البصير.

ولد حافظ وهبة في الخامس عشر من تموز (يوليو) ١٨٨٩ لأسرة متوسّطة الحال في حيّ بولاق في مدينة القاهرة، وهو الحي الشعبيّ الديني الذي اشتهر في عالم الثقافة بمطبعة بولاق ومطبوعاتها المدقّقة الفاخرة في بدايات عصر المطبعة، واختلف على الكتاتيب التي كانت شائعةً في ذلك الحين، ثم التحق بالأزهر، حيث حضر بعض دروس الشيخ محمد عبده (١٨٤٥ ـ ١٩٠٥) كمستمع وليس كطالب؛ إذْ كانت رغبتُه منصرفةً إلى الالتحاق بالمدارس الابتدائية ومنها إلى كلية دار العلوم، وانتهى به الأمر إلى الالتحاق بمدرسة القضاء الشرعي التي أنشأها الزعيم سعد زغلول باشا (١٨٦٠ ـ ١٩٢٧).

عمل في الصحافة بعد تخرجه متعاوناً مع الشيخ عبد العزيز جاويش (١٨٧٦ ـ ١٩٢٩) الذي لم يلبث أن أقنعه بالسفر معه إلى تركية لمواصلة العمل في الصحافة، ولكنّه ضاق بالحياة هناك، ولا سيما لأن الشيخ جاويش كان يعطف على حركة تركية الفتاة في حين كان حافظ وهبة يعطف على الحركة العربية عامة.

فغادر تركية ميمّماً شطر الهند، وهناك اتصل ببعض التجار العرب من كويتيين ونجديين وحجازيين، فتوثّقت علاقاته بهم، كما اتفق مع زعماء المسلمين على إصدار مجلة إسلامية عربية هندية، وقام فعلاً بإعداد العدد الأول منها، ولكن الحرب حالت دون صدور المجلة.

ثم ترك الهند قاصداً البصرة، وعلم أن السلطات البريطانية تعتزم اعتقاله بسبب نشاطه مع الحركات العربية والإسلامية، فانتهز فرصة وقوف الباخرة في الكويت، ونزل وأقام فيها حيث عمل في إدارة المدرسة المباركية، وقام بتدريس اللغة العربية والتاريخ والفقه، واتصل هناك بشيوخ الكويت، وعمل كذلك بتجارة اللؤلؤ. ولم يسلم من مطاردات الإنكليز الذين نفوه إلى البحرين، واعتقلوه في سجن طرة في مصر.

وفي الكويت تعرّف بالأمير عبد العزيز آل سعود عام ١٩١٦ الذي ارتاح إليه ارتياحاً كبيراً، فلّما استولى على الحجاز استدعاه في عام ١٩٢٣، ومنذ ذلك الوقت بدأت صلته بالعاهل السعودي وبلاده.

وكان الشيخ حافظ وهبة قد وجّه كتاباً إلى الملك عبد العزيز يشتمل على مقترحات لإصلاح الشؤون الداخلية للمملكة من ناحية نشر الدعوة والإصلاح المالي والجيش والتعليم والسياسة الخارجية، فتلّقى من الملك رداً يحمل اسم «السلطنة النجدية» جاء فيه «أيها الأستاذ، جميع ما شرطته فضيلتكم من الآراء الصائبة فهمناه، وهو والله الحقيقة التي أتمنّاها من صميم الفؤاد... إنّا لفي حاجةٍ إلى رجال عمل، فهل يتمكن حضرتكم على القدوم إلينا».

لبّى الشيخ حافظ دعوة الملك، فعيّنه حاكماً لمكة[1] ثم وزيراً للمعارف، واستعين به في مناصب شتى إلى أن عين سفيراً في لندن. وفي عام ١٩٦٦ اختاره الملك فيصل مستشاراً له، وممثلاً للحكومة السعودية في مجلس إدارة شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) مع الشيخ عبد الله الطريقي (توفي في ٧ سبتمبر ١٩٩٦).

وهكذا عمل الشيخ حافظ وهبة مع ثلاثة ملوك للسعودية، هم عبد العزيز آل

---

(١) نبهني الشيخ عبد المقصود خوجة إلى أن الملك عبد العزيز لم يعيّن مواطناً غير سعودي حاكماً لأي منطقة في المملكة.

سعود، وسعود بن عبد العزيز، وفيصل بن عبد العزيز، وخلال تمثيله الدبلوماسي في لندن عاصر أربعة ملوك هم جورج الخامس، وإدوار الثامن (الذي تنازل عن العرش) وجورج السادس والملكة إليزابت الحالية. وتوفي الشيخ حافظ وهبة في الثالث والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧.

وقد تقدّمت الإشارة إلى أوّل كتبه بعنوان «جزيرة العرب في القرن العشرين» الذي أهداه إلى «شباب العرب الناهض، عُدّة المستقبل ومناط الأمل»، وهو الكتاب الذي طرأتْ له فكرةُ تأليفه ـ كما قصّها عليّ ـ من واقعةٍ طريفة. ففي عام ١٩٢٤ كان الشيخ حافظ خارجاً من دار الإمارة ومقر الحكم، وكان يوماً عاصفاً. ففوجئ بكميات كبيرة من الورق تنقذف في وجهه، وظن أنها أوراق مهملة تطايرت من فناء الدار، فتناول بضعاً منها، وتبيّن أنها تضمّ السجلّات الرسمية للحكومة الهاشمية وطائفةً كبيرة من المراسلات الحكومية ذات الشأن، فجمع هذه الأوراق، وعكف على دراستها، ثم قرّر أن يضع كتاباً يحلل فيه ما جاء في هذه الوثائق، ولكنّه تبين أن الأحجى أن يؤلّف كتاباً جامعاً، يتناول تاريخ جزيرة العرب وجغرافيتها وعاداتها وتقاليدها وكل ما يتصّل بها، وأنجز الكتاب في لندن في عام ١٩٣٥، فكان حتّى تاريخ صدوره في القاهرة أَوْفَى مرجعٍ عن السعودية والكويت والبحرين، ولا سيما لأنه حقّق فيه بتدقيق الباحث الصابر أسماء المدن والأماكن وأسماء القبائل والوقائع والمعارك، وسجّل أخبار المؤتمرات والمعاهدات، ثم ذيّل الكتاب بالوثائق التي لولا يقظته لطارت في الهواء مع هذه الريح الصرصر العاتية.

وكان الشيخ حافظ وهبة قد رغب إليَّ في نقل هذا الكتاب إلى اللغة الإنكليزية، فاستجبت لرغبته، وصدرت طبعته الإنكليزية في عام ١٩٦٤ بعنوان «أيام عربية» Arabian Days عن دار آرثرباركر Arthur Barker Limited في لندن، وكتب مقدمته جيرالد دي غوري Gerald de Gaury المعروف بمؤلّفاته عن جزيرة العرب. وممّا قاله دي غوري في مقدمته: «إنه لم يسبق أبداً لأي مسلم بالميلاد أن كتب كتاباً عن عرب وسط الجزيرة ونشر هذا الكتاب باللغة الإنكليزية إلى أن جاء الشيخ حافظ».

أما الكتاب الثاني الذي أصدره الشيخ حافظ في عام ١٩٦٠ فكان عنوانه «خمسون عاماً في جزيرة العرب». ولعلّه عند اختيار هذا العنوان أراد أن يُحاكي الرحالة سانت جون فيلبي المشهور باسم عبد الله فيلبي الذي وضع في عام ١٩٥٧

كتاباً عنوانه «خمسون عاماً في البريّة» Fifty Years in the Wilderness. وكتاب حافظ وهبة هو في المقام الأول كتاب تاريخ تُستمدّ وقائعه من الأحداث التي عاصرها وشهدها وكان له فيها دور، عدّا أنه يضمّ كذلك مجموعةً من الوثائق والرسائل والتقارير والمذكرات وما إليها ممّا يتصّل بالتاريخ السعودي، ومنها رسائل تبادلها مع الملك عبد العزيز.

وقال حافظ وهبة في مقدمته: إن هذا الكتاب يظهر باللغتين العربية والإنكليزية في وقت واحد، وإن السيد محمود رياض زاده ـ وهو صهره ـ قد حمل عنه عبء الترجمة لأنه من الذين يجيدون اللغة الإنكليزية وآدابها إجادةً تامّة. ويبدو أن المترجم المذكور لم يتمكن من أداء هذه المهمة، لأن الشيخ حافظ وهبة عاد يرجوني الاضطلاع بها، وحالت وفاته دون الشروع فيها.

وقد سألتُ الشيخ حافظ وهبة عن مذهبه في كتابة التاريخ، فقال: إنه اختار لنفسه مذهب الموضوعية الصارم، يسجّل الوقائع كما عرفها أو رآها بنفسه، ويعزّز كل واقعة بما يبرزه من أسانيد تحت يده، فالتاريخ في عرفه ليس محاولةً لإيراد نصف الحقيقة أو تلوين الوقائع أو الانحياز لجهة معينة على حساب الصدق التاريخي، وإنّما ديدنه ومذهبه أن يكون راويةً أميناً مؤتمناً مجرّداً من الهوى.

وقال: إن من واجبنا أن نعوّد الناس على الصدق في جميع الأمور، وأي تزييف لا بدّ أن ينكشف، لأن التاريخ ليس حكراً على شخص واحد، وإنما هناك مؤرّخون كثيرون يسجّلون بدورهم أحداث التاريخ كما تراءت لهم من المطالعات والمتابعات. وعندما لاحظ أن معظم الكتب المؤلّفة باللغات الأعجمية عن العرب وأحوالهم قد كُتبت بأقلام باحثين غربيين، قرّر أن يجعل لكتبه ترجماتٍ إنكليزية تمثّل الصورة العربية كما رآها بنفسه.

وسألت الشيخ حافظ وهبة عن الفرق بين التاريخ والمذكرات، وأيهما يعتدّ به في الدراسات الأكاديمية. فقال:

إن المؤرّخ قد لا يكون معاصراً للأحداث، فيسجّل تاريخه بناءً على الانطباعات التي يخرج بها من دراسة مدوّنات الفترة التي يؤرّخ لها، بما في ذلك الصحف والوثائق الرسمية. فإن بَعُدَ العهد بالفترة التي يعكف على تدوين تاريخها، فقد يستعين حتّى بقصائد الشعراء لأن في بعضها وصفاً لمعارك أو وقائع

معينة أو تسجيلاً لأحداث كان الشعراءُ من شهودها ونظموا قصائدهم في وصفها. وبعبارةٍ أخرى، إن المؤرخ يعتمد على السجلات المتاحة ثم يستخلص منها النتائج التي يرى صواب استخلاصها.

أما المذكرات فهي ذاتيّة بحكم طبيعتها، لأن كاتبها يجعل من قلمه كاميرا تلتقط الصور التي عاينها بنفسه على علّاتها، فإنْ كان صاحب المذكرات من صانعي الأحداث، جاءت مذكراته بِنْتَ معاناةٍ ذاتية. أمّا إنْ كان مجرّد متفرّج على مواكب الأحداث، فإن المذكرات تتّخذ شكل الصورة الملتقطة من على بُعد. وإذا تحلّى المؤرخ وكاتب المذكرات بالصدق ـ وهو العنصر الحاسم في إكساب العمل قيمته المُورثة للثقة ـ كان ذلك إضافةً حقيقيةً للتراث التاريخي.

وعاد الشيخ حافظ وهبة يؤكد أن التاريخ ليس «موضوع إنشاء» يكتبه صاحبه مغترفاً من معين الخيال الخصب، كما أنه ليس مقالةً صحفية دارجة قد يغلّفها الملق والزلفى أو التحامل والإدانة. ولكن التاريخ علم ذو أصول، أوّلها الالتزام بصدق الرواية، وثانيها تحرّي جوانب الحدث التاريخي كلّها، وثالثها استنطاق الوثائق الرسمية، ورابعها التسجيل الأمين لكل الوقائع وليس بعضها. وأكدّ الشيخ حافظ أن المؤرّخ ليس «ديّانا» يحكم على صنّاع التاريخ بما يتراءى له من أحكام جائرة أو مخففّة، فحسبه أن يسّجل الواقعة كما حدثت، وكل واقعة هي كاشفة عمّا وراءها.

وكما كان الشيخ حافظ وهبة يُخجلني وهو يقول لي في الهاتف: هل لديك دقائق أستطيع أن أتحدّث فيها معك؟ فكنتُ أرحبّ به، وهو بي أكثر ترحيباً، بفضل ما جُبل عليه من تواضعٍ وكياسة وصفاء نفس.

وختام ما يُقال عن حافظ وهبة: إن بواكير حياته كانت تُنبئ بأنه سيكون مدرّساً للتاريخ واللغة العربية والدين، ولكن خواتيم حياته تكشّفت عن رجل هو نِعْمَ المشير في أمور السياسة، وعن رجل إدارة له في صناعة النفظ رأي وقول، وعن رجل له في الدبلوماسية والعلاقات الدولية يَدٌ طولى، وهي مآرب لم تَدِنْ له إلّا بحكم تمرّسه في شؤون الحياة ومُضْطَرَبَاتِهَا، وإخلاصه في مقاصده، وسعيه الحثيث في سبيل مواجهة تحديّات الحياة مهما تعاظمت، وكانت حياته كلّها صفحة بيضاء ناصعة البياض لأنه نأى بنفسه عن كل ما يُشين، وكان دائماً نموذجاً للمواطن المصري/ السعودي الشريف.

حبيب جاماتي

مع أن حبيب جاماتي كان صحافياً حتّى النخاع، فقد اشتهر بالحكايات التي كان يستخرجها من متون كتب التاريخ والأدب، فيصوغها في قالب روائي جميل، في نفس الإطار التاريخي الذي وقعت فيه، وينشرها تحت عنوان معبّر هو «تاريخ ما أهمله التاريخ».

وكنت أقول لحبيب جاماتي مازحاً: «أخشى أن يصبح تاريخك الشخصي من مهملات التاريخ، فيعوزه مؤرخ دؤوب مثلك يدوّنه باعتباره تاريخاً لما أهمله التاريخ». فكان يضحك ويقول: «لا بأس. فليس في تاريخي الشخصي حكايات تُروى أو وقائع تُستدعى. وأنا أكتب التاريخ كصحافي أديب وليس كمؤرخ. والصحافي يروي الأخبار، فيتناقل الناس أخباره وينسون الصحافي». وأضاف قائلاً: «روّض نفسك من الآن على أنك ستُنسى حتّى من معاصريك، وستجهلك الأجيال القادمة، لأن لكل عصرٍ دولةً ورجالاً».

وعندما شهدت جنازة حبيب جاماتي المتواضعة في حي شبرا الشعبي عام ١٩٦٨، ثم لاحظت التجاهل الغريب لوفاته من جانب الصحف، أيقنت أن كلامه إليّ كان يشبه النبوءة، فقد نسيه معاصروه، وكيف يطلب إذن من الأجيال التي تعاقبت بعده أن تذكره؟.

لا أذكر على وجه التحديد متى ألتقيت بحبيب جاماتي للمرة الأولى، وإن كانت قد مضت على هذا اللقاء سنوات طويلة، ولكن الذي أذكره هو أن لقاءنا الأوّل كان أشبه بلقاء بين صديقين حميمين تعارفا من زمن بعيد، وربطت بينهما وشائج الودّ من أمد طويل. ذلك لأن حبيب جاماتي كان انبساطي النفس، يتّسم بروح إنسانية طاغية، ويقبل على اكتساب الصداقات بطواعية تلقائية، ويعرف الناس وإن لم يلتق بهم بفضل متابعته لأخبارهم في الصحف ومجالي الحياة. وحياة الصحافيين جامعة للمشتغلين بها، يلتقون في دروبها ومنعطفاتها وكل

مناسباتها، فتنعقد بينهم الصلات والصداقات على تباعد أو تقارب تتحكّم فيها المشارب المتباينة.

كان حبيب جاماتي متخصصاً في الشؤون العربية بحكم عروبته الصافية التي تشّربها منذ ما التحق بجيش الملك فيصل الأول بين عامي ١٩١٦ و١٩١٨ فعرف فيصلاً الذي كان يمثّل أمل العرب في المستقبل، كما عرف كثيرين من العاملين في الحقل العربي الوطني والسياسي، وصار حجّة في القضايا العربية، يُستهدى بآرائه، سواء في اللقاءات الخاصة أو في الفصول التي كان ينشرها في الصحف بتوقيعه المرمّز (حج) وهما الحرفان الأولان من اسمه. وكنت بدوري مشتغلاً ـ كصحافي ـ بقضايا العروبة، فلا أكاد ألمّ بنشاط عربي في الجامعة العربية أو في مكتب المغرب العربي أو في الاتحاد العربي الذي أنشأه أسعد داغر (١٨٨٦ ـ ١٩٥٨) أو في مكتب شيخ المجاهدين العرب محمد علي الطاهر (١٨٩٦ ـ ١٩٧٤) أو في نادي لبنان أو في نادي الأرز أو في النادي الشرقي أو في المؤتمرات المختلفة التي كانت تنعقد على أرض مصر، إلّا صادفت حبيب جاماتي أمامي، فهو القاسم المشترك الأعظم في كل ما هو عربي. ولو استقامت الموازين، لاحتلّ مقعداً مرموقاً في جامعة الدول العربية بفضل علاقاته العريضة ومعارفه الواسعة، وبفضل وقوفه على دقائق القضايا العربية منذ بداياتها. وعوضاً عن أن يكون ركناً أساسياً دائماً في الجامعة، اختير في عام ١٩٥١ مع تقي الدين الصلح لتمثيل الجامعة العربية في مكتب إعلامي أقيم في باريس بمناسبة انعقاد دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة في قصر شايوه في باريس. وقد اتصل بي كلاهما في ذلك الوقت قائلين: إن المكتب الإعلامي في حاجةٍ إلى تزويده بكتب باللغتين الإنكليزية والفرنسية عن القضايا العربية، وطلبا منّي مساعدتهما في هذا الأمر، فوضعت تحت تصرفهما كل ما كان لديّ من كتب باللغة الإنكليزية عن القضية الفلسطينية، ومعظمها من منشورات معهد الشؤون العربية الأميركية الذي أنشأه الدكتور خليل طوطح (١٨٨٧ ـ ١٩٥٥) في نيويورك وكنت وقتها متطوعاً لتمثيله في القاهرة.

كان حبيب جاماتي من أكبر دعاة العروبة على مدى العمر، يدافع عنها بقلمه ولسانه، وعندما قرأ في جريدة «المصري» مقالاً لدولة إسماعيل صدقي باشا رئيس وزراء مصر الأسبق يعارض فيه انضمام مصر إلى عضوية الجامعة العربية بدعوى أن لبنان ـ وهو عضو في الجامعة ـ يصدّر الحشيش إلى مصر، ردّ عليه

حبيب جاماتي رداً مفحماً من الناحيتين التاريخية والسياسية، في حين رددتُ عليه من جانبي داعياً إياه إلى مكافحة «التحشيش» في بلاده، وبهذا تبور هذه التجارة اللبنانية بواراً نهائياً!.

ولد حبيب جاماتي عام ١٨٨٧ في زوق مكايل بجوار جونية في لبنان (وهي مدينة الشاعر إلياس أبي شبكة (١٩٠٣ ـ ١٩٤٧)، ودرس في كلية عينطورة اللبنانية قبل أن ينزح إلى القاهرة لمزاولة أعمال الصحافة والكتابة والترجمة. وفي القاهرة استعانت به مدرسة المهندس خانة (قبل إنشاء كلية الهندسة) لتدريس الترجمة لطلابها. ثم قرّر السفر إلى فرنسة لكي يجرّب حظّه فيها، واختار الإقامة في مدينة أنجيه Angers حيث أصدر جريدة عربية اسمها «الشهرة» وبقي ينشرها سنة كاملة دون أن يصيب أي توفيق، فاضطر إلى إغلاقها، وسافر إلى الشام للالتحاق بجيش الملك فيصل الأول العربي.

وبانتهاء الحرب العالمية الأولى، قرّر العودة إلى مصر حيث أنشأ جريدة «لبنان الفتى» باللغتين العربية والفرنسية. ولكن يبدو أن الصحافي إنْ أحسن الكتابة واستقاء الأنباء، فهو لا يحسن الأعمال الإدارية والفنية المتعلقة بإصدار الصحف، ولذا اضطر إلى إغلاق هذه الجريدة بدورها.

تنقل بعد ذلك بين عددٍ من الصحف التي كانت تصدر في القاهرة سواء باللغة العربية أو باللغة الفرنسية إلى أن استقرّ نهائياً في دار الهلال يغذي صحفها ومجلّاتها بمقالاته.

وكانت دار الهلال تصدر مجلة باللغة الفرنسية اسمها «إيماج» ـ على غرار مجلة «المصور» العربية، وكان يحررّها صحافي أجنبي هو جان موسكاتيللي. ولمّا توفي، كان من الطبيعي أن يخلفه في رياسة التحرير واحد من اثنين من الصحافيين العاملين في الدار، إما جبرائيل بقطر وإمّا حبيب جاماتي لإجادتهما التامة للغة الفرنسية، ولمثابرتهما على الكتابة في هذه المجلة. ولكن الدار اختارت إبراهيم عامر لرياسة تحرير «إيماج» على تواضع معرفته باللغة الفرنسية، لأن المدّ اليساري في ذلك الوقت كان قد احتكر المناصب القيادية في الصحف كما كان هناك اتجاه واضح مناوئ للشوام في مصر، حتى هاجر كثيرون منهم في هجرة معاكسة، وفي عهد إبراهيم عامر أغلقت «إيماج» بعدما انفضّ عنها قراؤها بسبب هزال تحريرها وموضوعاتها.

تزوج حبيب جاماتي من شقيقة الوزير اللبناني الأسبق موسى مبارك وأنجب منها ابنتيْن.

نشر حبيب جاماتي طائفةً من الكتب التي ظهرت جميعاً في السلاسل الشعبية، وهي سلاسل تكاد تعامل معاملة الصحف، فتعرض مع الباعة أسبوعاً أو نحوه، ثم تجمع من السوق وتختفي بعد ذلك في المستودعات، وربّما ظهرت في وقتٍ تالٍ على سور حديقة الأزبكية قبل هدمه. وقد أدت هذه الأوضاع إلى قصر عمر السلاسل الشعبية. وإلى انعدام أي فرصة إعادة طبعها بعد اختفائها من الأسواق. وقد ترتب على ذلك أن صار من العسير إن لم يكن من المستحيل العثور على أي من الكتب التي ألفها أو ترجمها حبيب جاماتي.

ففي سلسلة «تاريخ ما أهمله التاريخ» نشر «الناصر صلاح الدين» و«مصر مقبرة الفاتحين» و«بطولات عربية» و«مهازل الحياة» و«تحت سماء الغرب» و«الجنة في ظلال السيوف». وترجم عن ستيفان زفايغ كتاب «ماجلان قاهر البحار» وعن شارل ويل كتاب «تيودورا الممثلة المتوجّه». وله أيضاً «أغرب ما رأيت» و«هندونيسيا» و«إبراهيم في الميدان» و«أندلس العرب» و«بين حدائق القصور» و«خفايا القصور».

كان حبيب جاماتي معتدل القامة، شديد الأناقة، يداعبه رسامو الكاريكاتور برسم وجهه وقد امتدّ منه أنفه الطويل كفوهة المدفع. وظلت اللهجة اللبنانية ملازمة له، فلم يستطع التخلص منها على الرغم من إقامته الطويلة في مصر. وكان يتمتع بصوت جميل وإلقاء مسرحي عند قراءة محاضراته أو حكاياته المستمدّة من دفائن التاريخ، وهو ما شجّعني على استضافته في برنامج ثقافي لتليفيزيون الظهران ـ عندما كنت أمثله في مصر ـ سجّل فيه خمساً من حكايات التاريخ المهمل لا وهو جالس وراء مكتب، بل وهو يتنقل على مسرح صمم خصيصاً لهذا الغرض، يتيح له أن يمثل الحكاية وهو يتلو وقائعها بصوته الرخيم.

تعرّض حبيب جاماتي لجحودٍ غليظ، سواء في حياته أو بعد وفاته، ربّما لأنه كان صحافياً مستقلاً بذاته، ليست له مدرسة أو حواريون، ومن القلائل الذين عرفوا قدره وأنصفوه في حياته الأديبة السورية وداد سكاكيني (١٩١٣ ـ ١٩٩١) التي حرصت على التعرف به باعتباره من «الوجوه اللبنانية على ضفاف النيل»

فرافقتُها في زيارته إلى بيته في الزمالك، ثم كتبت عنه مقالاً جميلاً في مجلة «الأديب» اللبنانية (عدد حزيران - يونيو - ١٩٥٤) قالت فيه: «كنت أفكر في الرسالة التي يؤديها الأستاذ حبيب نحو وطنه الأول، فأجدها أكثر تجاوباً وتجارب وأبعد أثراً ونفاذاً ممّا تؤديه السفارات الدبلوماسية، وأي سوري أو لبناني أو فلسطيني أو أردني ورد مصر يجد فيه أديباً مخلصاً أو مجاهداً ناصحاً للعروبة والثقافة والفكر. كان تمازجه مع إخوانه المصريين على حقيقةٍ وكرامةٍ أعمّ فائدة وأبقى خيراً وذكراً. وقديماً كانت السفارة الروحية والفكرية بين مصر والبلاد العربية ممهدّةً لهذا التعارف والتناصر، مؤيدةً للأسباب الباقية والروابط الوثيقة».

وما كان لي أن أتخلّف عن إزجاء التحية لحبيب جاماتي بعدما نصبت له وداد سكاكيني مهرجاناً من أدبها وعروبتها، فعلقت على مقالها في عدد آب من نفس المجلة بعبارات قلت فيها: «ومنذ عرفت حبيب جاماتي، بل قبل أن أعرفه، وهو جدّ حريص على المستوى الخلقي والأدبي الرفيع الذي وضعه لنفسه، لا يماري ولا يداهن ولا يخاتل، ولا يساير الناس في ما تعتقد، ولا يهبط إلى مستوى الغوغاء، ولا ينطق إلّا صدقاً، ولا يبالي بهجاء الهجائين أو مدح المداحين، ولا ينثني أمام الحق، ولا يلين للباطل، ولا ينشد لنفسه مأرباً، ولا يمشي في ركاب، ولا يكذب في أمر، ولا يسمح لقلمه بأن تشوبه شائبة، ولا يجبن في مواقف الشجاعة، ولا يميل مع هوى، ولا يرتضي إلّا أن تكون نزاهته فوق كل ريب وخلقه فوق كل مطعن».

وقد عرف حبيب جاماتي كثيراً من الزعماء الذين آلت إليهم مصائر بلدانهم وكان هو من داعميهم ومناصريهم في أيام الكفاح والنضال، فلّما تسنّموا هذه المناصب ذات المعالي، أبي حبيب جاماتي أن ينتفع بشيء، وبقي ولا يزال جندياً ناكراً للنفس، ذا وداعة، يحتجب في عزّة نفس، فلا يأخذه زهو، ولا تستبدّ به كبرياء إلّا كبرياء النفس الأبية المترفعة.

رجل هذه بعض شمائله خليق بأن تكتب سيرته بأحرف من نور، فقد كان صحافياً شريفاً، وكاتباً يقدّس رسالة قلمه، ومؤرخاً يعرف كيف يستخرج الكنوز الدفينة من تاريخ العرب ليعرضها بأسلوبه الناصع مجلوّةً للعيان. ولا أظنّه لو تحدث من قبره بعد سنوات طويلة من وفاته يطلب شيئاً عدا إعادة طبع كتبه التي صبّ فيها خلاصة جهده وفكره ورؤاه.

حبيب الزحلاوي

يمثل حبيب الزحلاوي ظاهرةً أقلّ ما يُقال فيها إنها ظاهرة غريبة في الحياة الأدبية المعاصرة، ولعلّ هذا هو السبب الذي حمل مؤرخي السير الأدبيّة على إغفاله من دراساتهم، فلم يذكره يوسف أسعد داغر (١٨٩٩ ـ ١٩٨١) في كتابه «مصادر الدراسة الأدبية»، ولا تناوله نجيب العقيقي (١٩١٦ ـ ١٩٨١) في كتابه «من الأدب المقارن»، ولم يُشر إليه مسعود ضاهر في كتابه «الهجرة الشامية إلى مصر» ولم يهتم بسيرته الدكتور روبرت كاميل في كتابه «أعلام الأدب العربي المعاصر»، ولعلّ الوحيد الذي عُني به هو أنور الجندي في كتابه «النثر العربي المعاصر في مائة عام».

وأقول: إنه ظاهرة غريبة لأنه فرض نفسه على الحياة الأدبية بأسلوب «القبضايات» حتّى وصفه الدكتور زكي المحاسني (١٩٠٩ ـ ١٩٧٢) بأنه «لا يكتب بقلم وإنّما يكتب بهراوة». فقد أصدر الزحلاوي كتابين في نقد المفكّرين المعاصرين هما «أدباء معاصرون» و«شيوخ الأدب الحديث» أَهْوَى بمطارقه فيهما على رؤوس أعلام العصر: طه حسين وتوفيق الحكيم وعزيز أباظة وحسين فوزي ومحمود تيمور وسلامة موسى وبشر فارس، ولم تسلم من تحرّشاته الأدبية جاذبية صدقي مع أنها كانت هي والدكتورة بنت الشاطئ شريكتيْن له في الفوز بجائزة مجمع اللغة العربية في مصر في الأدب القصصي عن عام ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥.

هاتفني الزحلاوي ذات يوم قائلاً: إنه يرغب في زيارتي لإهدائي كتابه الجديد «شيوخ الأدب الحديث»، فرحّبت به وقدّم إليّ نسخة طرّزها بعبارة إهداءٍ كريمة. وبعد انصرافه قلّبت صفحات الكتاب فألفيته يهاجمني بعنف لأنني لبيت دعوة مجلة «المجلة» وكتبت مقالاً عن سلامة موسى (١٨٨٧ ـ ١٩٥٨) بُعيد وفاته، وأدهشني أن يسوق لي المديح في عبارة الإهداء، ثم يتناولني بالهجاء في صُلب الكتاب! وبعد نحو أسبوعين هاتفني الزحلاوي معاتباً لأنني لم أكتب عن

كتابه. فقلت له: وما قيمة شهادتي بعدما تناولت بالتجريح شخصي وكتاباتي؟ ثم قلت له: إنني سأطلب من صديقي العلّامة السوري الدكتور زكي المحاسني أن يكتب عن كتابك، وهو رجل محايد يقول فيه قولة حق. وبمجرّد أن أبديت هذه الرغبة إلى الدكتور المحاسني درس الكتاب ثم وافاني بنقدٍ له نشرته في عدد نيسان (إبريل) ١٩٦٠ من مجلة «قافلة الزيت» التي كنت أمثلها في مصر.

وليس أدّل على أسلوب الزحلاوي في تناول كبار الأدباء من الاستشهاد ببعضٍ ممّا قال المحاسني فيه، ولا أظنّه كان متحاملاً، حيث قال:

ـ ما هكذا يا حبيب تُلقي القنابل الذرّية في الأدب؟.

ـ عَالَنَ الزحلاوي شيوخ الأدب بأنه مرسلٌ عليهم شواظاً من النار المقدسة تطهرهم...

ـ أعمل الزحلاوي يديه في تمزيق أدب محمود تيمور حتّى كاد يمزّق ثيابه.

ـ ذكر الزحلاوي المساءات في حقّ سلامة موسى حتى جعله هزأة ودسيساً لعاباً.

ـ وجدت الزحلاوي في سائر فصوله صخّاباً شديد النقمة كأنه أحد كهنة الجحيم.

ـ وضع الزحلاوي مسرحية «أهل الكهف» على مشرحته الدامية، وغاص بمباضعه فيها إلى مرفقيْه يُعمل فيها تقطيعاً وتهتيكاً.

وختم المحاسني مقاله بقوله: إني أكره «دار المورغ» وأبتغي الفرار منها، وإذا سألني قُرّائي الأحبّة: وما هي دار المورغ، قلت لهم إنها دار تشريح الجثث!.

كان الدكتور بشر فارس (١٩٠٧ ـ ١٩٦٣) قد نشر في مجلة «المقتف» (عدد أيار/مايو ١٩٤٤) قصيدةً عنوانها: «إلى زائرة»، وهي من الشعر الرمزي الذي لا يُستنبط معناه من القراءة العارضة. جرت القصيدة على النحو التالي:

لَوْ كُنْتِ نَاصِعَةَ الجَبِيْن ... هَيْهَاتَ تَنْفُضُنِي الزِّيارَه
ما رَوْعَةُ اللَّفْظِ المُبِيْن؟ ... السِّحْرُ مِنْ وَحْي العِبَارَه
ظِلٌّ على وَهْجِ الحَنِيْن ... رَسَمَتْهُ مُعْجِزَةُ الإشارَه

خَطٌّ تَسَاقَطَ كالحَزِيْن أَرْخَى على العَزْمِ انْكِسَارَه
ماذا بِوَجدِ المُحْصَنِيْن صَوْتٌ شَجٍ خَلْفَ الستاره
غَيَّبَتْ في العُجْبِ الدَّفِيْن مَعْنَىٰ براعَتِه البَكَاره
دُرّاً يَفُوْتُ النَّاظِمِيْن ونَهَضْتِ تُهْدِيْنِي بِحَارَه
خطواتُ وسواسٍ رَزِيْن وَهَبٌ تعمّيه الطَهَاره

وبمجرد ظهور هذه القصيدة، عاود الزحلاوي الحنين إلى التحرش بناظمها الدكتور بشر فارس الذي صحّف اسمه في كتاب «شيوخ الأدب الحديث» إلى «نشر فهارس»، فأعلن في مجلة «الرسالة» المصرية لصاحبها أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨) وفي مجلة «الأديب» اللبنانية لصاحبها ألبير أديب (١٩٠٨ ـ ١٩٨٥) عن جائزة قدرها خمسة جنيهات مصرية أو مئة ليرة سورية لمن ينجح في شرح هذه الأبيات.

ومع أن عدداً من الأدباء نجح في شرحها، ومنهم صلاح الأسير (١٩١٧ ـ ١٩٧١) وزكي طليمات (١٨٩٦ ـ ١٩٨٢) والشيخ عبد الله العلايلي (١٩١٤ ـ ١٩٩٦)، فقد قنع الزحلاوي بالضجّة التي أثارها، وبقيت الجنيهات الخمسة والليرات المئة مستقرّةً في جيبه.

حياته الشخصية يغلّفها الغموض، فلا يُعرف شيء عن نشأته أو منابته. الزحلاوي يقول عن نفسه ـ كما روى ذلك أنور الجندي، (توفي في ٢٨ يناير ٢٠٠٢): إنه هاجر من لبنان إلى مصر بعد صدور الدستور العثماني، وكان يعمل قبل هجرته مراسلاً لبضع صحف، كما اشتغل بالسياسة، فحكم عليه بسبب كتاباته السياسية بالسجن، واضطر إلى الهرب إلى القاهرة. هذا هو كل ما قاله عن حياته السابقة على نزوحه من لبنان إلى مصر أمّا دراسته، فتمثل علامة استفهام كبيرة وإنْ كان المؤكد أنه لا يحمل أي درجةً علمية، ولا كان ـ في ما رأيته بنفسي ـ يستطيع أن يُقيم عبارة سليمة لو تحدّث في مجلس أدبي، وما أندر المرات التي رأيته فيها في مجالس الأدباء ـ ولا سيما الشوام ـ التي كنت كثيرَ الغشيان لها في الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي عندما بدأتُ حياتي العملية في إدارة جريدة الأهرام «وكان معظم العاملين فيها من الشوام، ثم عندما انتقلت إلى جريدة «المقطم» وكانت بدورها تعجّ بالشوام حتّى ظُنَّ أنني شاميّ مع أنني من قرار صعيد مصر.

ويقول المجاهد العربي محمد علي الطاهر (١٨٩٦ ـ ١٩٧٤) في كتابه «خمسون عاماً في القضايا العربية»: إن الزحلاوي كان يعتبر «عاراً علينا نحن الشوام»، ولعلّ هذا يفسّر سبب ابتعاده عن منتدياتهم، وما أكثرها في تلك الحقبة، كما يفسّر غيابه عن مناسبة تكريم الشاعر خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩) في مهرجان كبير احتشد شوام مصر للإسهام فيه في عام ١٩٤٧.

ولعلّنا نهتدي في قصة «يقظة ضمير» التي فاز الزحلاوي بها بثلث جائزة مجمع اللغة العربية إلى ملامح من شخصيته، فهي قصة مغامر لبناني بدأ حياته خادماً ثم عمل مع السلطة العسكرية الفرنسية في الشام في حرب عام ١٩١٤ ثم في فترة احتلال الفرنسيين لبلاده، ولكنه انقلب بعد ذلك على فرنسة فتعرض للإيذاء منها ممّا دفع به ـ في محاولة لاسترضائها ـ إلى الاشتغال كعميل لها حتّى يكسب قوته ـ وفي الحرب العالمية الثانية عمل في السوق السوداء، وربح مالاً وفيراً، وأحبّ فتاة لم تلبث أن تزوّجت سواه في مصر. فسافر إلى مصر وفي نيته الانتقام من غريمه، ولكنه راجع نفسه، وقرّر تكفيراً عن كل سوءاته في الماضي أن يعيش كالراهب الزاهد.

عندما جاء الزحلاوي إلى مصر، لجأ إلى الجالية الشامية عساها تدبّر له عملاً، وأشفق عليه سليم وسمعان صيدناوي صاحبا المتجر الضخم الذي يحمل اسميهما، وألحقاه بائعاً في قسم الأحذية، ثم نقلاه إلى قسم بيع المنسوجات الحريرية.

فلمّا استطاع ادّخار قدر من المال، افتتح لنفسه متجراً متواضعاً في وكالة البلح بحي بولاق العتيق في القاهرة لبيع الحديد الخردة. وقد زرته في هذا المتجر الذي يشبه مغارة لا تدخلها الشمس ولا يُضاء إلّا بمصباح ضعيف، ولكن تجارة الخردة كانت تعود على صاحبها برزق موفور نسبياً.

وعندما أراد الشاعر العوضي الوكيل (١٩١٥ ـ ١٩٨٣) مداعبته في ديوانه «رسوم وشخصيات» وصف حياته بين خردة الحديد ووكالة البلح وتجارة الحرير بقوله:

أَبَا الشَّامِ، ماذا وراءَ الحَدِيْدِ؟ ... ومَاذا وَرَاءَ انْتِقَادَ القَصِيْدِ؟
مَلأْتَ «الوَكَالَةَ» فَنّاً ونَقْداً ... وقَارَعْتَ كُلَّ أَدِيْبٍ عَنِيْدِ

لكَ النَّقْدُ مِثْلَ شَوَاظِ اللَّهِيْبِ يَصُبُّ عَلَىٰ رَأْسِ طَاغٍ مَرِيْد
لكَ القِصَصُ المُسْلِيَاتُ الحِسانُ مِنْ كُلِّ لونٍ سَنِيٍّ فَرِيْد
وَلَيْسَ بِهَا حادِثٌ عاصِفٌ وَلَيْسَ بِهَا مِنْ عُرَامٍ شَدِيْد
فَكَيْفَ خَلا العَيْشُ مِنْ ذا وذا؟ لِذَلِكَ عِنْدِي غَيْرُ السَّدِيْدِ
وَكَمْ كُنْتَ تَنْشُرُ ثَوْبَ الحَرِيْرِ فَأَصْبَحْتَ تَطْوِي صِفَاحَ الحَدِيْدِ
وَكَمْ لَكَ بَيْنَهُمَا قِصَّةٌ تُتِيْحُ لكَ المَجْدَ بَيْنَ الوُجُوْدِ

وتجارة الزحلاوي بالخردة حدت بالشاعر عبد الله عفيفي، الذي كان يلقب بشاعر الحضرة الملكية، إلى وصفه بأنه «بائع الأحذية والأدب».

التقيت بحبيب الزحلاوي للمرة الأخيرة في مكتب البريد الرئيسي في ميدان العتبة بالقاهرة، وكانت سنّه قد علت، وبصره قد وَهَن، وصار يعتمد على عكازة غليظة، ويكاد يزحف في مشيته، لأنه كان فارع الطول ثقيل البدن. وسألته عن أحواله فعلمت منه أنه باع متجره، وتنكرت له أسرته، فارتضى أن يعمل حارساً في مكتبة تبيع الكتب القديمة في حي الفجالة، وقال: إنه يفكر جدياً في الهجرة، لأن أصدقاءه المغتربين زيّنوا له طريق الهجرة كيما يصبح من أدباء المهجر المشهورين. ولم آخذ كلامه مأخذ الجدّ، ولكن يبدو أن جهامة الحياة أكرهته على ركوب مراكب الهجرة، لأنني لم أعد أصادفه بعد ذلك، وانقطعت عنّي أخباره تماماً إلى أن قرأت في مجلة «الهلال» أن محررها صالح جودت (١٩١٢ ـ ١٩٧٦) تلقى رسالة من الزحلاوي مرسلة من كولمبية بأمريكة الجنوبية تفيد وصوله إلى هناك، ثم تلقى رسالة تالية من صديق للزحلاوي ينعاه إليه عن عمر شارف التسعين.

نشر حبيب الزحلاوي، عدا الكتب التي سلفت الإشارة إليها، مجموعات من الأقاصيص هي «شعاب قلب» و«أنات غريب» و«ضحكات القدر». وذكر أنيس منصور أن الزحلاوي كان يعتزم تأليف كتابٍ يهاجم فيه نفسه بعدما هاجم كل أعلام عصره، ولكن المؤكد أن هذا الكتاب لم يصدر، ولعلّ الزحلاوي قصد بترويج هذه الحكاية أن يلتمس عند الذين نقدهم عذراً، وكأنه يقول عن نفسه إنه ليس فوق مستوى النقد.

وصفوة القول في الزحلاوي: إنه كان غريباً عن المجتمع الأدبي المصري

والمجتمع الشامي بسبب شخصيته الهجومية الشرسة، ولعلّه أحدث ضجيجاً ولكن دون طحن، فقد بقي الأعلام أعلاماً ولم ينهدم أحدٌ منهم تحت معاول الزحلاوي. وهو إن استحق جائزةً عن أعماله، فهي الجائزة التي يطلق عليها في الغرب Booby Prize التي تمنح لآخر المتسابقين في الشوط تسريةً لهم عن خسارة المباراة.

❁ ❁ ❁

خليل تابت

في أول آذار/مارس ١٩٤٥ توافق كريم تابت باشا (١٩٠٣ ـ ١٩٦٤) المحرر بجريدة «المقطم» مع أصحاب الدار على أن يتولّى بنفسه رياسة تحرير الجريدة المسائية اليومية الصادرة عن «دار المقتطف والمقطم» لأصحابها الدكتور فارس نمر باشا (١٨٦٥ ـ ١٩٥١) والدكتور يعقوب صروف (١٨٥٢ ـ ١٩٢٧) وشاهين مكاريوس (١٨٥٣ ـ ١٩١٠) خلفاً لأبيه خليل تابت بك، الذي آثر أن يتخلّى لابنه عن رياسة تحرير الجريدة، مكتفياً بكتابة مقالات الصدر اليومية وبالإشراف العام على أعمال الإدارة.

ورغبَ إليَّ كريم تابت في أن أتعاون معه في تحرير الجريدة، فاستقلت من عملي في إدارة جريدة الأهرام ـ حيث كنت أعمل بين عامي ١٩٤٢ و١٩٤٥ مفتشاً للتوزيع ـ وانضممت إلى أسرة تحرير المقطم، ولم أكن حتّى ذلك الوقت أعرف خليل تابت، ولا كانت لي به أي صلة، باستثناء متابعتي لمقالات الصدر الضافية التي كان يكتبها بلا إمضاء، والتي امتُحنت في ترجمة مقالةٍ منها قبل إجازتي للعمل في الأهرام. وعندما دَرَى أصدقائي من الصحفيين بانضمامي إلى المقطم، نبّهوني إلى مُحاذرة التعامل مع خليل تابت لأنه، في زعمهم، مثل الأسد الهصور، الذي لا يعرف إلّا الانضباط التام، وقالوا: إنه ينفجر في وجوه العاملين تحت إشرافه كلّما بَدَرَ منهم أي تقصير. فآثرت السلامة، وقرّرت أن يكون تعاملي مع ابنه رئيس التحرير الجديد كريم تابت، وأن أنأى قدر المستطاع عن هذا الأسد الهصور.

وذات يوم، وإذ كنت أباشر بعض الأعمال في تنضيد صفحات الجريدة في المطبعة، بعث إليّ خليل تابت بالساعي المنوط بخدمته ليقول لي: إن خليل بك يريد أن يراك بمجرّد الفراغ من عملك في المطبعة. فبادرتُ بالصعود إليه ولسان حالي يقول:

إذا لَـمْ يَـكُـنْ مِـنَ الـمَـوْتِ بُـدٌّ ... فَـمِـنَ الـعَـارِ أنْ تَـمُـوتَ جَـبَـانـاً

ووقفت بباب غرفته المفتوح، ودققت عليه بإصبعي مرّةً ومرتين ريثما يأذن لي بالدخول، فرفع رأسه عن أوراقه العاكف عليها وقال بحدّة: ما بالك واقفاً؟ ألا ترى أن الباب مفتوح على مصراعيه لتدخل بلا استئذان؟ ففعلت. ثم ابتدرني سائلاً: وهل أنجزت عملك في المطبعة؟ قلت: كلّا. قال: إذن اذهب وأنجز عملك أولاً - فهو الأهمّ - ووافني بعد ذلك. ولمّا عدتُ إليه سألني إنْ كانت لديّ أعمال عاجلة أخرى. فقلت له: كلا. فقال: إذن اجلس لأحدّثك. وفي لحظة، تحوّل هذا الأسد الهصور المزعوم إلى أبٍ حنون يوجّه ابناً ناشئاً، ويُسدي إليه نصائحه بكل الحبّ والعطف، ويطالبه بألّا يتردد في سؤاله إذا ما استغلق عليه أمر أو ووجه بموضوع شائك. ومنذ هذا اللقاء الأوّل مع هذا الصحافي العظيم تغيّرت صورته المرتسمة في خيالي من النقيض إلى النقيض، وصرنا صديقين ينتميان إلى جيلين متباعدين. فهو في الخامسة والسبعين من عمره، وكاتب هذه السطور في الثانية والعشرين.

وَطَّأْتُ لحديثي عن خليل تابت بهذه المقدمة التي تصوّر أول لقاءٍ لي معه، لأن فيه دروساً نكاد نفتقدها في يومنا المعاصر مع الأسف الشديد. فالرئيس في العمل لا يعزل نفسه عن أعوانه، وإنّما يفتح بابه لهم على مصراعيه في جميع الأوقات، وهو يؤمن بتواصل الأجيال، فينقل علمه إلى الأجيال التالية بكل سعة صدر وإيثار وحسن توجيه. وهو يحترم الواجب، فلا ينتزع مرؤوساً له من أداء واجبه بدعوى أن لمطالب الرياسة أولويةً أولى. وأشهد بأنني طوال عملي مع خليل تابت، وحتّى بعدما تخلّى عن عمله في الجريدة تماماً في عام ١٩٤٨، لم أصادف فيه إلّا أستاذاً مرشداً وناصحاً أمِيناً وموجِّهاً كريماً، وما أكثر ما هداني إلى المَحَجَّةِ عندما تورّط القلم في سهوٍ أو خطأ، وما أكثر ما أسمعني من عبارات التشجيع والثناء كلّما توسّم فيَّ بعض الخير.

وكان المجمعُ العلمي العربي (مجمع اللغة العربية بدمشق الآن) قد رغبّ إليّ في كتابة كلمة عن خليل تابت، عضوه المراسل، عند وفاته في عام ١٩٦٤. فرحّبتُ بهذه الدعوة، ولا سيما لأنه عزّ عليَّ ألّا أقع في الصحف المصرية، على كلمة إنصافٍ لخليل تابت بعدما أنفق نصف عمره في العمل في الصحافة المصرية وأقام في مصر ٦٢ عاماً كان فيها مواطناً صالحاً، فعقدتُ عليه فصلاً نشرته مجلة المجمع في عدد تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٤ كان ممّا قلته فيه:

«كان من قسمتي السعيدة أن عرفت هذا الكاتب الكبير عن قرب، وعملتُ معه زمناً ما، تتلمذت فيه على أستاذيته الآمرة، ثم خلفته في بعض عمله دون أن أرقى إلى ملء مكانه، فعرفت الكثير من سجايا خليل تابت الخلقية، وعلمه الغزير، وإطلاعه الواسع، وإحاطته الشاملة بقضايا الدنيا، ودقّته المفرطة في عمله، وحرصه بل غيرته على أمّة الضاد، واحتفائه بكل رأي خمير، وتشجيعه لكل مرجّو الغدّ.

وعرفتُ من أبوّته المعطاء وأخوّته البارّة وأستاذيته الملهمة وصداقته الوثقى الخيّرة ما يُشعرني إلى خاتمة يومي بشعور اليُتْم، وما يُعجز قلمي عن إتيانه شكراناً وعرفاناً على آلائه، وتقديراً ينصبّ على شخصه وعلى مفاخره ومواهبه، وعلى كفاحه بالقلم في سبيل نصرة كل قضية إنسانية عادلة، دَعْ عنك أنه كان في وقته المتطاول أعلى صوتٍ فرد يتحدّث عن العروبة والقومية حديثاً ملؤه الإيمان، كأنه رسول يبشّر بمبدأ جديد بين قوم لا يُصيخون.

وكان أبْصَرَ كُتَّابِ جيله بقضايا العروبة ورجالها، كما كان أكْتَبَ كتاب الصحافة في تعليقاته اليومية الذكية، تعليقاتٍ كم تُنوقلت في صحافة المشرق والمغرب، وكم أحدثت دويّاً في دوائر المسؤولية؛ لأن كاتبها اشتهر بالنزاهة والاعتدال، ومقارعة المنطق بالمنطق، واعتماده في المقام الأوّل على تأكيد الحجة الدامغة التي يمتنع معها كل جدالٍ أو صيال».

وُلد خليل داود تابت ـ وهو اسمه الكامل ـ في دير القمر بلبنان في عام ١٨٧٠، والتحق بالمدارس المختلفة، ثم انضمّ إلى الكلية السورية الإنجيلية (جامعة بيروت الأميركية اليوم) وتخرج منها في عام ١٨٩٢ بدرجة بكالوريوس في العلوم، مُزاملاً صديق عمره الدكتور فارس الخوري (١٨٧٧ ـ ١٩٦٢) رئيس وزراء سورية الأسبق، وممثلها المرموق على منابر الأمم المتحدة.

وعلى إثر تخرّجه، عمل في الصحافة اللبنانية، ثم اشتغل بالتدريس في المعهد الذي تخرّج منه، وكان ذلك في عام ١٩٠٠، وقرّر بعد عامين الانضمام إلى قافلة الشوام النازحين إلى مصر، وفي القاهرة تزوّج عام ١٩٠٢ من الآنسة «إيما شاهين مكاريوس» ابنة أحد أصحاب «دار المقتطف والمقطم»، وهنا عرض عليه أصحاب الدار السفر إلى السودان للاضطلاع بتحرير جريدة «سودان تيمس»

التي كانوا يصدرونها في الخرطوم باللغتين العربية والإنكليزية، وبقي يحرّرها خمس سنين حتّى استدعاه أصحاب الدار إلى القاهرة للعمل محرراً في «المقطم».

ولم يلبث أن أُسندت إليه رياسة تحرير الجريدة خلفاً لمنشئها الدكتور فارس نمر، وذلك عندما تعرّضت الجريدة للاعتداءات من جانب المتظاهرين أثناء ثورة عام ١٩١٩ اعتقاداً منهم بأن الجريدة بنشرها أخبار النظام الإنكليزي الحاكم إنما تمالئ الاحتلال الإنكليزي، ونجح خليل تابت في تبديد هذا الاعتقاد بسياسته المعتدلة الحكيمة التي درج عليها طوال أربعين عاماً بعد ذلك، حتّى صارت الجريدة صوتاً مسموعاً في الدفاع عن قضايا الوطن العربي كلّه، بل إنَّ صوتها ارتفع في الدعوة إلى العروبة في وقت كانت هذه الدعوة تصادف فيه نفوراً، على اعتبار أن مصر كانت مشغولة أساساً بقضيتها الوطنية ولا شأن لها بقضايا العرب.

وليس أدلّ على ذلك من أن عبد الرحمن عزام باشا (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦) ـ الذي أصبح فيما بعد أول أمين عام لجامعة الدول العربية ـ زار الزعيم سعد زغلول باشا (١٨٦٠ ـ ١٩٢٧) لمحاولة إقناعه بأن اجتماع الصف العربي كفيلٌ بانتزاع حقوق العرب من المغتصبين الأجانب، ولكن سعداً لم يقتنع بهذا الرأي وسأل عزّاماً: كم يساوي الصفر إذا أضيف إلى أصفار أخرى؟ فقال عزام: إنه يساوي مئاتٍ وآلافاً إذا ما اجتمعت هذه الأصفار إلى يمين الواحد الصحيح، وهو مصر، مصداقاً لقول الشاعر القروي:

أَصَابِعُ كَفِّ المَرْءِ فِي العَدِّ خَمْسَةٌ ولكنَّها فِي مَضْرَبِ السَّيْف وَاحِدُ.

وعندما اختار خليل تابت التقاعد من العمل الصحفي في عام ١٩٤٨ لخلاف شجر بينه وبين الدكتور فارس نمر، آخر الباقين على قيد الحياة من مؤسسي الجريدة ـ كتب كلمةً يوّدع بها قراءه، ولكنّنا حجبناها عن النشر أملاً في تسوية هذا الخلاف، فباعدنا بذلك بينه وبين توديع قرائه كما كان يحبّ.

وإذا كان خليل تابت قد تقاعد من العمل الصحفي، فهو لم يتخلّ عن المشاركة بجهده في أنشطة أخرى عامّة، فكان رئيساً لمهرجان تكريم الشاعر خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩) الذي أقيم في دار الأوبرا الملكية في عام ١٩٤٧، وعضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي بدمشق منذ ٥ آذار (مارس) ١٩٣٣، ورئيساً للجنة نشر مؤلفات العلّامة أحمد تيمور باشا (١٨٧١ ـ ١٩٣٠)، ورئيساً

للنادي الشرقي الذي كان يضمّ أعضاء الجالية الشامية في مصر، ورئيساً لجمعية متخرّجي جامعة بيروت الأميركية في مصر، كما كان عضواً مُعيّناً في مجلس الشيوخ المصري منذ عام ١٩٣٦ وعلى مدى دورات متتالية، وفيه زامل رجالاً من أمثال أنطون الجميل باشا (١٨٨٧ ـ ١٩٤٨) رئيس تحرير جريدة «الأهرام»، وعباس محمود العقّاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) والدكتور إبراهيم بيومي مدكور (١٩٠٢ ـ ١٩٩٥) الذي تولّى رياسة مجمع اللغة العربية المصري بعد ذلك. وقد أخبرني العقّاد بأنه كان يتسابق مع زميليه خليل تابت وإبراهيم مدكور على الحضور، وبانتظام صارم، إلى مجلس الشيوخ في الموعد المحدّد لبدء الجلسة، فلا يتأخرون عنه مثل زملائهم الآخرين من «حضرات الشيوخ المحترمين» كما كان يُشار إليهم في ذلك الحين.

وكان من التقاليد المرعيّة في تلك الأيام عدم جواز الإنعام برتب أو نياشين على أعضاء مجلسي النواب والشيوخ، وترتّب على ذلك أن الابن كريم تابت مُنح رتبة الباشوية (لأنه لم يكن عضواً في البرلمان) في حين تأخّر الإنعام بنفس الرتبة على أبيه إلى عام ١٩٥١ عند انتهاء عضويته البرلمانية. فصار الأب يخاطب ابنه بقوله: يا سعادة الباشا. وإذا كان الابن قد سبق أباه في ميدان المرتب، فقد سبقه في الارتحال عن هذه الدنيا بأربعين يوماً. وكان خليل تابت قد عاد إلى لبنان في عام ١٩٦٢ بعدما كُفَّ بصره وهزلت بنيته القويّة، ولقي وجه ربه في الثامن من أيار (مايو) ١٩٦٤، ودفن في بلدته دير القمر.

وأذكر بين عُضادتين أنني شاركت بنفسي في تشييع جنازة كريم تابت، وفوجئت مع جمهور الحاضرين في الكنيسة بما استهلّ به القسّ الخدمة الجنائزية حيث قال: نزولاً على أمر مَنْ لا أملك لأمرهم ردّاً، فلن أذكر اسم الفقيد طوال الخدمة، وهي عبارة ردّدها في ختام الخدمة دون إشارة إلى اسم الفقيد.

وكان خليل تابت يحترم عمله ويحترم قارئه، وفي سبيل ذلك درج على قراءة حتّى الإعلانات المبوبّة لكي يصوّب لغتها ويُقيم عبارتها. وكنت أراه يصحّح عبارة البلاغات الرسمية وخطب المسؤولين، فإنْ اعترضت على ذلك بدعوى أن النصوص الرسمية ينبغي أن تبقى على علّاتها، كان ردّه المفحم: أنا لا أقبل أن أنشر أغاليط في جريدتي، وأولئك الرسميون ليسوا خبراء في اللغة، ومن الواجب عليّ أن أصحح أخطاءهم وأنبههم إلى فساد تعبيراتهم.

وفي بداية عمل خليل تابت في «المقطم»، اختار أن يقيم هو وأسرته في مبنى الجريدة، فكان يستيقظ في الفجر، وينتقل من غرفة النوم إلى غرفة المكتب ليطالع الأخبار الدولية وهي خارجة لتوّها من المبرقة الطابعة ـ آلة ألتيكرز ـ ثم يصغي إلى راديو لندن ليتابع نشرة الأخبار الصباحية، ويعكف بعد ذلك على كتابة تعليقاته في مقالة الصدر اليومية لتنشر على الصفحة الأولى، وتُستكمل بقيّتها في صفحاتٍ داخلية. وبسبب السرعة في الكتابة كان يتعذّر على المحررين قراءة خطّه المتشابك المفتقر إلى علامات الترقيم، ولكن عمال المطبعة أجادوا قراءته بطول المراس، فكنا نرجع إليهم لتفسير ما استعصت علينا قراءته.

وكانت لخليل تابت قدرة فائقة على جمع شمل الأخبار المتناثرة، فيؤلّف من شتاتها صورةً واضحة المعالم يتابعها القراء دون مشقة، ولا سيّما لأنه كان يرفد تعليقاته بمعلومات عن الأشخاص والأماكن والأحداث يستمدّها من حصيلة مطالعاته وتجاربه ورحلاته في سنوات طويلة.

في عام ١٩٤٩ أو نحوه، سافر خليل تابت إلى لبنان للاصطياف، ولمّا عاد ألقى محاضرة في النادي الشرقي عن لبنان كما رآه. وكان من جملة ما قاله: إن الحكومة اللبنانية رغبت في الاستعانة بآراء الخبير الاقتصادي العالمي البلجيكي ڤان زيلند، فاستدعته لينظر في أحوال لبنان الاقتصادية، وقام ڤان زيلند بدراسة جميع البيانات والتقارير الاقتصادية التي قدمت إليه، وتبيّن حسب الأصول الاقتصادية أن بلداً هذا شأنه لا بدّ أن يكون مفلساً، ولكنّه رأى الانتعاش مزدهراً، والحركة التجارية ناشطةً، والناس يعيشون في رخاء ووجد نفسه أمام لُغْزٍ محيّر لا يعرف له تعليلاً. ولمّا سأل عن تفسير لهذه الظاهرة، قيل له: إن موارد لبنان الخفية هي التي تعدل الميزان، فالمهاجرون في الخارج يصبّون الملايين في الداخل كمساعدات لعائلاتهم، والسياحة تصبّ ملايين أخرى، والسوق الحرة للذهب والنقد تصبّ بدورها ملايين، وحركة الترانزيت تعود على الاقتصاد بملايين، يضاف إلى هذا أن زراعة الحشيش تدرّ كذلك حصيلة مقدورة.

ولمّا نشرنا نصّ هذه المحاضرة في «المقطم»، علّق عليها دولة إسماعيل صدقي باشا (١٨٧٥ ـ ١٩٤٥) وكان رئيساً سابقاً للوزارة، كما كان عنيفاً في رفضه لفكرة العروبة والجامعة العربية، بأن نشر مقالاً في جريدة «المصري» دعا فيه إلى الاعتراض على الانضمام إلى جامعة عربية مع دولة تصدّر لنا الحشيش!

وقد رددتُ عليه وقتها قائلاً ما معناه: لو امتنع متعاطو الحشيش عن تناوله لامتنع لبنان عن زراعته لبوار أسواقه. فليس العيب في لبنان بل فينا نحن. كما شارك في الرد على صدقي باشا الصحفي الكبير حبيب جاماتي (١٨٨٧ ـ ١٩٦٨).

ولخليل تابت قلّةٌ من الكتب المطبوعة، ولكن لو جمعت فصوله اليومية المندرجة في «المقطم» ومقالاته المنشورة في «المقتطف» لتألفت منها عدة مجلدات ضخمة تسجّل يوماً بيوم الأحداث المحلية والعربية والعالمية تسجيلاً أميناً.

ومن الكتب لتي تحمل اسمه «فتاة الإسكندرية»، وهي رواية مترجمة، وكتاب «مستقبل العالم العربي» الذي اشترك في وضعه مع أنيس الخوري المقدسي (١٨٨٦ ـ ١٩٧٧) والدكتور عبد العزيز الدوري (١٩١٧ ـ) والدكتور ألبرت بدر، وصدر هذا الكتاب عن هيئة الدراسات العربية في جامعة بيروت الأميركية، كما ترجم كتاب «مسّرات الحياة» للورد أفبري ونشره تباعاً في جريدة «السودان» بتوقيع «خ.ت»، وكان ـ على ما يؤكّد يوسف أسعد داغر (١٨٩٩ ـ ١٩٨١) أول كتاب يطبع وينشر في السودان. وعندما نشر العلّامة جرجي زيدان (١٨٦١ ـ ١٩١٤) كتابه «تاريخ التمدن الإسلامي» تناوله خليل تابت بالتعليق والنقد في أحد عشر مقالاً نشرها تباعاً في «المقتطف» بين عامي ١٩٠٠ و١٩٠٣. كما نشر في «المقتطف» سلسلة من المقالات بعنوان «ذكريات السودان من ٤٠ سنة» سجّل فيها تاريخ الصحافة والطباعة في هذا القطر.

وعندما توفيت زوجته في عام ١٩٣٦ رثاها بمقال بعنوان «امرأة فاضلة: إلى زوجتي» يُعدُّ من أبلغ ما كتب في أمثال هذه المناسبات وارتدى عليها الحداد نحو ثلاثين عاماً دون أن يبدّله، ولم أره أبداً إلّا وهو يرتدي سترةً سوداء وربطة عنق سوداء وفاءً منه لهذه السيدة التي أنجبت له ثلاثة من البنين هم كريم والطبيب فريد والدكتور سمير الذي كان نائباً لرئيس جامعة بيروت الأميركية والسيدتين نادية زنانيري وليلى صيداوي، وقد استقروا جميعاً في لبنان.

ويقول مسعود ضاهر مؤلّف كتاب «الهجرة اللبنانية إلى مصر»: إن جريدة «لسان العرب» وصفت خليل تابت بأنه «أعلم الصحافيين في مصر دون منازع»، ولا أحسب أن في هذا الوصف أي مبالغة.

❁ ❁ ❁

خليل مطران ويوسف نحاس

مرّت في أواخر شهر حزيران (يونيو) ١٩٩٩ الذكرى الخامسة والأربعون لوفاة خليل مطران، الذي كُني بشاعر القطرين (أي مصر ولبنان) ثم بشاعر الأقطار العربية، والذي توفي في القاهرة في ٣٠ يونيو ١٩٤٩.

وقد عرفتُ هذا الشاعر العظيم عن قرب شديد في السنوات الأخيرة من عمره، وكنتُ أزوره كل يومين لافتقاده وسؤاله عمّا إذا كان يحتاج إلى خدمةٍ أسديها إليه، وكانت زيارتي الأخيرة له قبل يومين من وفاته، وقد حرص يومها على أن يودّعني وداعاً حارّاً، ويشكرني على موالاته بالسؤال، ورجاني ألّا أحمل نفسي مشقة التعريج عليه، ودعا لي دعواتٍ طيّبات. ولم ألقه بعد ذلك إلّا مسجّىً في تابوت تقام من حوله الصلوات الأخيرة قبل أن يوسّد الثرى في مقابر الصدقة، إذ لم يكن قد ابتنى لنفسه قبراً.

وذهلنا صباح يوم الجنازة بصدور إحدى صحفنا الكبرى وفي صدر صفحتها الأولى صورة لمطران في تابوته، ذلك أن مصوّر الجريدة تسلل إلى الكنيسة التي أودع فيها الجثمان قبل بدء الخدمة، والتقط صورة للشاعر بعدما أزاح غطاء التابوت، وانفرد بهذا «السبق الصحفي» الذي أثار اشمئزازاً شديداً في ذلك الوقت.

والذين كتبوا عن مطران في حياته كثيرون، حتّى لقد قال في قصيدة جعل عنوانها: «الشاعر يوقّع على وتره الأخير لحن الرضى وسكينة النفس» إنه استوفى من الدراسات فوق وزنه، وإنه استسلف في الحاضر ما سيقال عنه في المستقبل. وبتعبيره الخاص:

أمَّا الجَزَاءُ، فإنيَّ اسْتَوْفَيْتُ ... مِنْهُ فَوْقَ وَزْنِي
فِي الحَاضِرِ اسْتَسْلَفْتُ مَا ... سَيَقُولُهُ التَّالُوْنَ عَنِّي

كما كتب عنه كثيرون بعد رحيله، وقد راجعت طائفةً غير قليلة من المؤلّفات

التي كُسِرَتْ على مطران، ومؤلفوها: الدكتور إسماعيل أحمد أدهم والدكتور جمال الدين الرمادي، وطاهر الطناحي، والدكتور فوزي عطوي، والدكتور محمد صبري السوربوني، وأحمد حسين الطماوي، والدكتور محمد مندور، والدكتور ميشال جحا، ومنير عشقوتي، ونجيب جمال الدين، والدكتور محمود بن الشريف، ومصطفى عبد اللطيف السحرتي، وهناك كتب أخرى لم أقع عليها من تأليف الدكتور نقولا سعادة، وحسن نصر الله، وعبد اللطيف شرارة، والدكتور مختار الوكيل وغيرهم، فلاحظت أنهم إمّا أغفلوا الصلة الوثيقة بين مطران وصديقه الحميم الاقتصادي الدكتور يوسف نحاس بك، وإمّا أشاروا إليها إشارةً عارضة، ممّا حدا بي إلى استقصاء هذه العلاقة، ولا سيّما لأنني اقتربت من صاحبيْها كثيراً، بل وقفت في عام ١٩٥٥ على إصدار كتاب عنوانه «ذكريات السودان» من تأليف «الدكتور يوسف نحاس وقف جميع فصوله على وصف زيارةٍ للسودان قام بها مع صديقه مطران في عام ١٩٤٥.

ولد يوسف فتح الله نحاس حوالي عام ١٨٧٥ في أسرة حلبية، وليس في حياته الباكرة ما يستحق التسجيل باستثناء أنه كان جادّاً في طلب العلم حتّى استطاع في سنٍ صغيرة نسبياً أن يظفر بدرجة الدكتوراه في القانون من عمدة مدرسة الحقوق العليا بباريس، وأن ينشر أطروحته الجامعية في العاصمة الفرنسية في عام ١٩٠١ بعنوان Situation Economique et Sociale du Fellah Egyptien، وهو كتاب استأثر باهتمام خليل مطران، فكتب يقرّظه في «المجلة الجديدة» التي كان يصدرها في مطلع هذا القرن قائلاً: «إنه شرقيّ مجتهد، رأينا ذكاءه يتألق كالصبح، وسمعنا دويّ الثناء عليه يجتاز البحار، ويطرق آذان شبابنا كأنه صوت منبّه يقول لهم: حي على الفلاح». ولم يلبث مطران أن أخذ على عاتقه مهمة نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية، فصدر في عام ١٩٢٦ بعنوان «الفلاح، حالته الاقتصادية والاجتماعية»، وقدّم له قاضي قضاة مصر الدكتور عبد العزيز فهمي باشا بمقدّمة قال فيها: «اتفق أن زارني صديقي الأستاذ الكبير عزيز منسي ومعه شاب ظريف الشمائل، حسن المخايل، لا يكاد يتجاوز العشرين، وتفضل فعرّفني أنه يوسف نحاس... حادثت «يوسف»، فوجدت الأدب والعلم والذكاء، كل ذلك ينفجر من خلال بيانه، فوقع في نفسي إجلاله وإعلاء قيمته». ثم قال بعدما قرأ ترجمة مطران للكتاب: «استوعبت ما فيه، وأدركتُ أنّي عثرت على عقل ناضج، وعلم

واسع، وغيرة وطنية نادرة، في أدبٍ تام، ونفس سمحة، وظرف باهر. شخصية هي نُهزة مُبتغي المصادقة. ومنذ ذلك اصطفيت نحاسّاً أخاً قرنته إلى النفر الذين اصطفيتهم من خيرة إخواني الأوفياء، والإخوان الصحاح قليل، ولقد دام لي وداده إلى اليوم، لم ترنقه أكدار الحدثان، وكان لي عوناً أرجع إليه في كثير من شؤوني خاصها وعامها».

وأذكرمن قبيل الاستطرد أن عبد العزيز فهمي باشا هو الذي ترجم «مدوّنة جستنيان» إلى اللغة العربية بتكليف من الدكتور طه حسين، وهو الذي فاجأ مجمع اللغة العربية في مصر - وكان من أعضائه - بمشروع غريب دعا فيه إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية أسوة باللغة التركية الحديثة، وهي قضية خسرها قاضي القضاة بإجماع أعضاء المجمع، ولم يقف معه من خارج المجمع إلّا سلامة موسى.

وعندما توفي والد عبد العزيز فهمي باشا رثاه خليل مطران بقصيدة (مندرجة في الديوان - الجزء الثاني - الصفحات ٢٦٧ - ٢٧٠) مطلعها:

أَتُـرَى جَـازِعـاً، وَأَنْـتَ صَـبُـوْرُ إنَّ خَـطْـبـاً أَكْـبَـرْتَـه لَـكَـبِـيْـرُ
ثُكِلَتْ مِصْرُ مَنْ جزِعْتَ عَلَيْهِ ثُـكْـلَ أُمٍّ فَـقَـلْـبُـهَـا مَـفْـطُـوْرُ

لم يكتف خليل مطران بنشر كتاب «الفلاح» للدكتور يوسف نحاس، بل اشترك معه في ترجمة كتابٍ هام عن «الأحوال الزراعية في القطر المصري أثناء حملة «نابليون بونابرت» وهو من تأليف ب.س. جيرار ونشرته الجمعية الزراعية الملكية في عام ١٩٤٢، وقدّم للكتاب الأمير عمر طوسون رئيس الجمعية، وهو من أشرف أمراء الأسرة المالكة، وفؤاد أباظة باشا مدير الجمعية الذي ذكر أن الجمعية «ألحقت بالكتاب جدولاً لبعض الاصطلاحات الزراعية الحديثة التي تقيّد بها المترجمان بالأصل الفرنسي،ولم تجد الجمعية بداً من تدوينه حسب العرف الزراعي المتداول».

وصلة مطران بيوسف نحاس تمتد إلى أسرته من ناحية الوالدين ومن ناحية زوجته كريمة يوسف سابا باشا، الذي كان وزيراً للمالية ومديراً للبريد - وهوأيضاً حلبيّ الأصل - وقد أطلق اسمه على أحد أحياء الإسكندرية (حي سابا باشا). فعندما توفيت والدة «الصديق الحميم والعالم الاقتصادي المشهور الدكتور يوسف

نحاس بك» رثاها مطران بقصيدة نونية (وردت في الجزء الثالث من ديوان الخليل على صفحتي ١٩٢ و١٩٣) قال فيها:

أيُّ أمٍّ بَـرَّتْ كَـبِـرِّكِ بـابـنٍ جَعَلْتِهِ المَثَالَ بَيْنَ البَنِيْنِ؟
ورِعْتِهِ فَحَلَّ مِنْ ذِرْوَةِ العَلْيَاءِ فِـي ذلـك الـمَـحَـلِّ الأمِـيْـنِ

وعندما توفي نجل يوسف سابا باشا رثاه بقصيدة (وردت في الجزء الثاني من الديوان على صفحتي ١٢٤ ـ ١٢٥). مطلعها:

ما فِي الأَسَىٰ مِنْ تَفَتُّتِ الكَبِدِ مِـثْـلُ أَسَـىٰ والـدٍ عـلـى وَلَـدِ

وعندما توفي سابا باشا رثاه بقصيدة بائية (وردت في الجزء الثالث من الديوان على الصفحات ٣٥ ـ ٣٨) مطلعها:

عَزَّ المَعَالِيَ، ماتَ يُوْسُفُ سَابَا عَـزَّ الـفَـضَـائِـلَ فِـيْـهِ والآدابـا
عَـزَّ الإِمـارَةَ والـوِزَارَةَ والـنَّـدَىٰ والـبَـأْسَ والأَنْـسَـابَ والأَحْـسَـابَـا

عمل مطران بالصحافة في مطلع هذا القرن فأصدر «المجلة المصرية (١٩٠٠ ـ ١٩٠٢) ثمّ «الجوائب المصرية» (١٩٠٣ ـ ١٩٠٥) فاستنزفت الصحافة الخاصة أمواله. وكان قبل ذلك قد عمل في جريدة الأهرام قبل انتقالها من الإسكندرية إلى القاهرة. ويقول أنطون الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام: إن خليل مطران كان «يجلس على كرسي رياسة التحرير الذي أتشرّف بالجلوس عليه».

وفي عهد الخديو عباس حلمي الثاني عين خليل مطران سكرتيراً مساعداً للجمعية الزراعية الخديوية، إذ كان قد تمرّس بالاقتصاد، سواء بترجمته كتابيْ الدكتور يوسف نحاس، أو بمشاركته للشاعر حافظ إبراهيم في ترجمة كتاب ضخم في خمسة أجزاء عنوانه «الموجز في علم الاقتصاد»، من تأليف بول لروا بوليو مدير جامعة بواتييه الفرنسية، والمؤكد أن العبء الأكبر في ترجمة هذا الكتاب وقع على عاتق خليل مطران، لأن دراية حافظ إبراهيم باللغة الإفرنسية وبالمصطلحات الاقتصاية كانت بدائية.

ولمّا أنشئت النقابة الزراعية المصرية العامة عام ١٩٢١ برياسة الأمير يوسف كمال وبلولبها النشط الدكتور يوسف نحاس بك، اختير نحاس سكرتيراً عاماً لها والشاعر خليل مطران سكرتيراً عاماً مساعداً، والواقع أن هذه الوظيفة كانت شبه

شرفية، وكانت من مكرمات يوسف نحاس، إذ أريد بها توفير راتب شهري لخليل مطران يحفظ له كرامته. ولم يكن مطران بالتالي مكلفاً بالذهاب إلى مقر الجمعية في شارع الملكة فريدة (عبد الخالق ثروت فيما بعد) ولا كان له دور كبير في نشاط الجمعية. والمهمّ أنه ظلّ يشغل هذا المنصب حتّى أقعده المرض، وبقيت الجمعية تزاول نشاطها في إعداد البحوث والتقارير المتعلقة بالزراعة المصرية ثلاثين عاماً، وتجري على مطران راتبه الشهري دون تخلّف.

وفي هذه الأثناء، عين خليل مطران مديراً للفرقة القومية المصرية بمسرح حديقة الأزبكية، فأشرف على النشاط المسرحي في مصر عدة سنوات.

وفي عام ١٩٤٥ اعتلّت صحة خليل مطران والدكتور يوسف نحاس، ونصحهما الطبيب بقضاء فصل الشتاء في مكان دافئ. وكانا قد اعتادا قضاء الشتاء في «بنسيونات» ضاحية حلوان القريبة من القاهرة، والتي كانت تتميز بجفاف طقسها. ولكن يوسف نحاس أقنع صاحبه بالسفر إلى السودان ابتغاء الاستشفاء والاستجمام والراحة. ولم يكد ركبهما يحط في العاصمة الخرطوم، حتّى خرجت الدولة كلها لتحيتهما ممثلة في الحاكم العام، والزعيمين المهدي باشا والميرغني باشا، ورجال الأحزاب، ونادي الخريجين الذي كان له دور وطني هام، والأدباء والشعراء... خرجوا جميعاً لتحية الزائرين الكبيريْن تسبقهما شهرتهما. فالتفّ الأدباء والشعراء حول مطران، ورجال الاقتصاد والزراعة حول نحاس، واستفاضت المساجلات الأدبية والشعرية والأحاديث الاقتصادية والزراعية ممّا توسّعت الصحف السودانية في متابعته. وقد سجّل الدكتور نحاس وقائع هذه الرحلة الجميلة في كتابه «ذكريات السودان» الذي وقفتُ على نشره في عام ١٩٥٥ في طبعة محدودة وزّعت على أصدقاء المؤلف.

ولدى عودتهما إلى القاهرة، نظم مطران قصيدة عنونها «زيارة السودان» (مدرجة في الجزء الرابع من الديوان على الصفحات ٣٣٩ ـ ٣٤١) قدّم لها بقوله: «في شتاء عام ١٩٤٤ (الصحيح عام ١٩٤٥) سار الشاعر مع صديقه الاقتصادي الكبير الدكتور يوسف نحاس بك إلى السودان، ولقيا من حفاوة كرام السودانيين وتحية أدبائهم ما يعجز عنه الشكر، فلمّا عادا من تلك الرحلة، وتعافى الشاعر من داءٍ كان يعانيه، سمحت قريحته بعد عصيان، فنظم القصيدة التالية مهداةً إلى أولئك الإخوان الأعزّاء».

وقد جاء في القصيدة:

عَلَيَّ لِصَفْوَةٍ نُجُبٍ حُقُوقٌ ... أَنُوءُ بِهَا، وأَعْبَاءٌ ثِقَالُ
لَقُونِي زَائِراً، وَلَقُوا صَدِيقِ ... بِأُنسٍ فاق ما كنّا نخال
وأَوْلَوْنَا القَلائِدَ في حُلاهَا ... تَنَافَسَ الارتجالُ والاحتفالُ
فما أنا فِي الوَفاءِ، وما رفيقي ... إذا ما أَعْجَزَ الشُّكْرَ النوالُ؟
قَضَى ما اسطاعَ يوسفُ عن أخيه ... ونِعْمَ العونُ يوسفُ والثَّمَالُ

وفي هذا البيت الأخير إشارة إلى أن مطران كان في حقيقة أمره ضيفاً على يوسف نحاس طوال هذه الرحلة. و«الثمال» تعني المغيث والمسعف.

وفي عام ١٩٤٧ تنادى أعيان الجاليات الشامية في مصر وجماعة النادي الشرقي برياسة خليل تابت باشا محرر جريدة «المقطم» لتكريم خليل مطران، وتبرّعوا بسخاء لإقامة مهرجان كبيرٍ له في دار الأوبرا الملكية، ولطبع الأجزاء الأربعة من ديوانه. وشهد المهرجان مندوبون من الأقطار العربية وممثل للملك الذي أعلن الإنعام على الشاعر برتبة البكوية من الدرجة الأولى. وكان مطران يحمل هذه الرتبة من الدرجة الثانية. ويتمثل الفارق في أن أرباب الدرجة الأولى يخاطبون «بحضرة صاحب العزة خليل مطران بك»، أما أرباب الدرجة الثانية فيخاطبون» بصاحب العزة. . .» أي بدون لفظة «حضرة»! بهذا قضى البروتوكول، أو المراسم بالتعبير الذي يستخدم اليوم.

وقد فاضت أريحية شوام مصر حتى توافر بعد الإنفاق على المهرجان وعلى طبع الديوان مبلغ من المال قدم إلى الشاعر للإنفاق عليه في أغراض العلاج من أمراض أقعدته وكلفته باهظ المال. كانت في غرفة جلوسه آلة طرب ـ هي البيان ـ ولكنها لم تطرب الشاعر، بل استخدمت لرص عشرات بل مئات من قوارير الأدوية حتى صار مطران يقول: إن هذا البيان هو صيدليتي! أما أمراضه، فقد وصفها لي بقوله: كان جوفي يمجّ حتى الماء الزلال، وكانت عيناي تشكوان كلالاً، وكان الصداع يشجّ رأسي، وكانت إبر المحاقن قد تركت آثارها في نواحي جسمي المختلفة، وكان دبري قد تهرّأ من إدماني الجلوس طول النهار. ولا عجب إن كان يتعجّل النهاية باستسلام وإيمان. ولولا نفحات النادي الشرقي وأريحياته ـ ويوسف نحاس في طليعة نصرائه ـ لتغالظت أسباب العيش أمام مطران في أواخر عمره.

وقد قام الفنان الدكتور إدوارد غرزوزي بصنع تمثال من البرونز لخليل مطران نصب عند مدخل دار الأوبرا اعترافاً بدوره في رعاية الحركة المسرحية عندما كان مديراً للفرقة القومية المصرية، وهو التمثال الذي قال فيه مطران:

مِـنَـالِـي رَاعَـنِـي حَـقّـاً أَأَنْـتَ أَعَـدْتَـنِـي خَـلْـقَـا
بِـأَيَّـةِ صَـنْـعَـةٍ عَـجَـبٍ أَعَـرْتَ الـصُّـوْرَةَ الـنُّـطْـقَـا
فَـكَـادَ الـنَّـقْـلُ يَـحْـكِـي الأَصِـيْـلَ حَـتّـى لا أرى فَـرْقَـا

وعندما احترقت دار الأوبرا الملكية في القاهرة، صهرت النيران التمثال وشوّهته، وعوضاً عن إصلاحه، تمّ اطّراحه في مخزن مهجور.

ومن عجبٍ أن تمثاله المنصوب في موطن رأسه بعلبك انفجرت فيه قذيفة أثناء حرب لبنان الأهلية، تحطمت قاعدته وهشمّت جزءه السفلي، وهو من البرونز أيضاً. وقد رأى محمد علي فرحات في هذا الحادث «حلقة في مسلسل قتل الذاكرة في لبنان... خصوصاً الذاكرة الثقافية التي تكسب حاملها بعضاً من الاستقلالية والحسّ النقدي تجاه البشر والأشياء». (جريدة الحياة، ٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠). وتمنى فرحات تحويل بيت مطران في بعلبك إلى متحف «يزيد من أهمية بعلبك المشهورة بقلعتها التاريخية». وهي أمنية حاول بعض أدباء لبنان تحقيقها، فتنادوا إلى نقل رفاته من مصر إلى لبنان لدفنه في بعلبك، وتحويل ضريحه إلى مزارٍ كمزار جبران في بشرّي، وهي دعوة عارضتُها في حينها، لأنها تخالف رغبة مطران الذي كان يعد مصر أهلاً ووطناً بقوله:

يـا مِـصْـرُ أَنْـتِ الأَهْـلُ والـسَّـكَـنُ وَحِـمَـى عَـلَـىٰ الأَرْوَاحِ مُـؤْتَـمَـنُ

وينبؤنا الدكتور فوزي عطوي بأن مجلس الوزراء اللبناني اتخذ في شهر شباط (فبراير) ١٩٧٢ قراراً برصد مبلغ ٢٥ ألف ليرة لبنانية لنقل رفات الشاعر وإقامة تمثال له في بعلبك. وقد أقيم التمثال فعلاً (الذي تعرّض للنسف) أما الرفات فما زالت في مقابر الصدقة في مصر!.

وآخر حفاوة صادفها مطران في مصر هي التي تجلّت في المهرجان الذي أقامه المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٩ بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاة مطران، وشارك فيه عدا رئيس المجلس أدباء من طبقة عباس محمود العقاد، وعبد الرحمن صدقي،

وطاهر الطناحي، والدكتور محمد مندور، وعادل الغضبان، والعوضي الوكيل، وعلي أحمد باكثير، كما شارك فيه من لبنان صلاح الأسير، ومن سورية شفيق جبري، وسامي الكيالي، وعزيزة هارون، وسليم الزركلي، وأنور العطار، وعدنان مردم بك، والدكتور سامي الدهان، ومن اليمن أحمد محمد الشامي، ومن فلسطين كمال ناصر.

وبعد هذا المهرجان، تقلّص الاهتمام بخليل مطران، فلم يعد يذكر مقترناً بصاحبيه (الدهريْين) أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، ولا احتفل بمئويته، ولا صدر عنه طابع بريد تذكاري، ولا أطلق اسمه على شارع، بل صارت صحفنا الكبرى تحرّف اسمه إلى «مطران خليل مطران» على وزن جبران خليل جبران، وخليل جرجس خليل، وكرم ملحم كرم، وعبد الله أحمد عبد الله (ميكي موس)!.

وأعود إلى يوسف نحاس الذي سخّر كل علمه وخبرته للعناية بالزراعة، ولا سيما زراعة القطن الذي كان يمثل المحصول الأوّل في مصر، وللاهتمام بالحياة الصناعية والاقتصادية مساهماً في كل نشاط اقتصادي وطني، وكانت له مضاربات في الأسواق، فأفلس غير مرّة، ولكنه استعاد عافيته بعد كل صدمة من هذه الصدمات.

وقد ملأ الصحف العربية والإفرنسية المحلية بمقالات اقتصادية منبهاً أحياناً ومحذّراً أحيان أخرى، وهي مقالات كان لها وزنها الكبير في دنيا المال والأعمال، ولا سيما لأنه لم يكن يشغل أي منصب رسميّ، وإنما كان يستوحي العلم والخبرة والمصلحة العامة.

وتعرض في أواخر عمره لمحن عنيفة تحملها بكل شجاعة، إذ خضعت ضياعه الواسعة لقانون تحديد الملكية الزراعية ففقد أكثر من نصف ثروته، وأغلقت بورصة عقود القطن في الإسكندرية بعدما احتكرت الدولة تجارة القطن، وكان هو من كبار المتعاملين مع هذه البورصة، وفقدت بورصة الأوراق المالية منزلتها، وكانت له فيها مصالح كثيرة. ولم أره أبداً مقهوراً بسبب هذه الظروف المعاكسة التي تكالبت عليه. وكان قد أصيب بالفالج فاسترد القدر الأكبر من صحته بفضل العلاج. وفي بضعة الأيام الأخيرة من عمره، علت سحنته صفرة طاغية حسبها علّة اليرقان أو داء الصفراء، ولكنها كانت علّة اللوكيميا أو سرطان الدم، وبها انتهى عمره في عام ١٩٥٥.

وقد ترك الدكتور يوسف نحاس طائفة كبيرة من المؤلفات، عدا ما سلفت الإشارة إليه، منها «القطن في خمسين عاماً» و«جهود النقابة الزراعية المصرية العامة في ثلاثين عاماً» و«مصر والتبغ» وهو بالإفرنسية والعربية، و«حالتنا المالية والاقتصادية ١٩١١ ـ ١٩٤٣»، و«صفحة من تاريخ مصر السياسي الحديث: مفاوضات عدلي ـ كرزن»، و«ذكريات سعد ـ عبد العزيز ـ وماهر ورفاقه في ثورة سنة ١٩٣١: تصرفات حكومية»، والكتابان الأخيران يسجّلان، صوراً من علاقات يوسف نحاس السياسية، ودوره في مؤازرة وفود مصر في المفاوضات الرامية إلى تحقيق الاستقلال.

هذا الاقتصادي الكبير كان يضع إلى جوار فراشه ديوان المتنبي، فلا يشبع من تلاوته وترديد أبياته. أليست هذه ظاهرةً انتفت من دنيا المشتغلين بالاقتصاد والتجارة وشؤون المال في دنيانا المعاصرة؟.

❁ ❁ ❁

خليل مطران

في الثلاثين من يونيو ١٩٩٩ مرّت الذكرى الخمسون لوفاة الشاعر خليل مطران (في عام ١٩٤٩) الذي عُرف بشاعر القطرين ثم بشاعر الأقطار العربية. وقد مرّت هذه الذكرى في هدوء دون أن يلتفت إليها أي أجهزة للثقافة سواء في مصر التي اختارها لنفسه سكناً ووطناً حيث قال:

يـا مِـصْـرُ أَنْـتِ الأَهْـلُ والـسَّـكَـنُ وَحِـمَـى عَـلَـىٰ الأَرْوَاحِ مُـوْتَـمَـنُ

أو في لبنان الذي ولد في أحضانه في مدينة بعلبك عام ١٨٧٢. وقد عرفت هذا الشاعر العظيم في سنوات عمره الأخيرة، ويدعوني واجب الوفاء إلى تسجيل بعض ممّا عرفته منه وعنه، ولا سيّما لأنني أكاد أكون الشخص الوحيد الباقي على قيد الحياة من أصدقاء مطران الخُلَّص، كما كنت أتردّد على بيته كل يومين إلى أن استشعر قرب منيّته، فشكرني بلسانه وودعني بقبلاته، وبعد يومين اثنين قرأت منعاته في الصف.

كان خليل مطران يقيم وقتها في شقة متواضعة ليس فيها جهاز تليفون ولا جهاز تكييف ـ فلم تكن مستحدثات الحضارة قد اخترعت هذا الجهاز بعد ـ وكانت شقته تطلّ من ناحية على شارع عرابي، ومن ناحية أخرى على شارع سوق التوفيقية في عمارة قديمة ما زالت قائمة في موضعها، وإن احتلَّتها في إحدى زواياها مكتبة تابعة لهيئة الكتاب، واحتلت العمارة كلّها عشرات من المتاجر ابتداء بمحال بيع الأحذية وانتهاء بمحال صنع المشدّات النسائية.

وكان مطران يعاني وقتها من أمراض الشيخوخة التي تكالبت عليه، وحوّلته إلى ما يشبه الهيكل العظمي، فلم يكن في وسعه أن يخطو خطوتين إلّا معتمداً على كتفي خادمه «عباس»، وقد تهرأ دبره من مئات الحقن التي كان يعالج بها حتّى قال لي مرة: إن دبره بات يشبه دبر القرود بسبب ذلك. وكانت عشرات وربّما مئات من قوارير الأدوية ومغلّفاتها تفترش آلة البيانو في غرفة المعيشة

المتواضعة، وكان هو يجلس في هذه الغرفة بمفرده، فإن زاره صديق جالسه بعض الوقت، وإنْ لم يدق جرس الباب، شغل نفسه بتصفح الجرائد، حتى إذا ما أرخى الليل سدوله، توكأ على خادمه متوجهاً إلى غرفة نومه التي كان يسمّيها «المعتكف القصيّ».

وكنت أعرف أن خليل مطران يفتقد صحبة الأدباء الذين انشغلوا عنه باطّلاب المنافع، فحرصت في زياراتي له على أن أصحب معي بعض الأصدقاء من الأدباء، ومنهم الأديبة السورية وداد سكاكيني، وزوجها الدكتور زكي المحاسني، والشاعر حسن كامل الصيرفي، والناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتي، والأديب السوري الدكتور سامي الدهان، والمحقق اللغوي إبراهيم الإبياري وغيرهم. فكان يرحّب بهم وهو جالس لعجزه عن النهوض لتحيتهم، ويتحدّث معهم بصوتٍ واهن، فإذا انصرفوا من حضرته، رثوا له ممّا كان يعانيه من أوصاب الشيخوخة وتحالف الأمراض عليه.

وعندما توفي خليل مطران، نقل جثمانه في النعش المسجّى فيه إلى كتدرائية الموارنة في حي الظاهر ريثما يُصلّى عليه في الظهيرة، فتسلّل مصوّر جريدة «أخبار اليوم» إلى الكتدرائية مبكراً، وأزاح غطاء النعش، والتقط صورة لمطران بعدما نبتت له لحية خفيفة، واعتبرت الجريدة هذه الصورة سبقاً صحفياً، فنشرتها في الصفحة الأولى داخل إطار. ولكن هذا السبق الصحفي قوبل باستياء شديد من الجميع، لأن للموت حرمته، وإنْ جاز في الغرب عرض الجثمان على الناس، فهو تقليد ما زال ممجوجاً في الشرق.

لم يفتني طبعاً أن أشارك في جنازة صديقي مطران، وكان في صحبتي صديقي الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي، وخرجنا من الكنيسة ونحن نغالب دموعنا على هذا الرجل العظيم، الذي جمع إلى عبقريته الشعرية عبقرية أخلاقية أكسبته صداقات واسعة، وإنْ كانت هذه الصداقات فرضت عليه الإسراف في المجاملات الشعرية تهنئةً ورثاءً وتكريماً، ممّا حفل به ديوانه ذو الأجزاء الأربعة، وممّا أغرى النقاد على اتهامه بالإغراق في شعر المناسبات، ولم أصحب الجثمان إلى مقابر الموارنة في مصر القديمة، ولكنني علمت بعد ذلك أن مطران لم يكن قد ابتنى لنفسه مقبرةً خاصة، فدفن في مقابر الصدقة داخل قبو يتسع لعشرات من الراحلين، ولو أُريد اليوم نقل جثمانه إلى بعلبك لدفنه في ضريح يقام له في بلدته

إلى جوار منزل الأسرة وتمثاله المقام هناك، لتعذّر ذلك لصعوبة تمييز نعشه من بين عشرات من النعوش الأخرى؛ أي أنه أصبح تائهاً بين عالم من الأموات.

كان خليل مطران ضئيل الجسم حتى قال عن نفسه: «ومكاني إلّا من الطيف خال». وكان في أنفه تشويه ظاهر قيل في تعليله إنه سقط في صباه من ظهر جواد فحدث له هذا التشوّه الدائم. وكان يطلق شارباً كثيفاً، ويعتمر الطربوش وفقاً للعرف الساري، كما كان يستعين بعوينات غليظة. وإذا كانت كثرةٌ من وظائف جسمه قد تعطلت تحت وطأة الشيخوخة، فقد بقي سمعه حادّاً ووعيه شديد اليقظة.

عرفت خليل مطران بعد هاتف جاءني منه قال فيه: إنه يتابع مقالات الصدر التي كنت أنشرها في جريدة «المقطم» اليومية المسائية ـ وهي الثانية من حيث القِدَم بعد جريدة «الأهرام»، وعاتبني لأنني لم أسع إليه حتى ذلك الوقت قائلاً: إنه حريص على التعرّف بي. وكان هاتفه مبعث سروري واندهاشي في آن، ولهذا رحّبت بمقابلته في الموعد الذي حدّده في «النادي الشرقي» وهو نادٍ أنشأه شوام مصر، وكان يحتل من شارع سليمان باشا زاويةً عند شارع معروف ـ مكان عمارة النصر الآن.

وكنت قبل أن أتلقى هذا الهاتف قد تسلّمت من صديقي ألبير أديب صاحب مجلة «الأديب» اللبنانية المشهورة رسالةً رجاني فيها أن أتصل بصديقه خليل مطران، وأن أرجوه التوسّط لدى وزارة المعارف لكي تشترك في بضع عشرات من النسخ من مجلّته، توزعها على المدارس المصرية. ولم أكن وقتها أعرف مطران، فبعثت إليه برسالة بريدية نقلت إليه فيها فحوى رسالة ألبير أديب، ورجوته إبلاغي بنتيجة مساعيه مع الوزارة. ومضى أكثر من شهر دون أن أتلقى من مطران رداً، ورجّحت أن أمثاله من العظماء لا يحفلون بأمثالنا من الصعاليك. ولم أكن أعرف وقتها أنه كان يقضي بضعة أسابيع في فندق في حلوان حيث شمس الشتاء دافئة والجو صحّي جاف ـ كان هذا طبعاً قبل أن تنتشر المصانع في هذه الضاحية فتفسد أجواءها، وينتهي دورها كمشتى يقصده المتقدمون في السن. وفي هذا المشتى قابلت عبد القوي أحمد باشا وزير الأشغال والمؤرخ عزيز خانكي بك والاقتصادي الدكتور يوسف نحاس بك وغيرهم من عشّاق حلوان في ذلك الزمن الغابر.

دخلت «النادي الشرقي» للمرة الأولى في حياتي، وألفيت خليل مطران جالساً على مقعد في الحديقة، ماداً ساقيه لاستقبال أشعة الشمس، وكان معه الصحفي الأديب طاهر الطناحي الذي عرفته في هذا اللقاء واستمرت صداقتنا بعد ذلك إلى وفاته. وهو قد كان مُعجباً بمطران حتى وضع عنه كتاباً عنوانه «حياة مطران».

رحّب بي الخليل، وأكد لي أنه يتابع مقالاتي في «المقطم» بإعجاب، وقال: إنه كان يظنني أكبر من سنّي بكثير لأنني خَلَفْتُ في كتابة هذه المقالات شيخاً محنكاً من شيوخ الصحافة هو خليل تابت بك (قبل أن يصبح باشا). وكانت جلستي الأولى مع مطران. لمجرد التعارف، فقد كان حفيّاً بي، ورغب إليّ في أن أظل على اتصال به، فلم أخيّب أمله. وعندما حان موعد عودته إلى بيته توكأ على كتف إلياس الغضبان ـ عمّ الشاعر عادل الغضبان ـ الذي نقله بسيارته إلى منزله.

كان خليل مطران في عصره واحداً من ثالوث لا يكاد يفترق، أمّا صاحباه فهما الشاعر أحمد شوقي والشاعر حافظ إبراهيم، وكانت أسماء الثلاثة معاً تمثل حقبة من حقب التجديد الشعري. ولئن توفي شوقي وحافظ مبكرين ـ في عام ١٩٣٢ ـ فقد مدّ الله في عمر مطران حتى عام ١٩٤٩، ومع ذلك بقي هذا الثالوث الشعري متين الأوصال، سواء في العلاقات الشخصية بين الشعراء أنفسهم، أو عند نقاد الشعر بتحيّزاتهم المتباينة. ومع أن شوقي فاز بلقب أمير الشعراء، فإن طه حسين فضّل خليل مطران على الشعراء جميعاً حيث قال: «إن مطران زعيم الشعر العربي المعاصر، وأستاذ الشعراء العرب المعاصرين، يسمّيهم جميعاً بأسمائهم غير متحفّظ ولا متردد».

ولكن يبدو أن تراخي الأيام ـ من ناحية ـ وانحسار الهالة التي أحاطت بريادة الشوام للثقافة في مصر ـ من ناحية أخرى ـ ألحقا شيئاً من الجحود بخليل مطران نستشعره في يومنا الحاضر، وأوّل هذه البوادر الجاحدة هو إزاحة خليل مطران من الثالوث العتيد، حيث تقام المهرجات لشوقي ولحافظ دون أن يكون لمطران حظٌّ فيها. وقد أصدرت هيئة البريد المصرية في مناسبتين طابعين لتخليد ذكرى شوقي وحافظ دون أن تكون ذكرى مطران مستحقة لشيء من هذا.

وكان يتصدر دار الأوبرا الملكية تمثال برونزي لخليل مطران تعرّض للتشويه عند احتراق الدار، وانتهى به الأمر في مستودعٍ ما، وليت عارفاً يدلّنا على مكان هذا المستودع.

وليس لمطران شارع يحمل اسمه سواء في القاهرة أو في الإسكندرية التي عاش فيها فترة من حياته محرراً في جريدة «الأهرام» عندما كانت تصدر في الثغر.

وعندما أريد إعادة طبع ديوانه النافد اعتُرض على ذلك، لأن فيه كثيراً من القصائد في الملوك والأمراء والباشوات، وهي تشكّل حيّزاً كبيراً من ديوانه ذي الأجزاء الأربعة. فكان أن قام «شُطّار» بيروت بطبع ديوان الخليل دون حذف لأنه يمثل حقبة من حقبات التاريخ الأدبي التي لا يجوز إفسادها بالبتر والتشويه.

والذي أعرفه من مخالطتي الحميمة لخليل مطران أنه لم يكن يتكسّب بشعره، أي أن يمدح ذا مالٍ، أو جاه طلباً لنفع مادّي، وإنّما كان في كل شعره يصدر عن سليقةٍ إنسانية يرى معها صواب الاستجابة لدواعي التكريم والتأييد والتحيّة لأقوامٍ عرفهم وصادقهم، وعقد معهم وشائج من الودّ الحميم. كنت أزوره ذات مرّةً، فحضر لمقابلته وفد من رجال الدين في الأردن، وقالوا له: إنهم سيقيمون حفل تأبين لصديقه المطران فلان، ورجوه أن ينظم قصيدة في رثائه لكي تتلى باسمه في الحفل. فوعدهم خيراً. وعند انصرافهم التفت إليّ قائلاً: ها أنت تراني أعاني سكرات الألم، وحتّى شرب الماء يؤذيني، فهل كنتُ أُعتبر مقصّراً لو اعتذرت للوفد من عدم قدرتي على قول الشعر. ومع ذلك، يمنعني وفائي للفقيد وتكريمي لهؤلاء الزائرين من التخلّف عن هذا الواجب. وبعد أيام كانت القصيدة جاهزةً، ورجاني تدبير إرسالها إلى طالبيها في الأردن، ثم يجيء بعد ذلك اللوذعيون من النقّاد ويتهمون مطران بأنه شاعر مناسبات، وأنه يفصّل قصائده تفصيلاً على مقاس كل مناسبة.

كان مطران يشغل وظيفة مدير الفرقة القومية للتمثيل لقاء راتب متواضع كان يتقاضاه من الدولة. وفي سبيل النهوض برسالة هذه الفرقة، ترجم إلى اللغة العربية ثلاثاً من مسرحيات شكسبير هي «ماكبث» و«تاجر البندقية» و«عُطيل» لكي تمثل على مسرح دار الأوبرا. فلمّا تبيّن مطران صعوبة القيام برسالته عن طريق

هذه الفرقة، استقال منها دون أن تكون لديه وظائف أخرى تقيم أوده. فقام شوام مصر بإسناد وظيفةٍ رمزية إليه، هي سكرتير النقابة الزراعية العامة، وهي نقابة أنشأوها لدراسة أوضاع الزراعة في مصر، وكان يرأسها الاقتصادي المعروف الدكتور يوسف نحاس بك، ولم يكن مطلوباً من خليل مطران أن يذهب كل يوم إلى مكتبه في هذه النقابة في مقرها الكائن في شارع عبد الخالق ثروت، ولكن الغاية التي توخوها هي أن تكون لمطران وظيفة رسمية وأن يتقاضى عنها راتباً شهرياً يحفظ له كرامته.

وكان لشوام مصر نشاط ثقافي واجتماعي يضطلعون به، فأنشأوا «النادي الشرقي» و«نادي لبنان» وأنشأوا مستشفى دار الشفاء بتبرعات منهم، كما أنشأ سليم وسمعان صيدناوي مستشفى صيدناوي لخدمة العاملين في مؤسستهما وفي المجتمع المحلي.

وارتأى الشوام من أعضاء النادي الشرقي أن تكريم خليل مطران واجب لا يصحّ التجاوز عنه أو التأخير فيه بسبب حالته الصحية المتدهورة. فقدموا تبرعات سخية لهذا الغرض، وألفوا من بينهم لجنةً لتكريم مطران برياسة خليل تابت بك رئيس النادي. ونجحت اللجنة في إقامة مهرجان لتكريم مطران في دار الأوبرا الملكية في ٢٦ مارس ١٩٤٧ تحت الرعاية السامية للملك فاروق الأول والرعاية الحكومية لوزير المعارف الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهوري باشا، وتبارى الخطباء والشعراء من مصر والعالم العربي في تحية الشاعر، ووزعت على جميع الحاضرين مدالية مطلية بماء الذهب تحمل على أحد وجهيها صُورة مطران، وعلى الوجه الآخر البيانات الخاصة بالمناسبة، وأنعم الملك على مطران برتبة البكوية من الدرجة الأولى، وكان يحمل نفس الرتبة من الدرجة الثانية.

وكانت لهذا المهرجان ذيول، فأقيمت لتكريم الشاعر حفلات في المفوضية اللبنانية والمفوضية السورية، واشتركت خمسة أندية في تكريمه، وأقامت جمعية الاتحاد العربي حفلاً كما أقامت الهيئات الطائفية للروم الكاثوليك حفلاً.

واجتمعت الجاليات العربية في نيويورك بدورها لتكريم مطران. وأقيمت للشاعر مآدب غداء وعشاء في فندق شبرد ونادي الروتاري، وقامت لجنة تكريم مطران بنشر وقائع هذه المهرجانات في كتاب ذهبي. ولم يقتصر الأمر على ذلك،

بل قررت اللجنة طبع «ديوان الخليل» في أربعة أجزاء، ونظراً لأن مطران كان قد طبع في حياته الجزء الأول في عام ١٩٠٣، فقد ارتأت اللجنة الشروع بطبع الجزء الثاني ثم الثالث ويليهما الرابع وبعد ذلك الأول على أمل أن يتمكن مطران من مراجعة تجاربها بنفسه. ولكنه توفي قبل الشروع في هذه المهمة، فراجعت الدواوين اللجنة نفسها بخبرائها من العارفين بشعر مطران.

وكان مطران قبل وفاته قد أعدّ قائمة بأسماء أصدقائه في مصر والخارج الذين يرى إهداء الديوان إليهم، فاعتبرت لجنة التكريم أن هذه وصية واجبة النفاذ فاحترمتها.

وتبينت اللجنة بعد كل ما أنفقته من تبرعات أعضائها على المهرجانات والمطبوعات، أن لديها فائضاً من المال، فقدّمته إلى مطران للإنفاق منه على مطالب شيخوخته الفانية، وهكذا رعى الشوام خليل مطران إلى أن ودّع الدنيا.

وفي أيام الوحدة المصرية السورية، قرّر المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية إقامة مهرجان لمطران في الفترة من ٢٤ إلى ٢٦ أكتوبر ١٩٥٩ في قاعة نقابة المهن الزراعية بالقاهرة، فكانت هذه هي المرة الأخيرة التي كرّم فيها خليل مطران في مصر. وكان طبيعياً في أيام الوحدة أن يشارك في المهرجان أدباء وشعراء من سورية إلى جانب الأدباء والشعراء المصريين.

كنت في زياراتي للشاعر خليل مطران أطلب منه النصح، فقد كنت ما زلت في العشرينيات من عمري، وكان هو قد بلغ الذروة في الحياة الثقافية دون أن يؤهّله ذلك ـ مع الأسف الشديد ـ لعضوية مجمع فؤاد الأول للغة العربية الذي كان من المفترض فيه أن يضم أفذاذ الضاد من الأدباء والعلماء. فسألته عمّا يوصيني به لكي أترسمه في حياتي. وكان جوابه:

اسمع يا بني! لقد عشت حياة طويلة عريضة، جربت فيها أن أعمل لدى الغير، وأن أصدر مجلات خاصة كالمجلة المصرية التي أنشأتها في أوائل هذا القرن، ولم تعمر أكثر من عامين، واستأنفت إصدارها في عام ١٩٠٩ دون أن يطيل ذلك من عمرها. كما أصدرت مجلة «الجوائب المصرية» (والجوائب هي الأخبار الشائعة) في عام ١٩٠٣ فلم تعمّر طويلاً. وكان قصدي من ذلك أن أحقق

لنفسي مورداً ثابتاً أعيش منه، لأن الشعر، الذي وقفت عليه كل عمري، لم ينولّني أي عطاء يرفد رزقي، فلم أكسب منه شيئاً. ولهذا أنصحك بأن تستند في حياتك إلى وظيفة أو عمل ثابت يؤمّن لك معيشتك، أما الأدب فاجعله هوايةً مثل الزكاة التي يخرجها الناس من كسبهم. واستطرد مطران قائلاً: إن الشعر قد عرّضه لكثير من المضايقات، فهجر لبنان بسبب قصيدة نظمها كان ممّا جاء فيها قوله:

بَنِي العُرْبِ، فِيْمَ الصَّبْرُ والحَالُ ما نَرَىٰ ... وَيَأْبَىٰ عَلَيْنا الخَسْفُ تاريخُنا قِدْما
وحَتّامَ نَطْوِي العُمْرَ واللَّيْلُ دامسٌ ... وَنَحْتَمِلُ الإجْحَافَ والضَّيْمَ والظُّلْمَا؟

وحتّى عندما استجار بمصر باعتبارها موئلاً للأحرار هرباً من الوالي التركي في لبنان، الذي توعده بالعقاب بسبب هذه القصيدة، فوجئ بصدور قانون للمطبوعات، وشُرع في اضطهاد الأحرار، فنظم قصيدة جاء فيها:

شَرِّدوا أخيارَها بِحْراً وَبَرّاً ... واقْتُلُوْا أحرارَها حُرّاً فَحُرّا
إنَّمَا الصَّالِحُ يَبْقَىٰ صَالِحاً ... آخرَ الدَّهْرِ ويَبْقَىٰ الشَّرُّ شَرّا
كَسِّروا الأقلامَ هل تكسيرُها ... يَمْنَعُ الأيدي أنْ تنقُشُ صَخْرَا؟
قَطِّعُوا الأيديَ هل تقطيعُها ... يمنعُ الأعْيُنَ أن تنظرَ شَزْرَا؟
أَطْفِئوا الأعْيُنَ، هل إطفاؤها ... يمنعُ الأنفاسَ أن تُصعدَ زَفَرا؟
أَخْمِدوا الأنفاسَ، هذا جهْدُكُم ... وبهِ منجاتُنَا مِنْكُم، فَشُكَرا!

وتوعّده رئيس وزراء بالنفي من مصر بعد انتشار هذه القصيدة، فعلّق على ذلك بقوله:

أنَا لا أخَافُ، ولا أُرَجِّي ... فَرَسِي مُؤَهَّبَةٌ وسَرْجِي
فإذا نَبَا بِيَ مَتْنُ بِرٍّ ... فالمَطِيَّةُ بَطْنُ لُجٍّ
لا قولَ غيرَ الحَقِّ لي ... قولٌ، وهذا النَّهْجُ نَهْجِي
الوَعْدُ والإيْعَادُ ما كَانَا ... لديَّ طَرِيْقُ فُلْجِ

والفلج هو الفوز والظفر.

ولم أكن لأجرؤ على سؤال مطران عن سبب عزوفه عن الزواج وإيثاره العيش في طريق مقفرٍ إلّا من صحبة الغرباء والكتب، ولهذا سألته: هل هو راضٍ عن هذه الوحدة التي يحياها في شيخوخته العالية؟

فقال: لا أكتمك أنني عرفت الحبّ، وفي ديواني مراءٍ من أطوار القلب كالقصيدة المعنونة «هل تذكرين» التي قلت فيها:

هَـلْ تَـذْكُـرِيْـنَ ونَـحْـنُ طِـفْـلانِ عَـهْـداً «بِـزَحْـلَـةَ» كُـلُّـهُ غُـنْـمُ
إذ يَـلْـتَـقِـي فِـيْ الـكَـرْمِ ظِـلّانِ يَـتَـضَـاحـكـانِ، وَيَـأْنَـسِ الـكَـرْمُ

لكن ترجمة الحب إلى زواج وأسرة تحتاج إلى استقرارٍ مادّي وعاطفيّ، وحياة الشاعر أبعد ما تكون عن مثل هذا الاستقرار. ولا يخفاك أن هناك شعراء تعرضوا للنفي مثل أحمد شوقي، أو هربوا من المطاردات مثل الشيخ علي الغاياتي صاحب ديوان «وطنيتي»، أو عاشوا حياة مسغبة مثل الشاعر إمام العيد، والشاعر عبد الحميد الديب، ولهذا استصوبت ألّا أجلبَ العناء لأسرةٍ ليس لها من عائل بعدي.

أما عن حياة الوحدة، فقد عوّدت نفسي عليها وألفتها. وإن كنت أقطع هذه الوحدة أحياناً بارتياد النادي الشرقي أو بقبول دعوات الأصدقاء.

وسألت خليل مطران: لِمَ تصدى لترجمة مسرحيات شكسبير من اللغة الفرنسية ما دام إلمامه باللغة الإنجليزية لا يسعفه في الترجمة؟

فقال: الواقع أنني نقلت مسرحيات شكسبير إلى العربية لا باعتبارها نصاً مقدساً أحرص فيه على الحرفية التامة، بل باعتبارها نصاً يصلح للتمثيل من خلال الفرقة القومية للتمثيل. ولهذا أبحت لنفسي أن أستبعد كل ما يثقل المسرحية بتفاصيل ليست لها ضرورة على المسرح. فهي إذن ترجمات بتصرف ولا حاجة إلى اعتماد النص الإنجليزي فيها.

وكان الدكتور أحمد زكي أبو شادي رائد جماعة أبولو قد كتب إليّ بعد هجرته إلى الولايات المتحدة بمجرّد انتهاء الحرب العالمية الثانية قائلاً: إن أخبار الحالة الصحية لخليل مطران ـ الذي سمّاه «بالشاعر السامي» ـ تزعجه، ولا سيما لأنه يعتبره أستاذه الأول، ولهذا اختاره رئيساً لجماعة أيولو بعد وفاة رئيسها الأول الشاعر أحمد شوقي، ورجاني أن أحاول إقناع مطران بالسفر إلى الولايات المتحدة حيث تتوافر أسباب للعلاج تصنع المعجزات.

ولكن خليل مطران لم يقتنع بهذا الرأي، وقال: إن صحته لا تحتمل مشقّة السفر إلى أمريكا.

والغريب أن مطران عاش ٧٧ عاماً. في حين أن أبا شادي الذي كان يعيش في بلاد المعجزات الطبية مات عن ٦٣ عاماً.

وكنت أحسّ من لقاءاتي مع خليل مطران أنه راض عن نفسه وعن حياته، وإن كان ـ بتواضعه المذهل ـ يستصغر كل ما تركه من تراث أدبي، سواء في الشعر الذي ملأ أربعة دواوين، وجاء بعد ذلك أحمد حسين الطماوي فأخرج له ديواناً خامساً مجهولاً، أو في النثر الذي عكف الدكتور محمد صبري السوربوني على جمع طائفة غير قليلة منه ـ وإن تكن غير كاملة ـ ونشرها في كتاب كبير عنوانه «خليل مطران: أروع ما كتب».

ولهذا بات مطران يردّد في مجلسي معه أبياتاً يكاد يودّع بها الشعر والدنيا جميعاً، منها قوله:

مَاذَا يُرِيْدُ الشِّعْرُ مِنِّي؟ ... أَخْنَىٰ عَلَيْهِ عُلُوُّ سِنِّي
هَلْ كَانَ مَا ذَهَبَتْ بِهِ ... الأَيَّامُ مِن أَدَبِي وفَنِّي؟
أَحْسَنْتُ ظَنِّي، واللَّيَالِي ... لَمْ تُوَافِقْ حُسْنَ ظَنِّي
وَرَجَعْتَ مِنْ سُوْقٍ عَرَضْـ ... ـتُ بِضَاعَتِي فِيْهَا بِغُبْنِ
أَفَكَانَ ذلِكَ ذَنْبُهَا؟ ... أَمْ كَانَ ذَنْبِي؟ لا تَسَلْنِي
خَمَدَتْ بِيَ النَّارُ الَّتِي ... رَفَعَتْ بِعَيْنِ العَصْرِ شَأْنِي
وَلَّىٰ الرَّبِيْعُ، وجفّ عو ... دي، وانتهى عهد التغنّي
فإذا تَوَلَّيْنَا، فَهَلْ ... أسماؤنا عَنَّا سَتُغْنِي؟

نعم يا خليل مطران، لقد توليت وغادرت مكانك، ولكن في اسمك الغناء كل الغناء، سواء تفرّد بين أسماء الشعراء، أو اقترن بزميليه التاريخيين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم. فكلهم أعلام في ديوان العرب.

❁ ❁ ❁

رشيد سليم الخوري

(الشاعر القروي)

وصفهُ منح الصلح بقوله: إنه «أصيلُ الصوت والروح»، وسمّاه أكرم زعيتر «قدّيس الوطنية العربية» وقال عنه جورج صيدح: «عرفت القروي وكأني عرفت روح غاندي في جسم غير جسمه وزيٍّ غير زيّه» ووصفه عبد اللطيف الخشن صاحب جريدة «العلم العربي» المهجرية: بأنه «ثالث العُمَرَيْن بعد عمر الخيام وعمر بن الفارض» وقال عنه محمد عبد الغني حسن: «شاعر يمثّل فحولة الشعر العربي في المهجر»، وقال عنه الدكتور أحمد زكي أبو شادي: «علم فذّ شرّف العربية في القرن العشرين بأكثر ممّا شرفها أندادٌ نابهون من الشعراء الفطاحل في معظم العصور».

ذلكم هو الشاعر رشيد سليم الخوري الذي اختار لنفسه لقب «الشاعر القروي» نِكَايَةً في الذين عيّروه بأنه قروي في حين اختار شقيقه الأصغر قيصر سليم الخوري (١٨٩١ ـ ١٩٧٧) لنفسه لقب «الشاعر المدني».

وعاش القرويّ، الذي وصف نفسه بأنه «بوق العروبة» ما يقرب من قرن من الزمان، ومات في السابع والعشرين من آب/أغسطس ١٩٨٤ في قريته اللبنانية «البربارة» التي طالما تغنّى بها في شعره وهو في مهجره السحيق.

كنتُ في عام ١٩٥٣ ألزمُ بيتي في ضاحية الأهرام بالجيزة بعدما أُغلقت الجريدة التي كنت أعمل فيها (جريدة المقطم)، وتعاظمت في طريقي عقباتُ الاهتداء إلى عملٍ صحفي جديد، وكنت بالتالي أبلو صنوفاً من الكروب النفسية الحاطّة على الصدر والروح. في هذا الجوّ الكئيب المخيّم عليَّ جاءني ساعي البريد حاملاً طرداً ضخماً وارداً من البرازيل وليس عليه إلّا اسمي واسم مدينة القاهرة دون أي عنوان مفصّل. واعترتني على الفور دهشتان، فكيف اهتدى ساعي البريد إلى عنواني المُجَهَّل برغم أن طريق الأهرام الذي كنت أقيم فيه كان

يخترق منطقة قليلة العمران، وليس لشوارعه الجانبية القليلة وسط المزارع أسماء أو أرقام. وقد اعتبرتُ هذا من معجزات البريد النادرة معي. وأما الدهشة الثانية فسببها أنني لا أعرف أحداً في البرازيل، فمن يكون مُرسل هذ الطرد الثقيل؟ عرفتُ الجواب عندما فضضتُ غلافه فألفيته يضمّ «ديوان الشاعر القروي» المطبوع في سان باولو (وكان القروي يُعرّب اسم العاصمة البرازيلية إلى صنبول)، والذي يقع في ألف صفحة. وطرّز الشاعرُ نسخة الديوان بعبارة إهداء «إلى رفيق المبدأ المجاهد في سبيل العروبة فلان». ورجّحتُ أن مقالات الصدر التي كنت أكتبها في جريدة «المقطم» دفاعاً عن الوطن العربي الذائق ألواناً من الاستعمار - وهي المقالات التي فزتُ بفضلها بجائزة فاروق الأول للصحافة الشرقية في عام ١٩٤٩، قد تُنُوقلت في الصحف العربية في البرازيل، فتناهى أمرُها إلى الشاعر القروي ممّا أهلني في نظره لأن أكون واحداً من أربعة من المصريين أهدى إليهم نسخ ديوانه، وهم الشيخ أحمد حسن الباقوري (١٩٠٧ - ١٩٨٥) وزير الأوقاف في ذلك الوقت، والدكتورة بنت الشاطئ، والمجاهد الفلسطيني محمد علي الطاهر (١٨٩٦ - ١٩٧٤). وعكفتُ على قراءة الديوان قراءة مستأنية، مع مقدمته المسهبة عن حياته وجميع أطواره، واكتشفت بصورةٍ مكثّفةٍ ضخمة هذا الشاعر، لأن صورته السابقة المنطبعة في ذهني كانت مستمدّةً من مطالعات متناثرة لمنتخبات من شعره هنا وهناك. شكرتُ الشاعر على هديته الثمينة، وجرت بيني وبينه مراسلات قليلة حفلت بألوانٍ من الحنين إلى الوطن، والرغبة في الإقدام على هجرة من الهجرة، أو توبةٍ عن الغربة التي قضى فيها نصف قرنٍ كاملاً.

وكان أن تلقّى دعوة من سورية لزيارتها في عام ١٩٥٩ حيث استُقبل استقبالاً فاقَ كلَّ أحلامه، وأُقيمت له احتفالات حاشدة أنشد فيها «معلّقته» الطويلة التي استهلّها بقوله:

حتّامَ تَحْسَبُهَا أضغاثَ أحلامِ ... سبّحْ لربّك وانْحَرْ، أنتَ في الشامِ

وختمها بقوله:

سِيَّانَ بعد التلاقي يا بلاديَ لو ... خُلِّدْتُ، أو حَكَمَ الطّاغِي بإعْدَامِي
أَمَا رَجَعْتُ، أَلَمْ أَنْشَقْ هواكِ؟ أَلَمْ ... أَلْثُمْ ثراكِ؟ ألم أُسمعكِ أنغامي؟
أُحسُّ بالراحةِ الكبرى كأنيَّ قد ... طرحتُ في البَحْرِ عنّي كلَّ آثامي

ثم وُجِّهتْ إليه دعوة رسمية في عام ١٩٥٩ لزيارة مصر، وعرفتُ أنه نزل في فندق أمرّ عليه كل يوم في طريقي إلى مكتبي. وكنتُ أعرف أن البرنامج الموضوع لزيارته ليس لي فيه محلٌّ، لأنني بلا صفة، ولأن قوائم الأدباء التي تُعَد قد خَلَتْ دائماً من اسمي، حتّى في ذيول ذيولها مها طالت واستطالت! وأيقنتُ أن السبيل الوحيد لملاقاة «رفيق المبدأ» هو زيارته في الفندق في السابعة صباحاً قبل أن تدبّ الحياة في الدواليب البيروقراطية المختلفة. وجدتُ القروي عاكفاً على فطوره، فقام يعانقني، ويدعوني إلى مشاركته في فطوره، وقوامه بيضتان مقليّتان في الماء (لا في الزبد ولا في الزيت) مع رأس ضخم من البصل! فأبديتُ له ملاحظةً بأن البصل المصري - على خلاف البصل الإيطالي مثلاً - ذو رائحةٍ نفاذةٍ تتخلّف في الفم، وقلتُ له: أنتَ مطلوب في مقابلات رسمية متعددة، وقد لا يكون من المستصوب أن تفوح رائحة البصل في أثنائها. فقال لي - وكأنه يخوض معركةً من معاركه الشرسة التي أُثِرَتْ عنه -: إنني لا أُغيّر من عاداتي مجاملةً لزيد أو عبيد، وبفضل هذا احتفظت بصحّتي وقوامي الرشيق، فإنْ تَأَذَّى أحدٌ من رائحة البصل، فخير له أن يحذفني من برنامجه!.

درجتُ طوال مدة إقامته في القاهرة على زيارته يومياً في هذه الساعة المبكرة من الصباح، وضبطته مرّةً وهو يحمل كيساً اشترى فيه كيلو من البصل لأن الفندق لم يسعفه ذات صباح بحاجته منه! وكان بدوره يختلس دقائق من برنامجه اليومي ليزورني في مكتبي.

وكان أوّل حفلٍ أقيم لتكريم القروي قد دعا إليه وزير المعارف في ذلك الوقت، وكان من المقرّر أن يُلقي فيه كلمةً يرحب فيها بالشاعر، ويعرّف بدوره في الدفاع عن قضايا العروبة. ولكن أنَّى لوزيرٍ قادمٍ من الثكنة أن يكتب عن الشاعر وشعره؟ فطلب من محمد سعيد العريان (١٩٠٥ - ١٩٦٤) تلميذ مصطفى صادق الرافعي والوكيل الأول لوزارة المعارف أن يُعدَّ له الخطبة. ولكن كيف يُعدّها وهو لا يملك ديوان الشاعر، ومعلوماته عنه معلومات سطحية، فاتصل بي هاتفياً راجياً استعارة نسختي من الديوان للاعتماد عليها في إعداد الخطبة الرسمية، فاعتذرتُ له بدعوى أنني مشغول بوضع دراسة عن الشاعر، وليس في وسعي التفريط الآن في ديوانه. وكنتُ على ثقةٍ - من واقع تجارب كثيرة سابقة - أن الديوان إذا ما غادر مكانه بين كتبي، فلن يعود إليه. كما كنت واثقاً من أن

الحفلات المقامة لتكريم القروي تنكرني أصلاً. ونبَّهتُ العريان إلى مَنْ يملكون نسخاً من الديوان لكي يحاول استعارته منهم، إنْ رغب في ذلك. والمهم أن العريان كتب عن الشاعر كلمةً تصلح لكل مقام، وهي التي ألقاها الوزير في الحفل.

ورغبتْ «رابطة الأدب الحديث» في تكريم الشاعر القروي، وكنتُ من جملة المتحدّثين في هذه المناسبة بكلمةٍ مستفيضةٍ أتيتُ في ثناياها على استشهادات من شعر الشاعر، وكان لا معدى طبعاً عن اقتباس خمسة أبياتٍ مثلاً من قصيدةٍ تقع في ثلاثين بيتاً. ولم أكد أفرغ من كلمتي حتّى نهض القروي قائلاً: إنني «هلهلتُ» شعره وأسأت إليه. ثم أخذ ينشد النصوص الكاملة لقصائده التي «شوهتُها» بالاختصار والاقتضاب. وعندما نَشَرْتُ هذه الكلمة بعد ذلك في مجلة «الآداب» اللبنانية (عدد آذار/مارس ١٩٥٩) لم أطلعه عليها خشية أن يخوض معي في معركة جديدة من معاركه، كتلك التي خاضها مع الشاعر اللبناني وديع ديب والشاعر المهجري جورج صيدح، ووصَفَ أدبَ ناقديه بأنه «أدب اللامبالاة، وأدب الشماتة والعقوق».

وعندما ضاق القروي بمهاجميه، نظم قصيدة عنوانها «عرائس الإلهام» قال فيها عن ناقديه:

لِتَنْفُثْ أَفَاعِي الغَدْرِ كُلَّ سُمُوْمِهَا ... وَيَضْرِبْ عِدَاتِي سادِساً إِثْرَ خامسِ
فما كان صَدْرِي للضَّغِيْنَةِ مَوْطناً ... ولا كانَ رَأْسِي مَعْمَلاً للدّسَائِسِ
شَغَلْتُ بموسيقى الكَوَاكِبِ مَسْمَعِي ... بعيداً بعيداً عن هَمِيْمِ الخَنَافِسِ

وذهب في اعتداده بنفسه إلى هذا القول:

عَدِمْتُ نَظِيْرِي فِي وَفَائِي لأُمَّتِي ... فَقَلَّ عَشِيْرِي حِيْنَ قَلَّ مُجَانِسِي

وُلد رشيد سليم الخوري في قرية البربارة في جبل لبنان الواقعة بين جبيل والبترون في الخامس من نيسان/إبريل ١٨٨٧، ولكنه لا يعترف إلّا بأنه من مواليد السابع عشر من نيسان/إبريل. فقد تبين أن هناك فارقاً بين الحسابين الشرقي والغربي في التوقيت وصل في القرن الماضي إلى ١٢ يوماً، فإذا أضافها إلى تاريخ ميلاده تَوَافَقَ التاريخُ «المصطنع» مع عيد الجلاء في سورية، ممّا حدا به إلى القول:

إنْ فَـاخَـرَ الـنَّـاسُ بِـأَعْـيَـادِهِـم فَـعِـيْـدُ مِـيـلَادِيَ عِـيْـدُ الـجَـلاءِ

تعلّم في مدارس القرية وفي صيدا وفي الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية الآن) في بيروت، وعمل بالتدريس سبع سنين، ثم قرّر الهجرة في عام ١٩١٣ تحت ضغط بعض أفراد أسرته الذين سبقوه إلى هناك. وعند وصوله إلى البرازيل لم يجد بداً من حمل الكشّة أسوة بسائر المهاجرين العرب، والكشة هي صندوق تُرَصُّ فيه نماذج من الأقمشة والسلع التي يطوف بها حاملُ الكشّة في أنحاء البلاد عارضاً نماذجه على التجار، وله في كل صفقةٍ حصةٌ يعيش منها. وحاملُ الكشة هو المقابل البرازيلي لفئة «القومسيونجية» في مصر، وإنْ كانت هذه الفئة من مندوبي التّجار قد اختفت.

وعندما انتقل القروي إلى العاصمة سان باولو، عمل بالتدريس، ولكنه عاد إلى حمل الكشة ثم خَلَفَ الدكتور خليل سعادة (١٨٥٧ ـ ١٩٣٤) صاحب المعجم المعروف باسمه في رياسة تحرير جريدة «الرابطة» بعد وفاته. وشغل هذا المنصب ثلاث سنين، عمد بعدها إلى افتتاح مصنع لربطات العنق، ولم يلبث أن أغلقه بعد ثلاث سنين.

وهكذا عاش القروي في مهجره يكسب قوته من التجارة أو الصحافة أو التعليم، وينظم الشعر في «كبار الحادثات» التي تهزّ الوطن. وكان وضعُ العرب في البرازيل أشبه بوضع الزنوج في الولايات المتحدة، ينظر إليهم البرازيليون نظرة زِرَايةٍ باعتبارهم من مخلّفات الدولة العثمانية المنهارة، ويطلقون عليهم اسم «توركو» وهو اسم يلازمهم مهما بلغوا في الحياة الاجتماعية مبلغاً عظيماً، وهو ما صوّره القروي بقوله:

أنـتَ تُـوْرْكُـو، وَلَـوْ بَـلَـغْـتَ الثُّـرَيّـا وَلَـئِـنْ شِـدْتَ نَـاطِـحـاتِ السَّـحَـائِـبِ

وكان هذا يذكي في الشاعر روح العروبة ويزيده تعلّقاً بالوطن الأمّ والذياد عن قضاياه، ويلهب فيه الشوق إلى إنهاءِ هذه الهجرة والعودة إلى «بربارته» العزيزة.

وفي فترة الشباب، أطلق القروي شارباً يقف عليه الصقر، ويؤكّدُ به اختلافَه عن شباب البرازيل الحليق. وقرّر ذات يوم أن يتخلّص من هذا الشارب الكثّ، ممّا أثار دهشة عارفيه، فأنشد عليهم قصيدةً يُبرّر بها «فلسفة» حلق الشارب، قال فيها:

قَالُوْا: حَلَقْتَ الشَّارِبَيْنِ وَيَا ضَيَاعَ الشَّارِبَيْنِ
فَأَجَبْتُهُمْ: بَلْ بِئْسَ ذَانِ وَلا رَأَتْ عَيْنَايَ ذَيْنِ
الشَّاغِلَيْنِ المُزْعِجَيْنِ الطَّالِعَيْنِ النَّازِلَيْنِ
فإذا أردتُ الأكلَ يَقْتَسِمَانِ بَيْنَهُمَا وَبَيْنِي
وإذا أردتُ الشُّرْبَ يَمْتَصّانِ كالإسْفِنْجَتَيْنِ!

وتقربت منه فتاةٌ إنكليزية تُدعى «مود» مال إليها قلبه، ولكنّه سرعان ما صدّها، إذ كيف يتزوج فرنجيةً ووطنه رازحٌ تحت نير الاستعمار الفرنجي. فخاطبها بقوله:

وَلَوْ لَمْ تَكُوْنِي فِرَنْجِيَّةً لَكُنْتِ سُعَادِيَ قَبْلَ سُعاد
ولكنّني عَرَبِيُّ المُنَى عربيُّ الهوى، عربيُّ الفؤادِ
لَعَمْرِكِ يا (مودُ) لولا ذووكِ لما مَيَّزَ الحبُّ بين العِبَادِ
ولا أكرهوا شاعراً أن يقول: هذي البلادُ وتلك البلادِ
فهم أوغروا بالعَدَاءِ الصدورَ وهم أضرموا النارَ تَحْتَ الرَّمَادِ
فإنّي حَرَامٌ عليَّ هواكِ وفي وطني صيحةٌ للجهادِ

نشر القروي دواوينه تباعاً في البرازيل تحت عناوين «البواكير» و«الأعاصير» و«الزمازم» و«المحافل و«المجالس» و«زوايا الشباب» و«الأزاهير» حتّى إذا ما طبع مجموعته الكاملة جعل هذه الدواوين فصولاً مستقلّةً داخلها. وقد طُبعت مجموعته الكاملة سبع مرات في البرازيل والقاهرة وبغداد ودمشق ولبنان، وكانت كل طبعة تالية تضمّ الجديد من شعره. ومن أسفٍ أن طبعة القاهرة خرجت من المطبعة إلى سراديب وزارة المعارف، ولعلّها، إنْ كانت ما زالت جاثمة فيها، قد رَعَتْ فيها الهوام والأرضة والعثّ وما إليها. ولا سيّما لأنها طبعت على ورقٍ رديء لا يقاوم عوامل البلى. وقد أشار القروي إلى أن كلمةً واحدةً فقط هي التي حُذفت من الطبعة القاهرية، دون أن يحدّد أين تقع هذه اللفظة.

ويهمّني أن أستدرك على ما قلته في حديثي المستطرد عن جورج صيدح المنشور في «الحياة» في عدد ١٦ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٤ حيث ورد أنني انتظرتُ قراءة مرثيةً للشاعر القروي في زميله إلياس فرحات، ولكن انتظاري طال

دون جدوى. والحقيقة التي وقعتُ عليها بعد ذلك هي أن القروي رثى فرحات بأبياتٍ نشرها في مجلة «الضاد» الحلبية بتاريخ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٧ جاء فيها قوله:

تَضَاعَفَ بَعْدَ الفُرْقَةِ الحُبُّ بَيْنَنَا ... وفي القُرْبِ ما يُنْئي، وفي البُعْدِ ما يُدْنِي
حَمَاقَاتُ أطفالٍ صغارٍ نسيتُها ... ولَمْ يَنْطَبِعْ غيرُ المودّةِ في ذِهْنِي
لنا في مَيَادِيْنِ الجِهَادِ مَلاحِمٌ ... سَيَنْقُلُها التاريخُ قرناً إلى قرنِ
وأقوى حبال الودِّ حَبْلُ عروبةٍ ... رَبَطْنَا به بَيْنَ العقيدةِ والفَنِّ

وفي تضاعيف هذه الأبيات اعتذار عمّا بدر بين الشاعرين من «حماقات أطفال صغار» في مسيرة العمر.

كما أسلفنا، ودعّ القروي الدنيا عن ٩٧ عاماً في السابع والعشرين من آب/ أغسطس ١٩٨٤ ولبنان غارق في حربه الأهلية، فلم يحظ بحفل تأبين، ما خلا ما نشرته عنه الصحف في يوم وداعه. وما حاجته إلى التأبين، ولسَانُ حاله يقول مع الشاعر خليل مطران:

فِي الحَاضِرِ اسْتَسْلَفْتُ ... ما سَيَقُوْلُه التَّالونَ عنِّي

فقد كُتِبَ عنه في حياته الشيء الكثير، ودخل تاريخ الأدب من أوسع أبوابه، فما حاجته إلى حفل تأبين أو مهرجان رثاء؟.

❁ ❁ ❁

روز أنطوان حداد: الداعية لحرية المرأة

رطّب الله ذكرى زميلتي الجامعية لورا حداد، سواء أكانت تنعم في انجلترة بشيخوخة هانئة مع زوجها وأولادها الإنجليز، أم كانت غادرت دنيانا كسُنّة الحياة. فبفضلها عرفت والديها الجليلين العلامة الكبير نقولا الحداد، وهو أول من ترجم نظرية النسبية للألبرت أينشتاين وشرحها شرحاً مبسطاً، وروز أنطون حداد شقيقة المفكر الكبير فرح أنطون، وكان ثلاثتهم من روّاد حركة التنوير في النصف الأول من القرن الماضي بما أصدروه من كتب وصحف ومجلات في مصر وفي الولايات المتحدة.

ولدت روز أنطون حداد في طرابلس الشام في ٢٠ آب/ أغسطس ١٨٨٢ ونزحت في شبابها إلى الإسكندرية، حيث أصدرت مجلة «السيدات والبنات» في عام ١٩٠٣، وعندما تزوجت نقولا الحداد في عام ١٩٠٩ في أمريكة اشتركا معاً في إصدار هذه المجلة بعد عودتهما إلى مصر، ولكن باسم «مجلة السيدات والرجال» كما أن روز حداد شاركت شقيقها فرح أنطون في إصدار مجلة «الجامعة» في مصر وأمريكة.

وكانت روز حداد قد وضعت كتاباً عنوانه «مقام المرأة الاجتماعي في التاريخ»، وتمّ جمع ملازمه في المطبعة ولكن توقفت عملية إصداره ريثما تكتب الزعيمة هدى هانم شعراوي مقدمةً له حسب وعدها للمؤلفة، ولكن هدى شعراوي توفيت في عام ١٩٤٧ دون أن تبرَّ بوعدها، وبقيت من هذه الملازم نسخةٌ كاملة أهدتني إياها في عام ١٩٥٤ (قبل وفاتها بسنة واحدة) فقمت بتجليدها ودونت على جلدتها عنوان الكتاب واسم مؤلفته لأن الملازم خلت من هذه البيانات، ولا طبع للكتاب غلاف، ولعلّ النسخة التي في حوزتي هي النسخة الوحيدة المتاحة من هذا الكتاب الذي صار مجهولاً.

وللكتاب تمهيد عنوانه «تطور المرأة في القوة والضعف» بتوقيع حرف (ن)

وهو الحرف الأول من اسم نقولا الحداد زوج المؤلفة، وكثيراً ما كانا يتشاركان في الأعمال الأدبية، كما أن الكتاب ينتهي بفصل كتب عليه بالقلم الرصاص «تعليق الكاتب المعروف نقولا الحداد عن المرأة وما يمكنها أن تفعله في المستقبل».

ويتناول هذا الكتاب الموسوعيّ في موضوعه قضايا المرأة من أقدم عصور التاريخ وفي عهود الهمجية الأولى وفي عهد الحضارة القديمة لدى أشور وبابل والفراعنة والبطالمة، ووضع المرأة الرومانية وفي عصور الإقطاع، ثم يتناول مشكلات التسرّي والحريم والبغاء وكذلك الرهبنة، ويسّجل سير الملكات وزوجات الملوك والنابغات في التاريخ وفي العلم وفي العمل، كما يبحث قضايا تعليم المرأة وعملها ومشاركتها في الحياة العامة، ثم حقوق المرأة الشرعية والسياسية، ويرصد حركات النهوض بالمرأة في البلاد المختلفة، وهي موضوعات عالجتها روز أنطون حداد عن بصرٍ شديد بعلوم الأنثروبولوجية والطب والتشريعات المختلفة، مع إلمام واسع بالتاريخ ومقام المرأة في مراحله المختلفة.

وهي في جميع فصول الكتاب تنتصر لحرية المرأة في تقرير مصيرها، وتحرص على كرامتها الأنثوية ووضعها الاجتماعي وحقها في المشاركة في الحياة العامة، ولا سيما بعد انتشار التعليم والوعي بأسباب الرعاية الصحية للمرأة ولأمومتها.

ومع أن روز حداد لم تكن عضواً في الاتحاد النسائي المصري بزعامة هدى هانم شعراوي، فقد تبنّت المطالب التي دعا إليها الاتحاد وهي: إعطاء المرأة حق طلب الطلاق إذا كان عندها ما يبرره، ومنع الزوج من الطلاق إلّا لأسباب مقبولة شرعاً، وتحديد سن الزواج للفتاة اعتباراً من ١٦ سنة فصاعداً، ومساواة البنت بالصبي في التعليم الثانوي.

وذهب نقولا الحداد في تعليقه الختامي على الكتاب إلى طرح اقتراح لا أظن أحداً يوافق عليه، وذلك للتوفيق بين أداء المرأة لدورها الاجتماعي وواجباتها العائلية والمنزلية، فقال: «قد يمكن أن يتوفق المجتمع إلى حلٍّ آخر للمشكلة العائلية، وهو أن يختص فريق من النساء أنفسهن للحياة العائلية فيتزوجن ويلدن ويربين الأولاد، والفريق الآخر يعشن عقيمات عمداً ويختصصن بالعمل

فقط، فيكون الناس كزمرة النحل، بعضها إناث (ملكات) وذكور ووظيفتها التوليد، وبعضها عاملات عقيمات (شغالات).

وتكمن أهمية كتاب «مقام المرأة الاجتماعي في التاريخ» ـ وهو مع الأسف كتاب لم تر النور منه إلا نسخة وحيدة ـ في أنه تناول جميع القضايا الخاصة بالمرأة تناولاً جامعاً مانعاً، وتتبّع أحوال المرأة في البيئات البدائية وبين القبائل الأسترالية والإفريقية، وسجّل كفاح المرأة في سبيل إقرار كرامتها والظفر بحقها في تقرير مصيرها، وثورة النساء على نظام الحريم والتسّري وتجارة الرقيق الأبيض، كما أبرزت دور جمعية الأمم (تقصد عصبة الأمم في جنيف) في الانتصار لكرامة المرأة وإنسانيتها وحقها في العيش الشريف ورفع كل مهانة تتعرّض لها.

وفي الثامن عشر من شهر يونيو ١٩٩٢ مرّت ٤٥ سنة على وفاة الرائدة الكبيرة روز أنطون حدّاد عن ٧٣ عاماً، وهو ما يحدوني إلى أن أبرز بكل الإجلال والتقدير هذه الصفحة المجهولة من حياتها الخصبة.

❁ ❁ ❁

زكي قنصل

كنت في عام ١٩٦٨ أعاني من البطالة المفزعة التي امتدّت معي ثمانية أشهر حتّى ضِقت بالعيش. وكان طبيعياً، وقد تغالظت أسباب الرزق، أن أفكر في النزوح ولو إلى أدغال الأمازون أو صحارى أسترالية طلباً للخبز مع الكرامة. فكتبتُ إلى أصدقائي هنا وهناك، ولا سيما في المهاجر الأميركية، أستفسر منهم عن احتمالات الانضمام إلى ركبهم، حتّى ولو اضطررت إلى ترك مشاغل الفكر والعمل في أي ميدان آخر. وتنوقل الخبر بين الأصدقاء ممزوجاً بدهشة مصدرها أنني بعد أكثر من ربع قرن من العمل في الصحافة وفي التدريس الجامعي وفي ميداني الأدب والترجمة، لم أكن عارياً من المؤهّلات التي ترشحّني لعمل كريم في وطني.

وإذْ كنت مهموماً بأموري، فوجئتُ ذات يوم باستدعائي إلى مباحث أمن الدولة العليا لسؤالي عن صلتي بالأرجنتين وأدبائها عموماً، وبالشاعر زكي قنصل على وجه التحديد. وأدهشني هذا السؤال، إذْ لم تكن لي حتّى ذلك الوقت أي صلة بالأدباء والشعراء العرب الذين استقروا في هذا البلد القَصيّ، ومنهم زكي قنصل. واستوضحتُ السائل عن سرّ سؤاله، فقال: إنه تلقى تقريراً من هناك فحواه أن «الرابطة الأدبية» التي تضمّ عدداً من الأدباء المهجريين في الأرجنتين (وكانت أنشئت في عام ١٩٤٩) اجتمعت هناك، وأصدرت بياناً في مؤازرتي. وقال: إن الشاعر زكي قنصل نظم قصيدةً موجهةً إليّ عنوانها «يا هزار الوادي» (نُشرت بعد ذلك في ديوانه الموسوم «عطش وجوع») خاطبني فيها بقوله: «ما أنت إلّا فرحة في مأتم». وهالني أن يكون الأدب موضوع استجوابٍ وتحرّ، ولكن هكذا كُنا! فقلت للسائل: إنني خالي الذهن تماماً من هذا كله، فلا أعرف الرابطة ولا الشاعر، ولا اطلعت على بيان الرابطة ولا على القصيدة المشار إليها. وكنتُ في هذا صادقاً، لأنني لم أطّلع على هذا البيان أبداً، أما القصيدة فقد اطلّعت عليها بعد ذلك بسنوات عندما نشرها الأديب السوري المهاجر وقتذاك الدكتور

عبد اللطيف اليونس (أطال الله بقاءه) في جريدة «الوطن» التي كان يصدرها في الأرجنتين.

وهكذا عرفت الشاعر زكي قنصل من خلال التحرّيات والملاحقات البوليسية، وكانت بداية التعارف بيننا هي هذه القصيدة التي نظمها بوازعٍ من أريحيّته قاصداً تكريمي، وعقد فيها مقارنات صارخةٍ بين الخير والشر، والكَرامة والخنوع. ولم تلبث أن انعقدت المودّات بيني وبين شقيقه الأكبر إلياس قنصل (١٩١٤ ـ ١٩٨١) وكان شاعراً وقاصّاً.

أما وقد غمرني الشاعر زكي قنصل بكل هذه المشاعر دون أي معرفة سابقةٍ بيننا، فقد كان من الطبيعي أن ينفتح قلبانا للصداقة الخالصة، التي عززّتها الرسائل المتبادلة، والتي استمرت إلى قبيل وفاته.

كان الشاعر في ذلك الوقت قد طبع في الأرجنتين ديوانين ومسرحية شعرية عنوانها «تحت سماء الأندلس». أما الديوانان، فعنوان أولهما «شظايا» وعنوان الثاني «سعاد» وكانت نسخ المطبوع من هذه الكتب نافدة فلم اطَّلع عليها، أمّا ديوان «سُعاد» الذي وقفه على طفلته التي توفيت وهي في الشهر الثامن من عمرها، فقد اطلعت عليه استعارة من صديقي الأديب رضوان إبراهيم (١٩١٩ ـ ١٩٧٥). وكم تأثّرت بمقدمته لهذا الديوان، ورثيت للشاعر وهو يجتاز هذه التجربة الأليمة، إذْ قال في المقدمة يخاطب فلذة كبده: «بنيّتي! قد يزدهي العُشُّ الكئيب ثانيةً بالزغاليل والزغاريد، وقد يعود الربيع مرةً أخرى إلى هذه الصحراء العابسة، يحمل إليها النضارة والخصب، وقد تشرق العيون الغائرة ببريق الزهو والرجاء، وقد تستعيد الشفاه اليابسة بسمات البشاشة والرضى، ولكن القلب الذي بعثته من مثواه يحسّ ويحبّ ويحِنّ، وفُجِّرَت فيه ينابيع الأمل والألم، سيظل هيكلاً يتجاوب في جوانبه اسمك العذب صلاة نديّة شذيّةً. ويتألق في محرابه رسمك الوضيء ذخيرةً طاهرةً مقدسة... لقد انقضى عام كامل على ارتفاعك في السماء، ولكن الجرح الذي فتحته في صدري وصدر أمّك ما يزال ينزف دماً وينفث ناراً. وهذه الزفرات قطرات من هذا الجرح المشترك أسفحها على ضريحك الزكي في هذه الذكرى الداجية».

وإيماناً من الشاعر زكي قنصل بأن العالم العربي وطن واحد، فقد صارحني

برغبته في أن ينشر كل ديوان من دواوينه في عاصمة عربية: ديوان في القاهرة، وثان في بيروت، وثالث في تونس، ورابع في دمشق، وخامس في الرياض، وهلمّ جرّا. واجتهدتُ من ناحيتي في إقناع أحدٍ من الناشرين في القاهرة بطبع ديوان له، فلم أُصب في ذلك توفيقاً، ولكن تونس كانت الأسبق إلى نشر ديوانه «هواجس»، ووُفِّق بعد ذلك إلى نشر ديوانه «نور ونار» في دمشق، ولكنّه خرج مليئاً بالأغاليط، فاضطر إلى إلغاء هذه الطبعة وإصداره من بونس أيرس في الأرجنتين. وعوّل بعد ذلك على العدول عن مشروع توزيع دواوينه على العواصم العربية، فنشر في الأرجنتين ديوانيْه «عطش وجوع» و«ألوان وألحان» و«سداسية الوطن المحتل» التي ضاعت نسختي منها في البريد، وتكرر ضياع النسخة الثانية البديلة.

وفي عام ١٩٦٨ قرّر الشاعر زيارة وطنه سورية للمرة الأولى بعد هجرة امتدت ثمانية وثلاثين عاماً، وكانت وشايةٌ حقيرة قد سبقته إلى هناك، فلم يُسمح له بالدخول إلّا بعد وساطات وبشرط البقاء في قريته يبرود، واضطر بعد شهر من هذه الواقعة إلى العودة إلى الأرجنتين وهو نادم وناقم، نادم على الجهد والوقت والمال التي ضاعت في هذه الرحلة، وناقم على الوشاة الذين رموه بما ليس فيه، إذ زعموا أنه من الحزب القومي السوري في حين كان هو حرباً على هذا الاتجاه كلّه.

فلمّا عاد إلى وطنه في عام ١٩٨٤ استقبل أعظم استقبال، وأقيمت له حفلات التكريم الرسمية والأدبية والشعبية فزالت من نفسه جميع آثار رحلته السابقة.

وفوتح وهو في دمشق في مشروع نشر المجموعة الكاملة لشعره في أجزاء، فرحّب بالفكرة ودفع بكل ثروته الشعرية إلى الناشر ليخرجها في طباعةٍ أنيقة، فيحقق بذلك أمله القديم الجديد، وهو أن يرى شعره متداولاً في وطنه الأم وفي سائر ديار العروبة. فلّما صدر الجزء الأول من «ديوان زكي قنصل» طار صواب الشاعر وهو يرى الديوان يحمل على غلافه وفي داخله عبارة «دقّقه لغوياً وعروضياً» زيدٌ من الناس! والغريب أن هذا التدقيق اللغوي والعروضي لم يبرئ الديوان من أغاليط سردها الشاعر في أربع صفحات أرفقها بالديوان! وبادر زكي قنصل بالكتابة إلى الناشر طالباً رفع عبارة التدقيق اللغوي والعروضي من جميع

نسخ الديوان مع استعداده لتحمّل نفقات ذلك. فكانت النتيجة أن عُدل عن نشر بقية أجزاء الديوان!

ومن نحو خمس سنين قام الشاعر برحلة جديدة زار فيها سورية ولبنان والمملكة العربية السعودية حيث احتُفي به احتفاءً كبيراً، سواء في ندوة الخميس التي كان يعقدها عبد العزيز الرفاعي (١٩٢٣ ـ ١٩٩٣) في الرياض، أو في ندوة الاثنينية التي يعقدها عبد المقصود خوجة في جدة، ووعد خوجة بنشر المجموعة الشعرية الكاملة له فصدرت فعلاً في ثلاثة أجزاء، ولكن بعد وفاته وإن كان راجع أصولها بنفسه.

ولد زكي قنصل في عام ١٩١٦ في الأرجنتين وكان ثالث إخوته الثمانية، وعاد إلى مسقط رأس الأسرة في يبرود وعمره ست سنين حيث تلقى مبادئ القراءة والكتابة لمدة ثلاث سنين، كانت هي الفترة الوحيدة التي حصّل فيها شيئاً من العلم المدرسي. وبقي بين عامي ١٩٢٥ و١٩٢٩ يعمل في يبرود ليساعد الأسرة على مواجهة أعباء المعيشة. وفي أواسط عام ١٩٢٩ عاد إلى المهجر، وكان أخوه الأكبر إلياس قد سبقه إلى هناك، وانصرف إلى كسب القوت ـ كغيره من المهاجرين ـ عن طريق الكشّة، وهي صندوق فيه نماذج من الأقمشة والخردوات يحمله على ظهره أو صدره، ويذرِّع البلاد طولاً وعرضاً لكي يبيع بضاعته. وكان في هذه الأثناء يعكف على تثقيف نفسه بالمطالعات، حتّى أجاد اللغتين الإسبانية والعربية مما ساعده على ترك الكشة والعمل في الصحافة مع شقيقه إلياس الذي كان يحرّر «الجريدة السورية اللبنانية». وانتهى به مطاف الرزق إلى فتح متجر في إحدى ضواحي بونس أيرس للاتجار في الخردة.

وفي عام ١٩٥٠ تزوج من وردة عازر، وهي من أصل سوري، وأنجب منها «سُعاد» التي تقدم الحديث عنها، و«عمر» الذي سمّاه على اسم الشاعر عمر أبو ريشة (١٩٠٨ ـ ١٩٩٠) وكان إذ ذاك وزيراً مفوضاً للجمهورية العربية المتحدة في الأرجنتين.

ومن أسفٍ أنني لم ألتق بالشاعر زكي قنصل، مع أنه منّاني بزيارة القاهرة في طريق عودته من السعودية إلى الأرجنتين، ولكن يبدو أن ظروفه أو حالته الصحية ألزمته تغيير برنامجه، وكان يعاني من عدم انتظام ضربات القلب، وركّب

له الأطباء جهازاً يعمل بالبطارية لكي ينظم ضربات القلب، ويحتاج إعادة شحن البطارية إلى جراحةٍ تتكرر في كل مرة.

وفي شهر تموز (يوليو) ١٩٩٤ فاجأته أزمة صحية، فنقل إلى المستشفى حيث فاضت روحه في الرابع عشر من الشهر. وقد أخبرني صديقي عبدو علام (توفي في ١٦ نوفمبر ١٩٩٧)، وهو أديب سوري كان يقيم في الولايات المتحدة وكانت له صلات واسعة بالأدباء في الوطن والمهجر، بأنه اتصل هاتفياً بزوجة زكي قنصل للاستفسار عن صحة زوجها، فقالت له: إنه توفي في المستشفى، وينتظر إنفاذ وصيته بإحراق جثمانه، وهو ما تمّ فعلاً احتراماً لرغبته.

وكان بعض العابثين قد روّجوا في حياته بأنه مات، فضحك الشاعر وخاطبهم بقصيدة جاء فيها:

لا، لَمْ أَمُتْ، لٰكِنَّنِي سَأَمُوْتُ ... فَعَلامَ يَسْتَبِقُ الرَّدَى عَكْرُوْتُ؟
كَذَبَ النَعِيُّ، وَلَوْ تَحَقَّقَ لانْطَوَى ... للشِّعْرُ بندٌ، وَانْقَضَى مَلَكُوْتُ
وَلَغَاصَتِ الفَيْحَاءُ في أَحْزَانِهَا ... وتَجَلَّلَتْ بِسَوَادِهَا بَيْرُوْتُ

وختمها بقوله:

أَنا قَدْ أَمُوْتُ غَداً، وتَخْلُدُ ثَرْوَتِي ... يَبْقَى عَبِيْرُ الوَرْدِ، وَهُوَ يَمُوْتُ!

وقد عرف الشاعر زكي قنصل في حياته «بشاعر غلواء»، وهو نفس اللقب الذي عُرف به الشاعر اللبناني إلياس أبو شبكة (١٩٠٣ ـ ١٩٤٧) و(غلواء) أبي شبكة هي زوجته: «أولغا» بعد قلب حروف اسمها، أما (غلواء) قنصل فهي ملهمته في شبابه المبكر، ولهذا كان يكثر من ترديد اسمها حتى في القصائد الوطنية. ويقول الدكتور عبد اللطيف اليونس في كتابه الذي درس فيه شعر زكي قنصل وأصدره في بونس أيرس بعنوان «زكي قنصل شاعر الحب والحنين»: إن الشاعر «قد يقف في حفلةٍ ما ليطري مُحتفى به، ولكنه ينسى المحتفى به والمحتفين، ولا يذكر إلّا غلواء وفلسطين. فغلواء سلبت قلبه، وفلسطين سلبت لبّه، فصار بوقهما وشهيدهما، لسانهما المعبّر وفؤادهما الخافق، وله من غلواء الجزاء، ومن اليعربيين الدعاء. وأما المحتفى به فله بزملائه العزاء!».

ويروي الشاعر جورج صيدح (١٨٩٣ ـ ١٩٧٨) أنه مر بنيويورك في طريقه إلى الأرجنتين، وقابل هناك الشاعر إيليا أبا ماضي (١٨٨٩ ـ ١٩٥٧) واستفسر منه

عن الحركة الأدبية في الأرجنتين، فقال له: «إن هناك أديباً لمّا يزل طريّ العود اسمه زكيّ قنصل، ينظم الشعر ولا يجيده، أرسل إليَّ ديوانه مخطوطاً لأكتب له المقدمة، فاعتذرت، وبقي الديوان عندي، خذه معك وردّه إليه». ويقول صيدح: إنه ظلّ متأثراً برأي أبي ماضي إلى أن قرأ شعر زكي قنصل، فأيقن أن أبا ماضي لم ينصفه، ويصف صيدح قنصلاً بقوله: «راح يتفنّن ويتفوّق ويسير سيرة الأديب الحق: لطف جم، وخلق أشمّ، ولسان عف، وقدم لا تسعى إلّا إلى الخير».

ووصفه الدكتور عيسى الناعوري (١٩١٨ ـ ١٩٨٥) بقوله: «خلق عال، ولطف جم، وشمائل محبّبة، وكلّها تبدو جليةً في منظومه ومنثوره».

وكان زكي قنصل شديد الاعتداد بنفسه، لا عن كبرياء فارغة،ولكن عن معرفة صادقة بمنزلته في دنيا الشعر. ولهذا لا نستغرب منه قوله:

أنا سَيِّدُ الشُّعَرَاءِ غَيْرُ مُدَافَعٍ أَمْشِي فَتَمْشِي خَلْفِيَ الشُّعَرَاءُ

أو قوله الذي استشهدنا به قبلاً:

كَذَبَ النَعِيُّ، وَلَوْ تَحَقَّقَ لانْطَوَىٰ لِلشِّعْرِ بَنْدٌ، وَانْقَضَىٰ مَلَكُوْتُ

فهو رافع لبند الشعر، وناصب له ملكوت خلود!.

والغريب أن بند الشعر في المهاجر الأميركية لم يعد يخفق بعد احتجاب آخر الشعراء الكبار الذين حملوا رسالة الضاد في دنيا لا تعرف الضاد، ولهذا لم يجد زكي قنصل شاعراً كبيراً يرثيه كما رثى هو جميع الشعراء الكبار من معاصريه. وبوفاته،انتهى عصر الأدب المهجري كما انتهى من قبل عصر الأدب الأندلسي. ولكن إذا كانت مكتبة الإسكوريال في إسبانية قد حفظت كثيراً من آثار الأندلسيين، فقد خلت قارة أمريكة الجنوبية من مكتبة جامعة تحفظ تراث المهجريين، وإنْ كانت مكتبة الكونغرس في أمريكة الشمالية قد قامت بهذا العبء بالنسبة للمهجريين في الشمال. ولهذا ناديتُ المرّة بعد المرة بالبدار باتخاذ خطوات عملية لإنقاذ آثار المهجريين التي وقعت في أيدي عائلات لا تجيد العربية، ولا تعرف القيمة الحقيقية لما خلّفه الشعراء والأدباء والصحافيون من آثار. فلم تحرّك هيئة رسمية واحدة ساكناً لمحاولة إنقاذ هذا التراث قبل أن يندثر، والمؤكّدأن جزءاً كبيراً منه قد اندثر فعلاً. وقد سرني أن أعرف أثناء زيارتي الأخيرة لدمشق للمشاركة في احتفالات مجمع اللغة العربية بعيده الماسي

أن هاوياً للكتب القديمة هو المرحوم عيسى سلامة سافر على نفقته الخاصة إلى الأمريكتين، واتصل هناك بالباقين على قيد الحياة من ورثة الشعراء والأدباء، واستطاع أن يجمع كل ما عثر عليه من كتب ومخطوطات وأوراق وصحف خلّفها الأعلام الراحلون، وقام بشحن أطنانٍ منها على نفقته الخاصة هديةً منه إلى مكتبة الأسد، التي أصبحت المكتبة الوطنية السورية. وهذه خصصت قسماً خاصاً للتراث المهجري لفائدة الباحثين. وكان من دواعي اغتباطي اجتماعي بعيسى سلامة الذي قام بمفرده بما لم تقم به هيئات البيروقراط، أياً كانت أسماؤها.

عاش زكي قنصل عصامياً عنيداً عالي الجبهة، فلمّا انتهت رحلة الحياة اختار لنفسه زجاجة فيها حفنة تراب.

❁ ❁ ❁

زكي مبارك

ولو كان زكي مبارك حياً، لاحتج عليَّ أشد احتجاج لأنني جردت اسمه من ألقابه، واختزلته من مقدماته وذيوله، فكيف أجرؤ على أن أسميه مجرد زكي مبارك، وهو الاسم الذي اشتهر به، بينما اسمه الكامل الذي تحفُّ به ألقابه الجسام هو: الدكاترة محمد زكي عبد السلام مبارك، ملك الشعراء، وأكبر تلاميذ أفلاطون و«ما أعرف رجلاً أعظم مني»!

ولو اختصرت حياته لقلت: إنه أكبر أديب مشاكس عرفه العصر الحديث، فلا أظن أن هناك أديباً عاش في معارك متصلة، ومشاكسات غير منقطعة، ومباكسات لا تنتهي كزكي مبارك. (والمباكسات أوردها «المعجم الوسيط» في طبعته الأولى ثم حذفها في طبعته الثانية!).

كنت في العام الدراسي ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ في آخر مراحل الدراسة الثانوية في القسم الحكومي من الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وكان أستاذنا في اللغة العربية هو السيد شحاتة، وهو رجل يختلف عن جميع أساتذة اللغة العربية الذين عرفتهم من قبل، فيه قدر كبير من الوسامة والأناقة، وله ذوق أدبي يحبب إليك الضاد، وله حظ واسع من الثقافة يطرد السأم من «حصة» اللغة العربية ويحرضنا تحريضاً على الانتظام فيها، وإرهاف السمع لكل ما يقوله السيد شحاتة، وكل ما يقوله ممتع ملذ يسير الفهم، هانت بفضله كل مصاعبه. وهذا الرجل العظيم ـ حيّاه الله وبيّاه ـ هو أول من حبَّبني في اللغة العربية، بينما كان أسلافه جميعاً لا يتوخون إلا تبغيضنا في اللغة العربية.

وكان من زملائي في الصف عبد السلام زكي مبارك، وهو شاب فيه بساطة الريف وفيه انطواء على الذات.

وإذ كنا نتهيأ ذات صباح لدخول حصة اللغة العربية، وبنا إليها شوق نمَّاه وتعهده أستاذنا السيد شحاتة، رأينا الأستاذ يقبل علينا وفي صحبته ضيف غريب

أجعد الشعر جفاه التشذيب والتهذيب، على عينيه غلاظ من العوينات، وتهامسنا من يكون هذا الضيف، فأسعفنا عبد السلام بالجواب: هذا أبي، وهو مفتش اللغة العربية بوزارة المعارف.

وانتظمنا كلٌّ في مكانه، واستولى علينا رعب قاتل، فهذه هي المرة الأولى التي يجيئنا مفتش ـ أو موجه بلغة هذه الأيام ـ من طراز زكي مبارك. ولن يلبث حتى يورثنا التلعثم والعي بفضل علمه البحر وعلمنا القاصر. ولكن «رطب الجو» أمران:

أولهما: أن أستاذنا السيد شحاته أحسن تقديم المفتش إلى الطلاب، مشيداً بمنزلته المرموقة في دنيا الأدب، مؤكداً أن زيارته لنا تشريف هو نفسه أول الناعمين به، وقال: إننا جميعاً طلاب على زكي مبارك، ثم دعاه إلى أن يزيدنا من علمه ويحاضرنا في الآدب الذي هو من أعلامه الكبار. فأخذ زكي مبارك يحدثنا في الآدب حديثاً مشتهى، أنساه أنه مفتش وأن واجبه أن يمتحن عقولنا.

وأما الأمر الثاني: الذي هدأ من روعنا، فهو وجود ابن زكي مبارك بيننا، ولا أقل من أن يكون الأب مترفقاً بزملاء ابنه العزيز عبد السلام.

وقبل أن ينفضَّ السامر ويغادرنا زكي مبارك، رفع ابنه أصبعه طالباً الكلام. فتوجهت كل الأنظار إلى عبد السلام... ولما أذن له أبوه بالكلام، تحدث لا بالعربية، بل بالإفرنسية قائلاً: Je parle le francais comme les francaises أي إنني أجيد الفرنسية كالفرنسيات! فضحك الدكتور زكي مبارك، ونبه ابنه إلى أن اللغة الفرنسية فيها تأنيث وتذكير على غرار اللغة العربية وعلى نقيض اللغة الإنكليزية.

والمهم أن الهلع الذي استولى علينا من زيارة «جنرال الآدب» زكي مبارك قد زايلنا، ربما لأن زكي مبارك وجدنا أرق من أن يشن علينا حرباً من حروب بسوسه!

وفي العام التالي انتقلت في نفس الجامعة إلى دراساتها الجامعية، وكان يدرسنا اللغة العربية رجل عظيم آخر هو السباعي بيومي، وهو من أساتذة الآدب المتمكنين في كلية دار العلوم، وكان ـ على طريقته القديمة في التدريس ـ محاضراً يتكلم ساعات طوالاً دون أن يمل ودون أن يلقي الملل في نفوس سامعيه. وقد سرني في ما بعد أن رأيت صديقنا الراحل الدكتور محمد مندور

يشيد في فصلٍ نشره في إحدى الصحف ـ ولعلها «الجمهورية» ـ بفضل السباعي بيومي عليه، ويحصيه ضمن أساتذته الكبار من أمثال لطفي السيد باشا وطه حسين. ولا أدري لم لم تقم الأخت الشاعرة ملك عبد العزيز، أرملة الدكتور مندور، بجمع فصوله المنشورة في الصحف وهي آلاف، ولا سيما لأنها تسجل خواطر مندور ونظراته في الآدب والحياة في نحو ربع قرن.

وفوجئنا نحن طلاب السباعي بيومي بمجلة «الرسالة» تنشر حملة شعواء على أستاذنا من قلم الدكتور زكي مبارك. فرجونا أستاذنا أن يرجىء الدرس إلى يوم آخر، وأن يقرأ علينا كلام مبارك ورده عليه. واستمرت هذه الحملة أسابيع، ونحن نتابعها بشغف شديد، لأن أستاذنا طرف أصيل فيها نستوضحه جوانبها المختلفة فيفيض في الحديث بأسلوب فيه احترام شديد للقيم الأدبية. ولأن زكي مبارك قد رأيناه رأي العين في العام الفائت فصار معروفاً لدينا. وظللنا نتابع معارك زكي مبارك مع محمد أحمد الغمراوي الذي وصفه بقوله إنه: «شخص معتوه مخبول»! ومعاركه مع أحمد أمين وطه حسين...

وتقضَّت أيام الدراسة، وخرجتُ إلى الحياة تستهويني منها منتديات الأدب. ولا أظن أن هناك منتدى أدبياً عرفته القاهرة في فترة الأربعينيات وأوائل الخمسينيات إلا غشيته واتصلت برواده. وما انقطعت عن غشيان تلك المنتديات إلا بعد أن توّبتني الدنيا بدروسها البليغات وأنيابها السامة. كانت تلك الندوات خالصة للأدب، وكان المترددون عليها من المؤتمين بالأدب، أساتذة وشداة. فلما زايلها اهتمام الأدب، وانفض عنها أصلاء الأدباء، وانزرع في وسطها الساعون بالنميمة، وتحوَّلت مناقشاتها إلى بيزنطيات فكرولوجية ديالكتيكية، طلقت الندوات، قانعاً بقصادي، وكانوا وما زالوا من أشرف وجوه الضاد في حياتنا.

وفي هذه المنتديات عرفت الدكتور زكي مبارك، فبهرني علمه، أما شخصيته فقد نفرتني منها أشد تنفير. لقد كان في تلك الفترة يعاني اضطهاداً سلاحه الأفظع محاربته في رزق أولاده، وحرمانه من مكانه الطبيعي وهو التدريس بالجامعة، والتضييق عليه في وظيفة التفتيش المتواضعة برزقها القليل وأسفارها الكثيرة. فكان طبيعياً أن ينعكس هذا كله على حياته، فلا يختار من مشارب القاهرة إلا أوضعها، ولا يلبس إلا الزري من الثياب، ولا يهتم بتهذيب شعره أو حلاقة ذقنه. وكنت أراه في الأمسيات جالساً بالساعات في تلك المشارب الرخيصة ولا

هم له إلا تأمل الناس والسابلة، ومن حوله شبان من أمثال «أحمد رشدي» الذي خصه بديوانه الكامل وهو «ألحان الخلود» متشبباً به تشبباً غريباً. وكنت أراه في الصباح المبكر جالساً في نفس الموضع، فلا أدري أأمضى الليل كله هنا، أم أنه عاد إلى داره مع الفجر، ثم غادرها مبكراً إلى مقعده الخالد. وكنت أقتصر على تحيته برفع اليد، ثم أهرول في طريقي غير عابىء بدعوته إلي بالانضمام إلى مجالسيه من أمثال أحمد رشدي. ناهيك بأن موضوعه الأثير الذي كان يخوض فيه هو الطعن في خصومه الألداء: النقراشي باشا، والسنهوري باشا، وإسماعيل القباني، وطه حسين، وأحمد أمين، وكان في طعنه جريئاً حتى على الحق. فقد كان يقول عن طه حسين: «إنه لا يقرأ ولا يكتب» مشيراً بذلك إلى أن سكرتيره يقرأ له ويكتب ما يمليه عليه. بل كان يقول عن طه حسين: «لو جاع أطفالي لشويت طه حسين وأطعمتهم من لحمه، إن جاز أن أقدم إلى أطفالي لحوم الكلاب» ـ وهذا الكلام منشور في ديوانه «ألحان الخلود». ولم يسلم من لسانه أحمد حسن الزيات الذي فتح صدر «الرسالة» أمامه، ولا سلم منه لطفي السيد فقال عنه: «إن المقادير أصارته رئيساً للمجمع»!

وكنت أعرف ظروف زكي مبارك وأرثي له أشد الرثاء، ولكنني كنت أراه بمسلكه مع نفسه ومعاملته لشخص زكي مبارك، إنما يقترف في حق ذاته انتحاراً بطيئاً، فهو لا يكاد يفيق، وحياته تشرد متصل، وحواريوه ليسوا أهلاً لمجالسته. بل إن الفصول التي واصل كتابتها أسبوعياً في جريدة «البلاغ» بعنوان «الحديث ذو شجون»، والفصول الأخرى التي كان ينشرها في مجلة «الصباح»، كانت خليطاً عجيباً من كلام العقلاء وهلوسات المجانيين. صفحة كاملة من «البلاغ» كان يملؤها كل أسبوع بأي كلام يخطر بالبال، وهي ثرثرة أدبية ممتعة بكل ما فيها من شذوذ العباقرة، وفلتات الألسنة، وتداعي الذهن والخاطر. وعلى هذه الشاكلة أصدر ديوانه «ألحان الخلود»، فجاء بدعاً في الدواوين بمقدماته التي لا تنضبط في أي لون من ألوان الأدب، وباستطراداته وشطحاته ونزواته، ناهيك بما فيها من مظاهر «البرانويا» أي العظمة الذاتية، وناهيك بما فيها من روايات عن فاتناته الفاتكات!

فلما نعت الصحف زكي مبارك في أوائل عام ١٩٥٢ (في الثالث والعشرين من كانون الثاني/ يناير) حزنت على هذا الأديب الكبير الذي كان يرجى لأمته،

ولكن حروب «الرزق» قتلته في ليلة فقد فيها توازنه وهو يغادر مشربه، وإذ كان يحاذر مركبة قادمة هوى على أم رأسه، فاصيب بشج في الجمجمة وارتجاج في المخ، فمات بمخه الذي عذبه طويلاً وعذب كذلك جميع معاصريه.

وقد طالعنا حسين خريس بكتاب كبير ممتع أشد الإمتاع نفيس أشد النفاسة هو كتاب «جناية أحمد أمين على الآدب العربي»، وفيه رصد للفصول التي نشرها زكي مبارك في مجلة «الرسالة» بهذا العنوان سنة ١٩٣٩، وقد أربت على عشرين فصلاً، وفي الكتاب كذلك مقدمة طويلة للباحث الناقد خريس فيها إنصاف لزكي مبارك من معاصريه ومن نفسه أيضاً.

وكان أحمد أمين عميداً لكلية الآداب وأستاذاً للأدب العربي فيها مع أنه خريج معهد القضاء الشرعي! أما زكي مبارك فكان يحمل ثلاث درجات دكتوراه في الأدب العربي، ولما أتيحت له فرصة للتدريس في الجامعة بعقد قصير، انهيت خدمته بلا سبب أكاديمي!

وكان أحمد أمين قد كتب في مجلة «الثقافة» التي أصدرها هو وجماعته بعد انشقاقه عن «رسالة» الزيات سلسلة من الفصول عنوانها «جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي»، قال فيها: إن الأدب الجاهلي أدب معدة لا أدب روح، وإن الأدب العربي كله لا يعرف كاتباً إلا ابن خلدون ولا شاعراً إلا ابن الرومي، وإن أدب الجاهليين كان أدباً تركيبياً لا أدباً تحليلياً، وإن الجاهليين لم يعرفوا الوصف ولا أحسنوا تصوير بيئاتهم.

والتقط زكي مبارك قفازه، ونزل إلى حلبة المصارعة بكل عدته وعتاده، فهاقد واتته الفرصة لإظهار «جهل» عميد كلية الآداب وأستاذ الأدب العربي فيها! وما دام أحمد أمين قد اتهم الجاهليين بالجناية على الأدب العربي، فليحمل وزر هذه الجناية أحمد أمين نفسه.

ومضى زكي مبارك يشعل نار الحرب، ويزيدها وقوداً وضراماً، فلم يدع لأحمد أمين جنباً يستريح عليه. وكان ـ على منهاجه المعهود ـ لا يتورع عن ركوب مراكب العنتريات، ومن ذلك قوله: «لو أن معدتي كانت كما أحب من القوة والعافية، لأكلت لحم الأستاذ أحمد أمين وأرحت الدنيا من أحكامه الجائرة في الأدب والتاريخ. ولكن الدهر حكم بأن أكون من أصحاب الأرواح، فلم يبق

لي في محاسبته غير شيطنة الروح، وفي الأرواح شياطين!». كما قال في سياق فصوله: «ليس المهم أن نهدم الأستاذ أحمد أمين - فتلك غاية صغيرة - ولكن المهم أن نكف شره عن الأدب العربي، وأن نزجر من يتطلع إلى مثل غرضه من عوام الباحثين»!

وقد نشر الدكتور زكي مبارك هذه الفصول في أشهر الصيف من رمضان، وترامى إليه أن أحمد أمين ترك القاهرة ليصطاف في الإسكندرية عند صخر «المكس»، فكتب يقول: «إن الذي عجز عن وصف الطبيعة هو الذي يصطاف بالإسكندرية كل سنة ولم يفتح الله عليه بغير القول إنه جلس على صخرة المكس ليأكل السمك المياس، وليفكر في مصير الشمس بعد الغروب، وليقول إنه تحاور مع هيان بن بيان»!

ولم يكتف زكي مبارك بالرد على كلام أحمد أمين، بل أردف ذلك بالكشف عن «سرقاته»، وأغربها أنه سرق آراء الدكتور زكي مبارك نفسه.

حتى إذا ختم سلسلة فصوله التي «أرقت جفون أحمد أمين خمسة أشهر كانت عنده كألف سنة مما تعدون» قال: إنه إذا قابل أحمد أمين: «فسأبدؤه بالتحية حيث ثقته، فلا يروعني وجهاً أراه أهلاً للكرامة والحب، وسلام عليه من الصديق الذي لا يغدر ولا يخون».

وقد أحسن صديقنا خريس بلم شتات هذه المعركة الأدبية التي كان بطلها الصنديد وفارسها الرئبال زكي مبارك، فلم يكن وكده إذن أن يسوق كلام أحمد أمين برمته، ولا أن يسجل جميع الفصول التي حفلت بها المجلات الأدبية في ذلك الحين انتصاراً لهذا أو تعصباً لذاك أو تعليقاً يراد منه إصلاح ذات البين بين المبارك والأمين، ولعل حسين خريس، لو أثبت هذه النصوص جميعاً، لجعل من كتابه - وإن تضخم واكتظ - مرجعاً ثميناً في الأدب، ومعرضاً حياً للحياة الأدبية في عصرنا الحالي الذي مات فيه النقد أو كاد.

وقد شارك في معركة «الجناية» كثيرون من أدباء العرب، من لبنان وسورية والعراق وفلسطين والسودان ومصر، وكلهم نسبت أقوالهم إليهم دون تشكك في شخصياتهم. على أن حسين خريس حين استشهد برأي الآنسة أمينة شاكر فهمي المندرج في مجلة «الثقافة» عقب على ذلك بقوله: «لم نتحقق من شخصية الكاتبة

إن كانت تكتب باسمها الصريح أم أن وراء هذا الاسم شخصية أخرى».

ولو أن الصديق العزيز خريس راجع أعداد «الرسالة» و«الثقافة» ومجلة «الطالبة» لوقع فيها على فصول متناثرة لهذه الأديبة التي درست في كلية الآداب على أحمد أمين وعزام، والتي كانت «تناوش» زكي مبارك برسائلها فيعلق عليها هنا وهناك، والتي كانت شديدة الإعجاب بالزيات وأسلوبه في الكتابة، فلما انتهى الزيات وعصره وأسلوبه، وانصرف الكتاب عن الأساليب البيانية إلى الأساليب اليومية الدارجة، أو أساليب التعقيد الفكرولوجي، راحت تجتر الآثار القديمة، وتصدف عن مطالعة الكتب السوقية الأساليب.

ولزكي مبارك قصيدة مشهورة، بل ملحمة من ملاحم الأسى الصارخة، عنوانها «من جحيم الظلم في القاهرة إلى سعير الوجد في بغداد» وقد نظمها في العراق عندما دعته حكومتها للتدريس في معاهدها، وكرمته واحتفت به الدولة ومحافل الآدب جميعاً ـ على ما سجله عبد الرزاق الهلالي تسجيلاً فذاً في كتابه «زكي مبارك في العراق» بعد أن كان يذرع فضاء الله في مصر مفتشاً على المدارس بعقد موقوت.

ومما قاله في هذه القصيدة:

أَرَبَّاهُ أَنْقِذْنِي فَأَنْتَ رَمَيْتَنِي ... بِقَلْبٍ عَلىٰ عَهْدِ الأَحِبَّاءِ بَكّاءُ

فأرادت أمينة شاكر فهمي أن تتحدى الدكتور إبراهيم ناجي بأن يأتي بشعر من هذا الطراز العالي. فقرأت له صدر البيت، ثم دعته إلى إتمام عجزه، فارتجل:

أَرَبَّاهُ أَنْقِذْنِي فَأَنْتَ رَمَيْتَنِي ... بِقَلْبٍ عَلىٰ الأَشْوَاكِ والدَّمِ مَشّاءِ
«أَمِينَةُ» هذا ما أَتَانِي كَتَبْتُه ... وَعِنْدَكِ أَخْبَارِي وَعِنْدكَ أَنْبائِ

وحدث مرة أخرى أن كان الدكتور إبراهيم ناجي جالساً في «نادي سيدات القاهرة» ومن حوله كوكبة من أعضائه، منهن «أمينة شاكر فهمي» والسيدة نلة فهمي بدوي ـ ولها كتاب عن جورج برنارد شو، ولها فصول كثيرة في المجلات الأدبية ولا سيما «الطالبة» ـ فقلن لناجي: أصحيح أنك ترتجل الشعر؟ فأجاب: نعم، فسألنه أن يرتجل أبياتاً من وحي المناسبة، فكانت هذه الأبيات:

سِرْبٌ مِنَ الحُوْرِ الفَوَاتِنِ كالزُّهُوْرِ نَوَاضِرُ
أَلْهَمْنَنِي وَأَحَطْنَ بِي فَجَرَى بِشِعْرِي الخَاطِرُ
أَلْهَمْنَنِي وَشَكَكْنَ بِي ونَسِيْنَ أَنِّي شَاعِرُ
فَإِذَا اعْتَرَفْنَ فَإِنَّنِي لِلفَضْلِ دَوْماً ذَاكِرُ
وأنا «لِفُلَّةَ» عارِفٌ وإلى «أَمِيْنَةَ» شاكِرُ

فهذه الشخصية الأدبية إذن ليست شخصية منتحلة، بل هي واقع أدبي يعرفه أدباؤنا المعاصرون وعلى رأسهم نقولا يوسف شيخ مشايخ حارات الأدباء المعاصرين!

وإن الجهد الذي بذله حسين خريس لإنصاف زكي مبارك، مضافة إليه جهود من سبقوه وهم فاضل خلف في الكويت وأنور الجندي في مصر وعبد الرزاق الهلالي في العراق وأخيراً محمد محمود رضوان في القاهرة، هو فريضة واجبة الأداء في حق هذا الأديب الذي إذا تعالى وصف نفسه بأنه أعظم رجل في العالم، وإذا تواضع قال عن نفسه أنه «خادم من خدام العروبة». إنه أديب جنت عليه عبقريته وكبرياؤه ومطامحه البعيدة، فاضطرته إلى مقاتلة الناس جميعاً في غير وقار. ومع ذلك يقول عن نفسه: «لولا نشأتي على الوقار لكنت من كبار المصارعين». وهو نفسه قد اعترف بأنه «اشتهر برعونة القلم وشراسة اللسان»، فكان كما قال صالح جودت بحق: فتى أضاعوه في مصر.

وكانت كريمة زكي مبارك، ابنة هذا الأديب الكبير، قد نذرت تأليف كتاب بعنوان «أبي زكي مبارك»، ولا ندري متى يصدر هذا الكتاب فيكون على غرار كتاب «أبي عزيز أباظة» لابنته عفاف أباظة زوجة صديقنا ثروت أباظة.

ومع أن كثيراً مما كتبه زكي مبارك، ولا سيما في أحاديثه ذات الشجون في جريدة «البلاغ» يصدق فيه وصف الواصفين بأنه «كالخرنوب، قنطار من الخشب ودرهم من السكر»، فإن هذه الفصول المبعثرة ينبغي أن تجمع وأن تضاف إليها مقالاته في «الصباح» التي كان يصدرها صديقنا الراحل مصطفى القشاشي، ومقالاته في مجلة «الرابطة العربية» لأمين سعيد، والمجلة الأخيرة، على أنها لم تعمَّر أكثر من أربع سنين، فقد حفلت بدراسات أدبية وتاريخية هامة للثعالبي وزكي مبارك وأمين سعيد نفسه، وما زال أخونا الأديب التونسي الراوي الحبيب

شيبوب يبحث عبثاً عن مجموعتها، ولن يعدم أريحيا من أريحيي الأدب يدله عليها ويضعها رهن إشارته.

وكتاب خريس، وهو الذي أغراني بهذا الحديث المستطرد، كان من ألفه إلى يائه دفاعاً عن زكي مبارك وعرضاً كاملاً لأرائه المسوقة في «جناية أحمد أمين على الأدب العربي». والقارئ عرضة بأن يخرج من هذا الكتاب بنتيجة مؤداها أن العلم كله عند زكي مبارك، والجهل كله عند أحمد أمين، ولا أحسب أن هذا يصح في الموازين. وإن كان الحديث المستطرد يدعو إلى وقفة عند أحمد أمين.

وقد عرفت أحمد أمين في محاضرة مفتوحة كان يلقيها في جامعة القاهرة ارتجالاً، فكان محاضراً ممتازاً سواء من حيث النبرة الرصينة التي تميز المحاضر عن الخطيب، أو من حيث شد آذان السامعين، أو من حيث الإلمام بموضوعه إلمام إحاطة، ثم الإقناع بما هو قائله.

ثم عرفته في الندوات الأسبوعية «للجنة التأليف والترجمة والنشر» التي كانت تنعقد كل أسبوع، وتضم حشداً من رجال الفكر مثل: الدكتور محمد عوض محمد، ومحمد عبد الله عنان، ومحمد مندور، وعلي أدهم، وعبد الواحد خلاف، وعبد السلام الكرداني، وعبد المنعم خلاف، ومبارك إبراهيم، وشوقي ضيف، وسيد قطب، والدكتور أحمد زكي، والدكتور زكي نجيب محمود... وكانت ندوة عليها طابع الوقار، وهو السمة الغالية لكل أعضائها. وكل مناقشاتها في الفكر العربي أو في الفكر الغربي تجد من أحمد أمين مشاركة نيرة فيها. ثم عرفت أحمد أمين في الإدارة الثقافية للجامعة العربية، وكان أول مدير لها، وقد استطاع، على علو سنه، أن يرسي لها دعائم في الثقافة سارت عليها من بعده. وعندما أصدر كتابه الذي سجل فيه ذكرياته وحياته وسيرته، وسماه «حياتي» نشرت عنه كلمة في إحدى الصحف، فتلقيت من أحمد أمين رسالة شكر ما زالت ضنينة من ضنائني. أما أحاديثه في الإذاعة فكنت أحرص على الإصغاء إليها لارتياحي إلى صوته وإلى الموضوعات التي كان يحسن انتقاءها ليدير حولها أحاديثه.

على أنني كنت أعجب حين أفتح مجلة «الاثنين» وهي مجلة أقرب إلى مجلات العوام منها إلى دوريات المتخصصين، فأرى أحمد أمين يكتب فيها

فصولاً لا تليق برجل في سنه ومنزلته. كما أنني كنت أدهش إذ أرى كتباً تصدر حاملة اسم أحمد أمين كمؤلف أو محقق، إلى جانب اسم واحد من شداة الأدب. فكيف كانت المشاركة في التأليف بين هذا الأستاذ الكبير وبين من هم بمقام طلابه؟ بل كنت أرى كتباً تصدر وعليها اسم أحمد أمين كمترجم، مع أن الترجمة لم تكن يوماً من اختصاصه.

وأيًا كان الأمر في ذلك، فقد عرفنا في أحمد أمين رعاية للناشئة أذكر منها واقعتين، دون أن أنهض إلى مجموعتي من «الثقافة» للاهتداء إلى موضعيهما.

فقد كتب سيد قطب مقالاً في «الرسالة» قال فيه ما مؤداه: إنه بعد سنوات طويلة من العناء في الحياة الأدبية تأليفاً وتصنيفاً، لم يجد أحداً من كبار الكتاب أشار إليه بحرف أو اهتم بكتاب من كتبه، وكانت نغمة المقال نغمة تنضح بالمرارة، لأن كبار الكتاب يهملون من هم من جيل تال، ولا يذكرونهم بكلمة خير.

وكان الرد الأبلغ على شكوى سيد قطب مقالاً افتتاحياً حملته «الثقافة» من قلم أحمد أمين، وجه فيه الخطاب إلى سيد قطب مواسياً ومباركاً جهده ومؤكداً له أن النجاح الحق تراه الناس ولا تعوزها عليه شهادات. هذه واحدة.

والواقعة الثانية هي أن صديقنا القديم الدكتور شكري فيصل قدَّم إلى الدكتور أحمد أمين نسخة من كتابه الأول[1]. فكان حرص أحمد أمين على قراءته والكتابة عنه وإبداء ملاحظاته وتوجيهاته عليه حرصاً أستاذياً أبوياً.

ومعارك زكي مبارك تنتهي دائماً بانتصاره، لأنه وحده القادر على المضي في هذه المعارك حتى يجد خصمه ألّا فائدة من مواصلة الرد عليه، فإذا أفرغ الزكي ما في جعبته ـ وجعبته لا تفرغ أبداً ـ كان الخصم قد لاذ بسلامة الصمت، وكان هو وحده الواقف في الميدان. وقد قال عنه الزيات، وهي شهادة رجل بصير بالنفوس: «إن زكي مبارك لو استطاع تملق الظروف ولو حذق شيئاً من الحياة لاتقى كثيراً مما جرته عليه بداوة الطبع وجفاوة الصراحة. ولكن هذه الأغراض النفسية ستفنى فيه وفي الناس، ويبقى ذلك المجهود العملي الضخم

(١) مناهج الدراسة الأدبية.

الذي قدمه إلى الأدب العربي في شتى مناحيه شاهداً على صدق خدمته للأدب ورفيع مكانته في النهضة».

إن زكي مبارك «ظاهرة أدبية» فريدة في حياتنا المعاصرة، على ما وصفه فتحي رضوان في فصلين له قام بنشرهما، كان مكانه الطبيعي بين قادة الفكر في عصره: طه حسين والعقاد، ومصطفى عبد الرازق، ومنصور فهمي، والمازني، وعبد الوهاب عزام، وأحمد أمين، وشفيق غربال، ولكنه لم يكن يختار إلا مجالس صعاليك الأدب في مشارب القاهرة! سافر إلى العراق فوقف محمود عزمي يقول للعراقيين: إن زكي مبارك مشاغب فاحذروه، ولكنه قضى في العراق تسعة أشهر ناء فيها بمودات وصداقات وأخوات ظلت تلهمه إلى آخر العمر، ولم يخض هناك معركة واحدة. و«الشغب» الوحيد الذي أحدثه في العراق، هو مطالبته الحثيثة بإنشاء جامعة عراقية تهيئ أسباب العرفان لأبناء العراق. والكتاب الذي أصدره عبد الرزاق الهلالي عن «زكي مبارك في العراق» هو أنشودة حب وغزل في هذا الأديب الذي كان مشاكساً قبل العراق، وعاد إلى مصاولاته بعد العراق.

ولو تأملنا الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة المباركية، لما وجدنا إلا سبباً واحداً هو «الجحود»، وهو سبب ما زال متفشياً في عالمنا العربي إلى يومنا هذا، يعاني منه في صمت كثيرون من كبار الأدباء الذين يرون الحياة تعج بالبهلوانات، وترتفع بهم إلى سدة الحياة الفكرية، بينما النسيان يلفهم بأسمك البرود، بل الأكفان.

ولو أن الحياة انصفت زكي مبارك، ووضعته حيث كان ينبغي أن يوضع، لانصرف إلى إعداد كتب جليلة أخرى من طراز «النثر الفني» و«التصوف الإسلامي» و«الشريف الرضي».

إنه أديب جنت عليه عبقرياته وألقاب دكترته الكثار! ففي عشرين عاماً من عمر الجامعة المصرية الحديثة لم تمنح درجة الدكتوراه إلا إلى اثنين، هما عبد الوهاب عزام وزكي مبارك، ومع ذلك أبت الجامعة أن تعترف بالمبارك أستاذاً فيها إلا لفترة قصيرة.

والحمد لله أن ألوان التقدير التي حرمها في حياته ـ في ما خلا تقدير

العراق ـ قد جاءته اليوم تسعى بأقلام المنصفين العدول. وصدق حسين خريس في قوله:

إِنَّـهَـا مِـحْـنَـةُ جِـيْـلٍ لَـطَّـخَـتْ ... وَجْـهَـهُ النَّـاصِـعَ أَحْـقَـادُ الـقُـلُـوْب
مِـحْـنَـةُ الـحَـقِّ الَّـذِي لَـمْ تَـأْلَـهْ ... مِنْ جَهِيْرِ القَوْلِ والرَّأْيِ المُصِيْبْ
مِـحْـنَـةُ الـعَـدْلِ الَّـذِي لَـمْ تَـلْـفَـهُ ... مِـنْ خَـصِـيْـمٍ وَأَلِـيْـفٍ وغَـرِيْـبْ
مِـحْـنَـةُ الـقَـلْـبِ الـذي ظَـلَّ عَـلـىٰ ... ظَـمَـأٍ يَـهْـمِـي يَـنَـابِـيْـعَ طُـيُـوْبْ
كُـنْـتَ فـي دُنْـيَـاكَ فَـرْداً وَاحِـداً ... تَتَأَبَّى الظُّلْمَ لا تَخْشَىٰ الخُطوبْ
فَـلْـتَـعِـشْ فـيـنـا حُـضُـوْراً مُـطْـلَـقـاً ... شَـمْـسَ فِـكْـرٍ عـن دُنَـانـا لا تَـغِـيْـبْ

ترى هل تعلمنا من قصة زكي مبارك درساً يداوي أمة العرب من داء الجحود؟

❁ ❁ ❁

الدكتور زكي المحاسني

رعى الله عهداً زاهراً، كنت أستهلّ فيه يومي بقراءة باب «محاضرات اليوم» في جريدة الصباح، وهو باب تنشره الصحف بالمجّان يضمّ لائحةً بالمحاضرات التي تُلقى في اليوم نفسه من على المنابر الكثيرة المنتشرة في القاهرة، وكنت أجتهد في التوفيق بين الموعد المحدّد لمحاضرتين أنتقيهما، سواء لموضوع المحاضرة أو لشخصية المحاضر. وما أكثر المنابر التي كانت منصوبة في أوائل الأربعينيات، في جامعة فؤاد الأول (وهي الجامعة الحكومية الوحيدة في ذلك الوقت) ونقابة الصحفيين، وجمعية اتحاد خريجي الجامعات، وجميعة خريجي دار العلوم، وجمعية خريجي كلية التربية، وجمعية الاقتصاد السياسي والتشريع، والجمعية الجغرافية الملكية، وجمعية خريجي جامعات فرنسة وسويسرة وبلجيكا وجمعية الشبان المسلمين، وجمعية الشبان المسيحية، وقاعة يورت التذكارية، والقاعة الشرقية بالجامعة الأمريكية، وعشرات غيرها من المنابر التي لا تكفّ عن النشاط على مدار العام، حتّى في أشهر الصيف.

واتفق في ذلك الوقت أن كان الشاب السوري زكي المحاسني موفداً من حكومته إلى القاهرة للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه في الأدب العربي، وكانت تصحبه زوجته الأديبة اللبنانية المولد وداد سكاكيني (١٩١٣ ـ ١٩٩١). وفي حين كان زكي المحاسني عاكفاً على دراساته العليا، كانت وداد سكاكيني تنشر مقالاتها وأقاصيصها في المجلات المصرية، فاكتسبت شهرة فاقت شهرة زوجها.

وكان المحاسني ووداد من الوجوه الدؤوبة التي أصادفها يومياً كلّما سعيت إلى الإصغاء إلى محاضرة، ممّا شجعني بعد محاضرةٍ لإبراهيم عبد القادر المازني (١٨٩٠ ـ ١٩٤٩) على تقديم نفسي إليهما بصفتي الصحفية، فرحّبا بي ترحيباً كريماً كان يتجدد كلّما التقينا في محاضرة تالية. ولم نلبث أن ارتبطنا بصداقةٍ

وثيقة لم تفقد حرارتها بسبب البعد الجغرافي أو لأي اعتبار آخر. وفي صُحبتهما زرنا كثيرين من أعلام الفكر: العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤)، وسلامة موسى (١٨٨٧ ـ ١٩٥٨)، وفؤاد صروف (١٩٠٠ ـ ١٩٨٥)، ونقولا الحداد (١٨٧٠ ـ ١٩٥٤)، والدكتور أمير بقطر (١٨٩٩ ـ ١٩٦٦)، وسيد قطب (١٩٠٦ ـ ١٩٦٦)، والدكتور محمد مندور (١٩٠٧ ـ ١٩٦٥)، ومحمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ ـ ١٩٨٥)، والشاعر حسن كامل الصيرفي (١٩٠٨ ـ ١٩٨٤)، والدكتور محمد صبري السوربوني (١٨٩٠ ـ ١٩٧٨)، والدكتور أحمد فؤاد الأهواني (١٩٠٨ ـ ١٩٧٠)، وأحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨) وحبيب جاماتي (١٨٨٧ ـ ١٩٦٨)، وغيرهم.

وكنت أجد في هذين الزوجيْن أسرةً مثالية لاجتماعهما على حبّ الأدب وانصرافهما إليه دون سواه من الاهتمامات الأخرى. وكانا يختاران دائماً الإقامة في جزيرة الروضة الجميلة التي تقع بين نهر النيل وفرعه، بسبب قربها النسبيّ من الجامعة التي درس فيها المحاسني، ثم لأن حي الروضة اشتهر بكثرة المقيمين فيه من المشتغلين بالأدب والفكر مثل الدكتور شوقي ضيف، والشاعر عبد الرحمن صدقي، والدكتور محمد مندور، ومحبّ الدين الخطيب، وأحمد الشايب، ودريني خشبة، وخالد محمد خالد، والدكتور محمد كامل حسين (المتخصص في الأدب الفاطمي)، ومحمد عطية الإبراشي، وعالم الروح أحمد فهمي أبو الخير، وغيرهم، فارتبط المحاسني وزوجته بمعظم هؤلاء بصداقات وثيقة. بل إن الشاعر علي الجارم كان يقيم بدوره في هذا الحي، ولكنه توفي قبل سُكنى المحاسني فيه.

عاش المحاسني ووداد في القاهرة في فترة طلب العلم بين عامي ١٩٤٣ و١٩٤٧ ثم عادا إلى دمشق.

وعندما عُيِّن المجمعي الكبير الأمير مصطفى الشهابي (١٨٩٣ ـ ١٩٦٨) وزيراً مفوضاً ثم سفيراً لسورية في القاهرة، اختار الدكتور زكي المحاسني ليكون الملحق الثقافي في السفارة والمندوب السوري في اللجنة الثقافية بالجامعة العربية، فأقام المحاسني في القاهرة بين عامي ١٩٥٠ و١٩٥٦ وتحوّلت السفارة في عهد الشهابي والمحاسني إلى مجمع أدبي يؤمّه المشتغلون بالفكر في مصر بلا موعد، فيجدون من السفير والملحق ترحيباً بغير حدود. فكانت هذه هي أطول

فترة قضاها المحاسني وزوجته في القاهرة، وإن ترددا عليها غير مرّة بعد ذلك، سواء لحضور مؤتمرات أدبية أو بسبب اختيار المحاسني عضواً في لجنة تخطيط التعليم العالي بين مصر وسورية في عهد الوحدة، أو لكون وداد اختيرت عضواً في البرلمان الاتحادي المصري السوري.

ويسوقنا الحديث عن الأدباء الذين مثّلوا بلادهم تمثيلاً دبلوماسياً في القاهرة إلى إيراد أسماء بعض من عرفناهم من الأدباء في السفارة السورية ومنهم الشاعر نزار قباني، وأسعد محفّل (الشاعر باللغة الفرنسية)، والسفير الشاعر الدكتور عيسى درويش، كما عرفنا الشاعر عمر أبا ريشة، الذي كان في زيارةٍ للقاهرة في زمن الوحدة، وكان يمثل دولة الاتحاد في أمريكة الجنوبية. وعرفنا في سفارة العراق الدكتور محمد بديع شريف، ورفائيل بطي، وعبد الحق فاضل، ونجدة فتحي صفوة. وعرفنا في السفارة اللبنانية خليل تقي الدين، والدكتور حليم أبو عز الدين، والدكتور مدحت فتفت، وعرفنا في السفارة الإيرانية الدكتور علي دشتي، والدكتور نور الدين آل علي، ومنوجهر مؤدّب زاده، وعرفنا في السفارة الهندية الدكتور سيد حسين، وآصف علي أصغر فيضي. وعرفنا في السفارة الأمريكية الدكتور جون بادو والدكتور بايارد ضودج. وأقول كصحفي عاصر هؤلاء جميعاً وعرفهم وتعامل معهم إنهم كانوا يتخلّون عن صفاتهم الدبلوماسية البروتوكولية المتحفظة، ويمحضونني صداقتهم حتى تمنيت لو أن السلك الدبلوماسي كله أُسند إلى رجال فكر وأدب وشعراء، لأنهم أقدر من سواهم على تقديم القيم الروحية الأصيلة التي توثّق الصلات بين الشعوب، وتُعين على تحقيق التفاهم العميق بين الثقافات والحضارات، وتقلّل من التناقضات المترتبة على اعتبارات العنصرية الضيّقة.

ولد الدكتور زكي المحاسني في دمشق في عام ١٩٠٩ وتوفي والده وعمره عامان دون أن يترك له صورةً يتأمل فيها ملامحه،وتنقّل بين مدارس العاصمة السورية إلى أن نال الإجازة الجامعية من كلية الحقوق السورية عام ١٩٣١، وزاول المحاماة بعدها لفترةٍ قصيرة. ولكن شغفه بالأدب أعاده إلى دراسته في الجامعة السورية، فنال إجازتها في عام ١٩٣٦. واشتغل بعد تخرجه بتدريس اللغة العربية وآدابها في أنطاكية ثم في دمشق إلى أن أوفدته حكومته إلى القاهرة لمتابعة الدراسات العليا في جامعتها. وعاد بعد نيله درجتي الماجستير والدكتوراه إلى

تدريس الأدب العربي في كلية الآداب الحديثة بجامعة دمشق، وعين مديراً للتراث بوزارة الثقافة السورية، واجتذبه التدريس من جديد في كلية الشريعة بجامعة مكة المكرمة وفي كلية التربية في الجامعة اللبنانية. وفي غضون ذلك اختير عضواً مراسلاً في المجمع الملكي الإسباني عام ١٩٧١ وعضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٧٢ بتزكيةٍ من رئيسه الدكتور طه حسين، ولكن المرض حال دون مشاركته في أعمال المؤتمر السنوي للمجمع، وتوفي بعيد انتخابه في الثالث والعشرين من آذار (مارس) ١٩٧٢، وأطلق اسمه على الساحة المجاورة لجامع الإيمان في حي المزرعة بدمشق. وفي مناسبة الذكرى الأولى لوفاته، أصدرت زوجته كتاباً تذكارياً عنه بعنوان «تحية وذكرى الدكتور زكي المحاسني» حرّر فصوله «الذين عرفوه في أدبه ونضاله من أعلام المفكرين والأدباء في الوطن العربي».

وللدكتور زكي المحاسني طائفة غير قليلة من الكتب الأدبية التي صاغ فرائدها، منها «شعر الحرب في أدب العرب»، وهو رسالته لنيل درجة الدكتوراه، و«أبو العلاء ناقد المجتمع» وهو رسالته لنيل درجة الماجستير، و«النواسي شاعر من عبقر»، و«المتنبي»، و«إبراهيم طوقان»، و«أحمد أمين»، و«عبد الوهاب عزام»، و«نظرات في أدبنا المعاصر»، و«الأدب الديني»، و«أساطير ملهمة»، و«الشاب الظريف»، و«فقه اللغة المقارن»، و«دراسات في تاريخ النهضة العربية المعاصرة» بالاشتراك مع الدكتور محمد شفيق غربال والدكتور أحمد عزت عبد الكريم والدكتور محمد بديع شريف، و«الأدب العربي» بالاشتراك مع الدكتور جميل سلطان، و«في التراجم والنقد»، و«قراءات أدبية مدرسية وتحليلية». وله رسالة عن «أدب الملاحم والملحمة العربية» كما حقّق «ديوان الشريف العقيلي».

وللدكتور المحاسني عدد منه الكتب المخطوطة، منها ديوانه، وكذلك ديوان «الملحمة العربية» وهو يضم عشرات من المشاهد الشعرية التي تمثل تاريخ أمة العرب من بداياتها.

وعندما صدر كتابه الجامع «شعر الحرب في أدب العرب» رغبت في تكريم المحاسني تكريماً يعوّضه عن أي جحود صادفه، فرجوت أستاذنا العقّاد أن يتناول الكتاب بقلمه المنصف. وسرعان ما لبّى العقاد رجائي، وكتب عنه مقالاً نُشر أولاً في مجلة «قافلة الزيت» السعودية التي كنت أمثلها في مصر، ثم في كتابه

«أشتات مجتمعات»، أثنى فيه على الكتاب ثناءً مستطاباً حيث قال: «خير ما يُوفى به حقّه من الاستحسان هو أن يُوفيه القارىء حقّه من المطالعة وإنعام النظر والمشاركة في التعليق والاستدراك. . . . ولا نطيل التمثيل لمحاسن الكتاب، فإن الأمر يُلجئنا إلى الاختيار، وليس أصعب منه في كتابٍ هو نفسه قائم على الاختيار، أو على حسن الاختيار، وقدرة مؤلّفه على هذا الإحسان مكفولة بما تيسّر له من سعة المادة، وما توافر عليه من سعة الاطلاع».

ولم يكتف العقاد بذلك، بل وجّه إليّ رسالةً محضني فيها شكره لأنني «أيقظت غفلته ونبهته إلى هذا الكتاب النفيس وأتحت له متعة ولذاذة فكرية نعم بها في أويقاتٍ طيبة».

ولئن جاءت هذه الشهادة تتويجاً لأدب المحاسني من قمّة عليا كقمّة العقاد، فهي تغني عن أي شهادة أخرى على أدبه ومناهجه الأكاديمية وأسلوبه الناصع الرصين وتفقّهه في اللغة وآدابها في العربية وفنونها. ولا غرو، فقد عاش كل عمره موصول الأسباب بالأدب من جميع جوانبه.

ولكنّني أغمط المحاسني حقّه إنْ لم أتحدث بكل إكبارٍ عن شخصيّته التي حبّبت فيه كل من عرفه. فهو، على علمه، شديد التواضع، يحنو على الناشئة حنّواً أبوياً تلقائياً، ولا يضنّ عليهم بالتشجيع وجميل التوجيه. وهو يتصرّف بعفويةٍ نبيلة في المواقف الإنسانية، جازعاً في مواقف الجزع، متعاطفاً حيث يُطلبُ التعاطف، تفضحه مشاعره حتى ولو حاول كتمانها، وما أطول قامته في مواقف الكرامة. كان عفّ القلم واللسان، ينقد ولا يجرح، ويتطوع للدفاع عن أي قضية إذا ما اختلّت فيها الموازين. عزّ عليه أن يرى حبيب الزحلاوي ـ الذي بدأ حياته بائعاً في قسم الأحذية بمتجر سليم وسمعان صيدناوي وانتهى بائعاً لخردة الحديد ـ وقد وقف كتابه «شيوخ الأدب الحديث» على التهجم على كبار الأدباء، فخاطبه في مقال منشور قائلاً له: أنت تكتب بهراوةٍ وليس بقلم. ثم قصّ عليه قصة الرسّام الذي رسم لوحة فنية من جُملة عناصرها حذاء، واختبأ الرسام في مكانٍ قريب من اللوحة ليسمع آراء النقاد عن قرب وجاء إسكاف يتأمّل الصورة، فانتقد الحذاء لعيبٍ فيه، ثم انتقل إلى بقية الصورة يعيب فيها على الرسام عمله، فبرز له الرسّام وخاطبه قائلاً: ابق في الحذاء! ولعلّ المحاسني أراد أن يقول للزحلاوي: عُدْ إلى عملك الأوّل في بيع الأحذية!.

وكان المحاسني يبذل مودّاته في غير ضنّ إلى إخوانه الذين عرفهم في القاهرة في سنوات تقرب إجمالاً من العشر، وشعره شاهد على المطارحات الأخوية التي جرت بينه وبين كثيرين من الذين صافاهم الودّ. فإنْ أشرتُ إلى بعض مواقفه معي، فإنّما أُشيرُ بالعرفان إلى فضلٍ أعرفه بشخصي وله أشباهٌ كثيرة مع أصفياء المحاسني. فعندما توفيت أمي، وجّه إليَّ قصيدةً عارمة بالعواطف الصادقة جعلها رثاء لأمّه وأمي معاً. وعندما أفزعتني انكشاريات الحياة فكسرتُ القلم وجفوت المحابر والأوراق، وجّه إليّ قصيدة كان مما قاله فيها:

حُكْمُ أَقْدَارِنَا بأنَّا شُمُوْعٌ ... لا نُحَاوِلُ إطفاءَها نَحْنُ قَسْرا

وعندما قررتُ الهجرة النهائية ودّعني بقصيدةٍ مفعمة بالحسرات. وعندما اكتشفتُ أنني كنت في هجرتي كالمستجير من الرمضاء بالنار، فعدت بخفي حنين، وجّه المحاسني إليّ قصيدة جديدة أُورد أبياتاً منها بوصفها نموذجاً من شعره، حيث قال:

عَادَ الهَزَارُ إلى مَرَابِعِه ... فَقُلْ السَّلامُ على سَوَاجِعِهِ
قَدْ كُنْتُ شَطَّ النِّيْل أُنشِدُه ... شِعْرِي، وأَمْرَحُ في مَرَابِعِه

وعاد يحيّيني بقصيدة أخرى قال فيها:

خَلِيْلِي، لك القلبُ الذي أنتَ أهلُهُ ... ولو ساءَتِ الدُّنْيا تدرُّ مناهِلُه
أُفدّيك بالعينِ التي هي ناظِرِي ... وبالمَالِ لو لانَتْ لديَّ مَبَاذِلُه
ولكنَّ نفساً بين جنبيْك كالتي ... طوي «المتنبي» مثلَها وغوائِلُه
ونَصْبِرُ للبَلْوى ولا بدَّ من غدٍ ... سَيُدْرِكُنا فيه من السَّعْدِ عَاجِلُه
«فلان» لأنَت الطَوْدُ ليس تنالُه ... زعازِعُ مهما اشتدَّ في الرّيحِ شاملُه

وقد أصاب الدكتور عبد السلام العجيلي في تصويره للمحاسني حيث قال: «لم تجمعنا صداقة حميمة، ولا علاقة معلّم بتلميذه. كان أفتى من أن يكون من أساتذتي، وأسنّ من أن أكون من لداته. ومع ذلك كنت أحسّ بقربه من القلب كأعزّ الأصدقاء، لأنَّ نفسه كانت في براءة الأطفال، وأي إنسان يقدر على أن لا يكون صديقاً لطفل، وإن كان ذلك الطفل كبيراً؟ وكنت كذلك أراه خليقاً بأن يكون واحداً من أساتذتي، وإنْ لم أجلس أمامه على مقاعد الدرس. أليس هو

من الطبقة التي انفتحت على العالم المعاصر، عالم الغرب بآدابه الثرية وحياته المُغرية، ومع ذلك لم تأسرها مفاتن ذلك العالم، بل ظلّت وثيقة الصلات بماضيها، شديدة الاعتزاز بقوميتها، مخلصة لأدبها القديم والحديث ولتاريخها المجيد؟».

كما قال عنه بشير زهدي محافظ متحف دمشق: «كان المحاسني ينشد الخلود، ويتحدّث عن الخالدين، فاستحقّ مكانه بين عمالقة الخالدين من شعراء ومفكرين وأدباء وإنسانيين».

❁ ❁ ❁

ساطع الحصري

كان المجاهد العربي (اللبناني الجنسية) أسعد داغر (١٨٨٦ ـ ١٩٥٨) المحرر بجريدة «الأهرام» والمستشار بالجامعة العربية وصاحب جريدة «القاهرة» المسائية قد أنشأ في القاهرة جمعية أطلق عليها اسم «جمعية الوحدة العربية»، واتّخذ لها مقراً في حي الزمالك. ورغب أسعد داغر في أن يقترن الإعلان عن بدء نشاط هذه الجمعية بدعوة ساطع الحصري لإلقاء محاضرة فيها عن «القومية العربية» يفتتح بها أعمال هذه الجمعية. ووجّه أسعد داغر الدعوة إلى كثيرين من أصدقائه المشتغلين بالقضايا العربية من ساسة وصحافيين ـ وكنتُ من جملتهم ـ للاستماع إلى هذه المحاضرة. وقام رئيس الجمعية بتقديم المحاضر بوصفه «فيلسوف القومية العربية». وشرع ساطع الحصري بعد ذلك في إلقاء محاضرته، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها عن قُرب. ولم يكد الحصري يبدأ في الكلام بصوت خفيض ـ فلم تكن هناك مضخّمات للصوت ـ حتى أخذ الحاضرون يتهامسون في بينهم متسائلين: بأي لغة يتحدّث هذا الرجل؟ فكلامه غير مفهوم، وهو مزيج من لَكَنَاتٍ تركية وعراقية ويمنية ومغاربية ومقدونية ضاعت في أثنائها مادّة المحاضرة. وإذا كان جانب من الحاضرين قد صبر على معاناة الاستماع، فإن الغالبية العظمى منهم أخذت تتسلّل خارج القاعة حتى كادت تفرغ من الحاضرين!.

كانت هذه هي الصورة الأولى التي انطبعت في ذهني عن ساطع الحصري، وهي صورة تنطق بِغُرْبَةِ المتحدّث عن اللغة العربية، لعجزه عن التعبير الفصيح بأسلوب واضح مفهوم يوصّل به رسالته إلى جمهرة السامعين. وعجبتُ أن يكون هذا هو شأن «فيلسوف القومية العربية» الذي يدعو إلى وحدةٍ شاملة جامعة مانعة تضمّ مفردات الأمة العربية في القارتين الآسيوية والإفريقية في كيانٍ واحد.

وكان من عادة صديقي العلّامة الأمير مصطفى الشهابي (١٨٩٣ ـ ١٩٦٨)

رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق المجيء إلى القاهرة في شتاء كل عام للمشاركة في المؤتمر السنوي لمجمع القاهرة، وكان يؤثر الإقامة في شقّة خاصة عوضاً عن النزول في الفنادق كيما يستزيد من المكث في القاهرة والاستمتاع بدفء شمسها في الشتاء. وذات يوم هاتفني قائلاً: إن ساطع الحصري سيتناول الغداء في بيته، ودعاني لأن أكون ثالثهما. فرحبت بالدعوة على أمل أن أزداد اكتشافاً «الفيلسوف القومية العربية». ولمّا بدأ يتحدّث معي لم أفهم منه حرفاً، واستصوبت التحوّل إلى اللغة الإنكليزية فجاوبني بها بكلام واضح، واستمرّ الحديث يدور بيننا بهذه اللغة الأعجمية طوال الجلسة وفي غير مشقة. وقلت لنفسي: إن شأن الحصري شبيه بشأن بعض المحامين الذين يُعجزهم أن يترافعوا أمام المحاكم في حين أنهم يبرعون في كتابة المذكرات القانونية التي يقدّمونها في الدعاوي. ولكن هذا التفسير لم يقنعني، لأن المرافعة في المحاكم تحتاج إلى قدرةٍ خطابيةٍ وصوتٍ جهوري وبديهةٍ حاضرة في حين أن الحديث العادي بين شخصين لا يحتاج إلى مثل هذه القدرة.

وفي عام ١٩٥١ زار القاهرة السياسي السوري الدكتور ناظم القدسي (١٩٠٦ ـ ١٩٩٨) بوصفه رئيساً للوفد السوري لدى مجلس الجامعة العربية، وقدّم إلى المجلس مشروعاً لإقامة «دولة وحدة عربية» تضم الدول العربية جميعها «وتكفل التوحيد في السياسة الخارجية وفي قوى الدفاع القومي والاقتصاد والمرافق الرئيسية، ويكون بنظر الرأي العام العربي وبنظر الكتل العالمية موضع اهتمام وأمل أو خشية». وكنت في ذلك الوقت أحرّر جريدة «المقطم» المسائية التي عمّرت أكثر من ستين عاماً، وكان معهوداً إليَّ في كتابة مقالات الصدر اليومية التي تتناول بالتعليق أهمّ الأحداث الجارية. وكان طبيعياً أن يستأثر مشروع القدسي باهتمامي، فعقدت عليه تسعاً من تلك المقالات أوضحت فيها أن الوحدة العربية ـ وإنّ تكن أملاً منشوداً ـ لا تتحقق بين عشيّة وضحاها وفقاً لمشروع ناظم القدسي، بل لا بدّ من التدرج فيها بحيث يكون البدء من نقاط الاتفاق لا من نقاط الاختلاف، وتأتي الثقافة والفكر والأدب والتعليم على رأس الأمور التي لا خلاف عليها، ويتمّ بعد ذلك الانتقال إلى المصالح الإنسانية بين المواطنين من حيث تسهيل التزاور والإقامة بإلغاء التأشيرات التي لم يكن لها وجود في الحقبة الاستعمارية، وتشجيع التزاوج والرحلات، على أن يتم بعد ذلك تحقيق التكامل

الاقتصادي والتجاري بتيسير إقامة المشروعات المشتركة وحرية انتقال رؤوس الأموال وما إلى ذلك. ومتى تحقق ذلك، أصبح الطريق ممهداً لمعالجة أوجه التضارب الأخرى بين أوضاع البلدان العربية السياسية وما إليها. ودعوتُ إلى التخلّي عن الأحلام البعيدة المنال، والشروع جدّياً في الخطوات التي من شأنها تحقيق الالتحام بين مواطني الدول العربية ثقافياً وفكرياً وإنسانياً واقتصادياً.

واتفق بعد ذلك أن كنت أسير في أحد شوارع القاهرة فالتقيت بساطع الحصري الذي ابتدرني قائلاً: هل قرأت مشروع ناظم القدسي؟ فسألته بدوري: وهل قرأت الفصول التسعة التي عقدتها عليه؟ فقال: إنه لم يطلع عليها ويهمّه أن يقرأها لأنه بسبيل نشر كتاب جديد يضمّ فصلاً عن مشروع القدسي وصداه. وفي اليوم التالي تركتُ له في الفندق المتواضع الذي كان يقيم فيه (فندق ڤينواز) نسخاً من هذه المقالات. وعندما صدر كتابه الموعود رأيته يكتفي بإشارة سريعة إلى أن جريدة «المقطم» عارضت المشروع معارضة ضعيفة!.

والمرة الأخيرة التي التقيت فيها بساطع الحصري كانت في صيف عام ١٩٥٦ في جنيف، حيث صادفته في الشارع مع ابنته وسألني عن الفندق الذي أقيم فيه فدللته عليه، وقال إنه سيزورني هناك. فوفى بوعده وزارني فعلاً، وكان حديثنا يجري دائماً باللغة الإنكليزية.

والحقيقة أن ساطع الحصري قد عاش حياةً حافلة بالأعمال والمنجزات، سواء في تركية أو في الأقاليم المقدونية أو في سورية أو في العراق أو في مصر. فحياته تكاد تشبه حياة البدو الرحّل الذين لا يستقرون في مكان إلّا لكي يشدّوا الرحال إلى سواه. فهو قد ولد في اليمن (في لحج على وجه التحديد) في الخامس من آب (أغسطس) ١٨٨٠ لأبوين من حلب الشهباء، إذ كان أبوه محمد هلال الحصري قاضياً في الدولة العثمانية التي كانت تنقله من مدينة إلى أخرى في تلك الدولة. وكان عند ولادة ابنه ساطع يعمل رئيساً لمحكمة الاستئناف في اليمن. ولما وصل الصبي إلى سنّ المدرسة، أوفده أبوه إلى المدرسة الملكية الشاهانية في الآستانة (استنبول) وبقي هناك إلى أن تخرج عام ١٩٠٠. وانتقل بعد ذلك إلى دول البلقان التابعة للدولة العثمانية حيث عمل في التدريس على مدى ثماني سنين، وهناك رأى عن قرب تعصّب أقاليم البلقان للقومية في كل منها، فأُشربت نفسه بهذه الفكرة. وفي هذه الفترة ألّف عدة كتب باللغة التركية.

وفي عام ١٩٠٨ عاد إلى الآستانة حيث تولّى إدارة مدرسة المعلمين التي قام بتنظيمها على أسس جديدة. ورأس بعد ذلك دائرة المطبوعات التركية. وكان ساطع الحصري قد أبدى تعاطفاً مع حركة القومية العربية، وشارك في جمعياتها السريّة فأدّى ذلك إلى وقوع خلاف بينه وبين المسؤولين الترك. فقرّر مغادرة تركية والقيام بأول رحلة إلى أوربة في عام ١٩١٠ لاستطلاع أوضاعها، والوقوف على أسباب حضارتها، وزار عدداً كبيراً من حواضرها. وكان لقاؤه بالأمير فيصل (الملك فيصل الأوّل) نقطة تحوّل في حياته، إذْ قَرَّبَهُ منه، ووثق فيه، وظلَّ على اتصال به إلى وفاته.

وفي عام ١٩١٩ توجه ساطع الحصري إلى دمشق حيث أسندت إليه وظائف شتّى في أجهزة التعليم الرسمية في عهد حكومتي رضا الركابي وهاشم الأتاسي. وأدخل على نظم التعليم إصلاحات كثيرة، أهمّها تعريبه، فصارت الدروس تُلَقَّنُ باللغة العربية بدلاً من التركية.

وفي عام ١٩٢١ دعاه الملك فيصل الأوّل إلى التوجّه إلى بغداد حيث أسند إليه وظيفة مستشار في شؤون المعارف. وحرصاً منه على الوقوف على أوضاع التعليم في العراق، أنفق ستة أشهر في الطواف بأنحاء البلاد وزيارة المدارس ودراسة المناهج. وكانت مصائر التعليم في العراق في أيدي مديرين من الإنكليز، فلمّا تمّ الاستغناء عنهم في عام ١٩٢٢ عُيِّن الحصري معاوناً لوزير المعارف العراقي. وظل في هذه الوظيفة عشرة شهور. وبين عامي ١٩٢٧ و١٩٣١ عمل أستاذاً في دار المعلمين العالية في العراق، ثم رأس كلية الحقوق العراقية بين عامي ١٩٣١ و١٩٣٥ وتولي مديرية الآثار القديمة بعد ذلك حتى عام ١٩٤١. وكانت له في جميع هذه المناصب آثار إصلاحية وتنظيمية واسعة.

ومع ذلك، فقد فوجئ ساطع الحصري في عام ١٩٤١ بفصله من خدمة الحكومة العراقية ثم تجريده من الجنسية العراقية وإبعاده من البلاد، فتوجَّه إلى لبنان، حيث قضى ثلاث سنين عكف فيها على تأليف كتابه الضخم عن ابن خلدون. ولأنه كان شديد الإعجاب بابن خلدون فقد سمّى ابنه «خلدون» وصارت كنية الحصري «أبو خلدون».

وعادت الحكومة السورية إلى استدعائه في عام ١٩٤٧ لكي يشغل منصب

مستشار المعارف بعقدٍ مدته ثلاث سنين، وبانتهاء هذا العقد سافر إلى مصر للتدريس في معهد العربية العالي لمدة عامين، اختير بعدهما مستشاراً فنياً للإدارة الثقافية للجامعة العربية، وأنشأ متحفاً للثقافة العربية.

وفي عام ١٩٥٣ عُهد إليه في إنشاء معهد الدراسات العربية العالية التابع للجامعة العربية، فكان رئيسه الأول الذي حمل كل أعباء التأسيس، ووضع المناهج ورسم السياسات واختيار الأساتذة وشهدت هذه الفترة نشاطاً ثقافياً واسعاً للمعهد حيث دُعي عشرات من الأعلام والمفكرين من جميع الأقطار العربية للمحاضرة فيه.

وقام المعهد بنشر عشرات من الكتب المشتملة على هذه المحاضرات، وكل موضوعاتها تدور حول الأمة العربية وآدابها وتاريخها وثرواتها. كما اهتم اهتماماً خاصاً بإنشاء مكتبة زاخرة بالمراجع، واستعان في ذلك بمحمد يوسف نجم الذي كان يتابع دراساته العليا بالقاهرة، فأصبحت مكتبة المعهد من أغنى المكتبات في الدوريات العربية والكتب المهجرية إلى جانب كتب المؤلفين العرب.

وعكف على إصدار كتاب سنوي ضخم عنوانه «حولية الثقافة العربية» فيه دليل وافٍ على جميع النظم والمناهج التعليمية في البلدان العربية مع البيانات والأرقام الإحصائية الخاصة بها. وكان يساعده في إعداد هذه الحوليات محمد يوسف نجم، الرئيس الحالي لدائرة الأدب العربي بجامعة بيروت الأميركية وشكري فيصل (١٩١٨ ـ ١٩٨٥) الذي أصبح أميناً عاماً لمجمع اللغة العربية في دمشق.

وفي عام ١٩٦٥ عاد ساطع الحصري إلى العراق، وأعيدت إليه جنسيته العراقية، وعاش هناك إلى أن توفي في ٢١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٨ عن ثمانية وثمانين عاماً.

وقد اختير ساطع الحصري عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية الآن) في عام ١٩٥٥.

وفي عام ١٩٧٧ انتهز المجلس الأعلى للعلوم بوزارة التعليم العالي السورية فرصة احتفال العلم السابع عشر فتقرر تخصيص هذا الاحتفال لتمجيد ذكرى

ساطع الحصري، وشارك في هذا الاحتفال الدكتور شاكر الفحام وزير التربية (ورئيس مجمع دمشق الآن) والدكتور محمد علي هاشم وزير التعليم العالي وعدد من أساتذة الجامعات والباحثين.

وكانت لساطع الحصري اهتمامات غريبة بالنسبة لتخصصه في علم الاجتماع، إذ درس العلوم الطبيعية واشتغل بتحنيط الحيوان وتيبيس النبات. ودرس علم وظائف أعضاء الجسم ووظائف الجهاز العصبي. واهتم بعلم النفس. كما أنه أصدر عدداً من المجلات التربوية أثناء عمله في وزارات المعارف المختلفة. وله محصول وافر من الدراسات والمقالات والكتب باللغتين العربية والتركية. ومن أهم كتبه «دراسات عن مقدمة ابن خلدون». ومجموعة كتب في سلسلة «آراء وأحاديث» تناولت التاريخ والاجتماع والعلم والأخلاق واللغة والأدب والقومية والتربية والوطنية، وكتاب «يوم ميسلون» و«العروبة أولاً» و«صفحات من الماضي القريب» و«العروبة بين دعاتها ومعارضيها» و«محاضرات في نشوء الفكرة القومية» و«ثقافتنا في جامعة الدول العربية» و«مذكراتي في العراق» وهو في جزءين، وغيرها.

كنّا في أيامنا نتحدث عن «العروبة» باعتبارها وشيجة طبيعية بين أبناء الأمة العربية، فجاء ساطع الحصري **وجعل منها مذهباً سياسياً سمّاه «القومية العربية» وكان في ذلك متأثراً بالنزعات القومية التي دعا إليها بعض الفلاسفة الألمانيين والتي تبنّتها ألمانية النازية وإيطالية الفاشية. وقد ترتب على هذا «التمذهب» أن راجت فكرة «القومية» زمناً بتأثير الحناجر القوية التي كانت تطنطن بها وتروج لها، فلّما أخفقت تلك السياسات بكل جعجعاتها، نُبذ هذا المذهب، وإنْ كان بقي «ماركة مسجلّة» لساطع الحصري.**

ومن أسف **أن الحواجز والسدود قد ازدادت اليوم ارتفاعاً بين مفردات الأمة العربية تتمثل في تأشيرات الدخول والإقامة، والحواجز الجمركية، والرقابة على المطبوعات، والقوائم السوداء، وعمليات الإبعاد والطرد للمواطنين العرب من بلدان عربية**. ورحم الله الشاعر المهجري إلياس فرحات (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦) القائل:

إذا كَانَتِ الدُّوْلَاتُ سَبْعاً لِيَعْرُبٍ فَكَمْ دَوْلَةً تَسْتَوْعِبُ الصِّيْنُ والهِنْدُ؟

❁ ❁ ❁

سعيد تقي الدين

في عام ١٩٤٨ زار القاهرة أديبان لبنانيان ونزلا بفندق الكونتننتال (الذي ما زال ينتظر أعمال الهدم فيه بعد تصدّعه وفساد مرافقه)، وكانت لي بأحدهما، وهو سهيل إدريس، صلة سابقة، أمّا الثاني، وهو سعيد تقي الدين، فكنت مبتوت الصلة به. وعندما عرفت بوصولهما، سعيت إليهما لمقابلة صديقي سهيل إدريس والتعرّف بصديقه سعيد تقي الدين الذي سبقته إلى مصر شُهرة شقيقه الأديب الدبلوماسي خليل تقي الدين (١٩٦٠ ـ ١٩٦٥). فألفيتُ نفسي إزاء «لوريل وهاردي» لبنانيَيْن، فسهيل إدريس ضئيل الجسم قصير القامة يتوه في الزحام، أما سعيد تقي الدين فهو ذو بسطةٍ في الجسم لعلّها تفوق بسطة الشاعر الصحافي كامل الشناوي (١٩٠٨ ـ ١٩٨٢) الذي كان يُعتبر أضخم الساعين على وجه الأرض، ولا سيما بين المشتغلين بالصحافة والأدب. وتوقّعت أن يكون اللقاء مع سهيل حاراً، ومع سعيد تقي الدين فاتراً لانتفاء الأُلفة بيننا، ولكن ظني خاب ـ لحسن الحظ ـ إذ استقبلني كلاهما بالأحضان والقبلات، ورحّبا بي ترحيباً كريماً عَزَوْتُهُ إلى أن مجلة «الأديب» اللبنانية لصاحبها ألبير أديب (١٩٠٨ ـ ١٩٨٥) كانت إذْ ذاك تحتفي بكتاباتي، فصارت لي ـ ولو بين قرّائها، ومنهم سهيل إدريس وسعيد تقي الدين، شهرة بازغة.

وترددت على هذين الصديقيْن طوال مدة إقامتهما في القاهرة إلى أن ودّعاها. ولعل هذه هي المرة الأولى ـ وربّما الأخيرة ـ التي زار فيها سعيد تقي الدين القاهرة.

ومنذ ذلك الوقت، أخذتُ أتابع المسيرة الأدبية لسعيد تقي الدين، ولا سيما لأنه لم يضنّ عليّ بمؤلفاته، وكان آخر ما تلقيته منه كتاب «غابة الكافور» الذي لم يمهره بتوقيعه عند إهداء الكتاب، بل اصطنع خاتماً بَصَمَ به الصفحة الأولى منه نصّه «هذا كتابٌ أهديه لأنني لا أجد من يشتريه»!.

وبعد سبع سنين من هذا اللقاء الأول، زرت لبنان (عام ١٩٥٥) وحرصت على الاتصال بسعيد تقي الدين الذي استقبلني في مكتبه الذي يزاول منه أعماله التجارية في بناية ضخمة في ساحة البرج (لعل اسمها «ستاركو» ـ إنْ لم تخنّي الذاكرة)، ثم قضينا وقتاً جميلاً في نادي متخرجي جامعة بيروت الأميركية، وصحبني بعد ذلك لزيارة دار «النهار» في بناية عتيقة حيث قدّمني إلى غسّان تويني، وتعددت لقاءاتنا خلال الشهرين اللذين أمضيتهما في لبنان.

وبالاقتراب من سعيد تقي الدين ارتسمت في وجداني صورةً صادقة عن هذا الرجل الانبساطي الوجه والقلب، الذي تعتمل في صدره ثورات لا يكبتها أو يكتمها، وإنما يطلقها في كل اتجاه سواء أكانت انتقاداً أم هجاءً أم رغبةً في الإصلاح، أم سخرية، أم نكات لاذعة، أم احتجاجاً، وهو في كل هذا يستخدم لغةً هي مزيج من الفصحى والعامية اللبنانية فضلاً عن عبارات صاغها بنفسه عندما تبيّن أن معاجم الفصحى والعامية لا تسعفه بمثيل لها كقوله «الزحنطون» و«الغطواز» حتى قال عنه الناقد اللبناني مارون عبود (١٨٨٦ ـ ١٩٦٢): إن المفردات التي ينحتها سعيد تقي الدين مفردات خالدة.

هذه الشخصية البركانية وصفها يوسف أسعد داغر (١٨٩٩ ـ ١٩٨١) بقوله: «نشاط محموم مستمرّ، وخاطر سريع مع ملاحظة دقيقة، وخيال رحب خلّاق، وقلب كبير يعطي بغير حساب، وحدّة في الذهن، وسعة في النظر إلى الأمور... كانت كتابته كانفجار البركان، يُحَمِّمُ الكلام. كل ذلك في أسلوب شفاف جذّاب بِكْر، فهو مدرسة خاصة في النثر سهلها ممتنع. كان أخلص شاهد على جيله القلق المضطرب».

بهذا تميّز أسلوب سعيد تقي الدين، فهو أسلوب حي كثير الزوابع. ولعل هذا هو الذي أوحى إليه باختيار اسم «الزوابع» للجريدة التي أصدرها في بيروت ولم تعمّر طويلاً بل أسهمت في استنزاف موارده وأوردته موارد الإفلاس.

رجل صريح اللسان والقلم، يقول ما يريد ولا يبالي، لا يعنيه أن يُرضي هذا أو يُغضب ذاك ما دام يُرضي ضميره في المقام الأول. ولو أن قانونياً دؤوباً ترصَّد لكتابات سعيد تقي الدين، لوقع فيها على كثير من المزالق القانونية التي تجرّه إلى المحاكم بسبب صراحته الجارحة في كثير من الأحيان، ولكن الحريات

المطلقة التي عرفها لبنان تجاوزت عن هذه العبارات وأعفته من المثول أمام القضاء.

حياته لا تحاكيها حياة أي أديب أو حتّى تاجر، وهو يصفها بقلمه الساخر الصريح قائلاً:

«في الفليبين عشت ومتّ ٢٢ سنة ونصف. هناك استوردت كل ما تعرف من أصناف البضاعة. فتحت محطة بنزين، فتحت سينما. كنت (دوّاراً) أي بائعاً متجولاً. أبحرت. طرت. سافرت على الخيل. ركبت على الجاموس. اغتنيت. افتقرت. لعبت بالبورصة. فتّشت عن الذهب. كنت حانوتياً. مستورداً مصدراً. كومسيونجياً. اتّجرت بمخلّفات الجيش، بمخلّفات الحيوانات. سوكرت حياتي لأنتحر. أفلست ودفعت ديوني. سجنني اليابانيون ٥٣ يوماً و٥٤ ليلة خلال سني الحرب. واجهت الموت في أكثر الأحيان مختبئاً. عُينت قنصلاً للبنان، ومشيت بالقنصلية على أصول دبلوماسية لم تطبع في الكتب»! حياة صاخبة عاشها سعيد تقي الدين فلم تُفسد طبيعته الخيّرة، ولا أورثته مرارةً أو خيبة رجاء. فهو ينهض بعد كل ضائقة، وينشط إلى العمل الشاق، حتى إذا ما حقّق بعض أحلامه أنكفأ من جديد يصارع المثبّطات وبواعث الانتحار. ومع كل هذا كان سعيد تقي الدين يجد في الأدب والكتابة الصحفية مُتنفساً بل مَهْرباً من كروبه.

وما كان سعيد تقي الدين في حاجةٍ إلى كل هذا الكفاح والاغتراب لأنه ابن محافظ بعقلين، وهو يحمل شهادة بكالوريوس في العلوم تفتح أمامه أبواب العمل في بلاده. ولكنه آثر أن يعتمد على نفسه، متعّرضاً للمخاطر في أقصى أطراف الأرض، مشتغلاً بحرفٍ ليست له بها أدنى خبرة، متنقلاً من مكان إلى مكان حتّى لا يُقال عنه إنه ارتقى مَدَارج النجاح على أكتاف أسرته، أو آثر هناءة العيش في ديار منبته.

ولد سعيد تقي الدين في الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٠٤ في بعقلين بقضاء الشوف في لبنان. وعن بعقلين قال سعيد تقي الدين: «تخيّرت بعقلين بلدةً أسقط بها رأسي، ولو أنه أُعطي لي أن أتقمّص ألف مرة، لما نزلت إلّا بعقلين دار مولد».

وتعلّم في المدارس اللبنانية، ثم التحق بجامعة بيروت الأميركية، وتخرّج

منها في عام ١٩٢٥. وبمجرّد تخرجه شدّ الرحال إلى الفيلبين مهاجراً، مخالفاً بذلك أنداده من المهاجرين الشوام الذين قصدوا الأمريكتين الشمالية والجنوبية. وفي الفيلبين عاش أكثر قليلاً من ٢٢ عاماً إلى أن كوّن نفسه مادّياً، وقرر العودة إلى لبنان في عام ١٩٤٨. وهناك افتتح مكتباً للتصدير والاستيراد، وأصدر جريدة «الزوابع» لتكون لسان حال الحزب القومي السوري الذي اعتنق مبادئه. وخاض انتخابات جمعية متخرجي جامعة بيروت الأميركية ففاز برياستها في دورتيْن متتاليتيْن نهض فيهما بهذه الجمعية واختارني ممثلاً متطوعاً لها ولمجلة «الكلية» التي تصدرها في القاهرة، وانضم إلى الفرع اللبناني لجمعية أهل القلم، وأسس جمعية «كل مواطن خفير». وتوسّع في إخراج كتبه وفي التحرير في الصحف بإمضاءات مستعارة مثل «حمّاد» و«بشّار» في بعض الأحيان، ولم يقلع عن إثارة «الزوابع» في الأوساط الأدبية والسياسية. وعندما غاضت موارده المادية بعد عشر سنوات عاصفة قضاها في لبنان حتى وصفه سعيد عقل بأنه «شرار ونار» قرّر الهجرة من جديد إلى المكسيك أولاً ثم إلى كولمبية في أمريكة اللاتينية، وهناك توفي في الخامس عشر من شباط (فبراير) ١٩٦٠ عن ٥٦ عاماً، ونُقل جثمانه إلى لبنان حيث شيع ودفن، ولسعيد ابنة واحدة هي ديانا، وهي تهوى الموسيقى.

أصدر سعيد تقي الدين طائفةً غير قليلة من الروايات والمسرحيات والكتب الأدبية والسياسية منها «لولا المحامي» و«نخب العدو» و«حفنه ريح» و«غابة الكافور» و«تبلّغوا وبلّغوا» و«سيداتي سادتي» و«رفات جناح» وغيرها. ونُشرت في لبنان المجموعة الكاملة لآثاره في ستة أجزاء، كما أصدر عنه جان دايه كتاباً في جزءين، ولعلّ الجزء الثالث الموعود قد صدر.

والأديب الذي يَعتدّ بآثاره معذورٌ إذا ما كَاثَرَ بها كل أدباء العالم، ولهذا لا يدهشنا سعيد تقي الدين في قوله عند تقديم عمله الدرامي الموسوم «نخب العدوّ»: «إني أدفع إلى المسرح العربي برائعة يفتخر بها أي درامائي كان في أي لغة وأي زمان. ولئن دَارَ في خلدك أنه قد تدحرجت من فمي كلمة ادّعاء ضخمة، فأنا أدعوك إلى المقابلة. فَأْتِ بأية رائعة أفرنجية وقابلها «بنخب العدو» حادثةً ومواقف ونكات وأشخاصاً ومفاجآت وحركةً وتضاداً وشبكة فنيّة وسلاسة، تجد «نخب العدوّ» تضاهي أجملهن في كل شيء، وقد تكون دون بعضهن في

روعة المأزق، ولكنّي واثق من أن نهايتها هي أجمل نهاية رواية نعرفها بدون استثناء وعلى الإطلاق»!.

إن سعيد تقي الدين أديب لا يتكرّر، ولا حتّى في شخص شقيقه القاصي خليل تقي الدين الذي أكسبته الدبلوماسية هدأة نفس على خلاف أخيه الذي وصفه مارون عبود بقوله: «كل حياة سعيد قفز وجمز». فسعيد تقي الدين نسيج وحده، خرج من بوتقه العراك الفكري والاجتماعي والاقتصادي بهذا اللون المتفجّر من الأدب الذي يرنو إلى مخاطبة الوجدان في كل إنسان. وبرغم العُرام الأدبي الذي يمثله سعيد تقي الدين، فإن آثاره غير معروفة ـ مع الأسف الشديد ـ عند الباحثين في أرض الكنانة، وهو مظهر من مظاهر القطيعة الأدبية التي تباعد بين مجتمعات الأدب في ديارات العرب.

❁ ❁ ❁

سلامة موسى

تنثال على الذهن ذكريات سلامة موسى منذ ما عرفته للمرة الأولى وأنا طالب جامعي وإلى أن تبادلنا العناق على فراش مرضه الأخير في المستشفى القبطي، وسرت وراء نعشه بُعيد ذلك.

عشرون سنة أو نحوها تواصل الود بيننا فيها حتى انمحت فوارق السن، وتلاقت خيوط الفكر، وإن ذهب كل منا مذهبه في الحياة، هو بنضاله الفكري العنيف العنيد، وإنا بما ركب في طبعي من اعتدال أغراني غير مرة على الانسحاب من دنيا الفكر كاحتجاج صامت على ما لا يقع مني موقع هوى في هذه الدنيا الفكرية المائجة الصاخبة.

وكنت في سذاجة الشباب الأولى أتعثر في خطوي وأكتشف طريقي في الجماعة حين طرقت باب بيت سلامة موسى. وكان اسمه يملأ الدنيا فيبهر العينين ويلقي في روع الناس أنه هو وسائر أهل الشهرة من كبار المفكرين والكتاب، أشخاص أسطوريون فوق البشر. وكان الوهم يورثني اعتقاداً بأن سلامة موسى وأشباهه من ذوي الأسماء الضخام يعيشون في ترف الخز والديباج والخدم والحشم، وتصطف على مداخل قصورهم أرتال السيارات الفارهة، ولكن، ما أسرع ما تبخر هذا الوهم حين ألفيت سلامة موسى يقيم في حارة ميخائيل جاد في حي الفجالة الشعبي المتواضع - وهو حي المكتبات إلى هذا اليوم - وازددت تعثراً وتلعثما عندما فتح الباب بعد أن دققته، فلم يخرج لي خادم كخدم هارون الرشيد، بل أطل علي رجل يرتدي جلباباً أبيض، وجهه كثير التجاعيد، وشعره الناحل شديد البياض وقال للطارق: أنا سلامة موسى. أما بيته، فلم أر فيه من مظهر الترف إلا أكداساً من الكتب والورق تسد المنافذ، وأما القصور المنيفة فهي أوهام، وأما أرتال السيارات فقد استبدل بها سلامة موسى مركبة الترام، يمتطيها في الدرجة الثانية المتواضعة! وهكذا تبددت من ذهني الشاب أسطورة الرجل

الذي هو فوق البشر، واكتشفت ـ وما أفجع ما اكتشفت ـ إن سلامة موسى بشر سوي مثلنا.

ولم تكن لزيارتي تلك من غاية إلا استرداد لوحة زنكوغرافية للفتاة الجامعية المثالية كان سلامة موسى قد استعارها من مجلتنا الجامعية لكتابة فصل عن فتاة الجامعة التي تجمع بين العلم والحسن واكتمال الشخصية والخلق. فتسلمت اللوحة وانصرفت وأنا أداري خجلي الفاجع وتلعثمي واضطرابي، بينما كان سلامة موسى يحاول استبقائي عنده بعبارات ترحيبية رقيقة.

وبعيد تخرجي من الجامعة، عملت في الصحافة ـ وهي ميدان تخصصي الأول وربما الأخير أيضاً ـ فاشتغلت في «الأهرام» أولاً، ثم تركته إلى «المقطم» ومجلته العظيمة «المقتطف»، وكنت إلى جانب ذلك أترجم أحاديث أسبوعية لتذاع من محطة القاهرة، وكان يقرأها أحمد رشدي صالح (الذي انتقل إلى رحمة ربه يوم ١٢ يوليو ١٩٨٠ في لندن وهو من مواليد ١٩٢٠).

وذات يوم ذهبت لتسليم الحديث الأسبوعي، فناداني شخص باسمي، ولم ألبث أن تبينت فيه سلامة موسى، وعرفت أنه كان مكلفاً مراجعة ترجماتي للاطمئنان إلي سلامتها من ناحية وإلى صلاحيتها في الآذان من ناحية أخرى. وخاطبني قائلاً: أيتسع وقتك للجلوس معي دقائق؟ وأدهشتني المفاجأة، لأن المعهود في كبار الكتاب أن ينتظروا من الناس السعي إليهم، أما هم، فلا يسعون إلى أحد، ولا سيما إذا كان «الأحد» شاباً طريراً ليس له وزن في أي معيار فكري. ولكن سلامة موسى كان قد حرر نفسه من عقدة التعاظم ـ ولا أقول الاستعلاء اجتناباً للملابسات السيكولوجية للفظة ـ ووجد في الشباب حقله الواسع، يزرعه بآرائه المخصبة، ويحقنه بآرائه الولود، ويضع فيه الخمائر التي لا تلبث أن تخمر العجين العقلي كله. وكان سلامة موسى قد اطلع على بعض ترجماتي وراجعها، فوجد فيها بواعث للرضا، وهو من ثم حريص على أن يمحضني نصائحه وتوجيهاته بعد أن يستكشف ما يجلهه من أمري. وطبعاً، اتسع وقتي لمجالسة سلامة موسى، وكنت كلما عرجت لتسليم الحديث الأسبوعي أستأذنته في قضاء بعض الوقت معه استزادة من توجيهاته وملاحظاته، وانتفاعاً بتعليقاته، ونشدانا لتشجيعه. فقد كان سلامة موسى مربياً قبل أن يكون أي شيء آخر. ولا غرو، فسيرته الذاتية التي دونها أسماها «تربية سلامة موسى» تأكيداً

لمنهاجه التربوي، كما أن كتابه التثقيفي الكبير سماه «التثقيف الذاتي أو كيف نربي أنفسنا» إيماناً منه بضرورة التربية في الحياة. ولا بد للمربي من أن يحتضن الشبيبة ويرعاها ويواصلها بالتهذيب والتثقيف، حتى يتمم رسالته التربوية على خير وجه.

وتباعدت لقاءاتي بسلامة موسى بعد انقطاعي عن كتابة الأحاديث الأسبوعية، حتى فوجئت ذات يوم من فبراير (شباط) ١٩٤٨ بسلامة موسى يزوروني في مكتبي بالمقطم وفي يمناه كتابه الجديد «تربية سلامة موسى» قدمه إلي بعبارات سخية، ثم ودعني على وعد بلقاء جديد. ولم يلبث أن عاود الزيارة عندما قرأ تعليقي على كتابه النفيس ليشكر لي صنيعاً توهمه.

ومع أنني لا أحب أن أعقد مقارنات بين الناس، فإن تصرف سلامة موسى معي جعلني أكبر صنيعه، وأعلي قدره في ميدان الأخلاق على سواه من كبار الأدباء. فقد كنت في ذلك الحين أبادر باقتناء ما يصدر من كتب لكبار الكتاب أطالعها ثم أدون خواطري عنها في الصحف، وأوافي كل كاتب بما أنشره حول كتابه، فلا أتلقى من أحد منهم، إلا قلة معدودة،حتى كلمة شكر. أما سلامة موسى، فهو يسعى إلي بنفسه، ويقدم إلي كتابه بيده، ثم يعاود زيارتي لشكري. حقاً، إنه لطراز فريد في الشخصية وفي الخلق، وهو طراز تفسره خير تفسير رسالته التربوية الأصيلة. **فالمربي الجليل لا يعيش في عزلة الأبراج، سواء أكانت من عاج أم من زجاج، وإنما يعيش بين الناس وفي خضمهم. وهل تستقيم رسالة في التربية ما لم يسع صاحب الرسالة إلى متلقيها، وما لم يدأب في المحاضرة والمحاورة والمناقشة والمجادلة في جو من الود والعاطفة النبيلة والروح الأبوية الحانية؟** هذا طراز في المربين العظام عرفت منه الدكتور محمد مظهر سعيد والدكتور أمير بقطر، عليهما شآبيب الرحمة.

وتكررت زيارات سلامة موسى لي كلما ظهر له كتاب جديد، أو كلما قرأ لي شيئاً في الثناء بالخير على مؤلفاته.

وزارني مرة وفي صحبته الشاعرة العراقية الشابة نازك الملائكة، وكانت إما ذاهبة إلى الولايات المتحدة للدراسة هناك أو عائدة لتوها بعدما أنهت دراستها، فالذاكرة خؤون، وقال لي وهو يقدم نازك لي ولرواد ندوة «المقتطف» التي كنا نعقدها كل يوم جمعة: «إن هذه الفتاة مرجوة الغد، ولا بد أن تصبح في الحياة

الأدبية والشعرية شيئاً كبيراً. ومن هنا حرصت على تعريفها بأصدقائي من حملة الأقلام وأنت من جملتهم»، وعرفت بعد ذلك أنه صحب «نازك» إلى أدباء آخرين ليزكيها لديهم.

وفي الوقت الذي احتفى فيه سلامة موسى بنازك الملائكة في مصر، احتفى بها كذلك الدكتور أحمد زكي أبو شادي في أمريكة على ما حدثني في رسائله يوم التقى بها هناك.

وزارني سلامة موسى مرة أخرى ليقدم إلي طبعة جديدة من معجم الياس أنطون إلياس مهداة من المؤلف، ولم أكن أعرفه. فسألت سلامة: ومن دل هذا المعجمي الرائد علي؟ فكان جوابه إنه جاري، ومطبعته قريبة من بيتي، وهو ناشر لكثير من كتبي. وقد جاءت سيرتك في أحاديثنا، فرغب في إهدائك معجمه. فلما التقيت بإلياس أنطون إلياس (١٨٧٢ ـ ١٩٥٢) في ندوة المجاهد العربي الأكبر محمد علي الطاهر، كانت تزكية سلامة موسى قد سبقتني إليه، فانعقدت بيننا صلات المودة حتى انتقل إلى رحاب الخلود.

وظل سلامة موسى يواليني بالزيارة، ناسياً أنه يكبرني بخمسة وثلاثين عاماً، وأن جميع الاعتبارات كانت تقضي بأن أكون أنا الساعي إليه لا الذي يُسعى إليه. ولكن سلامة موسى لم يكن يحفل بهذه الشكليات. بهذا قضت أستاذيته، وفي سبيل التواصل الفكري لا مجال لتقاليد إلا تقاليد الديمقراطية الإنسانية الصافية.

وكنت من الذين بُطش بهم في عام ١٩٥٢ فآثرت التزام الدار، وكففت عن غشيان المجتمعات، وتخطتني المناسبات المختلفة، ونسيني أو تناساني حتى الذين يسر الله لي أكون عوناً لهم في الحياة، وأحسست أن الدنيا جميعاً استدبرتني بعدما كان مكتبي يعج بالزائرين، وهاتفي لا يكف عن الدق. وفي غمرة هذا النسيان، هبطت علي رسالة، وكأنها رسالة سماوية، وكان مرسلها هو سلامة موسى الذي افتقدني هنا وهناك، وخشي أن يكون مكروه قد ألمَّ بي، ومن هنا رغب أن يستوضحني أخباري ويبثني أشواقه ويرجوني الاتصال به إن أعوزني شيء. وجاءتني منه بعد ذلك رسالة ثانية فثالثة، وأيقنت أن سلامة موسى قمة في الإنسانية، وإنه أمثولة أولى في الخلق.

وكان طبيعياً أن أستجيب لدعوته، فأحاضر في ندوته الأسبوعية في جمعية

الشبان المسيحية، وما أكثر ما دعا الشباب والمجربين على حد سواء للتحدث إلى جمهوره المرهف الآذان، ولئن عرفت كثيراً من المنابر في غابر يومي، فإن تجربتي بين جمهور سلامة موسى بإنصاته وحيويته وصبره على طول النقاش، هي تجربة مميزة، فقد عود سلامة موسى جمهوره على أن تكون له مشاركة فعلية في أي حديث يخوض فيه، ودرَّب عقوله على الاستقبال والإرسال، وفتح صدوره على تقبل المقارعات الفكرية بسماحة وسعة أفق، ومن هنا كان جمهور سلامة موسى يتعلق به تعلق المشدوه، ولا يفارق مجلسه إلا والساعة تقرب من منتصف الليل، بل إن جمهوره كان يرافقه بعد الندوة إلى منزله في أغلب الأحيان ائتناساً بحديثه في الطريق وتلذذاً بآرائه، واستطالة للمحاورات معه.

وقد ترددت على ندوة سلامة موسى محاضراً ومستمعاً، فانطبعت في ذهني عن هذا الرجل العظيم حقيقتان هما:

أولاً ـ إنه كان هداماً بانياً، أي إنه لا يهدم بناء خرباً متداعياً إلا ليقيم في مكانه بناء شامخاً. وما أكثر ما رفع معاول الهدم في وجه كل فكرة بالية، ولكن ما أسرع ما كان يجيء بالفكرة البانية اعتقاداً منه **بأن المصلح الاجتماعي هو الرجل الذي لا يكتفي بالسلبية، بل ينبغي أن يقرن سلبيته بإيجابية مباشرة تحمل إلى الناس خيراً ملموساً.**

وأما الحقيقة الثانية فهي إنه كان يطاوع علماء النفس في تحليل الشخصية إلى عناصرها ومكوناتها، ولكنه كان يردف التحليل بالتركيب والتأليف طلباً للشخصية الناجعة. ومن هنا كان ينادي بالتكامل بين التحليل أي التفكيك والتجزئة وبين التركيب أي التكوين والإنشاء والتأليف؛ لأن مبتغاه هو أن تكون للناس شخصيات سوية. وكتابه «الشخصية الناجعة» يمثل منهاجه الفكري في تكوين الرجل السوي والمرأة الناضجة.

ويزدهيني أن أقول: إن سلامة موسى كان يتابع كتاباتي هنا وهناك، بل لقد فاجأني غير مرة بالتعليق على ما أكتب، استطراداً مع سليقته في تشجيع الشباب.

ومن أسباب فخري أنني هوجمت مرتين بسبب سلامة موسى، مرة في مجلة «الرسالة» لأحمد حسن الزيات وكان المهاجم «صديقي» أنور المعداوي، لأنه لم يرض عن فصل لي نشرته في «المقتطف» عن سلامة موسى باعتباره «دعامة قوية

من دعائم الفكر العربي» ومرة ثانية هاجمني «صديقي» حبيب الزحلاوي في كتابه «شيوخ الأدب الحديث» لأنني رثيت سلامة موسى في مجلة «المجلة» التي كانت تصدر في الخمسينيات. وقد عرفت أن المعداوي ندم على حملته على سلامة موسى بعدما ازداد تبصراً بالقيم الفكرية، وأما الزحلاوي فقد ظل يضمر سوءاً لسلامة موسى إلى أن نقم عليه أبناؤه، وجردوه من رأس ماله في تجارة الحديد فهاجر إلى أسترالية ومنها إلى كولمبية حيث مات في غربة قاتلة.

وكنت ألاحظ أن سلامة موسى يكتب في مجلات صغرى، مع أن كتاباته خليقة بكبريات الصحف، وقد سألته مرة: لم تضيع وقتك في الكتابة إلى هذه المجلات، وعندك صحف المرتبة الأولى، وهي لن تضيق بكتاباتك؟ وكان جواب سلامة موسى: «**إنني رجل ذو رسالة، رسالتي تقتضيني أن أقف على المنابر مهما تواضع حظها من العلو. وما هذه المجلات الصغيرة إلا منابر لي، أرتقيها لأخاطب الناس، ما دامت آرائي كالخمائر، فهي لا بد ذائعة بين الناس، وإن حسبها البعض دفينة في مجلات ثانوية الشأن**».

وسألت سلامة موسى مرة: لم لم تنتخب عضواً في مجمع اللغة العربية، مع أنك من أنجح واضعي المصطلحات السائغة في اللغة العربية؟ فكان جوابه: إن المجمع يدور في حلقة مفرغة من «الأحافير اللغوية»، وهو لا يريد مصطلحات سائغة تجري على الألسنة، ولهذا لن تجد لي موضعاً في المجمع، لا أنا ولا فؤاد صروف، ولا من هم على شاكلتنا من الذين جعلوا العلم شعبياً مبسطاً، ولم يجعلوه مستغلق الأكاديمية.

والواقع أن جميع الكتب العلمية التي أخرجها سلامة موسى تتميز بهذا الأسلوب السهل الموجز - وكان يسميه بالتلغرافي - الذي تتوضح معانيه من القراءة الأولى، ولا ترتطم حاسة الفهم بأي عقبة في استيعابه. وقد عالج نظرية التطور، وطرق أبواب علم النفس، وتحدث عن المذاهب الفلسفية، وتناول الاتجاهات الاقتصادية، وكتب في علوم الأحياء وفي تاريخ الفنون، فكان بأسلوبه الميسر مخاطباً لرجل الشارع ولرجل العلم على حد سواء، ناهيك عن أنه كان يتابع سير العلوم أولاً بأول، وما من كشف علمي جديد إلا سبق سلامة موسى إلى التعريف به، وشرحه بأبسط عبارة. ويومياته التي كان ينشرها كل يوم أحد في جريدة «الأخبار» والتي يتعين جمعها في كتاب بإشراف ابنه وناشر كتبه الدكتور

رؤوف سلامة موسى، هي سجل حي للأحداث العلمية والاجتماعية التي كان ينفعل لها وبها في حياته اليومية فيعلق عليها تعليقاً بصيراً كاشفاً.

وإذا كان النحاة يقولون بلسان واحدهم: «أموت وفي نفسي شيء من حتى»، أي أن أجله يحين دون أن تمهله الأيام للإحاطة بأوجه الإعراب المختلفة للفظة «حتى» فإن سلامة موسى ـ في ما يشبه المعارضة لأقوال النحاة ـ يقول: «أموت وفي نفسي شيء من الطاقة الذرية»، وهو يعني أن شطر نواة الذرة قد أحدث من الآثار العلمية الحاضرة والمستقبلة ما كان يتمنى أن يحيط به في حياته، فإن استعصى عليه ذلك لأن العمر مرهون بأجل مكتوب، فسيموت وفي نفسه حسرة على فوات إحاطته بهذه الطاقة.

وعلى غرار هذا القول، تمنى سلامة موسى أن يموت كالجاحظ وعلى صدره كتاب. ولئن كانت كتب الجاحظ قتلته عندما انهدمت على أم رأسه، فإن سلامة موسى قد كان يتمنى ألا يفارقه الكتاب إلى آخر لحظة من عمره، وهي أمنية تحققت، لأنني عندما زرته في مستشفاه في فراش مرضه الأخير، ألفيت الكتب متراصة إلى جواره كما أنه أخذ يستوضحني أخبار الدنيا التي انقطع عنها بسبب جراحته، حرصاً منه على أن يعيش ملء حياته.

فسلامة موسى المولود في ٤ يناير ١٨٨٧ وقف حياته على العلم، يطلبه منذ ما نال شهادته الابتدائية عام ١٩٠٣ ـ وهي الشهادة الرسمية الوحيدة التي ظفر بها ـ إلى أن ودع الدنيا بعد ذلك بخمسة وخمسين عاماً، متمنياً أن يحطم المئة من السنين، فحطم منها سبعين سنة فقط.

وعندما بلغ الستين من عمره، فوجئ باعتقاله وإلقائه في السجن هو ومحمد زكي عبد القادر، والدكتور محمد مندور، وفتحي الرملي وطائفة أخرى من رجال الصحافة، وأفهمهم الذين ألزموهم النوم على أسفلت السجن أنهم متهمون بإلقاء قنبلة على دار سينما مترو! وقد أوفد سلامة موسى ابنه نبيل إليَّ لينبئني باعتقاله ويستنجد بي في الدفاع عنه في الصحافة. ولما تعذر علي بسبب الرقابة أن أكتب ولو سطرين عن إلقائه في السجن، كتبت حملة شديدة في مجلة «الدبور» اللبنانية التي كنت أراسلها في ذلك الحين، وقد أخبرني صاحبها الراحل ميشال مكرزل أن هذه الحملة أحدثت أثرها المطلوب في مصر كما أخبره في ذلك الحين ممثل

مصر الدبلوماسي في بيروت. ولما تبين أولو الأمر سخافة هذا الاتهام، أفرجوا عن سلامة موسى وصحبه. وقد سألت سلامة موسى عن شعوره يومذاك، فقال في سخرية قاتلة: أما الاتهام فصحيح، لأن كل كتاباتي هي بمثابة الرؤوس المدمرة لكل فساد وعفن وجهل وقلة عقل. فنحن نحارب بالقلم لا بلعلعات الرصاص. وأما رجال الضبط والتحري، فما أغباهم، لقد اقتحموا بيتي في الفجر فوجدوه مملوءاً بالكتب، فانتقوا كل كتاب أحمر الغلاف بما في ذلك معجم إلياس أنطون إلياس وصادروها لما تنطوي عليه من خطورة قصوى!.

وقد تعرض سلامة موسى في حياته وبعد موته لكثير من الهجوم الظالم، ورجل مثله كان يتعامل يومياً مع الأفكار الجديدة، لا يسلم من أمثال هذه الحملات. وكنت في هذا أتحدث مع العلامة الأمير مصطفى الشهابي رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق، فقال الأمير الشهابي: إن سلامة موسى من أعظم الذين بسطوا العلوم ويسروها في اللغة العربية، كما أنه من أجرأ المصلحين الذين عرفتهم ديارنا العربية. وإذا كان قد تعرض لتطاول المتطاولين فلأنه كان في أسلوبه متحرشاً خشناً موجعاً، وكان هذا التحرش يمس هذه الفئة أو تلك فيثيرها. ولو اجتنب هذا التحرش، لتقبله الناس برضاء كامل كما تقبلوا أبناء عصره من المصلحين.

وأقول استطراداً: إنه عند صدور الطبعة الثانية من معجم الألفاظ الزراعية للأمير الشهابي العظيم، طلب إلي أن أنوب عنه في تقديم نسخة منه لسلامة موسى اعتزازاً بشخصه وبرأيه. وقد سره بعد ذلك أن سلامة كتب تعليقاً وجيزاً مركزاً عن معجمه في يومياته في «الأخبار».

والواقع أن **سلامة موسى كان سريع الافتتان بكل ما هو جديد، ولكنه كان يراجع نفسه في الحين بعد الحين**، متخلياً عن آراء تحمس للذياد عنها في زمن ثم زايلته حماسته بعد تقليب الرأي وإنعام النظر. والأدلة على هذا كثيرة، وإن عدها البعض دليلاً على تقلبه أو تناقضه. وفي هذا كان يحدثني قائلاً: إن حب العلم هو في المقام الأول حب للصدق، فإذا تبينت أن رأياً قلت به أصبح زائفاً أو معيباً عدلت عنه حتى ولو رماني الناس بالتقلب. ولكنك ستجد أن جوهر حياتي كلها هو حب العلم خالصاً لوجه العلم ولمنفعة البشرية في بلادي وغير بلادي.

كنت في جنازة سلامة موسى عند وفاته في ٤ آب/ أغسطس ١٩٥٨ أجلس بجوار صديق العمر الشيخ محمود أبي رية، تلميذ مصطفى صادق الرافعي وحافظ سره وناشر رسائله. فلما مرَّ النعش من أمامنا، بكينا كلانا حسرة على فقد هذا العالم العظيم، وقلت لأبي رية: أتبكي سلامة موسى وهو الذي أشبعه مصطفى صادق الرافعي تجريحاً؟ فكان رده: إني أبكي سلامة موسى برغم هذا. فكل صاحب فكر حقيق بالإجلال أما الخطأ والصواب في الفكر فنسبيان، لأن الأيام كثيراً ما برهنت على أن الخطأ صواب والصواب خطأ. وسلامة موسى بالمعيار الإنساني والمعيار العلمي رجل عظيم يبكي عليه مني ومنك ومن كل محب للعلم والضاد.

وهناك مع الأسف محاولات يراد منها إعادة إماتة سلامة موسى، وهي محاولات مكتوب عليها الموت؛ لأن الذين خلدوا بأعمالهم النافعات يزدادون خلوداً كلما تبصرنا في حياتهم وعرفنا مقدار ما عانوه في الريادة وتمهيد الطرق من عناء وبرحاء.

وقد نشر رجاء النقاش في مجلة «الدوحة» القطرية الصادرة بتاريخ تشرين الأول/ ديسمبر ١٩٧٩م مقالاً ظالماً عن سلامة موسى بسبب صدور كتاب منسوب إليه بعد وفاته عنوانه «الصحافة حرفة ورسالة» فيه فصول مطولة عن محررات صحفيات مبتدئات، وأماديح رخيصة للقائمين على إحدى المؤسسات الصحفية. ورجاء النقاش يعتقد أن سلامة موسى الذي ألف هذا الكتاب بعد وفاته هدم به أفكاره وآراءه التي ظل ينادي بها طيلة حياته! ولم يهتم حتى بتصديق البيان الذي أعلنته أسرة سلامة موسى نافية فيه صدور هذا الكتاب بمحتواه المذكور عن سلامة موسى، مع أن النقاش أشار في مقاله إلى معرفته بهذا البيان.

والذي لا يعرفه النقاش أن أسرة سلامة موسى طالبت الدار الناشرة بتقديم أصول الكتاب فعجزت عن ذلك. واستنجد بي الدكتور رؤوف سلامة موسى واستطعنا بمراجعة أوراق المؤلف وفصوله القديمة المنشورة أن نعيد إصدار هذا الكتاب بنفس العنوان في عام ١٩٦٣ في طبعة صادرة عن دار «سلامة موسى للنشر والتوزيع» ووضعنا في صدرها بياناً مطبوعاً على ورق أحمر جاء فيه أن الطبعة السابقة ملغاة وإن هذه الطبعة هي الأولى والمعتمدة للكتاب.

ومع ذلك، فإن النقاش ما زال يعتقد أن سلامة موسى ألف هذا الكتاب بعد موته ليهدم به ماضيه!.

وأقول استطراداً أيضاً: إنني تعاونت مع الدكتور رؤوف سلامة موسى في إخراج طائفة من كتب والده المخطوطة والمنشورة بعد مراجعتها كلمة كلمة، لا سيما وإن بعض الكتب تعرَّض لحذف اعتسافي في طبعاته الأولى، فأعدنا الكتاب إلى نصه قبل الحذف.

وما زلت أذكر نصيحة غالية أسداها إلي سلامة موسى وأنا ما زلت في ريق العمر وأول الطريق، قال: **اجعل مطامحك في السماء، ولكن أثبت بقدميك على الأرض، واستشرف الدنيا من عل فتتصاغر أمامك ترّهاتها. كن كبيراً بعقلك وقلبك، وأرض ضميرك، فكأنك ملكت الدنيا جميعاً.**

ولقد حاولت في هذا الحديث المستطرد أن أصور شخصية سلامة موسى التي عاصرتها وعرفتها وكنت قريباً منها وما زلت أعيش في أوج سيرتها المعطرة. ولك في وصف هذه الشخصية أن تقول عنها: إن صحابها هو المفكر، أو قل: هو المؤرخ، أو إن شئت فقل: هو الداعية، أو إن شئت فقل: هو المربي، أو إن شئت فقل: هو الباحث، أو قل هو: الفيلسوف العالم. وإن شئت أن تجمل هذا كله في خلاصة الخلاصة، فقل: هو إنسان محب للعلم لنفسه ولغيره في قرية هي الدنيا بأسرها وفي مجتمع هو الإنسانية برمتها.

❁ ❁ ❁

سيد قطب

ما زلت أذكر اليوم الأول الذي التقيت فيه سيد قطب. كان ذلك في عام ١٩٤٥ وكنت قد بدأت آنس لمجموعة من الشباب أبرزتها لجنة النشر للجامعيين التي أنشأها عبد الحميد جودة السحار (١٩١٣ ـ ١٩٧٤) قبل ذلك بعامين وضمت أدباء كانوا إذ ذاك في بدايات الطريق منهم نجيب محفوظ عبد العزيز، وعلي أحمد باكثير (١٩١٠ ـ ١٩٦٩) وعادل كامل أطال الله بقاءه، ولم تلبث الدائرة أن اتّسعت فضمّت محمد عبد الحليم عبد الله (١٩١٣ ـ ١٩٧٠) وأمين يوسف غراب (١٩١٠ ـ ١٩٧٤) ومحمود البدوي (١٩١٢ ـ ١٩٨٦) وصلاح ذهني (١٩٠٩ ـ ١٩٥٣) وغيرهم. وهناك قابلت سيد قطب الذي كان قد سبق هؤلاء الشباب بأشواط في عالم الأدب، ولكنه لم ير بأساً من تشجيعهم، سواء بنشر مؤلفاته ضمن مطبوعات هذه اللجنة، أو بالكتابة النقدية عن آثار أعضائها. وقد خص هذه اللجنة بثلاثة كتب، هي «الأطياف الأربعة». وهو مجموعة من الأقاصيص انفرد بكتابة كل قصة منها آل قطب، وهم سيّد وأخوته محمد وحميدة وأمينة، وكتاب «طفل من القرية» وهو ذكريات سيد قطب عن الحياة في قرية موشا في صعيد مصر حيث ولد ونشأ، وكتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام». ومع أنني كنت بدوري في بدايات الطريق، فقد عاملني سيد قطب بحفاوة كريمة اختصرت الطريق إلى صداقة وثيقة، وأهداني هذه الكتب، كما عرّفني بشقيقه محمد. وعندما هممت بالإنصراف من مقر لجنة النشر للجامعيين، رافقني، ثم سألني عن وجهتي فقلت: الجيزة، في حين كانت وجهته ضاحية حلوان، فاتفقنا على أن نستقل نفس سيارة الأجرة بحيث نفترق في منطقة باب اللوق، فيركب هو القطار الذاهب إلى حلوان، وأركب أنا مطية الكهرباء (الترام) المتجهة إلى الجيزة. وفي أثناء الطريق استوضحني عن دراستي وعملي ونشاطي، وشجعني على متابعة العمل الأدبي حتى لا يجور العمل الصحفي على الجانب الأدبي، وقال لي إنه يُقتّر على نفسه في معيشته كي يستطيع شراء ما يحتاج إليه من كتب، **ولو كان عليه أن يختار بين**

شراء جورب عوضاً عن جوربه المثقوب وبين شراء كتاب، لفضل شراء الكتاب.

كان سيّد قطب وقتها على شُهرة أدبية عريضة باعتباره ناقد مجلة «الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨)، وإن كانت مقالاته تنشر في عدد غير قليل من المجلات منها «صحيفة دار العلوم» و«المقتطف» و«الكاتب المصري» و«الكتاب» و«البلاغ الأسبوعي» و«مجلة وزارة الشؤون الاجتماعية» وغيرها.

وعندما استقال يوسف شحاتة من عمله في دار المعارف، واتخذ لنفسه دار نشر جديدة أطلق عليها اسم «العالم العربي»، رغب في إصدار مجلة شهرية تحمل اسم «العالم العربي»، فعهد إلى سيد قطب في رياسة تحريرها. وقام سيد قطب بتوجيه رسّام المجلة لكي يصمم غلافها حاملاً رسماً لمسجد إلى جوار كنيسة وكنيس. وقال لي وقتها: إن هذا آية على التسامح الديني. وقد ظهر العدد الأول من هذه المجلة في شهر نيسان (إبريل) ١٩٤٧، ورجاني أن أكتب للمجلة مقالاً اختار له عنوان «اللغة العربية تصارع» أسجّل فيه المراحل التي مرت بها اللغة العربية في مصر حتى صارت اللغة السائدة في المدارس على يدي وزير المعارف سعد زغلول باشا (١٨٦٠ ـ ١٩٢٧) وفي الحياة العامة على يدي عبد الحميد عبد الحق باشا وزير الشؤون الاجتماعية، وفي المحاكم على يدي المستشار الدكتور عبد السلام ذهني بك (١٨٨١ ـ ؟). وعندما أعددت المقال، كان سيّد قطب قد اختلف مع صاحب المجلة وهجرها، فنشرته في مجلة «الرسالة» بنفس هذا العنوان المقترح (في عدد ١٢ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٨) وأثبت على هامشه عبارة «لأردّ الفضل لصاحبه، أقرر أن صاحب فكرة هذا المقال هو الأستاذ الصديق سيد قطب».

لم أزر سيد قطب في بيته في ضاحية حلوان ـ التي اختارها للإقامة فيها بسبب جوها الدافئ الجاف ولا سيما في فصل الشتاء بعدما أصيب بداء الصدر ـ إلا مرة واحدة في عام ١٩٤٨ مستصحباً الشاعر نزار قباني (١٩٢٣ ـ ١٩٩٨) الذي رغب في إهداء ديوانه «طفولة نهد» إلى ناقد «الرسالة» ولكن كان من رأي سيد قطب، الذي أعرب لي عنه بعد ذلك، أن نزار قباني نقل الشعر إلى المخادع، فتحرج هو من إدارة أي مقال نقدي حوله ترفقاً به.

وإن كان سيد قطب لم يترفق بأستاذ الفلسفة الدكتور عبد الرحمن بدوي

عندما أصدر ديواناً بعنوان «مرآة نفسي» فكتب عنه في عدد ٣ حزيران (يونيو) ١٩٤٦ من «الرسالة» قائلاً: «إنه مدهش ـ مدهش أن ترتفع جرأته النادرة إلى حد أن يواجه الناس بهذا الكلام، وينشر في ديوان، ثم لا يقدّمه إليهم في تواضع ويدع لهم أن يقبلوه أو يرفضوه، بل يطلع عليهم به في ادعاء عريض، ويقدمه إليهم بإعلانات غريبة عن العبقرية والآفاق الجديدة التي لم تخطر لهم ببال! كل هذه الفهاهة في التفكير والتعبير، وكل هذه الركة في النظم والأداء، وكل هذه الأخطاء اللغوية، وكل هذه البراءة من الحساسية الموسيقية والذوق التعبيري، وكل هذا الإعياء حتى في النظم اللفظي... هذه (عَمْلَة) لا يجوز أن تمرّ، فهي استهتار يتجاوز حدود الجرأة، ولا بد أن يوضع حد لهذه المساخر بأية طريقة».

وفي حالة نجيب محفوظ، أبدى سيد قطب خشيته الرحيمة على هذا الشاب القصاص الموهوب. فكتب يقول «لست أذكر متى سمعته يقول ونحن نتحدث عن رواية (زقاق المدق) إنه أراد أن يدخل قالباً معيناً في الرواية المصرية، قالب الرواية العرضية لا الطولية، وإنه لهذا صاغ روايته في هذا القالب الجديد.

القالب؟! هذا هو الخطر الأكبر يا صديقي نجيب. لست أفهم هذه الكلمة اللعينة. أفهم أن يتم العمل الفني أولاً، بلا قصد من صاحبه أن يضعه في قالب معيّن، ثم يأتي النقاد بعد ذلك فيقيسونه ويجمعون سماته، ثم يسلكونه في عداد القوالب الموجودة بالفعل، أو يسجلون أنه قالب جديد. إذا وضعت القالب أولاً، فإنك لا بد أن تخنق عملك ليكون وفق هذا القالب، وفي كل خطوة ستستيقظ لتقيس هذا العمل وترى إن كان قد خرج على القالب الموضوع. لا لا. حذار أيها الصديق المرجو. إن القالب لا قيمة له إلا في عالم التاريخ».

وهكذا اختلفت معايير سيد قطب في تناول الآثار الأدبية. ففي حين أهمل ديوان نزار قباني إشفاقاً عليه، شن حملة ضاربة على ديوان عبد الرحمن بدوي، واكتفى بتوجيه نصائح حول المنهج القصصي لنجيب محفوظ.

كان سيد قطب منحازاً لعباس محمود العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) في عصر كان الأدباء فيه ينحازون أما إلى طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) أو إلى مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ ـ ١٩٣٧) أو إلى العقاد، ولكن حماسته للعقاد لم تلبث أن فترت بعدما استيقن من أنه لم يعد تلميذاً في مدرسة أحد؛ لأنه كان قد استوى

في الحياة الأدبية كشخصية ذات كيان مستقل تدين بالولاء لذاتها وليس لآخر. ولكنه كان يدرك أن آفاقه ستظل محدودة ما لم يخرج إلى العالم العريض بعيداً عن قريته «موشا» وضاحيته حلوان. ولهذا رحب بأن يوفد في بعثة دراسية مفتوحة - أي غير مقيدة بمنهاج محدد - إلى الولايات المتحدة بين عامي ١٩٤٩ و١٩٥٠ كيما يتاح له أن يتعرّض للتيارت الثقافية والحياة الاجتماعية في الغرب. وكان القصد من هذه البعثة هو إعداد سيد قطب لكي يتولى مهام أكبر في وزارة المعارف التي كان يعمل في إدارتها الثقافية. ولكن الذين رتبوا له هذه البعثة اختاروا له أن يذهب إلى سان فرنسيسكو، معقل الاضطهاد ضد الملونين في ذلك الوقت. وكانت جميع ملامح سيد قطب، بعينيه الجاحظتين وشفتيه الغليظتين وشعره الكث وقامته القصيرة وبشرته السمراء ترشحه للاضطهاد في المطاعم والمشارب ووسائل النقل وما إليها. فامتلأت رسائله إلى أصدقائه - وأنا منهم - بالشكوى المرة من المعاملة غير الكريمة التي كان يلقاها في كل خطوة من خطواته في سان فرنسيسكو. ولهذا عوّل عند عودته إلى القاهرة على أن يؤلف كتاباً عن انهيار الحضارة الغربية، نشر منه ثلاثة فصول في مجلة «الرسالة» بعنوان «أميركا التي رأيتها» (في أعداد تشرين الثاني/نوفمبر وكانون الأول/ديسمبر ١٩٥١) أبرز فيها مشاهد من الانحلال الخلقي والجفاف الروحي هناك. وإلى هذه الرحلة الأميركية يعزى الانقلاب الذي حدث بعد ذلك في حياة سيد قطب.

وعندما كان في أميركة طلب مني أمرين:

أولهما: أن أقنع مدير قسم الخدمة العامة بالجامعة الأميركية بالقاهرة بأن يتيح لسيد قطب عند عودته أن يلقي سلسلة من المحاضرات العامة في الجامعية عن سياسة مصر التعليمية، ولكن المدير تحرّج من قبول هذا العرض خشية أن يقال: إن هذا المعهد الأجنبي يتبنّى انتقادات للسياسة التعليمية في مصر.

أما الطلب الثاني: فهو أن أوافيه في غربته بأخبار الحياة الأدبية والاجتماعية في مصر، لأنه كان منقطعاً تماماً عن هذه الأخبار. وكان معنى هذا أن أتحول إلى «وكالة أنباء» - مثل رويتر! - فأوافيه بما يهمه من أخبار. وعوضاً عن أن أعكف على حصر هذه الأخبار، بعثت إلى سيد قطب بمجلة تعني بسباق الخيل اسمها «شيخ الصحافة» كان يصدرها صالح البهنساوي (ت١٩٨٩) أسبوعياً لجمهور المراهنين في حلبات السباق في القاهرة والإسكندرية! وكان البهنساوي

يُفرد الصفحتين الوسطيين من المجلة لنشر مئات من الأخبار المحلية الصغيرة التي ينقلها من الصحف والمجلات الأخرى، بحيث يستغني قارئها عن اقتناء عشرات من الصحف. وعندما تسلم سيد قطب أول عدد من هذه المجلة الخاصة بسباق الخيل، حسبني أمزح معه مزاحاً ثقيلاً، فلما فضّها وغاص في أخبار الصفحتين الوسطيين كتب إلي يقول: إن هذه المجلة هي مجلة المجلات الجامعة المانعة لكل ما يحتاج إليه المغترب في سحيقات كاليفورنية. ولا بأس أن أذكر من قبيل الاستطراد أن صالح البهنساوي كان محرراً عتيقاً في جريدة «الأهرام» وكانت قامته قامة طفل في العاشرة من عمره، ولهذا كان يسهل عليه أن يتسلل بين مواكب المسؤولين حتى قيل - ولو من قبيل الفكاهة - إن الملك فاروق كان إذا لمحه واقفاً بين رجال حاشيته، رفعه بيد واحدة إلى أعلى وكأنه لعبة أطفال. وكان البهنساوي خفيف الدم، يحب النكتة ويقول عن نفسه: إنه منتشر أكثر من جريدة «الأهرام» التي يعمل فيها.

كانت غربة سيد قطب في سان فرنسيسكو غربة قاسية على نفسه. أهاجت أشواقه إلى مصر، فعبّر عنها في قصيدة عنوانها «هتاف روح» جاء في ختامها:

فِي النَّفْسِ يا مِصْرُ شَوْقٌ
لِخَطْرَةٍ في رُبَاكِ
لِضَمَّةٍ مِنْ ثَرَاكِ
لِنَفْحَةٍ مِنْ جَوَاكِ
لِرَوْضَةٍ مِنْ سَمَاكِ
لِهَاتفٍ مِنْ رُؤَاكِ
لِلَيْلَةٍ فيك أُخْرَىٰ
مَعَ الرِّفَاقِ هُناكِ
ظَمْآنُ تَهْتِفُ رُوْحِي
مَتَى تُرَانِي أراكِ

عاد سيد قطب من رحلته الأميركية إلى وظيفته السابقة في الإدارة الثقافية بوزارة المعارف، وزادت اهتماماته بالقضايا الاجتماعية والسياسية في حين قلّ

اهتمامه بميدانه الأصيل وهو النقد الأدبي. ولأنه كان في مقالاته داعية إصلاح، فقد عرض عليه رجال الثورة ـ كما أخبرني ذلك بنفسه ـ أن يختار بين منصبين: إما منصب مدير الإذاعة أو منصب وزير المعارف. فاشترط عليهم أن تُطلق يده في تغيير مناهج الإذاعة، فيلغي منها الأغاني والبرامج الهزلية والتمثيليات المسلية، وأن يعيد النظر في المناهج الدراسية بحيث تتحول المدارس إلى ما يشبه كليات الشرطة. ولهذا عُدل عن إسناد أي من المنصبين إليه.

ولم يلبث أن اصطدم مع رجال الثورة فكان في ذلك مصرعه في ٢٦ آب (أغسطس) ١٩٦٦. وكان سيد قطب قد استشعر شيئاً من الجحود من جانب كبار الأدباء الذين اهتم بآثارهم شاباً، فلما استقام عوده لم يبادلوه اهتماماً باهتمام، فلم يكتبوا عنه أو يشيدوا به. فكتب مقالاً في «الرسالة» عاتب فيه كبار الأدباء على إهمالهم شأنه بعدما صار يحك كتفه بأكتافهم، ولم يتعاطف معه إلا الدكتور أحمد أمين بك (١٨٨٦ ـ ١٩٥٤) محرر مجلة «الثقافة» الذي كتب مقالاً اعترف فيه لسيد قطب بجهده الذي لا ينكره أي جاحد.

وعندما أزمع السفر إلى أميركة، أقامت له رابطة خريجي دار العلوم حفل تكريم ـ كنت من شهوده ـ ألقى فيه الشاعر محمود حسن إسماعيل (١٩١٠ ـ ١٩٧٧) قصيدة في تحيته، سقطت من ديوانه كمظهر آخر من مظاهر الجحود.

ولد سيد قطب في قرية موشا من أعمال محافظة أسيوط في صعيد مصر في عام ١٩٠٦، وفيها تلقى دروسه الأولية، ثم انتقل إلى القاهرة لمتابعة دروسه الثانوية والالتحاق بكلية دار العلوم، وكانت ترن في أذنه وهو يودع أمه قولها له: «إن عليك أن تسترجع للأسرة ما فقدته من مركز ومال» إذ إن أباه بدد ثروة الأسرة فباع ما كان لديها من أراضٍ، وكثرت عليه الديون، فانعقد الأمل على سيد قطب في تعويض هذه الخسائر. وتخرج من كلية دار العلوم في عام ١٩٣٣ واشتغل معلماً للغة العربية في المدارس إلى أن انتقل إلى الإدارة الثقافية بوزارة المعارف. وعاش عزباً، ولكن «رهبنة الفكر» كانت تُخفي وراءها «أحلاماً قديمة» عبّر عنها في إحدى قصائده بقوله:

طافَ بي مُسْتَطلعاً حُلْمِي القَدِيْم
فَتَطَلَّعْتُ إليه في وُجُوم

قلتُ: مَنْ أنتَ؟ فَأَغْضَى خَجَلاً
قال: حُلْمُكَ في العَهْدِ الوَسِيْم
وَمَضَى عَنِّي في يأسٍ عَقِيْم
سادِرَ الخطوَةِ في الأرضِ يَهِيْم
قلتُ: يا حُلْمِي تَمْضِي مفرَداً
ليسَ في الرَّمْسِ سَوَى قلبٍ رَمِيْم

وعبّر عنها في قصيدة أخرى بقوله:

تَنْشُدُ السُّلْوَانَ مِنْ حُبٍّ عَقِيم
وتَرُوْمُ البُرْءَ مِنْ داءٍ قَدِيْم
ها هو السُّلوَانُ، فانظرْ، أَتَرى
شارَةَ المَوْتِ على تِلْكَ الرُّسُوم؟
عمُرك الفارغُ كالثَّقلِ زَهِيْد
ليسَ فيه من طريفٍ أو تَلِيد
وهي الأيامُ تَمْضِي مِثْلَما
تَنْقَضِي أيامٌ مَأْجُوْرٍ شَرِيْد
تَمَّ يا مَنْكُوْدُ ما كُنْتَ تَرُوْم
وَمَشَىٰ السُّلوانُ في الحُبِّ القَدِيْم
نَمْ قَرِيْرَ العَيْنِ وَاهْنَأْ بالكَرَىٰ
الكَرَىٰ المَيِّتُ في القلبِ العَقِيْم

وواضح من عبارات «القلب الرحيم» و«الحب القديم» و«القلب العقيم» أن هناك قصة حب قديمة في حياة سيد قطب لم تأت الأيام على ذكراها، فاجترّها في عام ١٩٤٥ وهو عام نظم هاتين القصيدتين.

وفي المرحلة الأدبية من حياة سيد قطب أصدر الكتب التالية: ديوان «الشاطئ المجهول» و«كتب وشخصيات» و«طفل من القرية» و«الأطياف الأربعة» بالاشتراك مع أشقائه و«العدالة الاجتماعية في الإسلام» و«التصوير الفني في

القرآن» و«المدينة المسحورة» ورواية «أشواك» و«مشاهد القيامة في القرآن» و«النقد الأدبي: أصوله ومناهجه» و«مهمة الشاعر في الحياة» و«السلام العالمي والإسلام».

وعندما لقي سيد قطب وجه ربه رثاه صديقه الشاعر محمود أبو الوفا (١٩٠١ ـ ١٩٧٩) بقصيدة أثبتها في ديوانه المجموع بعنوان: «سيد» قال فيها:

يا سَيِّداً كانَ عِنْدِي أعزُّ مَنْ أصْطَفِيْه.
أخِي، ومَنْ مِنْكَ أوْلَى بِكُلِّ وَصْفٍ نَزِيْه.
رَجَوْتَ دُنيا ودِيناً فَنِلْتَ ما تَرْتَجِيْه.

❁ ❁ ❁

صلاح الدين المنجد في مصر

توطئة:

إن اتجاه الرأي إلى تكريم العالم الكبير الدكتور صلاح الدين المنجد، وهو ما زال بيننا يرفد الضاد بأغلى الكنوز، ويُحيي المطويّ من المخطوطات، ويركب كل مركب صعب في سبيل الاهتداء إلى المخطوطات العربية المتناثرة في أنحاء العالم، سواء في المكتبات العامة أو في خزائن الكتب الشخصية، إن هذه البادرة الطيّبة من مقدّري فضله لتستدعي أعظم آيات التقدير والعرفان، لأنها تدلّ بأنصع بيان على أن العاملين في صمت، والنائين بأنفسهم عن جلبات الحياة وحلبات السباق، هم سدنة عظام لا تضن عليهم الحياة الفكرية بمشاعر التكريم والإعزاز، وإنَّ هذا التقدير الأدبي، ولا سيما وهو قد جاء في حينه وأوانه، ليسمو كثيراً عن التقدير الشكلي الذي تمثله الأوسمة والرصائع المذهبة والمفضضة. فصلاح الدين المنجد آثر أن يعيش في دنيا التراث العربي ـ وهي دنيا تراكم فيها الغبار والأتربة على مدى سنوات مديدة ـ واختار لنفسه عزلة كعزلة الناسك إدراكاً منه أن ميدانه ليس ميداناً شعبياً، وأن ما يجترحه من أعمال متخصصة في تحقيق كتب التراث إنّما يمثل جهداً عنيفاً ترفده ثقافة عريضة وإلمام واسع بمصادر الأدب، وحسبه أنه يطرق أبواباً لا تطرقها العامّة وإنما تغشاها خاصة الخاصّة، وعلى تهيّب.

اللقاء الأول مع المنجد:

التقيت بصلاح الدين المنجد ـ واسمه العلم يُغني عن كل الألقاب ـ للمرة الأولى في ١٤ فبراير (شباط) ١٩٥٥ في فندق الكنتننتال بالقاهرة، إذ كنت يومها على موعد مع صديقي العلامة الأمير مصطفى الشهابي ـ وكان إذ ذاك نائباً لرئيس مجمع اللغة العربية بدمشق ـ فألفيت في صحبته الدكتور المنجد، وهو الذي قدَّمني إليه. ومع أن ميداني الأصيل هو الصحافة مع إطلالة عابرة على دنيا الأدب، فقد توهّمتُ أن عالم التراث الدكتور المنجد لا يعرفني، ولكنّني ألفيته

متابعاً لجهدي المتواضع، بل لقد عاملني منذ لحظة هذا اللقاء بإنسانيته البارة وكأننا صديقان قديمان، وعزّز هذه الصلة الشخصية البازغة بإهدائي في اليوم التالي مجموعة من مطبوعات معهد المخطوطات العربية.

معهد المخطوطات العربية:

كان الدكتور صلاح الدين المنجد وقتها قد تسلّم عمله مديراً لمعهد المخطوطات العربية التابع للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، وهو معهد أنشئ بقرار من مجلس الجامعة صدر في ٤ إبريل (نيسان) ١٩٤٦ حددت فيه أغراض المعهد بتجميع المخطوطات وتصويرها، وإيفاد البعثات إلى جميع دول العالم لاستنساخ صور عن المخطوطات المودعة في المكتبات. وكان أول مدير للمعهد هو الدكتور يوسف العش الذي كان قبل ذلك محافظاً لدار الكتب الظاهرية بدمشق، وقد عاد إلى سورية حيث توفي في عام ١٩٦٧.

ولكن، ما إن تسلّم الدكتور المنجّد إدارة المعهد، حتى سعى إلى إقامة مجلس أعلى له صدر قانونه في ٢٣ يناير (كانون الثاني) ١٩٥٦ وروعي في تشكيله أن يمثّل المشتغلين بالتراث في البلدان العربية المختلفة. ففي حين رأس الدكتور طه حسين المجلس الأعلى بوصفه رئيس اللجنة الثقافية بالجامعة العربية، وفي حين اختير الدكتور رئيف أبي اللمع الأمين المساعد للجامعة العربية عضواً في المجلس الأعلى، فقد كان طبيعياً أن يتولى الدكتور المنجد، بوصفه مديراً لمعهد المخطوطات، الرياسة الفعلية للمجلس الذي ضم في عضويته حسن حسني عبد الوهاب باشا من تونس، ومحمد رضا الشبيبي من العراق، ومصطفى السقّا من مصر، ونبيه أمين فارس من لبنان، وعبد الهادي هاشم من سورية، وناصر المنقور من المملكة العربية السعودية.

وعقد المجلس الأعلى أول اجتماع له في القاهرة في يومي ٢٤ و٣١ مارس (آذار) ١٩٥٦ حيث وضع النظام الداخلي والنظام المالي للمعهد.

مجلة معهد المخطوطات العربية:

كان من أبرز إنجازات الدكتور صلاح الدين المنجّد إقدامه على إصدار مجلة معهد المخطوطات العربية اعتباراً من مايو (أيار) ١٩٥٥ بحيث تصدر في جزءين سنويين في شهري مايو (أيار) ونوفمبر (كانون الثاني). وقد انتظم صدور

المجلة بإشراف رئيس تحريرها الدكتور المنجّد على مدى ست سنين صدر في أثنائها ١٢ جزءاً شارك في تحريرها أعلام المشتغلين بالتراث من عرب ومستشرقين. فشارك في التحرير من مصر أبو الوفا المراغي، ورشاد عبد المطلب، وخليل محمود عساكر، وعبد العزيز الأهواني، وعبد الرحمٰن بدوي، ولطفي عبد البديع، وعبد السلام هارون، وشوقي ضيف، والسيد أحمد صقر، ويحيى الخشاب، ومحمد عبد الله عنان، وبشر فارس، وفؤاد سيّد، وجمال محرز، وعبد السلام النجار. وشارك من البلاد العربية الأمير مصطفى الشهابي، وعمر رضا كحالة، ومحمد أسعد طلس، وعبد الله كنّون، وحسن حسني عبد الوهاب، وناصر الدين الأسد، وراتب النفّاخ، ومازن مبارك، وإبراهيم شبّوح، ومحمد إبراهيم الكتاني، ونبيه أمين فارس، ومحمد الفاسي، ونور الدين بيهم، كما شارك من المستشرقين: هـ.ريتر، وشارل بيلا، وسرجنت وي .س. علوش وغيرهم. وهكذا استطاع الدكتور صلاح الدين المنجّد في فترة قصيرة أن يحشد كل هذه الأسماء اللامعة ممّا أكّد أن هذه المجلة المتخصصة الرفيعة قد ولدت كاملة النضج.

ومع أن العرف الشائع هو أن يكتب رئيس التحرير مقالة الصدر الافتتاحية في كل عدد من أعداد المجلة، فإن الدكتور المنجّد خالف هذا العرف ولم يكتب إلّا فاتحة العدد الأول تاركاً المجال لغيره في تحرير مقالة الصدر، حيث كتبها كوركيس عوّاد، ودبور كوري، والدكتور محمد حميد الله، والدكتور حسين علي محفوظ، وفؤاد سيد، وأحمد آتش، والعابد الفاسي، والدكتور هـ. رومر، والدكتور بتراشك.

رسالة مجلة معهد المخطوطات:

كان الدكتور المنجّد يدرك أن رسالة المعهد لن تتحقق بتمامها إلّا إذا كانت للمعهد مجلة دورية تحمل رسالته وتنطق بلسانه، وتعرّف بالمخطوطات وأماكنها وما نشر منها وما هو قيد التحقيق، فأصبح المعهد ومجلته يمثلان ما يطلق عليه اليوم «قاعدة بيانات» يرجع إليها الباحثون كلّما أعوزهم مأرب يتصل بالمخطوطات.

واستفتح المنجّد العدد الأول من المجلة بالحديث عن رسالتها فقال: «إن

هذه أول مجلة في البلاد العربية تخصّصت للبحث في المخطوطات وتاريخها، ولعل مثيلاتها في البلاد العربية قليلات».

(صدرت بعد ذلك مجلات تراثية في بعض البلدان العربية لعل أبرزها «المورد» في بغداد).

واستطرد المنجّد فقال: «لقد كان ما خلّفه العرب من تراث فكري وافر ضخماً، ولم تخلّف أمة من الأمم ما خلّفه العرب من تواليف ملأت في الأيام المواضي بغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وحلب وقرطبة وغرناطة وإشبيلية والمغرب الأقصى وبلاد فارس وغيرها من البلدان. كانت هذه التواليف كنوزاً من الثقافة والمعرفة والحضارة، أحيت كل بلدٍ بلغته، ولكن هذا التراث الوافر الضخم لم يسلم من عاديات الزمن، فأتلف وأحرق أو ضاع ونهب، ولم يبق للعرب اليوم منه إلّا ما قلّ: بعضه مهمل في مكتبات الشرق وكثير منه في مكتبات الغرب».

وهنا يقول: «وسيجد العلماء في هذه المجلة أبحاثاً عن المخطوطات العربية في كل مكتبة من مكتبات العالم، وأبحاثاً للتعريف بالمخطوطات وما اشتملت عليه من ثقافة نادرة استطاع العرب أن يحكموا بها، لأن الثقافة تفعل ما لا تفعله القوة. وكذلك سيجدون فيها انعكاساً لنشاط المعهد، وما يقوم به من أعمال مختلفة، ولن تخلو المجلة من رسائل نادرة تنشر أو نصوص ذات شأن تحقق».

قواعد تحقيق النصوص:

حرص الدكتور المنجّد على أن يرسم للباحثين في إحياء التراث العربي القواعد التي يستهدون بها في تحقيق النصوص تحقيقاً علمياً يتوخى المزيد من الدقة والضبط. فقال: **إن عملية تحقيق المخطوطات تبدأ بتجميع النسخ المتوافرة في المكتبات المختلفة، فلا يجوز إغفال نسخة أمرها معروف، بل إن على المحقق أن يسعى جاهداً في سبيل استكمال جميع النسخ، ولديه في فهارس المخطوطات المتوافرة في المعهد وفي مكتبة المعهد من النسخ المصوّرة ما يعينه على هذا العمل. وعندما تجتمع للمحقق كل النسخ المطلوبة للنص، فعليه أن يقوم بفرزها وترتيبها من حيث أسبقية التعويل عليها. فالنسخة التي كتبها المؤلف بنفسه تأتي في المرتبة الأولى باعتبارها النسخة الأم، تلي ذلك النسخ التي يكون الناسخ قد قرأها**

على المؤلف أو التي نقلت عن نسخة المصنف أو كتبت في عصر المصنف وعليها سماعات للعلماء، أو نسخ أخرى كتبت في عصر المصنف، وهذا الترتيب الأصولي هو الكفيل بتحقيق أكبر درجة من الدقة المطلوبة عند التحقيق. وإذا أُوتي بعض المخطوطات حظ كبير من الانتشار فكثرت نسخه وتشابهت، فلا بدّ من مضاهاة كل نسخة على الأخرى للوقوف على ما قد يكون فيها من أخطاء أو نقص أو زيادة.

وعندما يشرع المحقق في تحقيق نصّ، فلا بدّ له أولاً من أن يتحقق من صحّة النصّ وعنوانه ونسبته إلى مؤلفه، على أن يشير المحقق إلى وصف المخطوطة، وهل هي أصلية بخط المؤلف أو ممّا قام بإعداده النسّاخ؟ فإن اشتملت المخطوطة على أسماء أعلام أو على استشهادات نثرية أو شعرية أو على تواريخ، وجب على المحقق أن يتحرّى دقتها خشية أن يكون قد وقع فيها وهم أو خطأ كما أبرز المنجدّ أهمية احتواء النصّ المحقق على فهارس للأعلام والأماكن والقوافي وما إليها ممّا يساعد القارئ على الاهتداء إلى ضالته دون عناء.

مخطوطات حققها الدكتور المنجّد في مصر:

على أن الأعمال الإدارية المسندة إلى الدكتور المنجّد بوصفه مدير معهد المخطوطات العربية لم تصرفه عن رسالته الأصلية وهي نشر كتب التراث بتحقيقه. وفي أثناء وجوده في مصر، حقّق الجزء الأول من كتاب «شرح كتاب السير الكبير» لمحمد بن حسن الشيباني إملاء محمد بن أحمد السرخسي، والجزء الأول من «المحكم والمحيط الأعظم» لابن سيّده، وواصل تحقيق أجزاء من كتاب «تاريخ دمشق» للحافظ ابن عساكر، يُضاف إلى هذا أنه أصدر «فهرس مخطوطات الأمبروزيانا بميلانو»، كما صدرت في عهده ثلاثة أجزاء من «فهرس المخطوطات المصوّرة».

البعثات العلمية التي قام بها المنجّد:

استكمالاً لرسالة معهد المخطوطات في استكشاف الخريطة الجغرافية لتوزيع المخطوطات في مكتبات العالم، قام الدكتور المنجّد أثناء وجوده في مصر بأربع بعثات زار فيها تونس والمغرب والاتحاد السوفيتي وإيران حيث حاول رصد المخطوطات المودعة في مكتباتها. كما مثل المعهد في مؤتمر المستشرقين الرابع والعشرين في ميونيخ (في أغسطس (آب) وسبتمبر (أيلول) ١٩٥٧). هذا إلى قيامه

بإيفاد بعثات من موظفي المعهد إلى المملكة العربية السعودية وإلى طنطا والمنصورة ودمياط لتصوير المخطوطات المودعة في مكتباتها.

إسهامات المنجد في مجلة المعهد:

تتمثل إسهامات الدكتور المنجد في مجلة المعهد إما في بحوث علمية كمقاله عن «إجازات السماع في المخطوطات القديمة» ومقاله عن المؤرخين الدمشقيين أو مقاله «وصف دمشق في مسالك الأبصار» أو مقاله عن «المسالك والممالك للمهلبي» أو مقاله عن «أسماء الذين راموا الخلافة للذهبي»، وإمّا في تعريف المخطوطات المنشورة، وتبيان ما فيها من أوجه القصور وتصحيح ما فيها من أغاليط. ولا يكاد يخلو عدد من أعداد المجلة من مجموعة من مقالات الدكتور المنجّد الذي كان حريصاً على متابعة حركة نشر المخطوطات في العالم العربي تعريفاً بها وتعليقاً عليها واستدراكاً على أي فوات، نُشداناً منه للكمال.

نهاية المرحلة القاهرية:

المؤكد أن الدكتور المنجّد، وهو أصلاً عالم وليس رجل إدارة، لم يستطع أن يوفّق بين عمله التخصصي وشؤون الإدارة بما تقتضيه من التعامل مع الموظفين واللوائح والمسؤولين في الجامعة، فآثر أن ينسحب في هدوء، ولكن بعدما كان قد نجح نجاحاً عظيماً في رسم السياسة الدائمة للمعهد وتوجيه أنشطته توجيهاً سديداً. والأهم من ذلك أنه أنشأ للمعهد علاقات شبه دولية مع جميع الهيئات العربية والأجنبية والمعنية بالتراث، وكان هذا في حدّ ذاته فتحاً مبيناً، ثم إنه جعل من المعهد قاعدة بيانات عريضة خاصة بالتراث العربي يُستهدى بها في كل ما يتعلّق بتحقيق المخطوطات.

والدكتور المنجّد هو بحق المؤسّس الأول لمعهد المخطوطات، كما قال لي المرحوم رشاد عبد المطلب الذي صاحب المعهد منذ إنشائه. وهو قد أكّد لي أن المنجّد هو الحجة الأولى في شؤون المخطوطات، وهو العمدة الراسخ القدم في كل ما يتعلق بها.

أما المرحوم الدكتور محمود محمد الطناحي فقد سجّل في كتابه «مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي» ـ على صفحة ١٣٧ ـ أنه «لم يعرف هذا الرجل ـ يعني الدكتور المنجّد ـ ولم يلتق به إلى الآن، فقد التحقت بمعهد المخطوطات

بعد تركه له، لكنّي في خلال عملي بالمعهد الذي استمرّ خمسة عشر عاماً، كنت أحسّ بصماته ولمساته في جميع أرجاء المعهد، فهذه شهادة أؤديها على وجهها».

اجتهدت في هذا البحث أن أستقصي واقعات السنين الست التي قضاها الدكتور صلاح الدين المنجّد في مصر، وهي فترة قصيرة وغزيرة من عمر هذا البناء العظيم.

❁ ❁ ❁

طه حسين

جملة من المصادفات هي التي رتبت لي لقاءات مع الدكتور طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣)، وهي مصادفات سعيدة لم يكن لي ـ طبعاً ـ يدٌ في تدبيرها، وإنْ كنت رغبتُ في استعادة تفاصيلها في هذا الحديث.

تهيأت أولى هذه المصادفات في شهر نيسان/إبريل ١٩٥٢ عندما زارت مصر العصامية الأميركية هلن كيلر العمياء الصمّاء البكماء مع سكرتيرتها بولي طمسن، ونزلت في فندق سميراميس القديم المطلّ على النيل. فسعيتُ بدافع من عملي الصحفي، مع زملاء آخرين، إلى لقاء هذه السيدة المعجزة التي استطاعت برغم فقدان ثلاثٍ من حواسّها أن تبتكر أسلوباً للتفاهم مع الناس، فتبسط راحة يدها على خدّ المتحدّث وفمه وتدرك من تقلصات العضلات ما الذي قاله، ثم تقوم سكرتيرتها ببسط راحة يدها على فم هلن كيلر وخدّها وتعرف بدورها من التقلصات ردّها على المتحدث وتنقله إليه. وتعلّمت هلن كيلر الكتابة على الآلة الكاتبة ـ وكان أستاذنا العقّاد يسيمّها بالمرقم ـ وصارت لها مؤلّفات، كما تابعت الدراسات العليا حتى نالت درجة الدكتوراه، عدا الدرجات الفخرية التي مُنحتها من الجامعات.

جاءت هذه السيدة لزيارة مصر، واستقبلتني في غرفتها في الفندق فاتَّخذتُ مكاني إلى جوارها، تليها سكرتيرتها بولي طمسن، وأجريتُ معها حديثاً للجريدة التي كنت أعمل فيها. وبينما كان الحديث دائراً، دخل الدكتور طه حسين باشا (ولم تكن الألقاب ألغيت) بطربوشه التقليدي (الذي اطرّحه فيما بعد) متأبطاً ذراع سكرتيره فريد شحاتة، فأفسحتُ له مكاناً بيني وبين هلن كيلر، وتطوعتُ بالترجمة بينهما لأن طه حسين يجيد الإفرنسية دون الإنكليزية. ولمّا سألني طه حسين عن اسمي، ذكرته له، فقال: إنه يتابع مقالات الصدر اليومية التي أنشرها في «المقطم»، وشكرني لأنني يَسَّرتُ عليه مهمّة التحدث مع هذه السيدة العجيبة التي

قالت عندما أطلّت من شرفة الفندق إنها «ترى» النيل، فلّما سألناها: كيف؟ أجابت: إن الهواء المشبع ببخار ماء النيل الذي يهبّ عليَّ رسم صورة للنهر في خيالي.

ودُعيت هلن كيلر لإلقاء محاضرة في قاعة يورت التذكارية بالجامعة الأميركية، فحيّاها الجمهور بالتصفيق، وهنا انحنت إعراباً عن شكرها. ولمّا سُئلت: كيف أدركتِ أن الجمهور يصفق لك؟ أجابت ـ عن طريق سكرتيرتها طبعاً التي كانت لسانها الناطق دائماً ـ أدركتُ ذلك من اهتزاز أرضية المنصّة التي أقف عليها.

وثانية هذه المصادفات حدثت بعد ذلك ببضعة أشهر (في تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٥٢) إذ كنتُ وقتها أدّرسُ علوم الصحافة في الجامعة الأميركية بالقاهرة، وفتحتُ صندوق البريد المخصص لي حيث وجدت رسالةً من أستاذٍ بجامعة بيروت الأميركية يقول فيها: إنه تواعد على الاجتماع بالدكتور طه حسين في نفس اليوم لإجراء حديثٍ معه ينشره في مجلة «الكليّة» الشهرية التي يصدرها متخرجو جامعته باللغة الإنكليزية، وإنه يخشى أن تقوم اللغة عقبةً في سبيل التفاهم بينهما، ورجاني أن أعرّج عليه في الفندق لنتوّجه سوّيةً مع المصوِّر إلى منزل طه حسين في حي الزمالك (في شارع كان يُعرف باسم سكوت مونكريف ثم بُدِّل إلى شارع طه حسين) وذلك قبل انتقاله إلى دارته التي شيّدها في طريق الأهرام بالجيزة، وأطلق عليها اسم «رامتان». فلحقت به في الفندق، ولم نلبث أن وقفنا بباب البيت، فاستقبلنا فريد شحاتة، وصحبنا إلى غرفة المكتب. وفي الموعد المحدد تماماً، أطلّ علينا طه حسين وصافحنا بحرارة. وبمجرد أن ذكرت اسمي قال: لقد عرفتك من صوتك، وأنا أتابع فصولك في «المقطم». واستأذنتُ منه في أن أتولّى مرة أخرى مهمّة ترجمة الحديث، فرحّب بذلك. وفوجئت وقتها بأن طه حسين التزم التحدّث باللغة الإفرنسية. فالأمريكي يوجّه سؤاله باللغة الإنكليزية، وأقوم بنقله إلى العربية، فيرّد عليه طه حسين بالإفرنسية ثم أترجمه إلى الإنكليزية. وقد وفّقني الله في الاضطلاع بهذه المهمّة إلّا من خطإٍ واحد أمسكه عليَّ طه حسين ونبّهني إليه.

وأما المصادفة الثالثة فكانت عند زيارة صديقي الأديب العراقي وحيد الدين بهاء الدين (١٩٣٢ ـ) إلى القاهرة في عام ١٩٦٨ وسعيه الحثيث للتعرّف بكبار

الأدباء المصريين، فقابل وقتها محمود تيمور (١٨٩٤ ـ ١٩٧٣) والدكتور حسين فوزي (١٩٠٠ ـ ١٩٨٨) وتوفيق الحكيم (١٨٩٨ ـ ١٩٨٧) ورغب في مقابلة طه حسين، وحُدّد له موعد للمقابلة في دارة «رامتان». وعرض عليّ وحيد الدين أن أصحبه في هذه الزيارة، فتردّدتُ، لأن الموعد المضروب انصبّ عليه وحده دون رفيق. ولكنّه ألحّ عليّ فاستجبت لرغبته، وتوجهنا إلى الدارة حيث استقبلنا فريد شحاتة، وقادنا إلى غرفة المكتب. وبعد دقائق كان الدكتور طه حسين يهبط الدرج ويدخل الغرفة ويصافحنا ويكرّر عبارته المعهودة: لقد عرفتك من صوتك، وأطالع ما تكتبه هنا وهناك.

وأما المصادفة الرابعة، فكانت بدورها زيارةً رافقتُ فيها الأديب العراقي مشكور الأسدي (١٩١٩ ـ ١٩٩٢) الذي درس في جامعة فؤاد الأول (القاهرة اليوم) وتتلمذ على طه حسين. ولم يشأ أن تفوته زيارة أستاذه لتحيته بعدما جاء إلى القاهرة.

وكان طبيعياً والصحافةُ هي صنعتي الوحيدة ـ حتّى عندما سَرَى عليَّ ناموسُ «الإزاحة» ـ أن أُشارك في الأحاديث التي جرت مع طه حسين، وهو ما أحاول تسجيله في هذا الفصل، لا سيما وأن حياة طه حسين ومؤلفاته هي أشهر من أن يُشار إليها في هذه الكلم القصار.

كنتُ أعرف أن طه حسين نشر سلسلة من الفصول في جريدة «اللواء» لمحرّرها الشيخ عبد العزيز جاويش (١٨٧٦ ـ ١٩٢٩) عنوانها «نظرات في النظرات» حمل فيها حملةً شعواء على مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦ ـ ١٩٢٤) مؤلّف كتاب «النظرات». وكنتُ سمعتُ من صديقي الشيخ محمود أبي ريّة (١٩٨٩ـ ١٩٧٠)، وهو من الأدباء المخضرمين، أن هذه المقالات وُقِّعت بإمضاء طه حسن مع أن كاتبها الحقيقي هو محمد صادق عنبر (؟ ـ ١٩٣٨) الذي رغب في التخفّي لاعتباراتٍ سياسية. وأكدّ لي هذه الرواية بقوله: إن النقد في هذه الفصول انصبّ على النحو والصرف والقواعد اللغوية، وهو ما لم يُعرف أبداً في كتابات طه حسين النقدية، في حين كان يعرف هذا اللون من النقد في كتابات عنبر. وأوعز إليّ أبو رّيه في أن أستفسر من طه حسين عن مصير هذه الفصول، ولِمَ لم يجمعها في كتبه كما فعل بكثيرٍ من كتاباته الأخرى؟ وعندما وجهتُ إلى طه حسين هذا الاستفسار أجاب بقوله: «إن هذه المقالات من عبث الشباب،

وقد نسيتها». ولعلّنا نجد تفسيراً لذلك في الجزء الثالث من كتاب «الأيام» حيث أورد طه حسين أنه اتّصل بالشيخ عبد العزيز جاويش، وأخذ يجرّب نفسه في الكتابة «ولم يكد الفتى - يقصد طه حسين - يأخذ في الكتابة حتى عُرف بطول اللسان والإقدام على ألوانٍ من النقد قلّما كان الشباب يقدمون عليها في تلك الأيام». وقال: إنه كان «يجد التشجيع كل التشجيع على ذلك من الشيخ عبد العزيز جاويش، وربّما وجد منه إغراءً بذلك وحثّاً عليه. وكان صاحبنا موزعاً بين مذهبين من مذاهب الكتابة في ذلك الوقت، أحدهما مذهب الاعتدال والقصد، ذلك الذي كان الأستاذ لطفي السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣) يدعو إليه، ويزيّنه في قلبه، والآخر مذهب الغلوّ والإسراف، ذلك الذي كان الشيخ عبد العزيز جاويش يُغريه به ويحرّضه عليه تحريضاً». ثم قال: إنه «كتب كلمةً أورثته ألماً لاذعاً وحزناً مُمّضاً واضطرته إلى أن يسعى معتذراً متوسّلاً. . . . وإذا كان المنقود قد رضي وصفح، ولكن الفتى لم ينسَ هذا الإثم قط، وما أكثر ما ازدرى نفسه، وحاول أن يأخذها بألّا تضع كلمةً في مقالٍ حتّى تفكّر وتقدّر وتتجنب الإيذاء ما وجدت إلى ذلك سبيلاً». ووصف طه حسين نفسه بأنه كان «أطولهم لساناً، وأجرأهم قلماً، وأحرجهم لفظاً». وهذا اعتراف صريح منه بأنه كان يُذعن لتحريضات عبد العزيز جاويش، ثم يندم على هذا «الإثم ويزدري نفسه».

ويقول أنور الجندي (١٩١٧ - ٢٠٠٢) في كتابه «النثر العربي المعاصر في مائة عام» نقلاً عن عباس حافظ (١٨٩٦ - ١٩٥٩)، وهو بدوره من المخضرمين في الحياة الأدبية: «إن صادق عنبر كان من الكتّاب الأفذاذ الذين يرجع إليهم الفضل في إصلاح لغة الصحافة وتهذيب أساليبها، فقد اتّصل به طه حسين وهو لا يزال فتى في الأزهر، وكان يوافيه بنقداته لنظرات المنفلوطي حين نُظّمت في صحف الحزب الوطني الحملات عليه، وكان صادق عنبر أوّل من شجع طه حسين في تلك الحقبة من الدهر على مواصلة النقد، والإيحاء إليه بالاشتداد».

وكان الدكتوران حمدي السكوت ومارسدن جونز قد أصدرا كتاباً ببليوغرافياً عن طه حسين، فانبرى له أحمد حسين الطماوي مستدركاً على ما فيه من نقص في فصل من ١٨ صفحة نشره في مجلة «عالم الكتب» السعودية (عدد تموز - آب (يوليو - أغسطس) ١٩٩٥) عنوانه «طه حسين بيوجرافيا وببليوغرافيا» أثبت فيه كلمةً وردت في جريدة «الأهرام» بتوقيع «وحيد» - وهو على الأرجح وحيد الدين

الأيوبي ـ في ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٦ بعنوان «نقد النظرات ليس له» روى فيها الكاتب أن هذا النقد هو «لأديبٍ كبير يعرفه الجميع، موظف بالحكومة الآن، كان يُمليه إملاءً على كاتبين من أفاضل الكتّاب المصريين، ويوقع باسم طه حسين، لأن ذلك الأديب ما كان يريد الظهور بأنه الناقد لنظرات السيد المنفلوطي». ويؤكّد الطماوي أنه سمع هذا من الدكتور محمد صبري السوربوني (١٨٩٠ ـ ١٩٧٨) الذي قال له: إن صادق عنبر هو الكاتب الحقيقي لنقد النظرات.

وكل هذا يؤكّد أن طه حسين ليس صاحب حلقات «نظرات في النظرات» حتى وإن ظهرت بتوقيعه الصريح، ولهذا تبرأ منها قائلاً: إنها من عبث الشباب.

ورداً على سؤال آخر عن إمارة الشعر ورأيه فيها قال الدكتور طه حسين: إنه لا يؤمن بأن للشعر إمارة، وإن لم يدع لها لا لشوقي ولا لغيره. وقال: إنه كتب عن شوقي ناقداً إيّاه بعد وفاته، ودارت الأيام فتزوج ابنه مؤنس من حفيدة شوقي.

وواضح أن طه حسين نسي أنه دعا الشعراء إلى أن يستظلوا بلواء العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) وهو ما فُسِّر وقتها بأنه إسباغٌ لإمارة الشعر عليه. كما نسي أنه عندما أُغفلت دعوته إلى مهرجان تكريم الشاعر خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩) الذي أقيم في دار الأوبرا الملكية في عام ١٩٤٧ وجّه كلمةً في جريدة «الأهرام» إلى الشاعر بعنوان «كلمة إلى صديقي خليل مطران» جاء فيها: «تحية زكية خالصة لك أيها الصديق الكريم من صديق تعرف مكانك في قلبه ومنزلتك في نفسه، وتعرف إعجابه بخلقك العظيم، وإكباره لأدبك الرفيع وإعلانه في كل قطر زاره من أقطار الأرض في الشرق والغرب، وإلى كل متحدّثٍ تحدث إليه في الشعر من الشرقيين والغربيين أنك زعيم الشعر العربي المعاصر، وأستاذ الشعراء العرب المعاصرين، لا يستثنى منهم أحد، ولا يفرّق بين المقلدين والمجددين، وإنما يُسمّيهم جميعاً بأسمائهم غير متحفّظٍ ولا متردّد، ولا ملجلج ولا مجمجم، وإنما هو اللفظ الصريح يرسله واضحاً جليّاً لا التواء فيه ولا غموض». أليس في هذا القول القاطع الحاسم مبايعة من طه حسين لخليل مطران أميراً للشعراء أو «زعيماً» أو «أستاذاً» لهم حسب تعبيره؟.

وسألت طه حسين في أحد لقاءات المصادفة عمّا إذا كان يتابع الشعر المهجري بعد الذي كتبه في «حديث الأربعاء» عن إيليا أبي ماضي (١٨٨٩ ـ ١٩٥٧) وفوزي المعلوف (١٨٩٩ ـ ١٩٣٠) وهل قرأ شيئاً لشفيق المعلوف (١٩٠٦ ـ ١٩٧٦) وللشاعر القروي رشيد سليم الخوري (١٨٨٧ ـ ١٩٨٤) وللشاعر إلياس فرحات (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦) وللشاعر جورج صيدح (١٨٩٣ ـ ١٩٧٨) فقال: إنه راضٍ عن شعر شفيق معلوف، أما شعر القروي وفرحات وصيدح فلا يعرف عنه شيئاً. وكان طبيعياً أن تثور ثائرة هؤلاء الشعراء ـ الذين استَهْوَلُوا أن يكون طه حسين على غير درايةٍ بآثارهم.

وكانت الطبعة الأولى من «المعجم الوسيط» قد صدرت عن مجمع اللغة العربية في القاهرة، وفيها ألفاظ منقولة من العامية مثل «المباكسة»، فسألت طه حسين عن رأيه في هذا التحوّل من جانب المجمع، فقال: عن نفسي لا أرضى بأي ترخّصٍ في الضاد. وكل لفظة غير عربية النِّجاد لا محلّ لها في القاموس. وقد أمرتُ بتشكيل لجنة للنظر في هذا المعجم وفي «معجم ألفاظ الحضارة» لمحمود تيمور، لأن فيه ألفاظاً لا تروق لي مثل استحداثه لفظة «المرناة» للدلالة على جهاز التليفزيون. وأثنى بصورة خاصة على «معجم الألفاظ الزراعية» للأمير مصطفى الشهابي (١٨٩٣ ـ ١٩٦٨) وأبدى دهشته عندما أخبرتُه بأن الطبعة الثانية منه التي نشرتها جامعة الدول العربية وطبعتها في مطبعة مصر التابعة لبنك مصر قد تمّ تخزينها في سراديب المستودعات، واستحال على طالبيها الحصول عليها!.

وعندما سئل الدكتور طه حسين عن أحبِّ كتبه إليه قال «لست راضياً عن كل كتبي، ومتى أمليت الكتاب ثم روجعت تجاربه في المطبعة، لا أعود أنظر فيه، فلا الكتاب يعرفني، ولا أنا أعرفه».

وسألناه عمّا إذا كان يعتقد بأنه أدّى رسالته كاملةً فقال: «أنا مهما يطل عمري لا أملك أن أكمل رسالة. وأنا غير راضٍ عن نفسي وعن عملي. ولعل الرسل هم وحدهم الذين أتمّوا ما نِيطَ بهم من رسائل، وما نحن برسل».

وعندما فُصل طه حسين من عمادة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) عرضت عليه الجامعة الأميركية بالقاهرة أن تنظم له برنامجاً للمحاضرات العامة في قاعتها الكبرى مقابل رسم يدفعه الجمهور وتُرصد حصيلته

لحساب طه حسين. فقبل العرض، وباتت القاعة تحتشد بأفراد الجمهور الراغبين في رؤية طه حسين والإصغاء إلى محاضراته التي كان يرتجلها بصوته المنغّم الشديد الوضوح السليم اللغة والنبرة.

عاش طه حسين مستهدفاً للحملات الشرسة، فكان يُؤْثِرُ مواجهتها بالصمت. وكانت الحملة الأولى الضارية هي التي صاحبت ظهور كتابه «في الشعر الجاهلي»، ثم تحمّل «المدفعيات الثقيلة» من العلامة محمود محمد شاكر (١٩٠٩ ـ ١٩٩٧) بسبب آرائه حول المتنبي، ولم يسلم من حملات زكي مبارك (١٨٩٥ ـ ١٩٥٢) ومن حملات إسماعيل مظهر (١٨٩١ ـ ١٩٦٢) بسبب قبوله تحرير مجلة «الكاتب المصري» بتمويلٍ يهودّي.

وكان زكي مبارك يضيق بطه حسين لاعتقاده بأنه وقف في سبيل عمله أستاذاً في الجامعة برغم درجات الدكتوراه التي كان يحملها من القاهرة وباريس، وكان غاية ما بلغه «الدكاترة» زكي مبارك من مراتب السلك الوظيفي البيروقراطي هو وظيفة مفتش ـ أو موجّه بالتعبير «المطوّر» المستخدم حالياً ـ للغة العربية في المدارس الثانوية. فكان زكي مبارك يقول عن طه حسين: إنه أُميّ لا يقرأ ولا يكتب!

صحيح أن طه حسين كان مُستعيناً بغيره في القراءة والكتابة، ولكن وصفه بالأمية فيه اجتراء شديد. بل إن زكي مبارك كتب في ديوانه «ألحان الخلود» يقول «لو جاع أطفالي لشويتُ طه حسين وأطعمتهم من لحمه، إنْ جَازَ أن أقدّم إلى أطفالي لحوم الكلاب»!.

وإذا كان الطماوي قد نبّه إلى كثيرٍ من الفوات في الببليوغرافيا التي نشرها السكّوت وجونز عن طه حسين (كما أسلفنا)، فإن الأديب التونسي أبا القاسم محمد كرّو (١٩٢٤ ـ) قد نبّه إلى فواتٍ كثير يتعلق بعلاقة طه حسين بتونس، ممّا أورده في كتاب «مئوية طه حسين» الصادر عن دار الحكمة في قرطاج في عام ١٩٩٠، وفي كتابه الموسوم «طه حسين والمغرب العربي».

ولا بدّ من التعريج على فريد شحاتة الذي عمل في خدمة طه حسين سنواتٍ طويلة. كنتُ في أثناء زياراتي لطه حسين أرى سكرتيره هذا جالساً على مقربة منه حتّى يستجيب لطلباته في أي لحظة، فهو يعرف موضع كل كتاب في مكتبته على

وجه التحديد، ويعرف كل ما في بيته، لأنه كان يعيش فيه من الصباح المبكر إلى غروب الشمس يقرأ لطه حسين الصحف والكتب، ويحرّر ما يمليه عليه، ويردّ على هاتفه، ويستقبل زوّاره، ويطلعه على بريده، بل لقد رأيته يضع يده في جيب طه حسين ليستخرج حافظة نقوده أو خاتمه الذي يبصم به أوراقه، وهذه هي ذروة الثقة في سكرتيره. ولهذا أدهشني أن أعرف أن قطيعةً حلّت بين طه حسين وسكرتيره، ترتَّب عليها ترك العمل ليخلفه فيه سواه. وحرصت عندما لقيت فريد شحاتة بعد ذلك أن أستوضح منه سبب هذه القطيعة فقال: عملي مع طه حسين استهلك كل عمري من الصباح الباكر إلى آخر النهار. فإن كانت لطه حسين وظيفة حكومية في الجامعة أو في وزارة المعارف، عيّنني مديراً لمكتبة براتبٍ أتقاضاه من الدولة. وإنْ ترك الوظيفة انقطع عنّي الراتب الحكومي، دون أي استحقاق في معاش تقاعد، وعدت إلى العمل لدى طه حسين شخصياً. وقد بلغتُ الستيّن دون أن أجد وقتاً للتفكير في الزواج. فلما تزوجت وأنجبت في هذه السن المتأخرة، لم أستطع إلحاق أطفالي في المدارس بدعوى عدم وجود أماكن لهم. واستنجدتُ برجال وزارة المعارف الذين كانوا يأتمرون بأمري في الماضي بوصفي مديراً لمكتب الوزير، فلم يُنجدني أحدٌ منهم. وخشيتُ أن تضيع أعمار أطفالي كما ضاع عمري كلّه، وقررتُ الهجرة إلى كندة للحاق بأقرباء لي هناك أكّدوا لي بأن مجالات العمل لي ومجالات الالتحاق بالمدارس لأولادي واسعة. وهو قد هاجر فعلاً، ولا أظنّه عاد، حتّى على سبيل الزيارة، إلى وفاته.

وكانت هناك شائعة تقول: إن فريد شحاتة يعتزم نشر كتاب عن أسرار طه حسين يهدم بها صورته في الأذهان، ولا سيّما لأنه لزمه طويلاً، وصحبه في رحلاته السنوية للاصطياف في أوربة، وعرف من أموره الشخصية والعائلية ما لا يعرفه سواه. وتعرّض فريد شحاتة بسبب هذه الشائعة إلى حملات شديدة من المجتمع الأدبي، ولكن هذا الكتاب ـ في حدود ما أعرف ـ لم يصدر أبداً، وفي هذا ما يشكك في صدق هذه الشائعة.

رزق طه حسين بابنة أسماها أمينة وأسمتها زوجته الفرنسية مرغريت، كما رزق بصبّي أسماه مؤنس وأسمته زوجته كلود، وكانت لغة التخاطب داخل الأسرة هي اللغة الإفرنسية. وعندما حرّر طه حسين مجلة «الكاتب المصري» أشرك ابنته في كتابة باب شهري يقدّم زُبدة مطالعاتها في المجلات الأدبية.

وفي الأيام الأخيرة لطه حسين اشتدّت عليه أمراض الشيخوخة، ومع ذلك كان يصرّ على التوجه إلى مجمع اللغة العربية محمولاً على مقعد ليرأس جلساته، ولم يتخلّف عن الجلسات إلّا بعد إلحاح شديد من أعضاء المجمع وأسرته. وكان ظهره قد انحنى حتى باتت جبهته تصطك بركبتيْه، وكان مع ذلك يصرّ على الهبوط من الطابق الأعلى في بيته إلى الطابق الأسفل لاستقبال ضيوفه. وعند وفاته في ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣ شيعت جنازته من جامعة القاهرة التي طالما جلجل صوته في قاعاتها وهو يربّي الأجيال ويخرّج الذين آلت إليهم مصاير الحياة الأدبية في مصر والبلدان العربية.

❁ ❁ ❁

عادل زعيتر

بعنوان «رحيل غوستاف لوبون المدافع الأوّل عن الفكرة العربية» كتب الأستاذ إبراهيم العريس كلمة في عددٍ قريب من «الحياة» عرّف فيها بهذا العالم الفرنسي الذي صنّف ضخام الكتب ذات الأثر الباقي، ولكن فاته أن يُشير إلى أن آثار هذا العالم الكبير لم تُعرف في اللغة العربية إلّا عندما نقلها إلى الضاد العلامة الراحل عادل زعيتر، الذي اضطلع بنقل معظم آثار هذا العالم الفرنسي في ترجماتٍ تكاد في نسجها العربيّ الفريد تحاكي نصّها الفرنسي. فقد ترجم عادل زعيتر للدكتور لوبون، الذي عرفه شخصياً في باريس عندما كان يدرس في جامعة السوربون، الكتب الضخام الآتية: «حضارة العرب» و«حضارات الهند» و«روح التربية» و«روح الثورات والثورة الفرنسية» و«روح السياسة» و«روح الجماعات» و«حياة الحقائق» و«الآراء والمعتقدات» و«السنن النفسية لتطوّر الأمم» و«فلسفة التاريخ» و«اليهود في تاريخ الحضارات»، وهو عملٌ فذّ في الترجمة اضطلع به مترجم واحد لمؤلف واحد، وكان خليقاً بأن يُستشهد به في معرض الحديث عن العالم الفرنسي الذي وصفه كاتب المقال المذكور بأنه «ذاكرة القرن العشرين».

ولو أن عادل زعيتر طاوع مجال دراسته وميدان تخصصه الأصيل، لانصرف إلى الاشتغال بالمحاماة إلى جانب تدريس الفقه الدستوري وأصول المرافعات المدنية، والجزائية (أو الجنائية) والاقتصاد السياسي في معهد الحقوق بالقدس. وفي تلك الفترة من حياته نقل إلى العربية كتاب «الفقه الدستوري» لأستاذه البروفسير أيسمن. ولكن عادل زعيتر، الذي سخّر مكتب المحاماة الخاص به للدفاع عن مواطنيه الذين كانت السلطات العسكرية لحكومة الانتداب تطالب باقتصال أعناقهم، آثر أن يقف شبابه وكهولته وشيخوخته على الترجمة، ناقلاً إلى اللغة العربية ـ عدا ما أسلفت بيانه من كتب لوبون ـ كتباً أخرى نفيسة كثيرة لأعلام المؤلفين في الغرب مثل «روح الشرائع» لمونتسكيو، وقد ترجمه في جزءين ضخمين بتكليف من منظمة اليونسكو، ومثل طائفة من مؤلفات الكاتب

الألماني إميل لودفيغ وهي: «النيل» و«البحر المتوسط» و«ابن الإنسان» و«نابليون» و«بسمارك» و«كليوباترة» و«الحياة والحب»، ونقل عن ڤولتير «الرسائل الفلسفية» و«كنديد أو التفاؤل» وعن أناتول فرانس «الآلهة عطاش» و«حديقة أبيقور» وعن جان جاك روسو «العقد الاجتماعي» و«أصل التفاوت» و«إميل أو التربية»، وعن حيدر بامات «مجالي الإسلام»، وعن رينان «ابن رشد والرشدية» وعن إميل درمنغم «حياة محمد» وعَن فنلون «تلماك» وعن بوتول «ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية» وعن سيديو «تاريخ العرب العام» وعن البارون كارادڤو «ابن سينا» و«الغزالي» وقد نشر هذان الكتابان بعد وفاته. وهناك كتاب ثالث للبارون دڤو عنوانه «مفكرو الإسلام» انقصفت حياة عادل زعيتر وهو منكبّ على نقله، ولمّا يُستكمل أو يصدر.

هذا الرجل الضخم أورث الضاد هذه الذخيرة الضخمة من الآثار الجليلة التى رأى أن الحاجة ماسّة إليها في عالمنا العربي. وكان له ـ كما قال بحقّ محمد عبد الغني حسن ـ: «في تخيّر الكتاب للترجمة منهجٌ معيّن وقصد مرسوم، ولم يكن اختياراً يجيء عفو الخاطر أو وليد اللمحة الخاطفة، وإنّما كان اختياراً تنتجه الأناة والتروى، وتمليه مصلحة القارئ العربي، وتفرضه اعتبارات وملاحظ كثيرة. ومن هنا كان رائداً عظيماً من روّاد حركة النقل في العصر الحديث».

عرفت عادل زعيتر في مكتب المجاهد العربي الكبير محمد علي الطاهر (١٨٩٦ ـ ١٩٧٤)، المكنىّ بأبي الحسن، حيث كان يعقد ندوة لا إخالها تتكرر في حياتنا، ولا أظن التاريخ يسقطها من حسابه. لقد كانت ندوة الظاهر الملاذ والمقصد لجميع المجاهدين الصابرين من أمة العرب والإسلام أيام استفحال شرور الاستعمار في ديارهم. وقد حمل هذا الرجل العظيم على كتفيه هموم أمتّه جميعاً، فهو صوتها الصارخ ـ ولو في البريّة ـ وهو لسانها الفصيح في الصحف والمنابر، وهو محاميها الدؤوب الذرب اللسان في كل محفل، وهو مُسعفها في كل موقف عصيب. لقد كان الطاهر رجلاً نذر نفسه لقضايا أمّته الممتدّة من إندونيسية والملايو إلى المحيط الأطلسي. وفي مكتبه التقيت «بعصبة أمم» من مجاهدي هذه البلدان جميعاً ومن رجال الفكر فيها، وهي ندوة انتقلت بعد ذلك من القاهرة إلى بيروت وتواضع روّادها على تسميتها «بالأكاديمية».

ولقد كنت من الذين يغشون ندوة أبي الحسن، وفيها التقيت للمرة الأولى

بعادل زعيتر في شتاء عام ١٩٤٧، وهو رجل تراه صامتاً وكأنّه مستغرق في تفكير عميق، فإنْ تكلم فبحساب، ولا يقول إلّا القول الفصل بعدما يكون قد أنعم التفكير في الموضوع المطروح وقلّبه على جميع وجوهه. فإن غضب لأمرٍ حسبته بركاناً ثائراً، ولكنه لا يغضب أو يثور إلّا لقضيّة وجيهة وحكمةٍ أكيدة. تراه أَمْيَلَ إلى القِصَر مع بدانةٍ ظاهرة، تطل عيناه من وراء عوينات غليظة قضى بها عكوفه على الأقلام والمحابر والقراطيس. فيه كثير من التحفظ والصرامة والجد، فلا تراه ضاحكاً أو باسماً إلّا بعد ما يأنس إليك وتأنس إليه. ولا أحسبني انجذبت إليه بعاطفتي في اللقاء الأول بسبب هذه الصرامة البادية منه وتلك الجهامة التي تتراءى في مُحيّاه. ولهذا دهشت عندما علمت من أبي الحسن بأن عادلاً قد عاد إلى نابلس بعدما فرغ من طبع كتابه «تاريخ العرب العام» لسيديو، وأنه ترك لي نسخة مجلّدة هدّية منه، وأنه رجاه إبلاغي تحيّته على وعدٍ بلقاء أوسع في زيارته الموسمية المقبلة في العام التالي.

كان عادل زعيتر قد درج على أن يخلو إلى نفسه في مكتبه في بيته في نابلس، صارفاً النهار بطوله في ترجمة الكتب التي وقع عليها اختياره. حتّى إذا ما حلّ فصل الشتاء، حمل مخطوطاته وجاء إلى القاهرة لطبعها في دار المعارف أو في مطبعة عيسى البابي الحلبي، وكان يتخيّر فندق شبرد القديم القريب من ميدان الأوبرا للإقامة فيه طوال مدة مكثه بالقاهرة. فإذا أفطر في الصباح سار على قدميه من الفندق إلى دار المعارف قاصداً التخفف من بدانته، ويظل في الدار من الصباح الباكر إلى أن تغلق أبوابها في آخر النهار. وهناك يعكف على مراجعة تجارب كتبه بنفسه، فلا يأمن قيام غيره بهذه المهمّة. ولم يكن يتناول أي طعام في فترة الغداء قاصداً الانصراف إلى العمل من ناحية وتوخياً للحميّة من ناحية أخرى عساه ينقص وزنه. حتّى إذا ما انقضى النهار، عاد إلى الفندق سيراً على القدمين، وهي مسافة يقطعها في نحو ساعة في كل من الاتجاهين، فيتناول عشاءً خفيفاً قبل النوم. هذا هو نظامه اليومي الرتيب، فلا وقت لديه لغشيان المسارح أو دور السينما، ولا لقبول دعوات من أصدقائه. فقد جاء من بلده لمهمّة محدّدة يبغي إنجازها دون تأخير ثم العودة من حيث أتى.

وعندما طبعت له دار المعارف كتاب «البحر المتوسط» لإميل لودفيغ اكتشف بعد مراجعة تجاربه عدّة مرات وقوع أخطاء مطبعية يسيرة، وفي وسع القارئ أن

يستدركها دون عناء. ولكن عادلاً غضب أشدّ الغضب، وأصرّ على أن يذيّل الكتاب بلائحة بهذه الأغاليط في حين أصرّ شفيق متري (توفي في باريس في ٢٠ فبراير ١٩٩٤) صاحب الدار على رفض إدراج هذه اللائحة قائلاً إن الدار عُرفت بدقتها ولا تريد أن تسيء إلى سمعتها بإدراج لائحة فيها اعتراف بوجود أخطاء مطبعية في كتبها. وأصرّ كل طرف على رأيه، وعندئذٍ أبدى عادل زعيتر استعداده للإقرار على نفسه بمسؤولية هذه الأخطاء وللاعتذار لدار المعارف. وعلى هذا ذيّل الكتاب بلائحة التصويبات مع عبارة نصّها «ظهرت الأغاليط القليلة الآتية تصويباتها في هذا الكتاب الضخم (وقوامه ٩٠٠ صفحة) الذي طبع بإشرافي في خمسة أسابيع، فأنشر هذه التصويبات مع الاعتذار لدار المعارف التي أسجّل لها شكري». لقد كان كل من الطرفين حريصاً على الكمال، فجاءت هذه العبارة لتسجّل ذلك.

وبعد ما فرغ عادل زعيتر من مراجعة جميع تجارب كتاب «البحر المتوسط» ظهر يوم ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢، عاد إلى الفندق مبكراً على غير عادته، فخلع سترته (جاكتته) وجلس على كرسي مريح في الغرفة، وراح في سبات عميق بعد خمسة أسابيع من الجهد الشاق في الإشراف على طباعة الكتاب. واستيقظ من نومه فجأة وهو يحسّ باختناق، فقام إلى زر الكهرباء يعالجه، ولكن الضوء كان مفتقداً، وفتح النافذة للتهوية فإذا بدخان أسود كثيف يملأ الغرفة. ففتح بابها واتجه إلى المصعد للهبوط والظلام الدامس مخيم في الممر، فسمع صوتاً يقول له: «المصعد معطل، اتجه يميناً إلى الدرج». فأطاع الصوت في الظلام وهبط عدداً من الدرجات ثم سمع الصوت يقول له: «انحرف يساراً مع الدرج». وظل يسمع توجيهات هذا الصوت إلى أن ألفى نفسه في حديقة الفندق، والنار ممسكة بكل تلابيب البناء. كان ذلك يوم حريق القاهرة المشهود، فكتبت له النجاة، وإن كان قد فقد كل أمتعته، بما فيها ساعة ذهبية ورثها عن أبيه الشيخ عمر، وبعض الأشياء الثمينة التي كان يحرص على حملها معه أينما ذهب. والغريب أن شقيقه أكرم زعيتر ـ شفاه الله وعافاه ـ كان بدوره نزيلاً في هذا الفندق، ولكنه كان في زيارة لبعض الأصدقاء عند احتراقه.

وعندما قصّ عليّ عادل زعيتر هذه القصة نشرت فحواها في جريدة «المقطم» التي كنت أعمل بها، وقلت: إن الذي أنقذه هو هذا الهاتف الذي كان

يسمعه دون أن يراه أو يعرف كنهه أو مصدره. وعندما قرأ عادل هذا الموضوع، انفعل كعادته، وقال لي: لم يكن هاتفاً وإنما كان صوت إنسان. فقلت له: وما الفرق، ما دام الصوت مجهول المصدر؟ فأجاب: إن الهاتف يعني وجود قوى خفية، وهذا غير صحيح. فاحرص دائماً على الدقة في تعبيراتك.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي ينفجر فيها عادل زعيتر بسبب «عدم دقّتي». فقد أشرت إليه مرّة في سياق الحديث عن كتاب من كتبه بوصفه «الأديب النابلسي»، وكان قصدي تنبيه القارئ إلى أنني أعرف المدينة التي ينتسب إليها عادل زعتير وهي مدينة نابلس في فلسطين. فلم أسلم هذه المرّة من «انفجارات» عادل زعيتر، الذي عنّفني بقوله: لِمَ تستصغر شأني إلى هذا الحد؟ فأنا لا أقبل أن يقال عنّي حتى بأنني أديب فلَسطيني، لأنني أديب عربي. وقبل أن أوضحّ له وجهة نظري، ألجمني بسؤال: هل تصف أستاذ الجيل عندكم لطفي السيد باشا (١٨٧٢ ـ ١٩٦٣) بأنه «الأديب البرقيني» نسبة إلى القرية التي جاء منها؟ يا أستاذ: نحن أدباء عرب، ننتمي إلى أمّة العرب الكبرى، فلا «تسخطنا» بحصرنا في مدننا وقرانا!

ومرّة ثالثة انفجر فيّ عادل زعيتر عندما كتبت كلمة عن ترجمتين لكتاب «نابليون» لأميل لودفيغ اتفق صدورهما في وقت واحد: ترجمة عادل زعيتر المنقولة عن النص الفرنسي مع الاسترشاد بالترجمة التركية لأنه كان يجيد هاتين اللغتين، وترجمة محمود إبراهيم الدسوقي المنقولة عن النصّ الألماني، وهو النص الأصلي للكتاب. وانتهيت في كلمتي إلى أن النقل المباشر عن لغة الكاتب الأصلي أدق من النقل غير المباشر عن لغة أخرى ترجم إليها الكتاب. ولم يوافقني عادل زعيتر على هذا الرأي قائلاً: إن الكتب الأدبية يجوز ترجمتها من نص مترجم، أما الكتب العلمية أو الفنية فيحسن أن تترجم عن النص الأصلي للتأكد من الترجمة الدقيقة للمصطلحات والتعبيرات التي قصدها المؤلف. وكتاب «نابليون» هو كتاب أدبي في المقام الأول.

وكان الدكتور طه حسين قد غمز عادل زعيتر في كلمة نشرها في مجلة «الكاتب المصري» في سياق حديثه عن ترجمة محمود إبراهيم الدسوقي وهو من تلاميذ طه حسين. ويقول عمر عادل زعيتر (توفي في ٢٥ ديسمبر ١٩٩٧) في الحديث عن هذه الواقعة: إن أباه تألم كثيراً من غمزة طه حسين لشعوره بأنه كان

متجنياً فيما ذهب إليه، ولكنه «تذكر قصة ما حدث له ولبعض زملائه في باريس في أوائل العشرينيات عندما ظهرت ترجمة الأستاذ طه حسين لكتاب (روح التربية) للدكتور غوستاف لوبون. وحيث إن الوالد معجب جداً بالدكتور لوبون وكثير التردد عليه، فقد حمل الكتاب المترجم مع زملاء له في الدراسة هم السادة عبد الله اليافي وعبد الله المشنوق وموفّق الآلوسي ونجيب الأرمنازي وقدموه للدكتور لوبون مزهوين فخورين بالأديب العربي طه حسين، متوقّعين أن يُسَّر لوبون بأن كتبه قد أصبحت تنقل إلى العربية. ولكن حصل العكس تماماً، إذ ما كاد لوبون يمسك بالكتاب المترجم حتى أخذ يروزه روزاً بيديه وقال: «يظهر لغتكم مختصرة جداً لدرجة الاختزال! ويظهر أن هذا الكتيّب هو تلخيص لروح التربية!» ويستطرد عمر زعيتر فيقول نقلاً عن أبيه: «لا تتصوروا كم كان ذلك محرجاً لنا، وكم تلعثمنا في الردّ عليه. وما إن شربنا الشاي حتى خرجنا من لدنه مسرعين متعثرين، وصممت في نفسي أن أعيد ترجمته بشكل أمين. وما هي إلّا سنة حتى نقل الأستاذ زعيتر كتاب (روح التربية) بأمانته المعهودة، وخرج الكتاب بحجمه الحقيقي الذي يربو على الثمانمائة وخمسين صفحة، أي ضعف حجم الكتاب الذي ترجمه طه حسين تقريباً. وقد أشار في مقدمته إلى ما حدث مع الدكتور لوبون، وبهذا يكون قد انتقم لنفسه بما يفيد أمته والمكتبة العربية».

هذه «الانفجارات» علّمتني دروساً ما كنت لأتعلّمها لو أن عادل زعيتر سكت عن هفواتي أو تغاضى عن سوء تقديري. وأشهد بأن عادلاً كان بعد كل انفجار يلاطفني ويعاملني بمنتهى الودّ والحب والرعاية ليشعرني بأن غضبه انصبّ على موقفٍ معيّن وليس على شخصي.

أما سيرة حياة عادل زعيتر فقد رواها نجله الأكبر عمر في سلسلة من سبعة فصول نشرها في مجلة «النهضة» الكويتية في شهري كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٨ وكانون الثاني (يناير) ١٩٨٩.

ولد عادل زعيتر في نابلس عام ١٨٩٧ حيث تلقى دراسته الابتدائية، سافر إلى بيروت حيث استكمل دراسته الإعدادية، وانتقل بعد ذلك إلى الآستانة في تركية حيث التحق بالكلية السلطانية وكان الأول بين أقرانه. وعند حصوله على شهادة الآداب جند في الجيش التركي أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكنه أفلح في الهرب والانضمام إلى الجيش العربي بقيادة الأمير فيصل بن الحسين (الملك

فيصل الأول) فحكم عليه الترك بالإعدام غيابياً في عام ١٩١٧. وفي عام ١٩١٩ مثّل مدينة نابلس في المؤتمر السوري بدمشق الذي أعلن استقلال سورية بحدودها الطبيعية، واشترك في صياغة دستور المملكة السورية في ذلك الوقت.

وعندما احتل الفرنسيون دمشق، غادرها مع أحرار العرب، وقرر السفر إلى باريس للالتحاق بجامعة السوربون التي ظفر منها بشهادة الحقوق في عام ١٩٢٥، وعاد إلى فلسطين ليزاول مهنة المحاماة وتدريس الحقوق، مواصلاً الاشتغال بقضية بلاده مع أحرارها، سواء بالاشتراك في اللجان الوطنية أو بالكتابة في الصحف والخطابة في المحافل، أو بإعداد المذكرات والبيانات السياسية أو بالدفاع في المحاكم عن مواطنيه المجاهدين. ولكنه آثر أن ينصرف عن الحياة العامة إلى الرسالة التي وقف حياته عليها، وهي ترجمة أمهات الكتب إلى اللغة العربية. وقد انتخب عضواً في المجمع العلمي العراقي، وعضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، وكان يرى نفسه أهلاً للانتخاب عضواً في مجمع القاهرة، ولكن أمنيته لم تتحقق.

وفي يوم ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧ استيقظ عادل زعيتر في الصباح كعادته، وتناول فطوره، ثم اختلى في غرفة مكتبه لإنجاز ترجمته لكتاب «مفكرو الإسلام» لكارادڤو. ولكنه أحسّ بتعب، ففتح الباب ونادى زوجته (أم عمر) لتسعفه بقدح من الماء، فلما عادت ألفته قد فارق الحياة بأزمة قلبية مفاجئة. وشيّعته نابلس ووفود من الأردن في احتفال مهيب، تخلّف عنه شقيقه الأصغر أكرم زعيتر (١٩٠٩ ـ ١٩٩٦) لأنه كان يستشفي في بيروت، وتمّ كتمان الخبر عنه. فلما عرف الخبر بعد أوبته من الاستشفاء، أقام لشقيقه مجلساً جديداً للعزاء، ونظم حفلاً ضخماً لتأبينه في نابلس في ١٤ آذار (مارس) ١٩٥٨ شارك فيه ممثلون من معظم الأقطار العربية، وطبعت وقائع الحفل ومقالات الصحف في رثائه في كتاب عنوانه «ذكرى عادل زعيتر».

كان عادل زعيتر يتأنّق في ترجماته تأنقاً شديداً، ووصفه بعض نقاده بالتقعّر والتفاصح، إذ لم يكن يستخدم اللفظة السهلة القريبة المنال، بل كان يؤثر عليها اللفظة المعجمية غير الدارجة، ثم يشرحها في هامش الصفحة.

ومن ذلك مثلاً قوله: إن زيداً من الناس زوج فتاةً صغيرة بعدما «آم»، ويشير

في هامش الصفحة إلى أن لفظة «آم» معناها فقد الزوجة، وكان يصف الصورة التي تعبد «بالنصمة» ويترجم لفظة Puritain بالحنبلي في حين يرى ناقدوه أن الحنابلة فرقة إسلامية، أما «البيوريتان» فهم فرقة مسيحية تعرف بهذا الاسم الذي يمكن ترجمته إلى «الطهريين». وهو يترجم لفظة Villas إلى المغاني، فيقول نقاده: إن المغنى هو مكان اللهو أو الطرب، وكان أستاذنا الزيات يترجمها إلى «الدارة». هو يستخدم عبارة «يكردح الحمار» ثم يشرحها في الهامش بقوله: إن كردح تعني أن الحمار عدا عدواً قصيراً. ومن هذا القبيل استخدامه لعبارة «ارتعج البرق» بمعنى تتابع البرق، أو استخدامه للفظة «الأضوار» بمعنى السحب السود، ولفظة «الطاخية» بمعنى المظلمة و«الأضواج» بمعنى منعطفات الوادي، و«الراتج» بمعنى الطرق الضيقة، و«استغدر المكان» بمعنى صارت فيه غدران، و«الجذول» بمعنى الأصول الباقية للأشجار بعد ذهاب فروعها و«الثول» بمعنى الحماقة، وهلم جرا.

وارتأى النقّاد أن هذه الهوامش قد اقتضاها تقعره في اللغة دون مسوّغ وانضم إلى نقادّه عدد من الأدباء منهم الدكتورة بنت الشاطئ (١٩١٣ ـ ١٩٩٨) والدكتورة أحمد فؤاد الأهواني (١٩٠٨ ـ ١٩٧٠) ومحمود اللبابيدي (من حلب). بل إن ناقداً تناوله في مجلة «الرسالة» وأبى أن يوقّع مقاله.

وكان عادل زعيتر ينفعل إزاء هذه التعليقات التي كان يعدّها ظالمة، فيردّ على بعضها ويتجاهل البعض الآخر. وقد أقرّت الدكتورة بنت الشاطئ في الكلمة التي ألقتها في حفل تأبين عادل زعيتر بقولها: إن الزهو كان يعمي بصيرتها فدفعها إلى نقد ترجمات عادل زعيتر التي كانت تعدّ مطالعتها أمراً شاقاً مجهداً، وأشارت عليه في نقدها بأن يعمد إلى شيء من التبسيط والتيسير كيما يتيح لعامة القراء أن ينتفعوا بهذه الذخائر الثقافية.

وتقول بنت الشاطئ: إن عادلاً رآها في دار المعارف فدعاها إلى لقائه وظنّت وقتها أنه كره منها أن تنقده. «فصممتُ على أن ألقاه بكلمة عمر رضي الله عنه. (أصابت امرأة وأخطأ عمر). غير أني ما كدت أراه حتّى أخذني ما يشبه التهيّب أمام جلال سمته ووقار شخصيته. فلم أقل كلمةً واحدة ممّا أعددت للموقف، بل جلست إليه في خشوع أصغي إلى ما يريد أن يقول. وجاء حديثه على غير ما توقعت. ما من كلمة واحدة قالها تشي بأنه يستعلي على النقد، أو

يدعي العصمة من الخطأ، وإنّما الذي آلمه أن تطالبه مثلي بأن يخون رسالته، وينزل هابطاً إلى مستوى العامة، مع أني كنت مرجوةً عنده لأن أقف مع القلّة المعتزّة بكرامة العلم، المناضلة عن تساميه أمام الكثرة الداعية إلى الهبوط والانحدار. وانصرفت من حضرته يومئذٍ وأنا أعدّه أستاذاً لي..... ومنذ ذلك اليوم لم أعد أطالع آثاره مطالعة القارئة الناقدة، وإنما هي قراءة التلميذة الدارسة. وإذا كان رحمه الله قد غفر لي زلّة قلمي، فما غفرتها لنفسي قط».

ولا أدري ماذا كان يكون ردّ فعل عادل زعيتر لو أن العمر امتدّ به ليقرأ الانتقادات الحديثة العهد التي وجهت في بعض المجلات للترجمات التي اضطلع بها، لا من حيث أسلوبه في الترجمة، ولا من حيث مدى دقته في النقل، ولكن من حيث إنه كان ينقل كلام مستشرقين على علّاته من دون أن يردّ عليهم أو يحذف أقوالهم إرضاء للقارئ العربي. وهو انتقاد، على وجاهته، كان ينبغي توجيهه إلى المترجم في حياته سواء لكي يدافع عن وجهة نظره أو لكي يستدرك ما فاته في الطبعات التالية.

أمّا أن يجيء النقد ـ بما يشبه الاتهام ـ بعد أكثر من ثلاثين سنة من وفاته، وبعد أن تعدّدت طبعات كتبه ولا سيما «حضارة العرب» فهو أمر مستغرب إن لم يكن مستهجناً. وعلى كل حال، لقد تصدّى شقيقه أكرم زعيتر للرد على نقّاد الزمن المتأخر في فصول مسهبة نشرها في الصحف.

ولئن جاءت منيّة عادل زعيتر عن عُمْر لم يزد على واحد وستين عاماً، فقد أكرم الله مثواه، إذ دفن في بلاده ومسقط رأسه، وشيّعه مواطنوه في جنازة مشهودة، كما أكرمه الله إذ جنّبه الصدمة المزلزلة التي أصابت الأسرة كلها، ولا سيما أم عمر، بمصرع ابنه الشهيد وائل زعيتر في رومة عام ١٩٧٢ بسبب انضوائه تحت لواء منظمة «فتح». وقد رثاه صديقه الكاتب الإيطالي الكبير ألبرتوموراڤيا، كما أصدرت عنه أديبة إيطالية كتاباً عنوانه «إلى فلسطيني تخليداً لذكرى وائل زعيتر» صدر باللغة الإيطالية وترجم إلى اللغة الإنكليزية، كما أن مواطنته الشاعرة فدوى طوقان (١٩١٧ ـ) جعلته موضوعاً لديوانها «على قمة الدنيا وحيداً».

عندما رثيت عادل زعيتر بعيد وفاته قلت: إنه كان جامعة ومجمعاً. والحقيقة أنه بما أنجزه من عمل فكري يعتبر من بناة النهضة الحديثة في العالم

العربي. ولا غرو أن يُمنح اسمه «رصيعة القدس» رمزاً للجهد العلمي العنيف الذي بذله في سبيل وطنه الصغير وأمته العربية الكبرى. وإذا كانت الدكتورة بنت الشاطئ قد اعترفت بزّلة قلمها لأنها نعت على عادل زعيتر تضلعه من اللغة العربية، فما أحراني بأن أعترف بزلّتي الكبرى عندما وصفته «بالأديب النابلسي» وهو هو العربي المحتد الذي يؤمن بقول الشاعر محمود أبي الوفا (١٩٠١ ـ ١٩٧٩):

وَطَنِي هو الفصْحَى، فَكُلُّ بِلادِهَا ... فِي مِصْرَ أو فِي الشَّام هُنَّ بِلادِي
هـذا هـو الـوَطَـنُ الّـذي أَحْيَـا لَـهُ ... وَلَـهُ أُوَالِـي صـادِقـاً، وأُعَـادِي

❁ ❁ ❁

مترجم ذو رسالة

كان عادل زعيتر مترجماً ـ وصفه محمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ ـ ١٩٨٥) بحقّ بأنه «شيخ المترجمين العرب وإمامهم في عصرنا الحديث» ـ ولكنّه لم يكن مجرّد مترجم، بل سلك في أداء عمله مسلك أصحاب الرسالات. ذلك لأنه لم يترجم اعتباطاً أي كتاب، ولا راعى اعتبارات السوق عند اختياره لأي كتاب يترجمه، ولا صاغ ترجمته في أي أسلوب دارج، ولا جاءه توجيه من أي هيئة، وإنّما جعل من نفسه مؤسسةً قائمة بذاتها، فهو هو الذي ينتقي الكتب، وهو هو الذي يحمل عبء الترجمة، وهو هو الذي يرسم لنفسه المنهاج الذي يتبعه في الترجمة، فلا يستهول المهمّة حتى وإن وقع الكتاب في مئات من الصفحات، ولا تخور عزائمه حتّى ولو واجهته صعابٌ مُقعدة. فهو صاحب رسالة، يقدّم للقارئ أنفع الكتب وأحسنها حسب تقديره ـ تثقيفاً لذهنه وارتفاعاً بوعيه الحضاري، وتعريفاً له بكنوزٍ من كتب الحضارات والسير والمذاهب الفلسفية والفكرية هي عنه بعيدة المنال. وهو في كل هذا يتوسّل بأسلوب من أنصع الأساليب العربية وأمتنها، ولو اقتضاه الأمر استخدام ألفاظٍ وعبارات يراها البعض غير مأنوسةٍ في سوق التداول اليومي. ومَنْ كانت قامته على هذا القدر من الارتفاع، فلا بدّ أن يحسن الظن بقارئه ويسمو به إلى مستواه، وينأى بنفسه وبقارئه عن مستويات العوامّ. ولهذا وصفت عادل زعيتر بأنه كان «جامعة ومجمعاً». فعنه تؤخذ المعارف، وبه تؤصل اللغة وتؤثّل.

وإن نظرةً عجلى إلى قوائم الكتب التي ترجمها عادل زعيتر تهول المرء بسبب ضخامة عددها، وغزارة مادتها، وتنوّع موضوعاتها، وشهرة مؤلفيها، وتناولها لمباحث في التاريخ والجغرافية والتراث والسياسة والاجتماع والفلسفة وعلم النفس والتربية. وكل فرعٍ من هذه الفروع يحتاج إلى تخصصٍ أكاديمي. ومع ذلك استطاع عادل زعيتر أن يجعل من نفسه ـ بعصاميته الثقافية الفذّة ـ هذا المتخصص الأكاديمي في جميع هذه الفروع. كما أن إعجابه بعددٍ من أساطين

المؤلفين الفرنسيين مثل غوستاف لوبون، وجان جاك روسو، وأناتول فرانس ومونتسكيو وإرنست رينان، ومن الألمانيين مثل إميل لودفيغ ألهمه نقل كثير من آثارهم إلى العربية إلى جانب غيرهم من كبار مفكري الغرب. حتّى لقد قرّر عادل زعيتر أن انصرافه إلى ترجمة كثير من كتب لوبون «قد أدخل كتبه المهمّة الآخذ بعضها برقاب بعض إلى العربية إدخالاً يخيل إلى الباحث معه أن هذا الحكيم الجليل من العرب، ولا عجب فلوبون واضع سفر (حضارة العرب)».

ويمكن تصنيف الكتب التي ترجمها عادل زعيتر إلى أربعة أبواب. فهناك التراجم، ومنها «حياة محمد» لإميل درمنغم، و«كليوباترة» و«بسمارك» و«نابليون» لإميل لودفيغ، و«ابن رشد والرشدية» و«ابن الإنسان» لأرنست رينان، و«الغزالي» و«ابن سينا» و«مفكرو الإسلام» (وهو ما زال مخطوطاً في جزءين) للبارون كارادوفو، و«ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية» لبوتول، و«تليماك» لفنلون.

وهناك الكتب التي تتناول الحضارات والتاريخ ومنها «حضارة العرب» و«حضارات الهند» و«اليهود في تاريخ الحضارات» لغوستاف لوبون، و«النيل» و«البحر المتوسط» لإميل لودفيغ، و«تاريخ العرب العام» لسيديو، و«مجالي الإسلام» لحيدر بامات.

وهناك الكتب التي تتناول الشرائع والمذاهب السياسية والاجتماعية والعقائدية ومنها «روح الشرائع» لمونتسكيو، و«العقد الاجتماعي» و«إميل أو التربية» و«أصل التفاوت بين الناس» لجان جاك روسّو، و«روح الجماعات» و«السنن النفسية لتطور الأمم» و«فلسفة التاريخ» و«روح التربية» و«حياة الحقائق» و«الآراء والمعتقدات» و«روح الثورات والثورة الفرنسية» و«روح الاشتراكية» لغوستاف لوبون، و«حديقة أبيقور» و«الآلهة عطاش» لأناتول فرانس، و«الرسائل الفلسفية» لڤولتير.

وهناك موضوعات أخرى تناولها عادل زعيتر في ترجماته مثل رواية «كنديد أو التفاؤل» لڤولتير و«الحياة والحب» لإميل لودفيغ.

محصول ضخم أنجزه عادل زعيتر، ولو امتدّ به العمر لازداد المحصول وفرةً وغنى لأنه كان يخطّط لترجمات أخرى لولا أن الموت فاجأه وهو عاكف على ترجمة كتاب «مفكرو الإسلام» للبارون كارادوڤو، فوضعت المنون نقطة الختام لحياةٍ خصبة عامر بالعطاء.

كان عادل زعيتر يجيد اللغة الفرنسية بفضل متابعته لدراسته العليا في الحقوق في باريس، ولا غَرْوَ إذن أن يكون احتفاله بالمؤلّفين الفرنسيين عظيماً، ولا سيما لأن اللغة تطاوعه، وهومن فنونها متضلّع متمكن. كما كان يجيد اللغة التركية القديمة التي تعلّمها في استنبول، ويلم إلماماً جيداً باللغة الإنكليزية التي كانت اللغة الأجنبية الأولى في فلسطين زمن الانتداب البريطاني. وإذا كان قد نقل إلى العربية كتب المؤلّفين الفرنسيين من نصوصها الأصلية، فقد تعذر عليه ذلك عند ترجمة الكتب المؤلفة باللغة الألمانية ككتب إميل لودفيغ لاستعصاء هذه اللغة عليه، فاضطر إلى الترجمة عن ترجمة، مع الاستعانة بأي ترجمات أخرى بالإنكليزية أو التركية ـ إنْ وُجدت ـ للكتب التي ينشغل بترجمتها، كيما تتكامل لديه من هذه الترجمات المتعددة صورة شبه دقيقة للنصّ الألماني البعيد عن متناوله. وهو قد عبّر عن ذلك بقوله: «إن مهمة المترجم ليست نقل العبارة الأجنبية إلى اللغة العربية، بل إن هناك ما هو أهمّ وأعظم من هذا بمراحل كثيرة، وهو أن ينفذ المترجم إلى روح الكاتب، وأن يفهم شخصية المؤلّف تمام الفهم».

وبدافع من الأمانة تجاه القارئ، كان عادل زعيتر يحدّد في مقدمات كتبه اللغة التي نقل عنها، كقوله: إنه اعتمد في نقل كتاب «النيل» على ترجمته إلى الفرنسية والإنكليزية. وهكذا، فإن عادل زعيتر لم يجعل من اللغة الألمانية سدّاً منيعاً يحول دون ترجمة الأسفار النفيسة، وإنما نفذ إلى تحقيق غايته من خلال اللغات الأخرى التي يحسنها.

ولئن عاب عليه بعض النقاد، ومنهم طه حسين، الترجمة عن ترجمة، فالأرجح أنه لولا اضطلاع عادل زعيتر بترجمة آثار الكتّاب الألمانيين عن ترجمات بغير لغتهم لبقيت هذه الآثار غير منقولة إلى الضاد حتّى يومنا هذا. يضاف إلى هذا أنه لو اضطلع مترجمان بنقل نفس النصّ من نفس اللغة الأجنبية، فمن المؤكد أن الترجمتيْن ستجيئان مختلفتين جد الاختلاف غير متطابقتين، لأن لكل مترجم أسلوبه الخاص وذوقه في اختيار العبارات والألفاظ. فهناك مَنْ يتمسّك بحرفية الترجمة، في حين يترجم غيرُه بالمعنى وليس باللفظ مع ما قد يكون في هذا من تجاوز في النقل.

وأكبر ما يميّز ترجمات عادل زعيتر هو هذا الأسلوب العربي المشرق، الذي بلغ من فرط احتفاله به استخدامه للكثير من الألفاظ القاموسية الصعبة

المنال عوضاً عن الألفاظ السهلة ذلت المعاني التي تبده القارئ مباشرة. وهو ما عرّضه لنقد النقّاد ـ ومنهم الدكتورة بنت الشاطئ ـ الذين ذهبوا إلى أن ترجماته إلى العربية تحتاج إلى ترجمة عربية بعبارات مفهومة.

ولكن عادل زعيتر كان يعتقد ـ وهذا جزء من الرسالة التي توخّاها وأخذ نفسه بها ـ أن عليه الارتفاع بمستوى القارئ عوضاً عن النزول إلى مستواه، وأن يعمل على زيادة حصيلته من المفردات اللغوية ـ وإن تكن ألفاظاً مهجورة ـ عوضاً عن التقاط العبارات الدارجة التي تستخدم في الأساليب الصحفية استخداماً تساوت معه أساليب الكتاب، وباتوا وكأنهم نسخة واحدة متكرّرة، لا يتميّز أي منهم بأسلوب خاص يدلّ عليه ويُؤثر عنه.

ولا بأس في هذا المقام من التمثيل على بعض الألفاظ القاموسية التي استخدمها عادل زعيتر في كتاب واحد، هو كتاب «النيل» هاجراً الألفاظ الأشدّ منها وضوحاً. فهو يستخدم لفظتي «الإملاس» و«الطرفسة» للدلالة على الظلام، ولفظة «البرامع» بمعنى الدوامات، ولفظة «الخِثْي» عوضاً عن روث البهائم، ولفظة «الفحّال» للدلالة على ذكر النحل، ولفظة «التمرّاد» عوضاً عن برج الحمام، ولفظة «السِّرْجين» بدلاً من زبل الحمام ولفظة «الحَثَر» بمعنى آثار الرمد في العين، ولفظة «المُبير» أي المهلك، ولفظة «المِسْعار» وهو ما تُشعل به النار، ولفظة «الخوادع» وهي الأبواب الصغيرة في الأبواب الكبيرة. ولولا أن عادل زعيتر شرح هذه الألفاظ المستعصية بنفسه في هوامش الصفحات، لصار حتماً على القارئ أن يلتمس معانيها الدقيقة في المعاجم. ومع ذلك لا أحسبُ أن إصرار عادل زعيتر على استخدام أمثال هذه الألفاظ العصيّة قد ساعد على ذيوعها وانتشارها، سواء على أقلامُ كتّاب الصحف أو حتّى في مدوّنات الدراسات الأدبية المتخصصة، إذ بقيت مهجورة معدودةً من حفريات اللغة.

وقد دافع عادل زعيتر عن هذا المنهاج في مقدمة كتاب «النيل» حيث قال: إن «من يطلع على كتب لودفيغ ومَنْ إليه من أساطين الأدب في الغرب، يَرُعْهُ ما بين الأدبين العربي والغربي من بونٍ شاسع في الوقت الحاضر، مع ما كان من غِنَى لغة الأدب العربيّ في الزمن الغابر، ولا بدّ لذلك من تطعيم لغتنا الراهنة مقداراً فمقداراً بما تحتويه معاجمنا من كلمات غير نابية، فلعلّها تصير مألوفةً. وهذا ما سرتُ عليه بعض السير في كثيرٍ من الأسفار التي ترجمتها. ولكن مع

تفسير هذه الكلمات في هامش الصفحات تسهيلاً للمطالعة».

وقد واجهت عادل زعيتر في ترجماته مشكلات حاول التغلّب عليها، مرّةً باستخدام «عبارته الخاصة لا عبارة المؤلف العربي القديم» ـ كما اعترف بذلك في ترجمته لكتاب «ابن رشد والرشدية»، ومرّةً «بالبتر والحذف وإهمال بعض العبارات كيلاً يُؤذَى شعور القرّاء» ـ كما اعترف في ترجمته لكتاب «حضارة العرب». ومع ذلك لم يسلم عادل زعيتر من المطاعن التي وجهت إليه بعد سنوات طويلة من وفاته في بعض الصحف السعودية التي نعت عليه نقل أوهام المستشرقين دون الردّ عليها.

وهذا ما حدا بمحمد عبد الغني حسن، الذي قدّم لكتابي «ابن سينا» و«الغزالي» اللذين نشرا بعد وفاة عادل زعيتر، إلى أن يدافع عن مسلك المترجم، فسجّل ما لديه من تحفظات على الآراء التي أوردها المؤلف البارون كارادوفو حيث قال في مقدمة كتاب «ابن سينا»: «على أنه قد يكون هناك من آراء كارادوفو ما لا نقره عليه، وما لا نطيل الوقوف أمامه... ولكن حسب هذا الكتاب أن يقرأه العرب والمسلمون في ترجمته الدقيقة وأن يعرفوا آراء غيرهم ليناقشوها ويدفعوها في معرض المناقشة والدفاع، وأن يأخذوا أطيب ما في الكتاب من بحث ودرس ومنهج. فنحن حين نكلّف القوم غير ما في طباعهم، نتطلب في الماء جذوة نار».

وقال في تقديم كتاب «الغزالي»: «إن البارون كارادوفو تغلبه نزعة ليست غريبة على آذاننا ولا على أبصارنا، وهي نزعة فريق من المستشرقين الذين لا يخلصون لقضايا العلم. فلا يكادون يمضون في طريق البحث حتى تغلبهم آراء خاصة ليست علماً خالصاً، ولا يراد بها الوجه الصحيح للعلم، وإنما قد تحمل بين سطورها ما يشوّه الصورة الصحيحة للإسلام بغمزة هنا ولمزة هناك... وإذا لم تكن ترجمة كتاب «الغزالي» ضرورية لما بين دفتيه من بحثٍ أصيل، فإنها ضرورية ليعرف المسلمون ما يقال في الإسلام وما يقال فيهم».

وأضاف عبد الغني قوله عن ترجمة كتاب «ابن سينا»: «ولقد كان يكون نقصاً في المكتبة العربية أن تخلو منها ترجمة لهذا الكتاب الذي يعد تقديراً من مفكر أوربي مسيحي لفيلسوف مسلم، وتوضيحاً لفلسفته، وتحليلاً جيداً لآثاره في التفكير الإسلامي».

كما أن عادل زعيتر كان يتغلّب على ما يصادفه من صعوبات أحياناً بالتعريب كقوله في مقدمة كتاب «النيل»: «وفي الكتاب كلمات قليلة عرّبناها لمّا رأينا من عدم وجود ما يقابلها في كتب لغتنا، كما أننا اجتنبنا النسبة في الكلمات المعرّبة خلافاً لما اعتمده كتابنا».

وتغلّب على مشكلة كتابه الأعلام الفرنجية، ولا سيما في كتاب «حضارات الهند» بأن ردّها إلى صورتها المستخدمة من جانب الهنود أنفسهم، فاستعمل لفظة «بودهة» بدلاً من بوذا ولفظة «همالية» بدلاً من هيمالايا ولفظة «بمبي» بدلاً من بومباي ولفظة «دهلي» بدلاً من لفظة دلهي، وهلم جرّا. بل لقد سعى في سبيل الحصول على جداول خاصة من الهند وغيرها لضبط هذه الأعلام.

ولعل ترجمته لكتاب «حضارات الهند» هي الترجمة الوحيدة التي اعترف فيها عادل زعيتر بالعناء في إنجازها، فقد سجّل في مقدمته قوله: «وقضينا في سبيل ذلك كله أوقاتاً شديدة، ولاقينا مصاعب كثيرة يقدرّها القارئ. . . . وإننا نطمع أن تمتاز هذه الترجمة، التي لم نتجوز فيها قط، بالصحة والوضوح والدقة، فلا يضيع فيها معنى، ولا يضطرب فيها لفظ».

وصادفت عادل زعيتر صعوبة أخرى غير هيّنة تتمثل في البحث عن النصوص العربية الأصلية التي نقلها المؤلفون الأجانب إلى لغتهم ـ ربما بكثير من التصرف ـ ودون أن يشيروا إلى مصادرها. فهناك مثلاً استشهادات بأقوال لمفكرين أو باحثين عرب وردت مترجمة في كتب مثل «ابن رشد والرشدية» و«الغزالي» و«ابن سينا»، وهناك كذلك أهازيج وأغنيات شعبية وردت مترجمة في كتاب «النيل»، والأرجح أن لودفيغ التقطها من أفواه الناس في تطوافه بحوض هذا النهر ـ الذي يسميه عادل زعيتر بالنهر الفحل ـ فاجتهد المترجم في البحث عن نصوصها العربية الأصلية في كتب مثل «هز القحوف» وغيرها، واستعان ببعض من أصدقائه مثل العلامة الدكتور جورج شحاتة قنواتي (١٩٠٥ ـ ١٩٩٤) والمجمعي محمد شوقي أمين (١٩١٠ ـ ١٩٩٢)، كما استعان بي في بعض الأحيان، ولم يكن يجد في هذا غضاضة حتّى وإن عدت إليه صِفْر اليديْن. فإن تعذّر عليه الاهتداء إلى النصوص المطلوبة، لم تكن هناك مندوحة من الاجتهاد في ترجمتها بأسلوبه الخاص مع التنبيه إلى ذلك في مواضعه.

ففي مقدمة كتاب «حضارة العرب» سجل عادل زعيتر أن «العلامة لوبون اقتطف كثيراً من كتب الحديث والأدب والعلم والفلسفة والتاريخ. إلخ من غير أن يشير إلى المصادر، فعانينا كثيراً من المصاعب للعثور على النصوص العربية الأصلية، فوفقنا لذلك خلا القليل، فنشرنا ما انتهيْنا إليه في الأصل العربي، وأما اليسير من النصوص فلم نتوصل إليه، فنعتقد أنه اقتطف في الغالب من ترجمة الكتب العربية إلى اللغات الأوربية في عصر النهضة وبعده، فضاع أصلها العربي، فاضطررنا إلى ترجمته من الفرنسية مع وضع علامة (*) عليه في موضعه تنبيهاً للقارئ».

ومثل هذا التنبيه ورد في مقدمة عادل زعيتر لكتاب «تاريخ العرب العام» حيث قال:

«وفي الكتاب نصوص مقتطفة من الكتب العربية، فأعدنا أكثرها إلى أصلها العربي. وأما النصوص التي لم نعثر على أصلٍ عربيّ لها، وهي قليلة جداً، فقد ترجمناها من الأصل الفرنسي إلى العربية فوضعنا عليها إشارة (*) تنبيهاً للقارئ. كما وضعنا علامة استفهام على بضعة الأسماء التي لم تجد لها أصلاً في الكتب العربية لشدّة تحريف رسمها في الأصل الفرنسي».

كما قال محمد عبد الغني حسن في تقديمه لكتاب «ابن سينا» الذي نشر بعد وفاة عادل زعيتر: «وكل ما في هذه الترجمة من نصوص عربية مردود إلى أصله، إلّا في ثلاثة مواضع اكتفى فيها المترجم ـ رحمه الله ـ بالترجمة عن الفرنسية مع الإشارة إليها بهذه السمة (*) تنبيهاً عليها».

وصفوة القول: إن عادل زعيتر كان ينشد الأمانة الكاملة في النقل، فلا يحيد عنها إلّا مضطراً، سواء لمراعاة المشاعر العربية العامة التي قد تتأذّى من عبارةٍ بعينها، أو لأن في النص الفرنجي اضطراباً يمكن الالتفات عنه كما هو الشأن في جميع كتب إميل لودفيغ التي لاحظ فيها عادل زعيتر «غموضاً والتباساً في الفكر والتعبير».

وقد قلت عن عادل زعيتر في مقال منشور: «إن الرجل الذي يترجم لوبون ولودفيغ وروسو ومونتسكيو لا يمكن إلّا أن يكون صنواً لهؤلاء جميعاً، يحاكيهم في المعرفة ومحيط الفكر، ويفضلهم في إتقان فنٍ لا يحسنونه هو الترجمة،

ويتفوق عليهم بتبحُّره في لغات متعدّدة كلها كالمحيط في انبساط أرجائه». ولا أظنني كنت مغالياً في هذا القول.

وفي تصوري إن الخطّة التي كان عادل زعيتر يتّبعها في عمله تبدأ بالقراءة المستوعبة للآثار الفرنجية ذات القيمة الباقية كيما ينتقي الكتب التي ينبري لترجمتها. وهو قد يقرأ الكتاب مرة ومرتين للإحاطة بمادته إحاطة وافية قبل أن يدرجه في برنامجه الموضوع لترجمة الآثار الفرنجية، إذ كان يعمل بناءً على خطة موضوعةٍ سلفاً وبتوقيت محدّد فرضته عليه رحلته الشتوية السنوية إلى القاهرة لطبع كتبه إما في دار المعارف وإمّا في مطبعة عيسى البابي الحلبي. وكان يعدّ هذه القراءة الأولية ضروريةً لأنها تُعينه على تكوين نظرة كليّة شاملة عن الكتاب يتحقق بفضلها الترابط والتناسق بين فصوله، فلا يتنافر أوّله مع آخره، بل يتجانس الأسلوب والمصطلحات في جميع أقسام الكتاب. فإذا قرّر أن يترجم كتاباً ما، حدّد له الوقت المطلوب، وتوافر عليه توافراً تاماً، متفرغاً لهذا العمل يوماً بعد يوم دون كلل أو ملل، مُخلياً نفسه من جميع الارتباطات الأخرى التي تشغله عن عمله في منسكه الخاص المغلق عليه. ولا تشاركه في خلوته إلّا المعاجم وجمهرة كبيرة من كتب المراجع التي لا محيص عن الاستعانة بها من جانب المترجمين.

ولا أعرف على وجه التحديد هل كان عادل زعيتر يعدّ مسودّة ثم يتعهدها بالتبييض، أو أن البديهة الحاضرة والخبرة الطويلة والكفاءة المعترف بها أغنته عن التسويد ثم التبييض. ومع أنني اقتربت من عادل زعيتر كثيراً، ولقيته مراراً في كل زيارة سنوية إلى القاهرة، واستوضحته في أمور غير قليلة، فلم أوجّه إليه سؤالاً بشأن هذه النقطة. والأرجح أنه كان يراجع الترجمة بعد إنجازها، ويُدخل عليها من التنقيحات ما يستصوبه قبل أن يدفع بها إلى المطبعة. كما أن الترجمة لا تسلم حتّى عند مراجعة تجاربها في المطبعة بنفسه من التحسينات التي يصرّ على إدخالها على الرغم من تضرّر عمال المطبعة من ذلك.

وكان يقول لي: إنني بهذه الترجمات أتحدّى غيري من المترجمين والنقلة أن يأتوا بما هو أصحّ منها أو أمتن سبكاً أو أبلغ عبارة أو أن يأتوا حتّى بمثلها. ومرادي هو أن يجيء النص العربي محاكياً للنص الفرنجي. وهو ما عبّر عنه في تقديمه لكتاب «النيل» حيث قال: «لقد بذلنا جهداً كبيراً في تذليل ذلك (الأمر)

لشوكة اللغة العربية مع حرفية النقل، وجعل أسلوب الترجمة مساوياً للأسلوب الأصلي جهد المستطيع».

ومن آيات تحدّيه أنه قام بترجمة كتاب «السنن النفسية لتطوّر الأمم» لغوستاف لوبون الذي سبق إلى ترجمته أحمد فتحي زغلول باشا (١٨٦٣ ـ ١٩١٤) (شقيق الزعيم سعد زغلول باشا (١٨٥٩ ـ ١٩٢٧)) بعنوان «سرّ تطور الأمم» وذلك لأن ترجمة زغلول باشا «لم تخل من التجوز والعجمة والغموض ـ وإن بذل المترجم جهداً مشكوراً في المحافظة على المعاني». على أن عادل زعيتر التمس لزغلول باشا الأعذار ـ متوخياً في ذلك منهاج العالم الأمين ـ حيث قال: «إن الموضوعات الاجتماعية التي وردت في الكتاب كانت في ذلك الحين غير مطروقة كثيراً كما هي الآن، ولهذا تعثر المترجم في نقلها». واستطرد زعيتر بقوله: «ولنفاد ما طبعه زغلول باشا من نسخ ترجمته، ولما وجدتُ من ضرورة ترجمة كتاب «السنن النفسية لتطور الأمم» ترجمة تتساوق هي وما ترجمته من كتب لوبون في السنين الأخيرة على الخصوص معتمداً على النص الفرنسي ومعّولاً عليه، نقلتُ هذا الكتاب النفيس على الوجه الذي أعرضه به على القرّاء». فهو من ناحية نعى على زغلول باشا قصوره في الترجمة، ومن ناحية أخرى طمأن القراء على أن ترجمته هي الواضحة الصحيحة التي يعوّل عليها.

ولقد سئل عادل زعيتر غير مرّة: لِمَ لا تؤلّف عوضاً عن أن تترجم؟ فأنت تملك جميع أدوات البحث والدرس والاستقصاء، ثم إنك في التأليف تعفي نفسك من جريرة الآراء التي يذهب إليها المؤلفون الأجانب ولا سيما حين يتصدّون لتاريخ العرب أو عقائدهم أو فلسفاتهم أو حضارتهم؟ وكان عادل زعيتر يقول ـ وبروح من التواضع ـ لو كنت أجيد التأليف بمثل ما أجاده هؤلاء المؤلفون الغربيون، لآثرت طريق التأليف. فالعبرة بالمادة النفيسة سواء أكانت مترجمة أم مؤلّفة. ثم إن الترجمة لا تقلّ إبداعاً عن التأليف، فهي عمل تحتشد له القريحة والموهبة والدراية الموسوعية، ومن الخطأ النظر إلى الترجمة باعتبارها عملاً آلياً يقدم عليه كل من عرف لغتين.

ويؤكد عادل زعيتر في معظم ترجماته بأنها ترجمة حرفية، إلّا في حالات قليلة أشار فيها إلى أنه تجوّز تجوّزاً يسيراً في النقل لاعتبارات ارتآها وفرضت نفسها عليه فرضاً. وقد عَنَّ لي أن أقوم بمضاهاة بعض الفصول من ترجمة عادل

زعيتر لكتاب «النيل» مع الترجمة الإنكليزية لهذا الكتاب عينه التي أعدّتها ماري لندزاي Mary H.Lindsay وهي قطعاً مقارنة ظالمة لأن عادل زعيتر نقل عن الفرنسية في حين نقلت ماري لندزاي عن الألمانية ولا مناص من وقوع تفاوت في النقل بين النصين المترجمين، فألفيت عادل زعيتر يتصرّف في الترجمة تأخيراً وتقديماً، ويضيف من عندياته عباراتٍ وصفية أو شاعرية تزيد الأسلوب حسناً، كقوله عن النيل إنه «مبارك الغدوات ميمون الروحات» أو قوله عن مصر «فبينما مصرُ لؤلؤة بيضاء، فإذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زمردّة خضراء، فإذا هي ديباجةٌ رقشاء»، وهي محسّناتٌ لفظية تضيف إلى الترجمة بُعداً شاعرياً جمالياً وتجعلها قطعة من الأدب المصفى.

والنصوص التي ترجمها عادل زعيتر تحتمل مثل هذا التصرّف المقبول، لأنها ليست من قبيل العقودِ القانونية التي تقيّد المترجم بالحرفية الباغية، ولا هي من شاكلةِ الاتفاقيات التي تبرم بين الدول والتي تُصاغ بعباراتٍ اصطلاحية ليس منها فكاك. فالمترجم الأدبيّ، كعادل زعيتر، يحتشد للترجمة بكل حصيلته الأدبية واللغوية والبلاغية، وليس عليه لوم أو تثريب إذا ما حوّل النص الجاف المنقول من مادةٍ تاريخيةٍ أو جغرافيةٍ ثقيلةٍ إلى أثرٍ أدبي رفيع يحكي كتاباتِ بُلغاءِ العرب. والمهمّ ألا يجور اللفظ الإنشائيُّ على المعنى الدقيق، وأن تكون أمانةُ النقل هي ديدنُ الناقل في إنجاز عمله، ولا سيما لأن قارئ الترجمة باللغة العربية قد يقنع بها، إمّا لجهله اللغة الأجنبية المنقول عنها، أو لأن النصّ الفرنجي ليس في متناوله. فالترجمةُ بالنسبة للقارئ العربي هي إذن السبيلُ، وربما الوحيد، إلى معرفة آراء المؤلف، أو إلى الاستشهاد بها اطمئناناً من القارئ إلى أن المترجمَ قد توخّى الأمانة الكاملة في النقل.

والذي يعمل بالترجمة لا بدّ أن يتحلّى بما يمكن أن يُطلق عليه اسمُ «ضمير المترجم»، وهو الذي يجعله يبذل أقصى الجهد حتى لا يقع في ما يطلق عليه الإيطاليون عبارة «الترجمة خيانة». فالمترجم الأصيل ذو الرسالة كعادل زعيتر لا يخون القارئ الذي وثق به، ولا يخون النصّ الذي ينقل عنه، وإنّما يؤدّي رسالته بأقصى قدرٍ من الأمانة ويقظة الضمير. وإذا كان هناك ناشرون لا يطمئنون إلى ترجمة نصٍ إلّا بعد عرضه على مراجعٍ يسجّلُ اسمهُ على غلاف الكتاب، فإن عادل زعيتر قد حمل عن نفسه عبء المراجعة وخرج إلى القارئ متحمّلاً بمفرده

المسؤولية الكاملة عن عمله. بل لقد قال لي مرّةً: إن عبارة «مراجعة فلان» التي يُقصدُ بها طمأنة القارئ على دقّةِ الترجمة وصحتها إنما تلقي بظلالٍ كثيفةٍ من الشك على أهلية المترجم نفسه، لأنها تعني أن عمله منقوص ولا بدّ من استكماله بالمراجعة، ومَنْ يدري، فقد تحتاج هذه المراجعة إلى مراجعةٍ تالية للتثبتِ من أن المراجع لم يُفلتْ منه شيء.

وللمرء أن يسأل عن مكوّنات المترجم الكفء، وكيف استطاع عادل زعيتر أن يبلغ الشأو الذي بلغه في الترجمة وهو أصلاً من رجال القانون وصناعتُه المحاماةُ وتدريسُ الحقوق على المستوى الجامعي؟ وفي الردِّ على هذا التساؤل نقول: إن الترجمة ـ حتّى وإن دُرست في معاهد متخصصة لا تُسْلس قيادَها للمترجم إلّا إذا استكمل أدواتِه، وهي تتحصّل في الموهبة أولاً، ثم في رحابة الثقافة ثانياً، ثم في إتقان اللغات التي يشتغل بها ثالثاً، ثم في الممارسة العملية الدؤوبة مع الانتفاع بملاحظات النقّاد رابعاً، ثم في الاستمساك بمبدأ «ضمير المترجم» الذي يُلزِمُهُ الأمانة في العمل، والصرامة الجادة في أدائه خامساً، ثم في معرفته بفنون البلاغة الأسلوبية التي تكفل للمترجم مستوى رفيعاً من حيث فصاحة اللغة سادساً، يضاف إلى هذا جميعه قدرة المترجم على سكّ المصطلحات بعبارة سائغة كلّما اعترضه شيء منها. وأشهد أن عادل زعيتر قد دانت له جميع هذه العناصر، فهانت عليه مهمته على الرغم من صعوبتها، واستطاع بين عامي ١٩٢٤ و١٩٥٧ أن يترجم نحو أربعين كتاباً من أضخم الكتب حجماً وأغزرها مادّة، وما كان هذا ليتأتى له لولا أنه ألزم نفسه بصرامةٍ منهجية، وتفرّغ لعمله الذي كان ينفق عليه أكثر مما كان يكسب منه، تاركاً المحاماة ـ وهي عمل ربيح. كنت أراه يقيم في فندق شبرد الشهير ـ قبل احتراقه ـ شهراً بعد شهر للإشراف على طبع كتبه، فأسأله: وهل تعوضك كتبك عن النفقات التي يتقاضاك الفندق إياها؟ فكان يقول: ومنذ متى كان المال رائدي وقائدي في الحياة؟ حسبي أن أخدم أمّتي بما أنقله من نفائس المدوّنات، وهذا هو الجزاء الأوفى للعمل الذي أضطلع به.

والأخطاء المطبعية هي آفة فاشية قلّ أن يسلم منها كتاب عربيّ. ولكن عادل زعيتر كان ينبري بنفسه لمراجعة تجارب كتبه مرتين وثلاثاً اجتناباً للخطأ الذي كان يعدّه جنايةً لا تغتفر. شهدت مرّةً نقاشاً حاداً جرى بينه وبين شفيق

متري صاحب دار المعارف. فقد اكتشف عادل زعيتر بعد طبع ملازم كتاب «البحر المتوسط» ـ وهو في ٩٠٠ صفحة ـ أن هناك اثنتي عشرة غلطة مطبعية أفلتت من المراجعات المتكررة، فأصرّ على إثبات لائحة بهذه الأخطاء في نهاية الكتاب ـ ولكن شفيق متري أصرّ بدوره على عدم إثبات هذه اللائحة قائلاً إن فيها ما يسيء إلى سمعة دار المعارف التي اشتهرت بالدقة المطلقة في جميع كتبها. ولكن عادل زعيتر لم يقنع بهذه الحجة وأكّد أن تصحيح الخطأ المطبعي هو مسؤولية يتحمّلها أمام القراء. وارتضى الطرفان بعد أخذٍ وردٍ طويلين أن تنشر لائحة التصويبات مصدّرةً بعبارة تقول: إن أغاليط قليلة ظهرت في هذا الكتاب الضخم الذي طبع بإشراف عادل زعيتر نفسه في خمسة أسابيع، الذي أبدى اعتذاره لدار المعارف وسجل لها شكره. فتحمّل بذلك وزر الأخطاء المطبعية وأعفى الناشر من تبعاتها.

وصفوة القول: إن عادل زعيتر يمثّل ظاهرةً فريدة في حركة الترجمة المعاصرة، وإن أي تقييم منصف لدوره في الترجمة لا بدّ أن ينوّله أعلى مراتبها، فهو في هذا الميدان قد انتبذ لنفسه مكاناً سامقاً يكاد يتأبّى على المقارنة مع غيره من المترجمين. ولا غرو، فقد كان ـ كما قلت في بداية هذا الحديث ـ مترجماً ذا رسالة.

❁ ❁ ❁

عادل الغضبان

التقيت بعادل الغضبان للمرة الأولى في مكتبة المعارف في مبناها القديم بشارع الفجالة بالقاهرة قبل أن تنتقل إلى مبناها الجديد على كورنيش النيل في حي ماسپيرو حيث صارت تعرف بدار المعارف، وحيث اتخذت لها شعاراً هو «اطلب المعارف من دار المعارف». وكان الغضبان وقتها ـ في حدود عام ١٩٤٤ ـ شاباً يزاول في الدار عملاً كتابياً مع زميل له اسمه يوسف شحاتة دفعه طموحه إلى الاستقلال بدار أطلق عليها اسم «دار العالم العربي» وأصدر عنها مجلة شهرية عنوانها «العالم العربي»، ولكن الداء العضال اقتضب عمره، وآلت ملكية الدار إلى شريك له. أما عادل الغضبان فارتبط طوال عمره ومنذ عام ١٩٤١ بدار المعارف وصارت الدار تعرف بأكبر علمين في صناعة النشر، هما شفيق متري (ت١٩٩٤) نجل نجيب متري (ت١٩٢٨) مؤسس الدار، وعادل الغضبان، وهو أفقه مَنْ عرفته دور النشر بالقيمة الحقيقية للمؤلفات والمصنفات أياً كان موضوعها.

كان عادل الغضبان في مقتبل عمره شاباً جميل الصورة، طلق المحيا، رخيم الصوت، عذب اللسان، يلقاك بكثير من الودّ، ويرحّب بك في مكتبه المتواضع قبل أن تصبح الفخامة سمة من السمات الجوهرية في المكاتب، وقبل أن يصبح «الديكور» لازمةً من لوازم الأبهة والوجاهة. وسرعان ما اكتشف شفيق متري صاحب الدار أن لعادل الغضبان من كفاءاته المتعددة، ومن فضائله الخلقية الكثار ما يرشحه لأكبر من هذه الوظيفة المكتبية، فاختاره مشرفاً ثقافياً على مطبوعات الدار في عهدها الذي أصبح بفضله عهداً زاهراً، وصار صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في تقرير ما تنشره الدار من الكتب بموضوعاتها المتباينة، بما في ذلك كتب التراث الضخام بأجزائها التي تُربي أحياناً على العشرين.

ومن التخرصّات المستهجنة ما كنت قرأته لزيد من الناس ـ وقد نسيت اسمه

الآن ـ زاعماً أن عادل الغضبان كان مجرّد عامل في مطبعة دار المعارف، ويبدو أن النجاح يورث الحقد ويغري اللئام بالافتئات على الحقائق، وما أصدق ما وصفهم به الشاعر المهجري إلياس فرحات (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦) حيث قال:

وَإِذَا الكَرِيْمُ مَدَحْتَهُ بِقَصِيْدَةٍ قَرَأَ اللَّئِيْمُ الذَمُّ في أَبْيَاتِهَا

أما المرّة الأخيرة التي رأيت فيها عادل الغضبان فكانت بالقرب من دار المعارف في مقرها الجديد، وكان قد أصيب في العصب السادس ممّا شوّه وجهه، كما كان يتحامل على نفسه في المشي وهو يهمّ بركوب سيارته، فلم أشأ أن أعترض سبيله خشية ألّا يتمكن من الاحتفاظ بتوازنه، وكانت هذه إمارات مرض الفالج الذي ابتلي به في شيخوخته المبكرة، وعجبت له وهو في هذه الحال التي تبعث على الرثاء يواصل عمله في الدار أداء للواجب المترتّب عليه، فالبدن عليل ولكن الذهن يقظ، فليغالب المرض ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

يقول عادل حكمت الغضبان ـ وهذا هو اسمه الكامل ـ إنه ولد في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٠٥ بالتقويم الرومي الذي يقابل عام ١٩٠٨ بالتقويم الميلادي، وذلك في مدينة مرسين التي كانت وقتها تابعة لمحافظة حلب قبل أن تستولي عليها تركية. وكان والده ضابطاً في الجيش التركي. والتحق في بادئ الأمر بمدرسة ابتدائية في حلب، قبل أن تنزح أسرته إلى مصر وهو ما زال صبياً، وفيها ألحق بمدرسة العائلة المقدسة (الجزويت) بالقاهرة التي كانت قلعةً للغتين العربية والفرنسية بفضل مديرها الأب جبرائيل العقيقي، فأظهر عادل الغضبان تفوقاً واضحاً في اللغتين، حتى إذا ما ظفر بشهادة البكالوريا عيّنه الأب العقيقي مدرِّساً للغة العربية في المدرسة، ولا سيما لأن عادل الغضبان لم يكن يقنع طوال سني الدراسة بمتابعة المقررات، بل كان يطالع كذلك أمهات الكتب العربية ودواوين الشعراء، وشرع في هذه السن الصغيرة في نظم الشعر على سُنّة الخليل بن أحمد.

وكان التفرّغ للتدريس يقتضيه بذل جهودٍ تتصّل حتّى بعد انتهاء اليوم المدرسي، ولهذا ارتضى الانتقال إلى وظيفة متواضعة في سكة الحديد المصرية، وأسند إليه فيها عمل الترجمة، وكانت مصر في ذلك الوقت خاضعة للاستعمار البريطاني الذي أنشأ محاكم مختلطة كي يحاكم أمامها الأجانب المتمتعون

بامتيازات تحميهم من المثول أمام المحاكم المصرية والقضاة المصريين، وهي محاكم ألغيت في ما بعد عند إلغاء الامتيازات الأجنبية في عام ١٩٣٦. فالتحق عادل الغضبان بهذه المحاكم مترجماً بفضل إجادته للغتين العربية والفرنسية، وكان قد تابع دروساً في القانون في مدرسة الحقوق الفرنسية للتضلّع من المصطلحات القانونية.

وبعد حلّ المحاكم المختلطة، التحق عادل الغضبان بدار المعارف التي أصبحت كلّ دنياه، والتي اقترن اسمه بها وبكل ما حققته من سمعة ضخمة على الصعيدين العربي والعالمي إلى أن تقاعد تحت وطأة المرض، ولقي وجه ربه في الحادي عشر من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٢.

أما مآثر عادل الغضبان في دار المعارف فكثيرة، فهو صاحب فكرة إصدار السلاسل المختلفة مثل «اقرأ» و«نوابغ الفكر العربي» و«نوابغ الفكر الغربي» و«أعلام التاريخ» و«ذخائر العرب» و«أولادنا»، وكذلك فكرة إصدار مجلة «سندباد» للأطفال التي رأس تحريرها محمد سعيد العريان (١٩٠٥ ـ ١٩٦٤). وهو الذي رأس تحرير مجلة «الكتاب» الشهرية التي استمرت تصدر بانتظام منذ عددها الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٥ وإلى آخر أعدادها في عام ١٩٥٣. ومن المصادفات التي لا أحاول تعليلها أن جميع مجلاتنا الأدبية «كالمقتطف» و«الرسالة» و«الثقافة» و«الكاتب المصري» و«الكتاب» و«مجلة علم النفس» كانت على موعدٍ مع عام ١٩٥٢ أو بعده بقليل، فاحتجبت جميعاً في هذا التوقيت الملغز!.

وكان الإشراف على ما تنشره الدار يقتضيه أن يطالع بنفسه كل نصّ يقدم للنشر، سواء أُجيز أو لم يُجز، فجاء هذا كله على حساب الطاقة الأدبية للغضبان نفسه، إذ كان يقول لي إنه يفضل نشر كتب الآخرين على نشر كتبه الخاصة. ولهذا قلّ إنتاجه الأدبي المنشور، وبقي إنتاج كثير مخطوطاً. ومن كتبه المنشورة كتاب «الشيخ نجيب الحداد» وقصة «ليلى العفيفة» ومسرحية «أحمس الأول» وملحمة «من وحي الإسكندرية» وهي ملحمة من نفس البحر والوزن والقافية وقعت في ١٨٧ بيتاً سجل فيها تاريخ الإسكندرية منذ عهد منشئها الإسكندر المقدوني وحتى العهد الحالي. كما ترجم مجموعة من الكتب مثل «الزنبقة السوداء» و«دون كيشوت» و«الأميرة والفقير» و«تربية البنات» من تأليف فينلون.

وأصدر كتباً للأطفال والناشئة، كما ألف كتباً مدرسية في أصول النحو والصرف مع زميله فايد العمروسي (ت ١٩٧٦). وخلّف ديواناً مخطوطاً أسماه «قيثارة العمر» لم ينشر حتى اليوم. وكنت أحثّه على نشره في حياته خشية ضياعه، ولكنه كان يعتذر بقوله إن مهامه الأدبية الجسام تحدوه إلى إرجاء ذلك.

وفي عام ١٩٦٨، وكانت انكشاريات الحياة قد صيرتني بلا عمل - أسرّ إليّ الغضبان بأنه في حاجة ماسّة إلى مساعد يحمل عنه بعض أعباء عمله، وزيّن لي أن أتقدم بطلب إلى مدير الدار (وكانت قد خضعت للتأميم) للعمل فيها قائلاً إنه سيزكي هذا الطلب. ولكن مدير الدار (وكان يعرفني من سنوات طويلة) أجابني بأنه سينظر في طلبي عندما تنفذ الدار مشروعاتها التوسعية! ولهذا قبلت أول عرض جاءني من خارج مصر، وسافرت دون أن انتظر مشروعاته التوسعية.

كان عادل الغضبان مشاركاً بكثافة في الأنشطة الثقافية، وكان يدعوني دائماً لحضور ما يلقيه من محاضرات، وهي متعة كنت أحرص عليها وعلى الاستزادة منها لأنه محاضر من الطراز الأول، يحترم نفسه ويحترم سامعيه، فيجتهد في تقديم دراسات عميقة لكل موضوع ينبري لبحثه، وكان إلقاؤه يشدّ السامعين فلا يستشعرون مللاً، حتى وإن كان المستمعون من السيدات والأوانس. وفي أسلوبه شعرية تستهوي عشاق اللغة. ولا غرو أن يقول عباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) عن عادل الغضبان «إني لأعجب لهذا الشاعر. خريج الجزويت الذي يملك ديباجةً عربية قلّ أن يملكها خريج الأزهر». ونقل محمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ - ١٩٨٥) عن شيخ العروبة أحمد زكي باشا (١٨٦٠ - ١٩٣٤) قوله بعدما أصغي إلى محاضرة للغضبان حلّل فيها مسرحية «مجنون ليلى» للشاعر أحمد شوقي (١٨٦٩ - ١٩٣٢) «والله لو سمعت المحاضر من وراء حجاب، لما تشككت قط في أنه أحد شيوخ الأزهر العظام».

وكان عادل الغضبان ينتدب نفسه لتكريم كل أديب يزور مصر، وقد شهدت في بيته الأنيق (وكان وقتها مواجهاً لبيتي) حفلات أقامها لتكريم الشاعر المهجري رشيد سليم الخوري الملقب بالشاعر القروي (١٨٨٧ - ١٩٨٤) والشاعر المهجري إلياس فرحات، والأديب المهجري نظير زيتون (١٨٩٦ - ١٩٦٧) وأيضاً اثنين من «بلدياته» في حلب هما سامي الكيالي (١٨٩٨ - ١٩٧٣) صاحب مجلة «الحديث» وعبد الله يوركي حلاق (١٩١١ - ١٩٩٦) صاحب مجلة «الضاد».

أما خزانة الكتب الخاصة بعادل الغضبان فقد كانت بدعاً في تنسيقها، إذ كان يجلّد الكتب تجليداً فاخراً بألوان تختلف باختلاف موضوع كل كتاب، فالدواين والدراسات الشعرية تجلد بلون، وكتب التراث بلون آخر، وكتب الدراسات الأدبية بلون ثالث، وكتب العلوم بلون رابع، وهلم جرا. وكان اعتزازه بهذه الخزانة كبيراً، ولهذا أهدتها زوجته المتفرنسة (السيدة إيڤون) بعد وفاته إلى إحدى الجمعيات الثقافية الخاصة مع التوصية بالإبقاء عليها كوحدة واحدة. فلم يكن للغضبان ولد يحمل اسمه ويستبقي آثاره.

ولأن ديوان عادل الغضبان بقي مخطوطاً، وتناثرت قصائده في مجلات العالم العربي، فإن كثيراً من دارسي الشعر يغفلون الإشارة إليه مع أنه كان شاعراً متمكن الأداة متين الديباجة حلو المعاني. وعندما زرت مدينة حلب الشهباء مؤخراً، وجدت الناس هناك يتغنون بقول عادل الغضبان في وصف مدينتهم:

نُثِرَتْ عَلَىٰ جَنَبَاتِكَ الشُّهْبُ فَدُعِيْتُ بالشَّهْبَاءِ يَا حَلَبُ
أَنْتِ العَرُوسُ أَتَمَّ جَلْوَتَهَا هذا الإِزَارُ الأَبْيَضُ العَجَبُ

ولأن عادل الغضبان كان يتمتع بشخصية ودودة محببّة جمعت حوله كثيراً من الشعراء ومحبيّ الأدب، فقد تراءى ذلك في قصائد كثيرة اشتملت على مطارحات له مع أنداده، وعلى تحية لهم في المناسبات الأدبية، وعلى تذكير بفضلهم في مناسبات التكريم والتأبين على حدٍ سواء، فضلاً عن المعارضات التي كانت تتحدى شاعريّته فيستجيب لها مسخّراً هذه الشاعرية الخصبة في خوض هذا السباق.

ومن قبيل التمثيل على هذه المعارضات، أذكر أن الشاعر المهجري جورج صيدح (١٨٩٣ ـ ١٩٧٨)، وقد هزّته فجيعة النكبة النكباء في عام ١٩٦٧، قرأ مقالاً لكاتب عنوانه «واشكيباه» قال فيه: أين شكيب أرسلان (١٨٦٩ ـ ١٩٤٦) يطلق الصرخات، فتتألب على صوته الشعوب الإسلامية»، فنظم قصيدة متفجرّة مطلعها:

رِمَمٌ نَحْنُ، دَعْ شَكِيْباً وَهَمَّهْ قَاصِفُ الرَّعْدِ لا يُحَرِّكُ رِمَّهْ

وختمها بقوله:

يا حقُوْقَ الإنسانِ لا تَشْمَلِيْنَا نَحْنُ قومٌ نَبِيْعُ حَقّاً بِلُقْمَهْ

ولم يكد عادل الغضبان يتلقى صورة من هذه القصيدة من صديقه صيدح، حتّى عارضه بقصيدة طويلة من نفس البحر والوزن والقافية والعنوان أيضاً مطلعها:

صيدحَ الأيكِ، تلكَ أغْرَبُ نَغْمَهْ ... سامَتْ العُرْبَ تُهْمَةً أيَّ تُهْمَهْ
وأحَالَتْهُمُو عِظاماً رَمِيْماً ... غَطَّتِ الأرْضَ رمّةً جَنْبَ رِمَّهْ

وختمها بروحٍ متفائلة حيث قال:

فَغَداً تَنْعَمُ البِلَادُ بِعَهْدٍ ... تُشْرِقُ الشَّمْسُ فيه مِنْ بَعْدِ ظُلْمَةْ

وللغضبان معارضات كثيرة ستظل مجهولة إلى أن يتأتّى لديوانه المخطوط الموسوم «قيثارة العمر» أن ينشر بعد ما يضاف إليه ما تناثر من شعره في بطون المجلات المصرية والعربية.

وإذا كان الشاعر قد حمل اسم «الغضبان» فقد كانت هذه الصفة أبعد ما تكون عن حقيقته، إذ كان رضيّ النفس، محبّب الشخصية، إنسانيّ النزعة، كثير المجاملات، مقبلاً على الناس وعلى الدنيا. ولا ريب في أنه كان من أعظم حرّاس الضاد، يذبّ المخاطر عن حصونها وينشر على الناس مفاتنها ويرفع دائماً ألوية القيم العربية الأصيلة، ومن عجب أنه لم ينتخب عضواً في أي مجمع عربي.

❁ ❁ ❁

عباس محمود العقاد

أطلق الزعيم المصري سعد زغلول باشا (١٨٥٩ ـ ١٩٢٧) على عباس محمود العقاد لقب «الكاتب الجبّار»، ووقف العقاد في مجلس النواب قائلاً إنه «يحطم أكبر رأس»، فانطبعت في ذهني صورة منفِّرة للعقّاد، ولا سيما لأنني كنت عرفت صديق عمره إبراهيم عبد القادر المازني (١٨٩٠ ـ ١٩٤٩) فألفيته على النقيض من ذلك تماماً، فهو رجل ودود باسم، خفيض الصوت، لا يتعالى ولا يتشامخ، فيه كثير من التواضع ودعة النفس. ولهذا طردت الرغبة في غشيان ندوة العقاد الأسبوعية التي كان يعقدها في منزله في ضاحية مصر الجديدة خشية أن يعمل فيَّ جبروته أو يُحطّم رأسي ـ وإن لم يكن أكبر الرؤوس! بل تعمّدت في إحدى المناسبات أن أمدحه بأسلوب الذمّ، أو أذّمة في قالب المدح، فوصفته في مقال منشور بأنه «دودة في القراءة» book worm، وهي «دودة» تجهز على كل كتاب تلقاه في طريقها. وكان العقّاد بالتالي محذوفاً من اهتماماتي بشخصه، وإنْ تابعت كتاباته المنتظمة في «رسالة» الزيات وغيرها من المجلات الأدبية، كما تابعت أحاديثه الإذاعية التي كان يبدؤها بقوله «حضرات السادة والسيدات» مخالفاً العرف المتبّع في تقديم السيدات على السادة. وقرأت كتبه السّيارة مثل «في بيتي» و«سارّة» و«اللغة الشاعرة» و«هذه الشجرة» وغيرها. وتابعت معركته مع مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ ـ ١٩٣٧) الذي وضع العقاد «على السفّود»، وقرأت كتاب «رسائل النقد» الدكتور رمزي مفتاح (توفي في ٢٣ يوليو ١٩٧٧) الذي أخضع فيه العقّاد للتحليل النفسي واستنبط من التحليل نتائج تنتقص من العقاد، كما تابعت معارك العقاد مع الشيخ أمين الخولي (١٨٩٥ ـ ١٩٦٦) وزوجة الدكتورة بنت الشاطئ (١٩١٣ ـ ١٩٩٨) التي خرجت عن نطاقها العلمي إلى نطاق التجريح الشخصي. وكنت قبل ذلك قد قرأت كتاب «الديوان» الذي وقفه العقاد على هدم الشاعر أحمد شوقي (١٨٦٨ ـ ١٩٣٢).

ومن هنا التمستُ السلامة في البعد عن هذا الجبّار العملاق الذي دأبه

التحطيم والبطش بلا هوادة! ولم أقتنع بزيارة ندوته الأسبوعية إلّا بعد إلحاح من صديقي الشيخ محمود أبي ريّة (١٨٨٩ ـ ١٩٧٠) الذي تواعد معي على حضور الندوة ذات يوم جمعة. ولمّا أبديت له مخاوفي شجّعني بقوله: إن العقّاد يعرف عني تعصبي لمصطفى صادق الرافعي الذي نشرت رسائله، وهو مع ذلك يحتفي بي ولا يعاملني بموجدة.

وكانت صورة بيت العقاد ما زالت مرتسمةً في ذهني منذ ما قرأت كتابه الجميل «في بيتي»، وأحببت أن أتبيّن بنفسي مدى الصدق في هذه الصورة، فجاء الواقع من خلال زيارتي الأولى مصدقاً للصورة. وقفنا بالباب ـ وكان مفتوحاً ـ فتقدم العقاد بنفسه بقامته الفارعة وهو مرتدٍ ثياب البيت (البيجامة ـ أو المنامة كما كان محمود تيمور يسمّيها) وعلى رأسه قلنسوة وحول عنقه الكوفية العتيدة. فرحّب بنا، وقدمني أبو ريّة إليه فكرّر المصافحة والتحية بحرارة. وجلسنا في قاعة صغيرة متواضعة الأثاث، امتلأت بالحاضرين ـ وأغلبهم من شبيبة الجامعات والأزهر ـ ودرت بعينيّ في القاعة فلمحت أدباء أعرفهم بأشخاصهم وآخرين أعرفهم بأسمائهم، منهم: علي أدهم، وعبد الرحمن صدقي، ومحمد طاهر الجبلاوي، والدكتور عثمان أمين، والدكتور زكي نجيب محمود، والدكتور نظمي لوقا وزوجته الأديبة صوفي عبد الله، والعوضي الوكيل، ومحمود غنيم، ومحمد خليفة التونسي، وأنيس منصور، وعبد الحي دياب (ولم يكن قد «تدكتر» بعد) والشاعرة روحية القليني.

وكان العقّاد يجلس على أريكة في صدارة القاعة تتسّع لاثنين آخرين يدعوهما إلى الجلوس إلى جواره. يوجه إليه الحاضرون أسئلتهم أو استفساراتهم في أي موضوع، فيتبسّط في الردّ على كل سؤال في تدفّق مُعْجِب، والكل مُصيخ لهذا الأستاذ الذي يرتجل الحكمة في غير افتعال أو ادّعاء. وفي هذه الأثناء كان خادمه يطوف بالحاضرين يوزع عليهم أقداح العصير، ثم يثنّي بأقداح القهوة والعقّاد يهشّ ويبّش لضيوفه جميعاً حتّى الأصاغر من الطلاب وناشئة الأدب. والحقيقة أنني خرجت من هذا اللقاء الأوّل وأنا في ذهول من أمر هذا «الجبّار» الذي يعامل الناس بهذه الرحابة وسعة الصدر مع رقّةٍ غير متكلفّة.

كان هذا هو أوّل لقاء لي مع العقاد «بشحمه ولحمه» في بيته وعلى سجيّته، فتهاوت الصورة القديمة التي انطبعت في ذهني عنه، ولا سيّما بعدما تكرّرت

زياراتي لندواته، وصار يعرفني بالاسم ويجاملني بعبارات كريمة إذ كانت كتاباتي في الصحف من جملة مطالعاته.

ومع هذه الرقّة التي يألفها في العقّاد كل من اقترب منه، فقد كان عنيداً في رأيه لا يغيّره مهما تغيّرت الظروف. سألته ذات مرة: هل غيّر رأيه في الشاعر شوقي بعد كل هذه السنين؟ فأجاب: لم أغيّره ولن أغيّره. لقد كان شوقي - برغم أرستقراطيته - رجلاً يفتقر إلى الخلق، إذ كان يستأجر من يهاجمونني في الصحف عوضاً عن أن يبارزني بنفسه. وأنا لا أفصل بين أدب الشخص وخلقه. وما دامت تلك هي صفاته، فهو يستحق كلّ ما كِلْتُهُ له من انتقادات بل أكثر منها.

والحقيقة أن العقاد لم يكن يخوض معارك الأدب إلّا بعدما يُستفزّ، وإلّا إذا كان المستفزّون من ذوي المكانة الأدبية، أما الشبّان، الذين كانوا يهاجمونه في الصحف الخارجية - لاطمئنانهم إلى أن العقّاد لن يطّلع عليها في حين أنني كنت أوافيه تباعاً بجزازات منها! فكان يصفهم بقوله: «إنهم عيال أدب» وهو لا يحفل بالعيال! كما أنه يستنكف من الرد عليهم.

استهدف العقاد في فترات متقاربة لناقدين ثلاثة هم: محمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ - ١٩٨٥)، والدكتور عمر فروخ (١٩٠٦ - ١٩٨٧)، وعبد الله المشنوق، فكتب في مجلة «الرسالة» (العدد ٦٨١ بتاريخ ٢٢ تموز/يوليو ١٩٤٦) مقالة في الردّ عليهم بعنوان «حقوق المناقشة». أخذ عليه عبد الغني حسن أنه يعقد شبهاً بين كبار الشعراء في العالم وشعراء العربية، واستهول من العقاد هذه المقارنة. فردّ عليه العقاد بقوله: «إن تحقيق الملكة الشعرية لا يكون بالرجوع إلى صغار الشعراء ولا أوساط الشعراء... ولا سبيل إلى التحقّق من الملكة المطبوعة إلّا إذا عرضناها على كبار الشعراء في العالم كله».

أما الدكتور عمر فروّخ فقد نعى على العقاد أنه في حديثه عن الشاعر ابن الرومي غفل عن طبيعة علم الاجتماع، وفاته كثير من حقائق التاريخ وأساس الأدب». فقسا العقاد في ردّه عليه قائلاً عن الدكتور فروخ: «لعلّه من أصحاب العلم والأدب بالرُّخَص الأمريكانية أو الفرنسوية (يعني شهادات الدكتوراه) التي ابتلي بها الشرق العربي في الزمن الأخير... لقد افترى علينا ذلك الفروخ بما شئت لاسمه من تقديم أو تأخير في الحروف... هذا الغِرّ قد رفع مقرعة المعلّم

على رؤوسنا... هذا الفروخ الجهول معلّمنا نحن المتأدبين....» إلى آخر هذا الأسلوب الساخر.

أما عبد الله المشنوق، محرر جريدة «بيروت المساء» والوزير اللبناني الأسبق، فقد كتب مقالاً قال فيه: «إذا بعباس محمود العقاد يترك ابن الرومي ونتشة والعبقريات ليكتب في كل موضوع كخادمة المنزل التي تصلح لجميع الغرف»! وقد ردّ عليه العقاد بقوله: «العقاد ملوم إذا كتب في موضوع واحد. والعقاد ملوم إذا كتب في أكثر من موضوع. والعقاد مكذوب عليه لأنه لا يزال يكتب عن أبي الشهداء.... إلخ. لا يا عبد الله. ما هكذا تكون الأشياء. ليس للعقاد خادمة في كل غرفة حائمة، بل هو سيّد في نعمة دائمة، له في كل غرفة مائدة، وعلى كل مائدة حلوق طاعمة. ولكنه لا يفتح حلوق المشانيق لأنها حلوق صائمة. ليس لها في القائمة حساب، ولا لها في الحساب قائمة»! وهكذا أخذ العقاد بتأثره من مهاجميه.

مضت على نشر هذا المقال أربعون سنة كاملة عندما قابلت الدكتور عمر فروّخ للمرة الأخيرة أثناء المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية في القاهرة، وكان قد انتخب عضواً فيه إلى جانب العقّاد. فقلت له: هل تغضب منّي إذا ذكّرتك بحكاية قديمة؟ فقال: كلّا.... ما هي. فقلت: أتذكر ما كتبه العقّاد عنك في مجلة الرسالة، وكان من جملة ما قاله عنك «ذلك الفروّخ بما شئت لاسمه من تقديم أو تأخير في الحروف»؟ فقال: نعم أذكره ولم أنسه. ثم استطرد فقال: عندما اختارني إخواننا المصريون عضواً في مجمعهم، كان أوّل ما تبادر إلى ذهني هو العقّاد وكيف يكون لقائي معه وتعاملي وإياه. وخشيت أن أصطدم به بسبب هذا الثأر القديم، أو أن يعاملني بجفوة وخشونة متذكراً ما كان من انتقادي له في الماضي، ولكن العجيب أن العقّاد عاملني بمنتهى الودّ، وأظهر لي التقدير دائماً، وجاملني في مواقف كثيرة، وكان في كثير من الأحوال ينحاز إلى رأيي في المناقشات، فإنْ خالفه توخّى الرفق. ولم يحدث مرة واحدة أن تجهّم في وجهي أو حمل في نفسه ضغينة بإزائي... فقلت للدكتور فروخ: هذه هي الأخلاق الأصيلة للعقاد المأثورة عن «الصعايدة» ولا سيما أبناء أسوان.

وكنت نشرت في مجلة «الرسالة» (العدد ٧٩٥ بتاريخ ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٩٤٨) مقالاً عنوانه «الجامعة والأساتذة» رويت فيه أن معهد التحرير والترجمة

والصحافة في جامعة فؤاد الأول بعمادة الدكتور محمود عزمي (١٨٨٩ ـ ١٩٥٤) فكّر في الاستعانة ببعض كبار الصحفيين من الخارج للاشتراك في موسم محاضرات المعهد. وأعدّ العميد قائمة بأسماء الأعلام الصحفيين الذين يود دعوتهم ومنهم عباس محمود العقاد وفؤاد صروف (١٩٠٠ ـ ١٩٨٥) وكريم ثابت (١٩٠٣ ـ ١٩٦٤) وسلامة موسى (١٨٨٧ ـ ١٩٥٨) وغيرهم. فاعترض المسؤولون على هذه الأسماء قائلين: إن أصحابها لا يحملون مؤهلات جامعية معترفاً بها. ثم قلت: إن العقّاد يكفيه أن يقدّم كتاباً من كتبه ـ بغير اختيار ـ إلى الجامعة لينال عليه درجة الدكتوراه.

وكان الزيّات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨) يقضي معظم وقته في ضيعته في المنصورة تاركاً مجلة «الرسالة» في عُهْدة محررَيْن فيها هما أنور المعدّاوي (١٩٢٠ ـ ١٩٦٥) ـ الذي كان يحرر باباً أسبوعياً عنوانه «تعقيبات» ـ وعباس خضر (١٩٠٨ ـ ١٩٧٣) ـ الذي كان يحرر بدوره باباً منتظماً عنوانه «الأدب والفن في أسبوع». وكان من عادة هذين الأديبيْن التحرّش بكبار الأدباء، مما يُنشئ وقيعةً بينهم وبين الزيات بوصفه صاحب المجلة. ورغب عباس خضر في التعليق على مقالي المذكور فكتب فذلكةً في بابه عنوانها «اجتماع بجوار كشك الموسيقى» قال فيها: «أذكر ما رأيته بعدد من جريدة (المؤيّد) يقع تاريخه قبيل سنة ١٩٠٨، فقد كنت أتصفّح أعدادها منذ سنوات بدار الكتب المصرية، فلمحت هذا التوقيع (عباس محمود العقاد) تحت أسطرٍ تتضمن دعوة الراسبين في الشهادة الابتدائية إلى الاجتماع بجوار كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية! وقال خضر: لعلّ التلميذ عباس محمود العقاد كان يريد بهذا الاجتماع أن يتزعم زملاءه للمطالبة بعقد امتحان ملحق لهم، وقد يكون الأمر غير ذلك. ولكن المعروف في تاريخ الأستاذ الكبير أنه لم يستمرّ في دراسة مدرسية بعد التعليم الابتدائي لحسن حظه! وحاول خضر بعد ذلك أن يسترضي العقاد، فنقل عنه عبارة قال فيها «وممّا أحمد الله عليه أن أساتذتي جميعاً قد اخترتهم بنفسي، ولم يفرضهم عليّ أحدٌ يملك سلطة التعيين والفصل. كانوا جميعاً مؤلفين مشهوداً لهم برسوخ القدم... أقرأ منهم مَنْ أشاء، وأُعرض عمن أشاء، وأطلبهم حين أريد وحيث أريد».

قرأ العقاد هذه الكلمة، فغضب، فكان هذا آخر عهده «بالرسالة» فلم يكتب فيها إلى أن احتجبت بعدما كان ينشر في صدارتها مقالاً كل أسبوعيْن.

وكانت بين العقاد وطه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) صداقة، لعل أدقّ وصف لها هو أنها «صداقة حذرة». صحيح أن طه حسين نادى في وقت من الأوقات بأن يستظل الشعراء بلواء العقاد ـ أي أن يعدّوه أميرهم ـ ولكنه تناسى هذه الدعوة عندما سئل بعد وفاة العقاد عن رأيه في كتب «العبقريات» فأجاب بقوله: إنه قرأها ولم يفهمها! ولو أن طه حسين صرّح بهذا في حياة العقاد لكان له معه وقفة عنيفة كدأبه.

وكانت تجمع بين العقاد وطه حسين عضوية مجمع اللغة العربية وعضوية المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، وكان من المقرر عقد اجتماع للمجلس الأعلى برياسة الوزير المختصّ، فتوجّه الأعضاء إلى مقر المجلس في الزمالك قبل الموعد المحدّد ليكونوا جميعاً في استقبال الوزير. ولكن الوزير تأخر عن موعد الاجتماع، فنظر العقّاد إلى ساعته وقال: لقد أزف الموعد ووجب افتتاح الجلسة، فليرأسها الدكتور طه حسين ويصرف الأعمال. فوجئ الدكتور طه بهذا الاقتراح، فتلبث قليلاً ثم طلب من العقّاد الانتظار برهة، فلعل كظّة المرور عطلت الوزير. فما كان من العقّاد إلّا أن حسم الأمر بقوله: إذن أتولّى أنا الرياسة وأفتتح الجلسة. وشرع في تسيير أمور المجلس حتّى إذا وصل الوزير متأخراً تنحّى له عن كرسي الرياسة. لقد كان العقاد رجلاً منضبطاً لا يهاب، وكان دقيقاً في مواعيده، يغلق بابه في وجه أي زائر ـ أياً كان ـ إذا تأخّر عن الموعد المضروب.

ومن آيات انضباطه بل جرأته أن مجمع اللغة العربية درج على إقامة حفل تأبين تقليدي لكل عضوٍ ينتقل إلى رحمة الله، فيعهد إلى عضو من أعضائه في إلقاء كلمة التأبين باسم المجمع. وكان من أعضاء المجمع المؤسسين حاييم ناحوم أفندي حاخام الطائفة اليهودية (١٨٧٣ ـ ١٩٦٠). فلمّا عرض موضوع تأبينه بعد وفاته في جلسة المجمع، اعتذر جميع الأعضاء من عدم القيام بهذه المهمّة إلّا العقاد الذي قال: إن الرجل كان زميلاً لنا في المجمع. بل كانت عضويته التأسيسية سابقة على عضويتنا، ولا يصحّ للمجمع أن يتخلّف عن تأبينه لأن المجمع ليس هيئة سياسية بل هيئة علمية، وسأضطلع بهذه المهمة بنفسي. وقد كان.

سألت العقاد ذات يوم ـ وكان يزورني في مكتبي ـ عن المنهج الذي يتّبعه

في تأليف كتبه، فقال: إنه يختار موضوع الكتاب أولاً، وقد يقترح عليه ناشر موضوعاً يلقى منه قبول فيعلق عليه. ثم يقوم بجميع المطالعات اللازمة المرتبطة بموضوع الكتاب حتّى تكون حاضرة في ذهنه. ويقسّم الكتاب إلى فصول مخصصاً لكل فصلٍ مظروفاً. فإذا شرع في الكتابة، لم يتقيّد بترتيب الفصول، فقد يكتب الفصل العاشر قبل الفصل الأول، وقد ينجز الخامس قبل الرابع، حتى إذا ما اكتملت الفصول داخل مظاريفها استخرجها ورقّمها ترقيماً مسلسلاً بعد مراجعة المتن كلّه تحقيقاً لوحدته وتداركاً لأي نقص أو تكرار في مادّته، ثم يضع للكتاب مقدمة مناسبة ويتوجّه به إلى الناشر.

كان العقّاد يقضي أشهر الشتاء في أسوان ذات الجوّ الدافئ الجاف خشية أن يعاوده مرض ذات الرئة الذي أصيب به في السجن، وكان يقضي فصل الصيف في الإسكندرية، ويقضي بقية العام في بيته في القاهرة. وكان يرفض السفر إلى الخارج قائلاً: إنه رأى الدنيا كلها من خلال مطالعاته، فلا حاجة به إلى زيارة معالمها. ولكنّه مع ذلك سافر إلى خارج مصر ثلاث مرات:

مرّة أثناء معركة العلمين عندما هددت قوات روميل الألمانية الإسكندرية، وردّدت إذاعات برلين أن رأس العقاد مطلوب لأنه تهجّم على هتلر في كتابه «هتلر في الميزان» وفي أحاديثه الإذاعية التي تنبأ فيها بهزيمة المحور في الحرب، فسافر إلى السودان، ولم يعد إلّا بعدما دحرت قوات روميل.

أمّا المرة الثانية التي سافر فيها العقاد إلى الخارج فكانت في بعثة رسمية إلى المملكة العربية السعودية على متن اليخت الملكي المحروسة، وكان من أعضاء هذه البعثة مراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية في مصر، والصحافي كريم تابت، وقد التقت البعثة بالعاهل السعودي الراحل عبد العزيز آل سعود (الواثق بالودود) كما كان يحرص علي دائماً على توقيع رسائله الملكية، وقد كتب العقّاد فصلين على هذه الرحلة في مجلة «الرسالة» في كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير ١٩٤٦.

أما الرحلة التالية فكانت إلى فلسطين بدعوة من إذاعتها العربية.

أعود إلى بيت العقاد الذي كان بيتاً يليق بأسرة متوسطة الحال، إذ ليس فيه من أسباب الترف إلّا ثلاجة وفرن ومروحة كهربائية وجهاز تليفون، وكل أثاثه

شديد التواضع. وكانت الكتب تملأ جميع غرف البيت ويتراصّ بعضها فوق بعض. كما كان يحتفظ في بيته بتماثيل نصفية لشخصه وللممثل نجيب الريحاني (١٨٩٣ ـ ١٩٤٩)، ويزين غرفه ببعض صوره التذكارية القديمة وبلوحةٍ رسمها فنّان بتوجيهٍ منه، تمثل كعكة مشتهاة يحط عليها صرصور، وقد أشار بها إلى تجربة حبٍّ فاشلة. ولعلّه استمدّ تصميم اللوحة من قول الشاعر:

إِذَا عَفَّ الذُّبَابُ عَلىٰ طَعَامٍ رَفَعْتُ يدي ونَفْسِي تَشْتَهِيْهِ

وكان العقّاد يستعين بخادم اسمه «العم حمزة» جاء به من أسوان، وكان يتسم بالطيبة والأمانة، ولكنه كان غليظ الفهم. يبعث به العقاد إلى السوق لشراء فاكهةٍ معيّنة، فيعود وقد اشترى سواها مؤكدّاً «للأستاذ» ـ كما كان يسمّيه ـ بأن هذه هي طلبته الحقيقية. وكان يتلقى المكالمات الهاتفية في غياب العقّاد فينقلها إليه على هواه. ومن الفكاهات التي كان العقاد يرويها عن «العم حمزة» أن الهاتف دقّ في غياب العقّاد، وكان المتحدث هو الأديب محمود تيمور (١٨٩٤ ـ ١٩٧٣)، فردّ عليه الخادم قائلاً: إن الأستاذ غير موجود. فقال له تيمور بك: عند عودته أخبره بأنني اتصلت به وهو يعرف رقم هاتفي. فلمّا جاء العقاد استفسر من العم حمزة عمّا إذا كان أحد قد اتصل به، فقال الخادم: نعم لقد اتصل بك ألفونس بك وقال: إنك تعرف رقم هاتفه. وعجب العقاد عند سماعه هذا الاسم، لأنه لا يعرف شخصاً اسمه ألفونس بك، ولم يحاول بالتالي مهاتفته. وبعد هنيهة دق الهاتف، وكان المتحدث هو تيمور بك الذي عاتب العقاد على عدم الاتصال به. فاعتذر له العقاد قائلاً إن الرسالة بلغته خطأ. وعندما آخذ العقّاد خادمه على غفلته، جاوبه بقوله: «كلّهم بتوع منجة»! ذلك أن تيمور بك كان قد استنبت في مزارعه الواسعة نوعاً فاخراً من ثمرة المانجو صار يعرف باسمه «تيمور». وفي الوقت عينه كان ألفونس جريس بك قد استنبت نوعاً آخر فاخراً من المانجو صار يعرف باسم «ألفونس» ويحوّر أحياناً إلى «فونس»! فاختلط الأمر على العم حمزة ما داموا جميعاً باعة مانجو!.

وبعد وفاة العقاد في ١٢ آذار/مارس ١٩٦٤ احتفظت أسرته ببيته بعدما نقلت مكتبته إلى دار الكتب الوطنية، وكان ابن شقيقه عامر (توفي في ٢٤ مارس ١٩٨٥) يقيم مع أسرته في شقة مقابلة لها. وارتأى الاستمرار في عقد ندوة العقاد

الأسبوعية في موعدها المعتاد، ولكن بعدما تحولت الندوة إلى جمعية رسمية مشهرة باسم «جمعية العقاد الأدبية» وتم تسجيلها لدى وزارة الشؤون الاجتماعية لتكون خاضعة لإشرافها وتفتيشها.

وكان عامر يحتفل في كل عام بالذكرى السنوية لميلاد العقاد فيدعو أصدقاءه للتحدث في هذه المناسبة، وكنت من المثابرين على المشاركة في هذا الاحتفال السنوي. وفي إحدى المرّات فوجئنا بالرئيس الأسبق محمد نجيب (١٩٠١ - ١٩٨٤) وقد جاء - بعدما استردّ حريته - لحضور هذا الحفل، وجلس في الصف الأول إلى جوار الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية الأسبق. وكان ممّا جاء في كلمتي أن العقّاد عرف كيف يحترم نفسه، ويصون كبرياءه، ففرض احترامه على الطوال والعِراض والقِصار من ذوي السلطان، وهي عبارة استوحيتها من مقال للزيّات وردت فيه عبارة «الطوال من ذوي السلطان». ولما فرغت من إلقاء كلمتي، نهض اللواء محمد نجيب وصافحني بحرارة، فقلت له: إنّما قصدتك بالعراض!.

وكان الشارع الذي يقيم فيه العقاد يحمل اسم السلطان سليم، ورغبت أسرة العقاد إلى رياسة حي مصر الجديدة في تغييره وإطلاق اسم العقاد عليه، ولكن الرياسة المذكورة أطلقت عليه اسم شفيق غربال بك (١٨٩٤ - ١٩٦١) مع أنه لم يكن من سكان هذا الشارع، بل كان يقطن على مقربة منه. أما العقاد فقد أطلق اسمه على «بوليڤار» تجاري واسع في مدينة نصر، فصارت المتاجر المقامة فيه تعلن عن «أحذية عباس العقاد» و«حلوى عباس العقاد» و«بقالة عباس العقاد» و«برج عباس العقاد» - والعقاد طبعاً بريء من كل هذا النشاط التجاري.

وما زال صاحب المبنى الذي يقع فيه بيت العقاد يسعى في سبيل هدمه لإقامة ناطحة السحاب في مكانه تدرّ عليه الملايين، وقد أقام دعاوى أمام المحاكم لإخلاء البيت. فاستنجد عامر العقاد بالمسؤولين لتحويل هذ البيت إلى متحف بعد ترميمه وجعله لائقاً لهذا الغرض ولكن لم تحدث استجابة لهذه الرغبة. وما زالت الدعاوى تتداول في المحاكم، وبات مصير بيت العقاد «على كفّ عفريت»!.

ولد العقاد في أسوان في ٢٨ حزيران/يونيو ١٨٨٩، وعند وفاته نقل جثمانه إلى هناك حديث أقيم له ضريح يطل عليه تمثال شامخ للعقاد. فصار الضريح مقصداً لزوار أسوان ولا سيما من رجال الفكر والأدب.

عبد الرحمن صدقي

كانت قراءة الكتب الجديدة والتعليق عليها مدخلي إلى عالم الأدب، فكنت منذ ريّق العمر أحرص على متابعة ما تنشره صحفنا من تعليقات على الكتب الجديدة أسترشد بها في تخيّر الكتب التي أقتنيها في حدود ميزانيّتي المتواضعة.

وكنت كلّما فتحت جريدة أو مجلة في عام ١٩٤٥ أرى كبار الأدباء يعقدون الفصول الطوال في الحفاوة بديوان صغير صدر للشاعر عبد الرحمن صدقي عنوانه «من وحي المرأة»، وهو أوّل ديوان وَقَفَهُ صاحبه على رثاء زوجته، وقد صدر بعد ذلك ديوان «أنات حائرة» للشاعر عزيز أباظة (١٨٩٩ ـ ١٩٧٣) في رثاء زوجته، وديوان «حصاد الدمع» للشاعر الدكتور محمد رجب البيومي أطال الله بقاءه. وهناك كتابان يجمعان بين الشعر والنثر في رثاء الزوجة هما «لذكراك» من تأليف الأديب الفلسطيني خليل السكاكيني (١٨٧٨ ـ ١٩٥٣) و«جَمُدَ الدمع» للعلامة الأردني روكس بن زائد العزيزي، أطال الله بقاءه.

وكان من جملة الذين قرّظوا ديوان «من وحي المرأة» عباس محمود العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) وإبراهيم عبد القادر المازني (١٨٩٠ ـ ١٩٤٩) والأديب السوري خليل الهنداوي (١٩٠٦ ـ ١٩٧٦) والشاعر السوري محمد البزم (١٨٨٤ ـ ١٩٥٥) والأديب الحجازي أحمد عبد الغفور عطار (١٩١٥ ـ ١٩٩١) والشاعر خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩) والناقد سيد قطب (١٩٠٦ ـ ١٩٦٦) وغيرهم. وعرفت من كتاباتهم أن موضوع ديوان الشاعر هو زوجته الإيطالية التي فجع برحيلها، فقال في أولى أنّاته بعد مصابه فيها:

كَانَ لِي في أُخْرَيَاتِ العُمْرِ بَيْتٌ، فَعَدِمْتُه
سَنَوَاتٌ أربعُ؟ أَمْ كانَ ذا حُلماً حَلِمْتُه
لَيْتَهُ طَالَ، وَلَوْ طَالَ لَمَا كُنْتُ سئِمْتُه

إلى أن قال:

كُلُّ مَا أَعْرِفُ أَنِّي كَانَ لِي بَيْتٌ عَدِمْتُه

فأقبلت على اقتناء هذا الديوان الذي أجمع النقاد على الإشادة به، ولم ألبث أن انضممت إلى فريق المعجبين بالشاعر، ولا سيّما بعد معاودة قراءة ديوانه، وعبّرت عن مشاعري في مقال نشرته، ولم يفتني أن أواسي الشاعر في محنته. ولم أكن أعرف وقتها عن عبد الرحمن صدقي إلّا أنه مؤلف كتاب «الشاعر الرجيم بودلير» الذي ظهر في سلسلة «اقرأ» الشهرية.

وعند ظهور مقالي اتصل بي هاتفياً الأديب القاص صلاح ذهني (١٩٠٩ - ١٩٥٣)، وكنت أعرفه لأنه إلى جانب عمله سكرتيراً لدار الأوبرا الملكية كان يعمل بالصحافة في مجلة «آخر ساعة» ـ وأخبرني بأن زميله في دار الأوبرا عبد الرحمن صدقي يريد أن يتحدّث معي.

وهو بعد أن شكرني على كلمتي، رغب في التعرّف بي شخصياً، ودعاني إلى زيارته في مكتبه في دار الأوبرا الملكية منبهاً إياي إلى الدخول من سرداب خلفيّ وليس من بوابتها الرئيسية التي لا تُفتح إلّا في الحفلات الكبرى. وتوجهت في يوم عطلتي الأسبوعية إلى تلك الدار، حيث قام صلاح ذهني بتقديمي إلى سدنتها الكبار الذين يُعزى إليهم الفضل في إعداد البرامج العالمية للأوبرا وتنفيذها، وهَمَ سليمان نجيب بك مدير الدار (ت١٩٥٥) الذي كان يشارك في تمثيل كثير من الأفلام السينمائية، وعبد الرحمن صدقي وكيل الدار، وشكري راغب (ت١٩٨٣) مدير المسرح. وألفيتُ نفسي في جوٍ عائلي ودّي (وبساط أحمدي) لم أكن أعهد له مثيلاً في الدوائر الحكومية الموغلة في بيروقراطيتها. ومنذ ذلك اليوم بتُّ أتردّد على هؤلاء الأصدقاء المُحَبَبَيَّن حيث اجتمع الفن فيهم جميعاً إلى جانب الأدب ممثلاً في عبد الرحمن صدقي وصلاح ذهني.

قضى عبد الرحمن صدقي كل عمره الوظيفي في دار الأوبرا إلى أن تقاعد في عام ١٩٥٧ حيث اختير مستشاراً فنياً للتلفزيون المصري، وعمل أستاذاً محاضراً في المعهد العالي للفنون المسرحية كما اختير عضواً في المجلس الأعلى للفنون والآداب.

ولعبد الرحمن صدقي قامةٌ شامخة مهيبة وبُنية ذات عُرام، وإنْ كان هذا المظهر الخارجي الرهيب لا ينطوي إلّا على شخصيةٍ مفعمة بالودّ، ومشاعر تورث

الإعجاب الشديد به، والإقبال على الاقتراب منه، وعقد الصداقات معه. ولم يفتني أن اكتشف أنه على ثقافة واسعة حصّلها بجهده ودأبه، وأنه يجيد اللغات الفرنسية والإيطالية والإسبانية والإنكليزية، وأنه يتابع الحركة الأدبية متابعةً دؤوبة قارئاً وكاتباً، تشهد على ذلك فصوله الكثيرة المندرجة في مجلات «الهلال» و«المقتطف» و«الرسالة» و«الثقافة» وغيرها. كما كنت أصادفه أحياناً في ندوة العقاد الأسبوعية، ولكنّه، على اعترافه بتلمذته لمدرسة «الديوان» أي لعبد الرحمن شكري (١٨٨٦ ـ ١٩٥٨) وللعقاد والمازني، فهو لم يكن ينتظم في ندوة الجمعة للعقّاد، أولاً لأنه كان يقيم وقتها في حي الروضة بعيداً عن بيت العقاد، وثانياً لاعتقاده بأن ندوة العقاد كانت تضمّ خليطاً من طلّاب الجامعات وناشئة الأدباء وأصدقاء العقاد التقليديين، وهو بطبيعته ينفر من مثل هذا الخليط المتنافر.

وعندما أصدر العقاد والمازني كتاب «الديوان» بجزئيه في عام ١٩٢١ للحملة على أستاذهما عبد الرحمن شكري وعلى الشاعر أحمد شوقي (١٨٦٩ ـ ١٩٣٢) وعلي مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦ ـ ١٩٢٤) رحّبا بنشر قصيدة في الكتاب لعبد الرحمن صدقي عنوانها «النشيد القومي» وقالا في تقديم هذا النشيد: «رأينا أن ننشر هذا النشيد بعدما كتبناه عن نشيد شوقي ليقارن القرّاء بينهما ويعلموا ما الذي يخشاه شوقي من التفات الأذهان إلى غيره، فإن صاحب النشيد المنشور هنا شاب لم يُظهر بعد شيئاً من شعره للقراء، وشوقي يملأ طباق الأرض باسمه كل يوم منذ نيف وثلاثين سنة. ومع هذا، فالفرق بين النشيدين لا يخفى على أحد». وكان عمر عبد الرحمن صدقي وقتها ٢٤ عاماً.

ويقول عبد الرحمن صدقي إنه عندما كان طالباً في المدرسة الثانوية، كان المازني يدرّس له مادة الترجمة، وكان يعامله بكل حفاوة وتشجيع ممّا زاد الطالب تعلقاً بأستاذه. ثم قام أستاذه بتقديمه إلى العقاد في عام ١٩١٤، وهو في السابعة عشرة من عمره، وبقي منذ ذلك التاريخ على ولاءٍ تام للعقّاد، ولم يُشرك في هذا الولاء أعلام عصره مثل أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨) وأحمد أمين (١٨٨٦ ـ ١٩٥٤) وأضرابهما.

ولد عبد الرحمن صدقي، وهو من أصول تركية، في القاهرة عام ١٨٩٧ وفيها تلقى تعليمه ثم عمل بوظائف حكومية مختلفة إلى أن اختير وكيلاً لدار الأوبرا الملكية بفضل أسلوب الحياة الذي كان ينتهجه، إذ كان عاشقاً للجمال،

دارساً للفنون، مرتحلاً بين عواصم العالم، مرتاداً متاحفه، مقتنياً آثار كبار الرسامين، هاوياً للموسيقى الكلاسيكية، مضيفاً إلى مكتبته نفائس الكتب الجديدة الصادرة باللغات التي يتقنها. فكان وجهاً حضارياً يشرّف دار الأوبرا عند تعامله مع الفرق المسرحية والتمثيلية والموسيقية العالمية. فإذا تحدث مع المسؤولين عن هذه الفرق كان ذلك عن درايةٍ وفهم وقدرة على التذوق السليم. وقد حافظت دار الأوبرا في عهد سدنتها الأربعة الكبار سليمان نجيب وعبد الرحمن صدقي وشكري راغب وصلاح ذهني على مستوى فني عالميّ رفيع، فصانوا تقاليدها التي درجت عليها منذ افتتاحها قبل ١٢٥ عاماً، وإلى أن احترقت في عام ١٩٧١ بعدما هجروها، فضاع بذلك جزءٌ غالٍ من تاريخ مصر الفني، وراح ضحية الحريق تمثال برونزي للشاعر خليل مطران مدير الفرقة القومية للتمثيل كان منصوباً في مدخلها.

تزوّج عبد الرحمن صدقي مرتين، إذ لم يستطع الصبر على حياة الوحدة بعد رحيل زوجته الأولى، فتزوّج شابةً إسبانية تصغره كثيراً، وهي التي شجّعته على بناء دارةٍ خاصة به في حي مصر الجديدة، وقد بيعت الدارة بعد وفاته وأُهديت مكتبته الثمينة بناءً على وصيته إلى دار الكتب الوطنية. وهو لم ينجب من زوجتيه، ووقعت وفاته في شهر آذار (مارس) ١٩٧٣.

وكان من عادتي أن أهنئ عبد الرحمن صدقي هاتفياً في مناسبة الأعياد، وعندما اتصلّت به للمرة الأخيرة، لاحظت أن لسانه معقود وأنه يتكلم بصعوبة، ورجاني بإلحاح أن أزوره لأن لديه ما يريد أن يُفضي به إليّ، فوعدته بالزيارة ولا سيما لأن بيته لم يكن بعيداً عن بيتي، ولكن الموت كان أسرع من تحقيق هذه الرغبة، وهو ما أورثني حسرةً باقية.

صحيح أن عبد الرحمن صدقي لم يصدر في حياته إلّا ديوانين هما «من وحي المرأة» و«حواء الشاعر» ولكن لديه شعراً كثيراً منشوراً في المجلات الأدبية لم يجمع في ديوان، كما أنه شارك بقصيدة جميلة في مهرجان الشعر الأول الذي أقيم في دمشق عام ١٩٥٩ عنوانها «صوت العروبة».

عرف عبد الرحمن صدقي بديباجته الأدبية الناصعة في نثره ومترجماته تجلت في كتبه التي أصدرها ومنها «ألحان الحان» و«ألوان من الحب» وهو مجموعة

أقاصيص مترجمة عن الآداب الروسية والإسبانية والفرنسية و«أبو نواس» و«طاغور والمسرح الهندي» و«دراسة عن حافظ إبراهيم وليالي سطيح» و«الشرق والإسلام في أدب غوته» و«الشاعر الرجيم بودلير».

ويعلّل العقاد هذه النصاعة الواضحة في ديباجة عبد الرحمن صدقي بأنه «موسوس» حيث قال: «بدأ الأستاذ عبد الرحمن نشأته الأدبية بهذا الوسواس الناقد، لأنه بدأها بأقوى ما يكون الذوق الواعي من التطلع إلى الكمال، وناهيك بتطلع الأمل وتطلع الشباب. فكانت قدرته ـ قدرة الطبع والاطلاع ـ تواتيه على إنجاز المقال أو القصيد في ساعات معدودات، ثم تنقضي الأيام وهو يفرغ منه ليعود إليه، وهو يعيده ليبدأه من جديد، ثم هو يأبى عليه أن يفارق قلمه ليستقبل العالم القارئ إلّا وهو مُلقي اليدين، كأنه مكتوف لا يُطيق أن يردّه عن سبيله إلى عالم الحياة» وقال: إن سرّ عبقرية عبد الرحمن صدقي يكمن في «شيطان الذوق اللماح غير مدافع، وإنه هو الشيطان الذي يلمح مسارب الفطنة الخفية بين المعاني والألفاظ، ولا ينتظر عليها حتى تُقبض باليدين وتمتلئ بالشعاع الثاقب من كلتا العينيْن».

وكانت بين عبد الرحمن صدقي والعقاد مداعبات شعرية. فعندما قرّر عبد الرحمن صدقي الإضراب عن العزوبة واختار لنفسه زوجته الأولى، بعث إلى العقاد برقعةٍ يزفّ فيها إليه خبر زواجه، ويدعو له بانتقال العدوى إلى العقاد المُضرب العتيد عن الزواج حيث قال:

هٰذِي هَدِيَّةُ عُرْسِي ... إلى فَتَى «عَيْنِ شَمْسِ»
عَدْوَى تَثَاؤبِ عَمْرٍو ... في يَوْمِنا مِثْلِ أَمْسِ
أَنْعِمْ بِعَدْوَىٰ زَوَاجٍ ... أَغْدَى بِحُبٍّ وأُنْسِ
يَا مُبْدِعاً ما تَأَسَّىٰ ... قَدْ حَانَ وَقْتُ التَّأَسِّي

فرد عليه العقاد بأبيات كان ممّا جا فيها:

إِذَا تَزَوَّجَ صِدْقِي ... فَلَسْتُ أَضْمَنُ نَفْسِي
وَلَسْتُ أَنْجُو وَلَوْ ... في دَارِ المَعَرِّيَ حَبْسِي

وكان العقاد يعقد ندوّته الأسبوعية في جزيرة الشامي بحديقة الحيوان قبل

انتقالها إلى بيته في مصر الجديدة. واستلهم من جو حديقة الحيوان أوجه شبه بين حوارييه وفصائل الحيوان التي تضمها الحديقة، ونظم في ذلك قصيدة مطلعها:

«أرفيوسُ» الفنّ سوّى بَيْنَهُم فَتَلاقَىٰ الدُّبُّ فِيْهَا والقُرُوْدْ

وكان نصيب عبد الرحمن صدقي القيام في هذه الحديقة بدور طائر البطريق لأنه يسير مختالاً بقامته العملاقة حيث قال:

وَلَغَا «البطْرِيْقُ» فِيْهَا لَغْوَه وَهُوَ مِنْ قُطْبٍ جَنُوْبَيٍّ بَعِيْد
حَيَوانَاتٌ نَمَاهَا آدَمٌ وهي مِنْ أَبْنَائِه نَسْلٌ فَرِيْد
حَيَوانَاتٌ ولٰكِنْ بَيْنَهَا كُلُّ ذي لُبٍّ سَمَاوِيّ رَشِيْد

وحذا الأديب طاهر الطناحي (١٩٠٣ ـ ١٩٦٧) حذو العقّاد، فأصدر بدوره كتاباً عنوانه «حديقة الأدباء» ألبس فيه كل أديب من أصدقائه ثوب طائر، وخصّ عبد الرحمن صدقي بحيوان البطريق تأكيداً لما ذهب إليه العقاد من قبل.

ولم يشذّ الشاعر العوضي الوكيل (١٩١٥ ـ ١٩٨٣) عن أستاذه العقاد وصديقه الطناحي فرسم لعبد الرحمن صدقي صورة شعرية في كتابه «رسوم وشخصيات» جاء فيها:

تَرَاهُ الفِيْلَ خُرْطُوْماً وَجِسْماً وَكالكَرَوَانِ فِيْ صَدْحٍ ومَشْقِ
يَلُوْحُ كَطَائِرِ البَطْرِيْقِ يَمْشِي فَيَخْفِقُ خاصِرَاهُ أي خَفْقِ

وإذا كانت الظروف المفجعة التي ظهر فيها ديوان «من وحي المرأة» بعد وفاة زوجته الأولى قد شحذت أقلام كبار الكتاب مشاركةً منهم لعبد الرحمن صدقي في محنته ومواساةً له في فقد صنو روحه، فتباروا في الإشادة بالديوان وشاعرية صاحبه الخصبة، فإن النقاد كادوا يتجاهلون ديوانه الثاني «حواء والشاعر»، بل تجاهلوا جميع كتبه النثرية، مع أن دراساته الموسّعة في أكثر من كتاب لأبي نواس تناولت الجوانب النفسية والاجتماعية فضلاً عن الأدبية في حياة أبي نواس تناولاً فريداً، وخرجت كتبه وكأنه عايش أبا نواس ورافق خطواته وسامره، ولم يغفل جدّه ولهوه ومجالس أنسه ومطارح منادماته.

ومن ناحيتها حاولت الأديبة عايدة الشريف (ت١٩٩٧) تدارك التقصير المخزي الذي كان من نصيب عبد الرحمن صدقي في حياته الثريّة، فعقدت عليه

فصلاً مطولاً باعتبارها «شاهدة ربع قرن» في مجلة «الدوحة» القطرية (عدد تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٨٠) ولكنها صبّت جل اهتمامها على الجوانب العاطفية في حياة عبد الرحمن صدقي، ولم تتطرق إلى آثاره الأدبية ودنياه الفكرية الواسعة. «فهو قد كان يبهرني كلّما جلست إليه بسعة معارفه في الآداب الغربية والأدب العربي، وعمق دراسته للتيارات الفكرية ولا سيما الكلاسيكية منها. وهو وإن كان «متفرنجاً» في منهاج حياته كلّه، إلّا أن علاقته بديوان العرب وتراثهم علاقة مشدودة بأمراسٍ لا تنقطع». وصدق العوضي الوكيل ـ وهو بدوره من تلامذة العقّاد ـ حيث قال عن عبد الرحمن صدقي:

وَعَىٰ الأَشْعَارَ فِي شَرْقٍ وَغَرْبٍ فَجَالَ الفِكْرُ في غَرْبٍ وشَرْقِ

❁ ❁ ❁

عبد العزيز الرفاعي

كان الأديب السعودي عبد العزيز أحمد الرفاعي خير مثالٍ للشاعر القائل «أوزّع نفسي في نفوسٍ كثيرة»، ذلك أنه جُبِلَ بأسمى الخصال وأجملها، وكلّما أَفَاءَ الله عليه بنعمةٍ، أشرك فيها سواه، وكلّما تهيأت له السوانح المواتية، بذل وقته وماله وعاطفته في سبيل إسعاد الآخرين والمشاطرة في كل ما ينفع الناس. كانت نفسه تفيض دائماً بروح خيّرةٍ هَدَتْهُ في جميع مآربه الأدبية، وفي علاقاته الاجتماعية، وفي مبرّاته التي استفاضت شرقاً وغرباً، دون أن تعرف يُسراه ما قدمت يُمناه.

عاش يحتضن الناس، حتّى مَنْ نَأَوْا عنه في دنيا الله الواسعة، ويحتفي بكل قيمةٍ أدبية أو إنسانية، ويسعى إلى الغير مهما تواضع شأنهم، ممّا ضخّم بريده، وألقى عليه أعباء ثقالاً في الردّ على كل رسالة بنفسه وليس بجهاز من السكرتارية يُعفيه من تسطير الرسائل.

عُرف بالتواضع الجمّ، بل بإنكار الذات ممّا حبّب فيه الجميع. حتى لقد وصف نفسه بأنه «ربع مثقف» حيث قال:

إنِـي ـ لَـدَى الـتَّـعْـرِيْـفِ ـ رُبْـعُ مُـثَـقَّـفٍ
صَـحِـبَ الـكِـتَـابَ، فَـلَـمْ يَـخُـنْـهُ كِـتَـاب

وعاش يحبّ الناس حتّى قال:

طُوْبَىٰ لِمَنْ جَعَلَ المَحَبَّةَ جَدْوَلاً وسَقَىٰ أَحِبَّتَهُ، فَطَابَ وَطَابُوْا

بادأني بالتحية على غير معرفة سابقة، بل قبل أن أكتشف منازله في دنيا الأدب. إذ رآني منشغلاً بالبحث في دواوين الشعراء القدامى والمحدثين ومؤلّفات الكتّاب عن إشاراتٍ إلى الأحذية والنعال لمواصلة سلسلةٍ من الفصول كنت أنشرها في مجلة «الأديب» اللبنانية لصاحبها ألبير أديب (١٩٠٨ ـ ١٩٨٥) مستوحياً موضوعها من بيتيْن صارخيْن للشاعر نزار قباني هما:

وإذَا أَصْبَحَ الـمُـفَـكِّـرُ بُـوْقـاً يَسْتَوِي الفِكْرُ عِنْدَهـا والحِذَاءُ
أنـا حُـرِّيَّـتِـي، فَـإنْ سَـلَـبُـوْهَـا تَـسْـقُـطُ الأَرْضُ دُوْنَـهَـا والسَّـمَـاءُ

فتلقيت من عبد العزيز الرفاعي نسخةً من المجموعة القصصية للأديب السوري الدكتور عبد السلام العجيلي (١٩١٨ ـ) عنوانها «فارس مدينة القنطرة» منبّهاً إياي إلى أقصوصة في المجموعة عنوانها «مذاق النعل». فأكبرتُ صنيع الرفاعي، ولا سيّما لأن صديقي العجيلي لم يهدني هذا الكتاب، أو لعلّه ضاع في البريد شأن كثير من المطبوعات.

ولم يلبث الرفاعي أن وافاني بكل ما أصدره من كتب في سلسلة «المكتبة الصغيرة» التي تنوّعت موضوعاتُها وتباين كتّابها واتّسعت لنشر آثار أدباء من خارج المملكة العربية السعودية مثل محمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ ـ ١٩٨٥) والشاعر المهجري إلياس قنصل (١٩١٤ ـ ١٩٨١) والعوضي الوكيل (١٩١٥ ـ ١٩٨٣) والدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، والدكتور عبده بدوي أطال الله بقاءهما.

واتصل بيننا حبل المراسلة دون أن أُشافهه أو حتى أعرف ملامح صورته، إلى أن دخلت ذات يوم إحدى المكتبات في القاهرة لاقتناء ما يهمّني من كتب، فصادفت فيها ثلاثةً من السعوديين، عرفت اثنين منهم هما عبد القدوس الأنصاري (١٩٠٦ ـ ١٩٨٣) وأحمد الملائكة، ولم أعرف ثالثهما، فتولّى الأنصاري تقديمه إليّ، وإذا هو عبد العزيز الرفاعي الذي عرفته من خلال رسائله. وكانت مفاجأةً سارّة لكلينا.

ومن آياته أنه قرأ مقالاً في جريدة «عكاظ» للأديب السعودي عزيز ضياء، الذي يلوح أنه احتار في جنسيّتي، وهل أنا من فلسطين كما يُوحي بذلك اسمي أو أنني خلاف ذلك. فكتب الرفاعي مقالاً في نفس الجريدة أوضح فيه أنني من قرار الصعيد المصري، وليست لي بفلسطين صلة إلّا بالاسم، ولم يبخل عليّ بفضلةٍ من كريم خُلقه. ثم عاد يذكرني بالخير في حديث من أحاديثه ذات الشجون التي كان ينشرها في مجلة «الفيصل» السعودية، وربط بيني وبين الدكاترة زكي مبارك (١٨٩٥ ـ ١٩٥٢) على ما بيننا من بون شاسع، وكان تعليلي لهذه المكرمة أن الكريم لا يستطيع إلّا أن يكون كريماً، وأن من وضع على عينيه منظاراً مكبراً رأى الأصاغر كباراً، وهي شيمة كل بهلول جنتلمان كعبد العزيز الرفاعي.

أَسْرَرْتُ إليه مرّةً في إحدى رسائلي بأن سيّدةً تنتمي إلى أسرة أدبية كبيرة فقدت زوجها وعائلها تاركاً لها خمسة من الصغار دون مورد رزق جارٍ، وأنها أصيبت بداء عضال لن يمهلها طويلاً. فما كان منه إلّا أن اتصل هاتفياً بصديق الطرفين الدكتور بدوي طبانة (١٩١٤ ـ ٢٠٠٠) ورجاه المبادرة بتقديم عونٍ مالي سخيّ إلى هذه السيدة ريثما يوافيه بالقيمة تلغرافياً. وقد عرفت خبر هذه البادرة لا من الرفاعي نفسه بل من الدكتور طبانة الذي كتم الخبر إلّا عنّي نزولاً على رغبة الرفاعي.

وفي عام ١٩٨٩ انتخب عبد العزيز الرفاعي عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة فشارك في المؤتمر السنوي للمجمع في تلك السنة وفي السنة التالية لها. وعهد إليه الدكتور إبراهيم مدكور (١٩٠٢ ـ ١٩٩٥) رئيس المجمع برئاسة بعض جلسات المؤتمر.

وقد درجتُ على حضور الجلسة الافتتاحية العامة لمؤتمرات المجمع لتحية من أعرف من الأصدقاء، ثم انصرف بعدها لأن الجلسات تقتصر على الأعضاء ـ ولست منهم ـ واكتفيتُ بأن حيّيت عبد العزيز الرفاعي قبل انصرافي، على أمل أن نلتقي في العام المقبل. وبعد يومَيْن هاتفني الرفاعي قائلاً إن به شوقاً إليّ، وإنه حريص على أن نقضي للأخوّة وللمودّات حقهما من الرعاية، ودعاني للاجتماع به في الفندق قائلاً إنه سيكون معنا الأصدقاء المجمعيون الدكتور بدوي طبانة، والدكتور يوسف عز الدين، والدكتور إبراهيم السامرائي (١٩٢٠ ـ ٢٠٠١). وبعد أن قضيتُ ساعةً أو نحوها في هذا اللقاء الأدبي الجميل، رغبت في الانصراف، ولكن الرفاعي قال: إن هذه فرصة قد لا تتكرر، وإن الأقدار قد لا تأذن لنا بلقاء جديد، فلنقضِ بقية النهار معاً لا يشغلنا عن المودّات شاغل. ولعلّه كان يعرف أن أجله كاد ينتهي، لأنه كان يُعالج بتكتمٍ من مرض السرطان، وسافر إلى الولايات المتحدة وألمانيا التماساً للعلاج دون أن يُصيب فيه توفيقاً إلى أن أجهز عليه الداء العضال في التاسع من أيلول (سبتمبر) ١٩٩٣.

وكان هاجس الموت يلحّ عليه حتى قال في آخر قصيدة نظمها، وكان قد بلغ السبعين من العمر:

سَبْعُوْنَ، قَدْ وَفَدَ الشِّتَاءُ يَزُوْرُنِي والنَّارُ قَدْ خَمَدَتْ، وَلَيْسَ ثِقَابُ

حَنَّتْ إلى عَبَقِ التُّرَابِ جَوَانِحِي لا غَرْوَ يَشْتَاقُ التُّرَابَ ترابُ
في يَقْظَتِي أَغْفُو، وَقَدْ يَجْفُو الكَرَىٰ جَفْنَيَّ، فَيَحْلُمُ بِالمَنَامِ طِلابُ

وعندما وقع في مصر الزلزال العنيف، ودمّر ما دمر من شامخات العمائر ومتداعيات المباني، تلقيت هاتفاً من إسبانية حيث كان الرفاعي يصطاف، وذلك للاطمئنان على سلامتي وسلامة كل من يعرف من أصدقائه في مصر. فأكبرتُ منه هذه العناية الكريمة، حتى وهو يعيش في منتجع ينسى فيه الدنيا وكل همومها.

لفتاتٌ قد تكون صغيرة، ولكنّها تدل على ما طُبع عليه عبد العزيز الرفاعي من نفسٍ أريحيّةٍ وروح مُشْرَبَةٍ بحب الخير وعاطفة تهتزّ لكل موقفٍ إنساني.

حياة خصبة عاشها عبد العزيز الرفاعي منذ ما ولد في أملج الواقعة بين ينبع والوجه، وكان في التاسعة عشرة من عمره عندما أنهى دراسته في المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة عام ١٩٤٢. وعكف بعد ذلك على اغتراف المعارف من المكتبات العامة، ولا سيما مكتبة عارف حكمت، ومكتبة الحرم المكي، فَأُشْرِبَ حُبَّ الأدب والشعر منذ نعومة أظفاره.

وعمل بعد تخرجه بالتدريس، ثم تنقل بين الوظائف المختلفة حتى أصبح مستشاراً في الديوان الملكي، ولكن هذه المهام الوظيفية لم تحل دون موالاته للمطالعة والدرس، ولا صرفته عن المشاركة في الحياة الأدبية في السعودية، فمثّل بلاده في كثير من المؤتمرات والندوات التي عُقدت في القاهرة ولبنان والكويت وبغداد وتونس والجزائر والهند والمغرب وفرانكفورت، وهي اهتمامات انصرف إليها بِجُمْعِ قُوَاه بعدما تقاعد من الوظائف وتفرغ للأدب تفرغاً تاماً. فأنشأ دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، وصار يعقد في بيته بحيّ الملزّ في الرياض ندوةً أسبوعية كل خميس عرفت باسم «الخميسية» ـ وللخميس وقائع كثيرة في حياته رافقته منذ مولده يوم خميس وإلى مواراته الثرى يوم خميس ـ وأصدر سلسلة المكتبة الصغيرة وأنشأ مع صديقه عبد الرحمن بن فيصل المعمّر مجلة «عالم الكتب» برياسة تحرير الدكتور يحيى ساعاتي.

وأُسند إليه الإشراف على معظم المجلات الأدبية السعودية (الدارة، والفيصل، والمجلة العربية، والتضامن الإسلامي).

واختير عضواً في مجلس الشورى وفي مؤسسة اليمامة الصحفية وفي

المجلس الأعلى للإعلام ورابطة الأدب الإسلامي العالمية والمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي ومؤسسة الفرقان التي أسسها الدكتور أحمد زكي يماني لإحياء التراث، كما اختير عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية في القاهرة ودمشق. ومنحه قادة دول مجلس التعاون لدول الخليج العربي وسام تكريم.

ولئن كان يقول عن نفسه متواضعاً وهو يقدم كتابه الموسوم «رحلتي مع التأليف» إنه يعلم تماماً أنه لا يصحّ أن يسلك نفسه في عداد المؤلفين، فليس له في عالم التأليف الرحب إلّا رسائل صغيرة متواضعة جداً، هي بالمقالات المطولة أشبه، ولا تجعله في مصافّ المؤلفين، وإنه لو جمع كل ما نشره أو لم ينشره من هذه الرسائل، لما بلغ حجم مجلد واحد ممّا يضعه المؤلفون من كتب، فكيف بأولئك الذين وضعوا العديد من المجلدات، وإنه لا يكون من عداد المؤلفين إلّا من بوّابة المجاز... ولئن قال الرفاعي هذا عن نفسه، فقد أصدر طائفةً كبيرةً من الكتب، عُني في بعضها بالتعريف بشعراء وشخصيات مجهولة لم تنل حظّها من دراسة الباحثين. ومن تلك الكتب «إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام». وقد حقّقه وعلق عليه بالاشتراك مع أحمد محمد جمال والدكتور عبد الله الجبوري، و«خمسة أيام في ماليزية» و«جبل طارق والعرب» و«أم عمارة الصحابية الباسلة» و«من عبد الحميد الكاتب إلى الكتّاب والموظفين» و«الحج في الأدب العربي» و«ضرار بن الأزور الشاعر الصحابي الفارس» و«توثيق الارتباط بالتراث العربي» و«خولة بنت الأزور» و«زيد الخير» و«أرطأة بن سُهيّة، حياته وشعره»، و«الرسول كما تراه» و«خارجة بن فليج المللي» و«عبد الله بن عمرو بن أبي صبح المزني» و«رحلتي مع التأليف» و«رحلتي مع المكتبات» و«السلام عليك» عدا كتاب «ابن سيرين» المخطوط و«الكنّاشة» التي تضم عشرات من فصوله المنشورة في الصحف والمجلات. كما نشر كتاباً مدرسياً في المطالعة ألّفه بالاشتراك مع عمر عبد الجبار، وله مسرحية مدرسية؟، ونشر له بعد وفاته كتاب «فوات الأعلام».

وكان عبد العزيز الرفاعي يتردّد في نشر شعره، فانتهز العاملون في دار الرفاعي غيابه في رحلة خارجية، ونشروا له ديوانه الوحيد الموسوم «ظلال ولا أغصان»، وكان هو قد تخلّص من شعره العاطفي الذي نظمه في مستهلّ حياته.

وقد أخبرني عبده أبو المكارم سكرتير الرفاعي بأن هذا الرجل كان يمثل

مؤسسة خيرية كاملة، فكان يرفد كثيراً من الجمعيات الخيرية في الشرق والغرب، وكان يتفقّد كثيراً من الأسر التي تجهّم لها الدهر وغالطتها أسبابُ العيش.

وقبل وفاته أوصى ولديْه عمّار وعلاء بأن يسيراً على نفس الدرب الذي سار عليه، وأن تتواصل حلقات الخميسية بانتظام، وتظل دار الرفاعي تؤدّي رسالتها كمنارة عالية في نشر نفائس الكتب. فالرفاعي لم يعش لنفسه بل عاش لغيره، ولم يترك وراءه إلّا سيرةً عطرة وتراثاً باقياً وأمثولة جميلة خليقة بأن تحتذى.

❁ ❁ ❁

المستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس

إن انقطاعي الطويل عن الكتابة الأدبية لاقتناعي بأن الأدب لا يطعم خبزاً، أورثني تقصيراً مخزياً في حقّ كثيرين من الذين صافوني الودّ زلالاً في مسيرة الحياة، ثم انسحبوا من هذه الفانية دون أن تكون لي في وداعهم مشاطرة. ومن هؤلاء المستشرق المجري ـ وليس الألماني كما زعم أنور المعدّاوي (١٩٢٠ ـ ١٩٦٥) وبإصرار في كلمتيْن له نشرتا في «رسالة» الزيات ـ الحاج عبد الكريم يوليوس جرمانوس الذي عاش حياةً طويلة عريضةً وقفها على خدمة الثقافة، وخصّ الثقافة العربية الإسلامية بالقدح المعلّى منها.

عرفته في مناسبة المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٨، وهي مناسبة يجتمع فيها حشدٌ كبير من الأعضاء المراسلين القادمين من الأقطار المختلفة، وكان جرمانوس من جملتهم. وتحيّنت «رابطة الأدب الحديث» فرصة زيارته، فدعته إلى ندوةٍ في دارها هو وزوجته الحاجة عائشة، وكان يومها يعتمر الطربوش فيزداد طولاً فوق هامته الطويلة. وكانت له في فترة سابقة لحيّة مهذّبة، ولكنه لم يعد يرسلها. وجرى بيننا حديث عارض بعضه باللغة الإنكليزية وبعضه بالعربية الفصحى، فلمّا همّ بالانصراف بعد انتهاء الندوة تطوعت بمرافقته مع زوجته إلى الفندق سيراً على الأقدام، فازددت اقتراباً منه، ولم يودّعني إلّا بعدما حرص على تسجيل عنواني في مفكرته وأعطاني عنوانه في بودابست.

وتوهّمت أن هذه البادرة هي من قبيل المجاملة، فلن يكون بعدها لقاء ولو على الطروس المرسلة بالبريد. إلّا أن جرمانوس لم يكد يستقرّ في بودابست حتّى سخّر مصلحة البريد المجرية لحسابه ولخدمتي! فالرسائل تتلاحق وتتواصل، والدراسات التي يعدها باللغة العربية أو الإنجليزية يضعها تحت تصّرفي، ويرجوني أحياناً أن أنشرها. وهو دائم السؤال عن الكتب الجديدة، فكنت أحرّض مؤلفيها على إهدائه نسخاً منها إذ كان يصف نفسه بأنه «شحّاذ كتب»! كما

كان دائم الاستفسار عن أصدقائه ولا سيما الذين تنقطع أخبارهم عنه.

حياته تكاد تشابه حياة الطيّار الذي يبسط خارطة العالم الجغرافية أمامه، فلا يرى فيها إلّا محطاتٍ يهبط فيها الواحدة بعد الأخرى، فإذا أدّى رسالته، انصرف عنها إلى سواها.

وُلد يوليوس جرمانوس ـ وهو الاسم الذي كان يتعامل به في المجر: Germanus Gyula ـ في مدينة بودابست في ٦ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٨٤ وكان مسيحياً على مذهب كالڤن البروتستانتي. حتى إذا ما بلغ في دراسة المستوى الجامعي توجّه أولاً إلى استنبول، فالتحق بجامعتها، ثم إلى ڤيينا بالنمسا، حيث تابع الدراسة الجامعية، وانتقل بعد ذلك إلى جامعة بودابست، ولم يلبث أن التحق بالمتحف البريطاني في لندن، واختار للتخصّص اللغات والثقافات العربية والفارسية والتركية، وكان يجيد إلى جوارها اللغات المجرية والألمانية والإنكليزية والفرنسية وبعض لغات الهند. وكان أستاذاه الكبيران في المجر، هما المستشرق أرمينيوس فامبيري (١٨٣٢ ـ ١٩١٣) والمستشرق إجناس غولد صهير (١٨٥٠ ـ ١٩٢١) الذي كان يوقع كتبه بعبارة (الفقير أجناس غولد صهير المجري الأزهري) كما جاء في كتاب «المعاصرون» ـ للعلامة محمد كرد علي (١٨٧٦ ـ ١٩٥٣). وفي أثناء دراسته في تركية انخرط في جمعية سرية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، فقبض عليه وحوكم وصدر الحكم بإعدامه، ولكنه أفلت من حبل المشنقة بفضل تدخل السلطات النمسوية.

زار الهند في عام ١٩٣٠، وكان قد تشبع بالثقافة الإسلامية العربية، فاعتنق الإسلام في عاصمتها، وأعلن ذلك في خطبة الجمعة التي ألقاها بنفسه في المسجد الكبير، واختار لنفسه اسم عبد الكريم.

وبعد أربع سنين، أي في عام ١٩٣٤ حجّ إلى الأراضي المقدسة، واستضافه الملك عبد العزيز آل سعود، واتصل وهو هناك بمؤرخ الجزيرة الشيخ حافظ وهبة (١٨٨٩ ـ ١٩٦٧) وبغيره من أعلام ذلك العصر.

وفي عام ١٩٣٩ دعاه شاعر الهند الكبير رابندرانات طاغور (١٨٦١ ـ ١٩٤١) لشغل كرسي الدراسات الإسلامية في الجامعة التي أنشأها، فبقي هناك ثلاث سنين حاضر فيها في جامعات كلكتة وحيدر أباد ودلهي، وكان قبل ذلك قد

حاضر في بلدان كثيرة كمحاضر أو استاذ زائر، منها المغرب وسورية والعراق والسعودية وإسكندناوة والنمسة وتركية.

وحرص جرمانوس على أن يدرس في الأزهر، فجاء إلى مصر عام ١٩٣٤ وانضمّ إلى طلاب الأروقة لتلقّي علوم الشريعة والفقه على شيوخه، وقد وصف هذه الفترة من حياته في كتابه الكبير «الله أكبر» الذي نشر باللغة المجرية متضمناً سرداً موجزاً للتاريخ الإسلامي وقد ترجم إلى اللغتين الألمانية والإيطالية، وانتهى به المطاف إلى بودابست حيث عين أستاذاً للغات العربية والتركية والفارسية وتاريخ الإسلام وثقافته في الجامعة المجريّة، وظل يشغل هذا الكرسي إلى أن بلغ الثمانين من عمره في عام ١٩٦٥ وتحتم تقاعده.

وكان جرمانوس عضواً في البرلمان المجري، وهو العضو الوحيد الذي سمح له بأن يستقلّ عن حزب الدولة الشيوعي، ما دام قد اختار دين الإسلام.

واختير جرمانوس عضواً مراسلاً في مجامع اللغة العربية في القاهرة ودمشق وبغداد، وعضو شرف في مجمع الأردن، وعضواً في الجمعية المجرية لليونسكو، وفي الأكاديمية المجرية للعلوم وأكاديمية البحر المتوسط الإيطالية، والمجمع العلمي العربي الهندي في (علي كره) بالهند.

أصدر جرمانوس طائفة كبيرة من الكتب والدراسات منها كتاب «تاريخ الأدب العربي» بالمجرية، و«رحلات ابن بطوطة» و«مختارات من الشعر العربي من الجاهلية إلى يومنا هذا»، و«ابن الرومي» وكتاب «بين فكريْن» وهو باللغة العربية. كما أن له دراسات واسعة باللغة الإنكليزية عن «الشعر الفلسطيني» و«الشعر في جنوب الجزيرة العربية» و«العرب في الأندلس» هذا عدا دراسة عن «الأدب المصري المعاصر» نشرها في مجلة «ثقافة الهند» ودراسة أخرى عن «شعر المهجر» لم تتمّ أو تنشر.

يروي الدكتور محمد رجب البيومي (١٩٢٣ ـ) وهو أديب ثقة وكان من أصدقاء جرمانوس أنه عندما شدّ جرمانوس الرحال لطلب العلم في الأزهر، وهبط من الباخرة إلى ميناء الإسكندرية، أخذ يتحدث مع رجال الجوازات باللغة العربية الفصحى، فألفى الناس يضحكون منه ويردّون عليه بالعامية بدلاً من أن يكبروا همّة هذا الأوربي المجري الذي ينطق باللغة الفصيحة كما تعلّمها في

جامعاته. ولكنهم اعتبروا حديثة فكاهةً تدعو إلى التندر، ممّا صدم الرجل صدمةً عنيفة لهول ما شاهده، وما كاد يستقرّ في أحد فنادق الإسكندرية حتّى خطّ رسالةً إلى زوجته في بودابست تحمل ألمه النفسي تلقاء هذه التجربة. وممّا قاله في هذه الرسالة إنه كان يخشى أن يصبح أضحوكة في مصر لأنه لا يتقن اللغة العربية تماماً، فصار أضحوكة لأن أهلها لا ينطقون بها ويريدون منه أن يتحدث بالعامية.

وفي عام ١٩٦٩ ارتقى الشاعر نزار قباني منابر الشعر، وأنشد قصيدة باذخة لم أكد أفرغ من تلاوتها حتّى استظهرتُ أعظم بيتيْن وردا فيها، وهما:

وَإِذَا أَصْبَحَ الـمُـفَـكِّـرُ بُـوْقـاً ... يَسْتَوي الفِكْرُ عِنْدَها والحِذَاءُ
أنـا حُـرِّيَّـتـي، فـإنْ سَـلَـبُـوْهَـا ... تَسْقُطُ الأَرْضَ دُوْنَـهَـا والسَّمَـاءُ

وبلغ من إعجابي بهذين البيتين الصارخين أن أحببتُ نشرهما على الملأ حتى يستظهرهما مثلي كل مفكر وأديب وحامل قلم في أقطار الدنيا جميعاً. فأعددتُ مقالاً عنوانه «الأدب والأحذية» تعليقاً على هذين البيتيْن ونشرته في مجلة «الأديب» اللبنانية. ولم يلبث هذا المقال أن «توالد» واتسعت رقعة صداه بما تلقيته من تعليقات وإضافات ومستطرفات من المشارق والمغارب، وكنت في خلال ذلك أكرّر هذين البيتيْن حتّى لا يطويهما النسيان. واستمرت ذيول هذا المقال تتواتر نحو ست سنين على صفحات تلك المجلة الزاهرة... ولمّا اطلع المستشرق جرمانوس في بوداست على حديث «الأحذية والأدب» وافاني بقصةٍ طريفة كان هو «بطلها» عندما كان يدرس في الأزهر.

قال: «كان الكتاب الذي أدرس فيه علوم الشريعة مطبوعاً على ورقٍ متهافتٍ، وكان الضوء في القاعة خافتاً، فضاع جهدي عبثاً في مطالعة المتون والهوامش. ولكن زميلي الشيخ عثمان ذاكر رأف بحالي، وقدّم لي نسخة جديدة من الكتاب مستأثراً هو بالنسخة القديمة المهلهلة. وقال لي الشيخ عثمان: إن طباعة نسختي واضحة، وورقها جيّد، وفي وسعك أن تقرأها بدون عناء، وأما أنا، فقد حفظتُ الكتاب واستظهرته، واستغنيت بذاكرتي عن مطالعته. فقبلتُ منه هذه الهدية، لا سيما وهو قد كان متفوّقاً على سائر الطلاب بعلمه الغزير وفهمه العميق.

«ولكن الشيخ ذاكر كان فقيراً عاثر الحظّ في الحياة، وكانت مظاهر الفقر

المدقع بادية على ملبسه، عبقريةً في حذائه. ولدى خروجنا من القاعة، توجّه الشيخ ذاكر إلى حيث ترك حذاءه البالي لينتعله، فأشفقتُ عليه وسبقته إلى هناك وانتعلتُ حذاءه وتركت له حذائي الجديد المصقول اللامع. وقلت للشيخ ذاكر، أنتَ أهديتني كتاباً فتقبّل منّي حذاءً، وأنا الكاسب، لأن كتابك مُلِئَ علماً، وحذاءك ينضح بسيرة عالم فذّ مثلك. وأبى الشيخ عثمان أن أتنازل عن حذائي، وجرت بيننا معركة ودّيةً، وكلانا يقول للآخر: مستحيل! مستحيل أن أستردّ حذائي، ومستحيل أن يقبل هو الهدية. فواجهته بالأمر الواقع، مغادراً المكان تاركاً الشيخ عثمان عند باب الجامع حتّى لا يجدّ مفراً من قبول الهدية.

«وركبتُ مطية الكهرباء (الترام) وكان مزدحماً، وجلس قبالتي المرحوم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني (١٨٩٠ ـ ١٩٤٩) فأخذ الجميع ينظرون إلى حذائي العبقري في هلهلته، وحدجني المازني بنظرته قائلاً: ما خطبك يا صديقي عبد الكريم؟ وازدادت نظرات الركاب إلى حذائي، تكاد (تلتهمه)! وتهامس بعضهم: لا بدّ أنه تركي، فهذا الوجه الشاحب وتلك اللحية الصفراء دليلان على تركيّته. وازدادت نظرات الاشمئزاز من الرجلُ منتعل الحذاء الرثّ الحقير، فما كان منّي إلّا أن رويت للمازني قصتي مع الشيخ ذاكر، وسمع جميع الركاب ما كنت أرويه، فتحول الترام إلى مظاهرة تهتف لعبد الكريم على صنيعه.

«وتركت الترام وقلبي عامر بالغبطة لأنني أرضيت الله، وأرضيت ضميري، وبالتالي أرضيت الناس حين صنعتُ خيراً برجلٍ صنع بي خيراً كبيراً».

ويقول محمود تيمور (١٨٩٤ ـ ١٩٧٣) عن صديقه جرمانوس في فصلٍ عقده عليه «إنه بدأ حياته محبّاً للموسيقى، عازفاً على الكمان، وحسب أنه يعدّ نفسه ليكون فناناً في عالم الأنغام والألحان، على أن هواه للموسيقى أرهف من حسّه، وأذكى من خياله، فصاحب ذلك كفاحه الدراسي، فجمع بين العلم والأدب، بين الطاعة لنداء العقل، والانجذاب إلى هتاف الروح، بين الارتباط بالواقعية الكادحة والتطلّع إلى الرومانسية الحوّامة. إنه حقاً رجل دنيا ودين. إذا قصد المسجد ليؤدي فريضة الصلاة، اندمج فيها اندماج ناسكٍ مُتبتّل، وإذا تحدث إليك في علم وأدب وتاريخ، انتفضت فيه شخصية محاضرٍ مُتّزن وقور، ولكنك مع ذلك إن جاذبته حديث المفاكهة والمطايبة، رفع معك ستار الكلفة، وكان معك على خير ما تحبّ أن يكون».

كان جرمانوس يراسل أدباء كثيرين في أنحاء العالم، ولرسائله قيمة أدبية لأن صاحبها كان يُفرغ فيها كل ما يجول في خاطره من شؤون وشجون تتعلّق بالحياة الفكرية، ثم لأن شخصيته كانت تتراءى فيها بكل إنسانيتها واهتماماتها ورؤاها. وأخشى أن تكون عوادي الأيام قد عدت على هذه الرسائل لأن معظم مكاتبيه قد انتقلوا إلى رحمة الله. ولكن الأديب الأردني الدكتور عيسى الناعوري (١٩١٨ ـ ١٩٨٥) ـ وقد اجتمعت لديه اثنتان وخمسون رسالة جرمانوسية ـ قام بتنضيدها في كتيب نشره المجمع العلمي العربي الهندي في (علي كره) بعنوان «رسائل المستشرق المجري الراحل الحاج عبد الكريم جرمانوس إلى عيسى الناعوري». والرسائل بمتنها وهوامشها وشروحها تلقي أضواء ساطعة على اهتمامات جرمانوس ومشاغله وعلاقاته ومشروعاته وأوضاعه الصحية.

ولدي طائفة من رسائل جرمانوس التي كان يردّد فيها حاجته الروحية إلى التواصل مع أصدقائه لأنه ـ على حدّ تعبيره «يعيش هنا بين الكفار والملاحدة يتيماً بعيداً عن إخواني». وكان يقول: «إن كل اجتهادي الذي بذلته في سبيل الأدب العربي كان في تقديري خدمةً واجبةً عليَّ لمصلحة إخواني المسلمين العرب». وشكا في إحدى رسائله من أوضاعه الصحية قائلاً: «إنني مرضت مرضاً شديداً بتخثّر الدم في قلبي، ونقلت إلى المستشفى، وهناك لزمت الفراش بغير حركة أثناء ثلاثة أشهر، وأنا الآن أستفيق بطيئاً، وأواصل عملي الأدبي والعلمي».

وفجع جرمانوس في صديقيه محمود تيمور وطه حسين، إذ توفي الأول في الخامس والعشرين من آب (أغسطس) ١٩٧٣، وتوفي الثاني بعده بشهرين في الثامن والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣، فكتب كلمة رثاء لهما باللغة المجرية نشرها في الجريدة الحكومية «الأمة المجرية» ووافاني بقصاصة منها مع ترجمة باللغة العربية، ورجاني نشرها في مجلة «الأديب» اللبنانية التي رحبت بذلك، وكانت ترحّب دائماً بجميع آثاره، بل لقد كان يطلّ من هذه المجلة على العالم الأدبي في جميع الأمصار العربية.

لم يكن جرمانوس دؤوباً في حضور المؤتمر السنوي لمجمع القاهرة، إذ كان ذلك مرتهناً بظروفه الصحية. ولكنّه كان حريصاً على المشاركة في أعماله ببحوثٍ يعدّها مثل «مقارنة بين اللغات المجرية واللغة العربية» و«تطور علم الألسن» و«مقابلة بين المعريّ المتشائم والدكتور طه حسين المتفائل».

زار الحاج عبد الكريم القاهرة للمرة الأخيرة في عام ١٩٧٤ وأقامت له السفارة المجرية حفل استقبال ووداع ضمّ جميع أصدقائه ما عداي، لأن بطاقة الدعوة المرسلة بالبريد وصلت بعد انتهاء المناسبة وسفر المحتفى به، فضاعت عليّ بذلك فرصة توديعه.

توفي الحاج عبد الكريم جرمانوس في بودابست في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩ عن ٩٥ عاماً ويومين. وشيّعت جنازته رسمياً لأنه كان عضواً في البرلمان وفي مجامع محلية وعالمية كثيرة. وأقيم له ضريح يليق به وسط حديقة غناء. وأطلق اسمه على أحد ميادين العاصمة. ولمّا حلّت ذكرى ميلاده المئة في عام ١٩٨٤ احتفلت المجر بهذه المناسبة احتفالاً شعبيّاً، وعزفت الموسيقى التعبيرية إلى جوار ضريحه، وجيء بفتيات في عمر الزهور مرتديات الأزياء الوطنية للمشاركة في تحيّته بالأناشيد. وقررت الحكومة إعادة طبع جميع كتبه النافدة، وشارك في هذه المناسبات أدباء من البلاد العربية منهم الدكتور عيسى الناعوري الأمين العام لمجمع الأردن.

انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني ويبدأ بالحديث عن العلامة المغربي عبد الله كنّون

❁ ❁ ❁

فهرس المجلد الأول

الموضوع	الصفحة
* كلمة الناشر	٥
* مقدمة	٧
إبراهيم عبد القادر المازني	٩
إبراهيم المصري	١٨
الشاعر إبراهيم ناجي	٢٧
الشاعر إبراهيم ناجي ورابطة الأدباء	٣٤
أبو القاسم محمد كرّو: شهادة عاطفية	٤٥
أحمد حسن الزيات	٥٠
أحمد حسين	٥٧
أحمد زكي أبو شادي	٦٢
إسحاق موسى الحسيني	٧١
إسماعيل مظهر	٧٨
أكرم زعيتر	٨٣
ألبير أديب	٩٠
الشاعر المهجري إلياس فرحات	٩٧
الدكتور أمير بقطر	١٠٤
أمين نخلة	١١٠
بدوي طبانة أو هوامش على متون كتاب «فرسان الحلبة»	١١٦
الدكتور بشر فارس	١٢٦
بولس سلامة	١٣٥
جعفر الخليلي	١٤١
الشاعرة جميلة العلايلي	١٤٨
الدكتور جورج خير الله (أبو علي)	١٥٤
المستشرق جورج رنس	١٦٥

الموضوع	الصفحة

الشاعر المهجري جورج صيدح ١٧١
الشيخ حافظ وهبة ١٨٣
حبيب جاماتي ١٨٩
حبيب الزحلاوي ١٩٤
خليل تابت ٢٠٠
خليل مطران ويوسف نحاس ٢٠٧
خليل مطران ٢١٦
رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) ٢٢٦
روز أنطوان حداد: الداعية لحرية المرأة ٢٣٣
زكي قنصل ٢٣٦
زكي مبارك ٢٤٣
الدكتور زكي المحاسني ٢٥٥
ساطع الحصري ٢٦٢
سعيد تقي الدين ٢٦٨
سلامة موسى ٢٧٣
سيد قطب ٢٨٣
صلاح الدين المنجد في مصر ٢٩١
طه حسين ٢٩٨
عادل زعيتر ٣٠٧
مترجم ذو رسالة ٣١٧
عادل الغضبان ٣٢٩
عباس محمود العقاد ٣٣٥
عبد الرحمن صدقي ٣٤٤
عبد العزيز الرفاعي ٣٥١
المستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس ٣٥٧
* **فهرس المجلد الأول** ٣٦٥

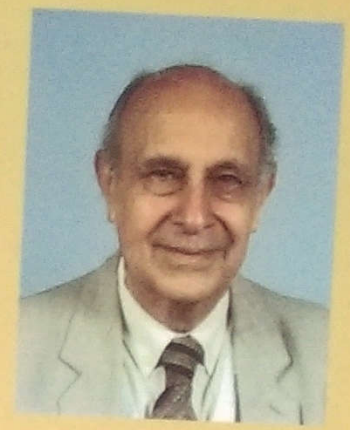

ما ينعى على أبناء هذا الجيل
افتقارهم إلى التواصل مع الأجيال السابقة،
وهو ما أجتهد في تداركه في هذه الأحاديث
بحكم خضرمتي في الحياة الأدبية،
وإن كنت بقيت على الدوام على هامشها.

وديع فلسطين

- ولد في سوهاج في صعيد مصر عام ١٩٢٣م.
- التحق بالجامعة الأمريكية قسم الصحافة وكان متميزاً في دراسته. تخرج عام ١٩٤٢م بدرجة بكالوريوس في الصحافة والأدب.
- عمل في الصحافة في مختلف فروعها وشارك في تحرير أمهات المجلات العربية كـ (المقتطف) والمقطم.
- ساهم في الكتابة في معظم الصحف والمجلات العربية في الوطن العربي والمهجر.
- إشتغل مدرساً لعلوم الصحافة في الجامعة الأمريكية على مدى عشر سنوات.
- عمل في التأليف والترجمة. صدر له أكثر من أربعين كتاباً بعضها يحمل اسمه وبعضها الآخر لا يحمل اسمه منها (قضايا الفكر في الأدب المعاصر ومختارات في الشعر المعاصر وكلام في الشعر) وثلاثة كتب في فنون الصحافة.
- ساهم في إعداد بعض الموسوعات العربية المعاصرة.
- فاز بجائزة فاروق الأول للصحافة الشرقية عام ١٩٤٩م.
- انتخب عضواً في مجمعي اللغة العربية بدمشق وعمان.
- كرم مؤخراً في ندوة الاثنينية في جدة التي يعقدها الوجيه الشيخ عبد المقصود خوجة.

0601061